

الجريمة والعقاب

فيودور دوستويفسكي

- Author : FyodorDostoevsky ♦ المؤلف: فيودور دوستويفسكي
- Title: Crime and Punishment ... ♦ العنوان: الجريمة والعقاب
- Translated by: Hassan Mahmoud ♦ ترجمة: حسن محمود
- Afaq's first edition: 2017 ♦ طبعة أفاق الأولى 2017
- Cover Design by: Amr El Kafrawy ♦ تصميم الغلاف: عمرو الكفراوي
- Publishing Consultant: Sawsan Bashir ♦ مستشار النشر: سوسن بشير
- General Supervisor : Tarek Hashim ♦ الإشراف العام: طارق هاشم



رقم الإيداع:

٢٠١٦ / ١٩٩٨٤

الترقيم الدولي : ISBN

978 - 977 - 765 - 070 - 0

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه. أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن مسبق من الناشر.

All rights are reserved. No Part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form, or by any means without prior permission in writing from the publisher.

Afaq Bookshop & Publishing House

1 Kareem El Dawla st. - From Mahmoud Basiuny st. Talaat Harb

CAIRO – EGYPT - Tel: 00202 25778743 - 00202 25779803 Mobile: +202-01111602787

E-mail: afaqbooks@yahoo.com – www.afaqbooks.com

١ شارع كريم الدولة - من شارع محمود بسيوني - ميدان طلعت حرب - القاهرة - جمهورية مصر العربية

ت: ٠١١١١٦٠٢٧٨٧ - ٠٠٢٠٢ ٢٥٧٧٩٨٠٣ - موبايل: ٠١١١١٦٠٢٧٨٧

فيودور دوستويفسكي

الجريمة والعقاب

رواية

ترجمة

حسن محمود

مراجعة

محمد فريد أبو حديد

الجزء الأول

آفاق للنشر والتوزيع

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشؤون الفنية

دوستويشسكي، فيودور.

فيودور دوستويشسكي : الجريمة والعقاب - ترجمة: حسن محمود

ط 1 القاهرة - دار آفاق للنشر والتوزيع - 2017

432 ص، 21 سم.

رقم الإيداع 19984 / 2016

الترقيم الدولي 0 - 070 - 765 - 977 - 978

1 - الأدباء

2 - دوستويشسكي، فيودور

هذه ترجمة الجزء الأول من كتاب:

CRIME AND PUNISHMENT

By

FYODOR DOSTOEVSKY

حياة دوستوفسكي

- ١٨٢١ ولد في ٣٠ أكتوبر للطبيب ميخائيل دوستوفسكي بموسكو ولد ذكر سمي فيودور.
- ١٨٣٤ ألحق الغلام بمدرسة شوماك بموسكو.
- ١٨٣٦ كان أستاذ الآداب ذا تأثير كبير على تلاميذه فبث فيهم الحماسة للشاعر بوشكين.
- ١٨٣٧ مات والدته في السابع والعشرين من فبراير.
- ١٨٣٧ التحق بكلية الهندسة.
- ١٨٣٨ قضى الصيف في معسكر وتحمس للأدباء بلزاك وهيغو وهوفمان ثم شيللر.
- ١٨٣٩ وفاة والده.
- ١٨٤١ حاول كتابة مسرحيتين لم تصلا إلينا. في ٥ أغسطس أدى امتحاناً رقى على أثره ضابطاً هندسياً.
- ١٨٤٢ ترك الكلية في ١٢ أغسطس وعين في إدارة الهندسة.
- ١٨٤٤ ترجم «أوجيني جرانديه» لبلزاك، وترجم عدة مؤلفات لجورج ساند وروسو.
- ابتدأ قصته «الفقراء».

رؤى أن صحته لا تساعد على العمل في الجيش
فشطب اسمه منه بعد أن رقي ملازمًا أول.

١٨٤٥ انتهى في منتصف مايو من قصة «الفقراء» وقرأها الأديبان
نكراسوف وجريجورفتش، ثم زاراه في منتصف الليل،
وتعرف إليه الناقد الكبير بلنسكي وابتدأ اسمه يذيع في
الأوساط الأدبية.

١٨٤٧ صدرت قصة «الفقراء».

١٨٤٨ تألفت جماعة سياسية حول پترافسكي وانضم إليها.
نشر أربع قصص قصيرة.

١٨٤٨ نشر «الزوج الغيور».

١٨٤٩ يتلو في مارس خطابًا ثوريًا كتبه بلنسكي إلى جوجول
على جمع من أنصار پترافسكي في دار هذا السيد.
في ٢٣ أبريل يقبض عليه وعلى أفراد جماعته ويعتقلون
في قلعة.

في ١٩ ديسمبر يصدر أمر بتجريدته من رتبته العسكرية.

في ٢٢ يساق دوستويفسكي وجماعته إلى ساحة الإعدام
ويقرأ عليهم حكم بإعدامهم، وبمجرد استعدادهم
للتنفيذ يأتي رسول بالعفو عنهم. واستبدال الإعدام
بالأشغال الشاقة في سجون سيبيريا.

في ٢٤ يرحل إلى سيبيريا بعد أن وضعت في قدميه
الأغلال.

في سجن مدينة أومسك. ٥٤-١٨٥٠

- ١٨٥٤ تنتهي مدة السجن ويطلق سراحه فيخدم جنديًا في سيبيريا.
- ١٨٥٥ يتبدئ قصة «دار الموتى» ويلتمس بقصيدة إلى القيصر الجديد «إسكندر الثاني» العفو عنه.
- ١٨٥٧ يسمح له بالعودة لموسكو. يتزوج.
- ١٨٥٩ يسمح له بأن يكون حرًا في العيش في أي بلد من بلاد روسيا.
- ينشر بعض القصص القصيرة. يذهب للإقامة في مدينة بطرسبرج.
- ١٨٦١ يشترك في الكتابة لمجلة. ينشر قصة «معذبون ومهانون» يبدأ صدور «دار الموتى» في المجلة.
- ١٨٦٢ تصدر «دار الموتى» في هيئة كتاب تنشر منه طبعتان. يسافر للخارج ويقيم في باريس ولندن وجنيف.
- ١٨٦٣ يبدأ قصة «المقامر» في روما. مرض زوجته.
- ١٨٦٤ يعود ويشترك في مجلة «العصر» وينشر «في ظلمات المدينة الكبيرة». وفاة زوجته. وفاة أخيه.
- ١٨٦٥ يبدأ قصة روديون رسكولنكوف «الجريمة والعقاب»، ويسافر إلى فزبادن ويزور كوبنهاجن، ثم يعود إلى روسيا حيث يتفق مع ناشر على نشرها.

- ١٨٦٥-٦٦ تصدر القصة على أجزاء في مجلة «روسكي فزتنك».
- تصدر مجموعة مؤلفاته.
- يعود لكتابة «المقامر».
- ١٨٦٧-٧١ يعيش في الخارج.
- ١٨٦٧ في درسدن يبدأ قصة «الأبله» الطبعة الثالثة لدار الموتى.
- الطبعتان الثانية والثالثة «للجريمة والعقاب».
- ١٨٦٨ نشر قصة «الأبله». فكرة الإخوة كرامازوف.
- ١٨٧٠ نشر قصة «الزوج الدائم». ابتدا «الممسوكون».
- الطبعة الرابعة «للجريمة والعقاب».
- ١٨٧١-٧٢ نشر «الممسوكون». العودة إلى بطرسبرج.
- ١٨٧٦-٧٧ نشر «مذكرات كاتب».
- ١٨٧٨ ابتدا كتابة «الإخوة كرامازوف».
- ١٨٧٩-٨٠ صدور «الإخوة كرامازوف».
- ١٨٨٠ في ٢٥ مايو تكريم الأدباء والصحفيين له في مأدبة.
- في ٦، ٧ يونيه الاحتفال بذكرى الشاعر الروسي العظيم بوشكين.
- في ٨ يونيه خطاب دوستويشسكي عنه في جمعية محبي الأدب الروسي.

١٨٨١ في ٢٨ يناير وفاة دوستويفسكي في الساعة الثامنة و٣٨ دقيقة بعد الظهر.

وفي ٣١ يناير احتفل بدفنه في جنازة عامة إلى مقره الأخير، حيث يرقد في دير إسكندر نفسكي بمدينة بطرسبرج.

تمهيد

كان دوستويفسكي في الخامسة والأربعين من عمره حينما أخذ في كتابة «الجريمة والعقاب»، وكان عندئذ في رحلة للاستشفاء خارج البلاد الروسية. فقد رحل عن بلاده في أواخر يوليو من سنة ١٨٦٥، وقصد مدينة «فزبادن» وأخذ في كتابة قصته باسم «روديون رسكولنكوف» وهو الاسم الذي اختاره للقصة في أول صدورها، حين نشرت على أجزاء في مجلة «روسكي فزتنك» الأدبية.

غير أن فكرة القصة كانت تراوده قبل ذلك بسنوات. ففي آخر مايو من سنة ١٨٥٨ - وهو لا يزال في النفس بسيبيريا - كتب إلى أخيه الأكبر ميشيل ينبئه بمساع قام بها للاتصال ببعض الأدباء الذين أنشأوا مجلات، وكيف أن أحدهم نقده مبلغا من المال على أن يكتب قصة مطولة في أي وقت يشاء. وهو يقول لأخيه إنه لن يكتب القصة التي تلوح أشخاصها في خاطره إلا بعد مغادرته سيبيريا، ويقول: «إن الموضوع

الأساسي حسن جدًا، وهو قائم على شخصية جديدة لم ترسم صورتها قط من قبل، ولكن هذه الشخصية كثيرًا ما تشاهد الآن في الحياة الفعلية بروسيا، أو هكذا يبدو لي من ظهور حركات وأفكار جديدة تملأ عقول الناس جميعًا...». وهكذا كان مولد شخصية رسكولنكوف في ذهنه، وحقًا كان قوله إنه لم ترسم صورتها قط من قبل، وقد نضيف أنه لم ترسم صورة مثلها من بعد.

ولقد ذكر في الرسالة نفسها لأخيه أنه يجب ألا يسرع في وضع هذه القصة، ورأينا فعلًا من مقارنة تاريخ الرسالة بتاريخ النشر أن القصة شغلت سبع سنوات من تفكيره قبل أن يسطرها على الورق. ولا تعجب لهذا، فذلك شأن الكثيرين من كبار المؤلفين من أمثاله، وذلك هو السبب في إبرازهم شخصيات تتدفق بالحياة. ولكن دوستويفسكي لم يكن يكتفي بالتفكير في شخصية واحدة، في وقت واحد، بل كانت نفسه تزخر بالشخصيات في كل وقت، ثم لا تلبث أن تنمو هذه الشخصيات وتنضج وتمثل كاملة تامة الخلقة.

وقد يكون من المفيد أن ننقل نبذة من الرسالة ذاتها تدل على طريقة دوستويفسكي في التأليف، فهو يقول: «يجب على المرء أيها الصديق ألا يسرع فلا يصدر غير الجيد، ولقد كتبت أنت إليّ من قبل تقول إني في الحقيقة كثير الغرور إذ أحب أن أتقدم بقصة ممتازة، ولذلك أرقد في صبر على بيضي

حتى يفسس ما هو جيد.. فليكن، وإذا كنت قد نحيث فكرة
القصة الطويلة جانباً فإني أخذت في كتابة قصتين قصيرتين
لا بأس بهما، ولا يمكن أن يقال إنني رقدت عليهما. قل لي
من أين جئت بالنظرية التي تقول إن المؤلف يجب أن يصور
صورته في الحال، وما شاكل ذلك من هراء؟ وكيف وصلت
إلى اعتناق هذا الرأي؟ صدقني إن الجهد ضروري في كل
الأمر... كل أمر يتطلب جهداً كبيراً... وإني مثلاً أكتب كل
منظر بمجرد ما يخطر لي، وأنعم به.. ثم أعمل شهوراً، بل
سنوات، في صقله وتحويره، وأستوحيه أكثر من مرة، وأنعم
بحبه، وأضيف هنا عبارة وأمحو عبارة.. وصدقني إن المنظر
يستفيد دائماً من هذا الجهد..».

إذن لقد ظل دوستوفسكي سبع سنوات يفكر
في رسكولنكوف وجريمته قبل أن يخط حرفاً. وما
رسكولنكوف - على قول مؤلفه - إلا صورة للشباب كما
كان يُرى كثيراً في الحياة الفعلية في عصره، وهي صورة ربما
تشاهد في هذا الزمان أكثر من قبل، في الحياة الفعلية لجميع
الشعوب، تحت ضغط الحاجة. هي صورة فتى ضاق بالحياة
أو ضاقت به الحياة، واسع المطامع كبير الآمال يفكر،
ويفكر طويلاً، كيف يحصل على المال لتحقيق غاياته، فلا
يهديه تفكيره المريض إلا إلى ارتكاب جريمة، بقتل امرأة
عجوز مرابية تعيش بامتصاص مجهود الناس والاستفادة
من حاجتهم إليها. وتم له ارتكاب هذه الجريمة، بل ارتكاب

جريمتين، وتم له الحصول على المال، ولكن شيخ إثمه،
بقتل نفس بشرية، لا يزال يطارده حتى يعترف بجريمته...

الحادثة في ذاتها بسيطة تحدث كل يوم. فلا يزال
الإجرام في صوره المختلفة ملازمًا للمجتمع ملازمةً تكاد
تكون يومية، ولا يزال قتل النفس البشرية كثير الوقوع، ولكن
البديع العظيم حقًا لدى دوستوفسكي هو تصوير الجريمة
وتأثيرها في نفس القاتل على الصورة التي رسمها في وضوح
وجلاء، وتحليل دقيق كما فعل دوستوفسكي، وكأنه جراح
عالم قبض على نفس القاتل، وأخذ يشرّحها بسلاحه، ويضع
أجزاء منها تحت المجهر ليتبين سرها ويقف على مكنونها.
ويقول الناقد الروسي والروائي الكبير مرزكوفسكي في
وصف مقدرة دوستوفسكي على ذلك: «إن القارئ ليقف
دهشًا من قدرته الفائقة على معرفة كل شيء، واختراقه ضمير
شخص غريب عنه.. فكثيرًا ما نرى في كتاباته صورة من تلك
الأفكار التي تنزوي في أعماق أنفسنا ولا نبوح بها للصديق،
بل لا نحب أن نجهر بها لأنفسنا».

ويقارن الأديب الكبير ثوماس مان بين خبرة
دوستوفسكي بالنفس البشرية، وبين خبرة أديب كبير من
الكتاب الفرنسيين الحديثين هو مارسيل بروست، الذي ذاع
صيته لتعمقه في تحليل النفس فيقول: «إن تدقيقات الفرنسي
وتحفه وعجائبه وزخارفه التي تمتلئ بها مؤلفاته تبدو كأنها
وضعت للتسلية إلى جانب الكشف الفظيعة والإيحاءات

التي يكشف عنها دوستويفسكي... فهو رجل عاين فعلاً
جهنم!».

أذكر أنني عندما قرأت قصة «الجريمة والعقاب» لأول
مرة، وكنت عندئذ فتى في ريعان الشباب، لم أقطع ثلاثة
فصول منها حتى نحت قصة جانباً لشدة ما انتابني من
ذعر، ولم أنم ليلتي، وظللت شهراً أو أكثر لا أمشي في
طريق مقفر أو مظلم إلا تلفت من حولي، أتخيل كل عابر أنه
رسكولنكوف قد أتى من جريمة أو لعله يسير إلى جريمة..
فعزمت على أن أعدل عن تكملة القصة، ولكني كنت أعلم
أنني لا أستطيع إلا إتمامها. فلما هدأت نفسي قليلاً عدت
إليها، ثم لم ألبث أن انقطعت على إتمامها، إذ عاد إليّ هذا
الشعور الذي كان أشبه شيء بالعلة، وهكذا قرأت هذه القصة
العظيمة على مرات!

وبعد قراءاتي العديدة وتقدمي في السن، عرفت قيمة
هذا العمل الذي كتبه دوستويفسكي، وتبين لي أن الكتاب
الذين جاءوا حتى بعد كشف فرويد لدخائل النفس الإنسانية،
إذا قورنوا بدوستويفسكي وفنه، ما هم إلا أقزام.

حسن محمود

القسم الأول

(١)

في مساء يوم شديد الحرارة لدرجة غير معتادة في الأيام الأولى من شهر يوليو، خرج شاب في آخر النهار من الغرفة الضيقة التي يستأجرها بفراشها، واخترق شارع «س»... وسار مبطئًا كالمتردد، قاصدًا جسر «ك»...

وتمكن من تجنب لقاء صاحبة المنزل وهو نازل في الدرج، فهو يسكن غرفة صغيرة مستقطعة من السطح في عمارة ذات خمس طبقات وهي أشبه بالخزانة منها بالغرفة. وكانت السيدة التي يستأجر منها تلك الغرفة تدبر له طعامه وخدمته، وتقيم في الطابق الذي تحته، فكلما نزل من غرفته اضطر إلى أن يمر أمام مطبخها، وبابه دائمًا مفتوح على السلم، فكان يحس إذا مر على ذلك الباب بما يشبه الخوف والتعب، مما يبعث فيه الحنق والخجل من نفسه. ذلك بأنه كان غارقًا في دين لصاحبة الدار ويخشى أن يراها.

ولم يكن بطبعه جباناً ولا وغداً، بل لعله من أبعد الناس من ذلك، غير أنه كان منذ حين في حالة ضيق وتوتر عصبي كادت تبلغ به حد المرض، فانطوى على نفسه واعتزل أصحابه وصار يخشى أن يقابل إنساناً كائنًا ما كان فضلاً عن صاحبة غرفته. ولكن الفقر طحنه طحنًا حتى صار القلق الذي يساوره لا يثقل عليه كأنه ألفه، وأصبح منذ حين لا يعبأ بشيء ولا يهتم لأمر من أمور الحياة، بل لا يحب أن يفكر فيها. فلم يعد في مثل هذه الحال يخشى شيئًا قد تتجه به صاحبة البيت إليه. على أنه كان لا يحب أن تستوقفه على الدرج، ولا أن تصدع سمعه بتفاهات أحاديثها المضطربة، ولا بمطالبتها بالنقود، ولجأيتها في ذلك، وشكواها وتهديدها، فقد كان ذلك يضطره إلى كد ذهنه في اختلاق المعاذير والمداراة والكذب. ولهذا يؤثر أن يتسلل كالهر، ويفر بغير أن تراه.

على أنه ما كاد يخرج من الدار في ذلك المساء حتى تنبه إلى خوف شديد جائم في أعماقه، وعلت شفثيه ابتسامة غريبة، وقال في نفسه: «لست أدري كيف يريد مثلي أن يقدم على تلك المغامرة، ثم يخشى مثل هذه التفاهات الحقيرة؟ لقد صدق من قال: إن الإنسان يقبض بيديه أحيانًا على ما يريد، ثم يحمله الجبن على أن يدعه ينفلت من بين يديه، ولست أدري أي الأمور أشد رهبة للنفس، وأغلب ظني أن الإقدام على مغامرة جديدة، والجهر برأي جديد، هما أشد ما يرهبه الإنسان. ولكني أتكلم كثيرًا، ولعلي لا أعمل شيئًا لأنني أكثر من الكلام، أو لعلي أتكلم كثيرًا لأنني لا أعمل شيئًا. لقد مر بي شهر قابعًا في جحري أقضي أيا ما أفكر في ترهات لا تجدي شيئًا. لم خرجت في هذه الساعة، وماذا أقصد بذهابي إلى هناك؟ وهل أستطيع حقًا أن أنفذ ما عزمت عليه؟ طبعًا لا، فإنما هي خيالات أتلهي

بها أو الأعيب أعبت فيها. أجل، ما هي في أغلب ظني سوى الأعيب...».

وكانت الحرارة شديدة خائقة، والزحام في الشارع شديداً، وحيث سار رأى الجير والأخشاب، وقوالب الطوب والغبار، وحيثما اتجه شم تلك الرائحة التي كانت تعبق في الصيف ويألفها من أهل بطرسبرج من يعجزون عن النزوح إلى الريف. كان كل ذلك يزيد أعصاب الشاب توترًا، فضلاً عن الروائح المتصاعدة من الخمارات الكثيرة في الحي والمخمورين الذين يلقاهم عند كل خطوة، مع أن اليوم لم يكن يوم عطلة. كل ذلك يزيد المنظر بؤساً وقبحاً، فاجتاحت وجه الفتى الوسيم مسحة من ضيق عنيف. ولنذكر هنا أن الشاب كان حسن الصورة، فله قامة تطول أو ساط الناس، وهو متين البناء، نحيف ممشوق القوام له شعر أصفر قائم، وعينان واسعتان سوداوان.

ولم يلبث الفتى أن نسي ما حوله واستسلم لتفكير عميق، أو قل إنه استسلم إلى شيء يشبه عدم الشعور. وسار وهو لا يرى شيئاً مما حوله، أو لعله سار بغير أن يلتفت إلى شيء مما يجري حوله، وبين حين وحين يتمتم بكلمات مبهمة، وتلك عادته: أن يخاطب نفسه، وكان منذ لحظة يعترف لها بما يدور في خلده، وفي مثل تلك اللحظات يشعر بما يساوره من اضطراب وبما ينتابه من ضعف شديد، ولا تنس أنه لم يكد يأكل شيئاً منذ يومين.

وكان يلبس ثياباً حقيرة، لو أن غيره في مكانه - مع اعتياده الفقر - لتردد في الخروج بها نهاراً. أجل، إن الثياب البالية لا تكاد تسترعى النظر في ذلك الحي، فإن قرب ساحة التبين منه، وكثرة الدور الويلة فيه، وانتشار العمال وأرباب الحرف في تلك الشوارع والحارات في قلب مدينة بطرسبرج، كل ذلك لا يدع مجالاً للعجب من شخص زري الثياب؛ ولكن نفس الشاب

تفيض حنقًا وازدراء للناس، فلم يعبأ بما يحتفل به الشباب عادة من التأنق، ولم يخجل من السير في أسماله البالية. فإذا لقي أحد أصحابه أو زملائه السابقين في المدرسة- وكان لا يحب رؤيتهم- شعر شعورًا آخر.

ومع ذلك فقد اتفق أن مر به مخمور يركب عربة كبيرة يجرها حصان يقصد مكانًا ما، فإذا هو يصيح به بأعلى صوته ويشير إليه قائلاً: «أنت يا بائع القبعات الأجنبي!» فوقف فجأة ورفع يده إلى قبعته بحركة مضطربة، وكانت مستديرة عالية ذات منظر عجيب اشتراها من محل زمرمان، وهي رثة بالية تمزقت حافتها، ولطختها الأدران، وهي مائلة فوق رأسه إلى جانب في صورة منكرة، ولم يكن الشعور الذي انتابه خجلًا بل كان أقرب إلى أن يكون خوفًا.

وتتمم مرتبكا: «كنت أعرف ذلك، وقلته لنفسي، وما أشنع هذا الذي أفعل. فإن خطأ صغيرًا أو فلتة ضئيلة لا يلتفت الإنسان إليها قد تجر عليه الخيبة، وتعود عليه بأوخم العواقب. فهذه القبعة مضحكة وهي بغير شك تلفت الأنظار، وكان يجب عليّ مع ما ألبسه من ثياب مهلهلة أن أتخذ لنفسني قلنسوة عمال ساذجة قدرة لا هذه القبعة الفظيعة التي لا يلبس أحد مثلها. فمثلها تسترعى الأنظار من بعيد، فإذا رآها المرء مرة واحدة فلن ينساها، وهي إذا علقت بالذاكرة كانت علمًا واضحًا، ودليلاً ظاهرًا، مع أن الواجب على من كان مثلي أن يبذل جهده في الحذر والتخفي. إن الأمور الصغيرة هي التي تفضح وهي التي تقضي على كل شيء».

وكان الموضع الذي أراد الشاب أن يذهب إليه غير بعيد، وهو يعرف عدد الخطى التي تفصل بينه وبين مسكنه- سبعمائة وثلاثون خطوة- فقد

خطر له مرة أن يعدها وهو غارق في أحلامه، وكان عند ذلك لا يظن أنه قد يحقق تلك الأحلام، بل ينجذب إليها لما تنطوي عليه من جراءة فظيعة. ولكنه بعد أن قضى شهرًا يهيم فيها، بدأ ينظر إليها نظرة أخرى، فأحيانًا يحدث نفسه ساخرًا منها ويتهمها بالعجز والتردد، ولكنه يعود إلى أحلامه الفظيعة ويراهها مغامرة عظيمة جدية بأن يقدم عليها، وإن كان في وعيه لا يصدق أنه يجرؤ حقًا على اقتحامها.

وفي ذلك اليوم يريد أن يتمرن على التنفيذ، ويعد نفسه له كما يفعل الممثل. وكانت مشاعره تزداد اضطرابًا مع كل خطوة: فقلبه يزداد خفقانًا، وحلت بجسده رعدة عصبية وهو يقترب من دار كبيرة تطل إحدى واجهتيها على القناة، وتطل الأخرى على شارع «ن».. وكانت الدار مقسمة إلى مساكن صغيرة يسكنها أخلاط من أصحاب الحرف من حائكي الثياب، وصانعي الأقفال، والطهاة الألمان، والفتيات اللاتي يجاهدن للعيش بما يتيسر لهن، وصغار الموظفين وغير ذلك. وكانت الحركة لا تنقطع بين ذهاب وجيئة في بابي الدار، وفي ساحتي البناء، وكان هنالك ثلاثة بوابين أو أربعة، وما كان أشد اغتباط الفتى إذ لم يقابل منهم أحدًا، فتسلل إلى سلم في يمين البناء وهو سلم مظلم ضيق، ولكنه اهتدى فيه بغير مشقة، إذ كان يعرفه من قبل، وأحس ارتياحًا لكل ما حوله، فالظلمة لا تضايقه لأنها تستره فلا يخشى فيها عين رقيب. وساءل نفسه عندما بلغ الطابق الرابع: «أبلغ مني الخوف هذا المبلغ اليوم؟ فما بالي لو جئت يومًا لأنفذ ما عزمت عليه؟».

واعترضه بعض رجال ينقلون أثاثًا من شقة يعرف أنها مسكن موظف ألماني وأسرته، فعلم من ذلك أن الألماني يخلي مسكنه، فلم يبق في الطابق

الرابع غير المرأة العجوز فقال في نفسه: «ما أحرى ذلك أن يكون نافعاً». قال ذلك وهو يديق الجرس في مسكن العجوز. وكانت رنة الجرس ضعيفة مكتومة كأنه من صفيح لا من نحاس. وهكذا الأجراس دائماً في مثل تلك المساكن الصغيرة. ولما سمع رنينه - وكان قد نسي جرسه - عادت إليه ذكرى شيء تمثل له واضحاً، فارتعش وبلغ اضطراب أعصابه عند ذلك قصاراه..

وبعد لحظات فتح الباب فتحة صغيرة، ورمقته منها صاحبة الشقة العجوز بنظرة ريبة صريحة، ولم يظهر منها في الظلام سوى عينيها الصغيرتين، ثم ما لبثت أن اطمأنت حين رأت جمعاً من الناس ينقلون الأثاث على السلم، ففتحت الباب على سعته، وخطا الشاب إلى مدخل مظلم فيه حاجز يحجب وراءه مطبخاً صغيراً، ووقفت المرأة العجوز صامته أمامه تسائله بنظرتها، وهي ضئيلة الجسم، نحيلة، في نحو الستين من عمرها، لها عيانان تلتمعان خبثاً، وأنف مدبب، وهي عارية الرأس، وشعرها لا لون له، وخطه الشيب ويلمع دهناً، وعنقها طويل كأنه رجل دجاجة تلف حوله خرقة من الصوف، وتغطي كتفيها بالرغم من الحرارة بوشاح بالٍ من الفرو، اصفرَّ لونه من القدم، وهي لا تكاد تمسك عن السعال والأنين، فنظر إليها الشاب نظرة كانت بلا شك غريبة لأن شعاعاً من الشك عاد يظهر في نظرتها.

وأسرع الشاب فانحنى قليلاً، إذ تذكر أنه يجب عليه أن يحسن معاملتها، وتمتم قائلاً: «إني رسكولنكوف الطالب، وقد جئت لرؤيتك قبل ذلك بشهر».

قالت العجوز في صوت واضح دون أن تحول عنه نظرتها المتسائلة:
«إنني أذكر ذلك يا سيديّ أذكر جيّدًا أنك جئت».

فتابع رسكولنكوف الكلام وقد ارتبك قليلاً ودهش لما بدا على
العجوز من قلة الثقة فقال: «الأمر هو أنني أعود للسبب ذاته».

وقال في نفسه وقد انتابه القلق: «لا بأس، فلعلها لا تنظر إلّا هكذا، وإن
كنت لم ألاحظ ذلك في المرة السابقة».

وسكتت العجوز حيناً كأنها مترددة، ثم ترحّزت خطوة إلى جانب
لتفسح له، وقالت وهي تشير إلى باب الغرفة: «ادخل يا سيدي» ثم سارت
خلفه.

فدخل الشاب غرفة صغيرة غطيت جدرانها بورق أصفر، وكان أمام
نافذتها بعض الأزهار، وقد تدلت عليها ستائر من القماش الشفاف ونور
الشمس الغاربة يقع عليها فيضيئها.

ومرت في خاطر الشاب فكرة سريعة، وحادث نفسه: «إذن ستكون
الشمس مضيئة عندئذ كما هي الآن»، وبنظرة سريعة أحاط بكل ما في
الغرفة محاولاً بقدر المستطاع أن يلاحظ ما فيها ويتذكر نظامها، ولكن لم
يكن بالغرفة ما هو غير عادي، فالأثاث قديم جدّاً وهو من الخشب الأصفر
اللون، مؤلف من أريكة لها ظهر منحني من الخشب السميك، وأمامها
منضدة بيضاوية الشكل، وأخرى للتزيين فوقها مرآة بين نافذتين، وقد صفت
بعض الكراسي إلى جانب الحائط وعلقت صورتان أو ثلاث رخيصة الثمن
في إطارات صفراء، وهي تمثل فتيات ألمانيات تحملن طيوراً في أيديهن؛
وكان في ركن الغرفة شمعة مضاءة أمام أيقونة، وكان كل ما في الغرفة

نظيفاً جداً وقد أحسن تلميع أرض الغرفة وأثاثها فصار كل ما فيها لامعاً.
وقال الشاب في نفسه: «إن هذا من عمل ليزا فتنا» ولم يكن بالمنزل ذرة واحدة من تراب.

وعاد رسكولنكوف إلى التفكير قائلاً في نفسه: «لا يجد المرء مثل هذه النظافة إلا في دور الخبيثات من الأرامل العجائز». وألقى نظرة متطلعة إلى ستار من القطن يغطي باباً يفضي إلى غرفة أخرى صغيرة كان فيها سرير العجوز، وصندوق كبير ذو أدراج لم يكن قد رآه من قبل، ولم يكن في الشقة غير هاتين الغرفتين.

ودخلت العجوز الغرفة ووقفت أمام الفتى كما فعلت من قبل كي تنظر إلى وجهه وقالت له: «ماذا تريد؟» فأخرج من جيبه ساعة فضية قديمة الطراز مسطحة نقشت على ظهرها كرة وفيها سلسلة من الصلب وقال: «جئت بشيء أرهنه هنا».

فقالت العجوز: «ولكن أجل رهنك الأخير قد حل، وانقضى الشهر في اليوم السابق لأمس».

فأجاب: «سأدفع لك فائدة عن شهر آخر فأمهليني قليلاً».

فقالت: «ولكن ذلك من شأني يا سيدي، فإما أن أنتظر، وإما أن أبيع ما رهنته في الحال».

فقال الفتى: «كم تقرضين على هذه الساعة يا إيونا إيفانوفنا؟».

فأجابت العجوز: «إنك تأتي يا سيدي بأشياء حقيرة لا تساوي شيئاً، وقد أعطيتك في المرة السابقة اثنين من الروبل نظير خاتمك، مع أنه يمكن شراؤه جديداً من محل الحلبي بروبيلين ونصف».

فقال الفتى: «اعطيني أربعة روبلات لقاء هذه الساعة وسأستردها منك، إنها ساعة أبي وستأتينني نقود بعد قليل».

فقالت: «إذا أحببت فإني أرهنها لقاء روبل ونصف على أن تدفع الفائدة مقدماً».

فصاح الشاب: «روبل ونصف!».

فمدت العجوز إليه يدها بالساعة وقالت: «إذن فأنت وما تشاء!».

فأخذها الشاب وقد اشتد غضبه وهمّ بالخروج، ولكنه ملك نفسه إذ تذكر أنه لا يعرف مكاناً آخر يذهب إليه، وأن له كذلك غرضاً آخر من المجيء.

وقال لها في خشونة: «إليّ بالنقود».

فبحثت العجوز في جيبها عن المفاتيح، ثم اختفت وراء الستار في الغرفة الثانية، وبقي الشاب واقفاً وحده في وسط الغرفة، وأخذ يتسمع في فضول وهو يفكر ويسمعها وهي تفتح أدراج الصندوق.

وحادث نفسه: «إنها تفتح الدرج الأعلى بغير شك! فهي إذن تحمل مفاتيحها في أحد الجيوب على اليمين، وتضم المفاتيح في حلقة من الصلب... وبينها مفتاح طوله ثلاثة أضعاف طول المفاتيح الأخرى، وفيه حروز عميقة ولا يمكن أن يكون هذا مفتاح الصندوق، ولا بد أن هنالك صندوقاً آخر أو خزانة قوية... هذا ما يجب معرفته، إن الخزانات لها دائماً مفاتيح مثل ذلك... ولكن ما أحقر كل هذا الذي يجول بخاطري!».

وعادت العجوز إلى الغرفة فقالت: «خذ يا سيدي. قلنا إن الفائدة عشرة كوبك عن الروبل في الشهر، وعلى ذلك فإني أقتطع عن الشهر مقدماً

خمسة عشر كوبك عن روبل ونصف، ولكني أقرضتك من قبل روبلين، فأنت مدين لي بفائدتهما عن الشهر المقبل وقدرها عشرون كوبك، وعلى هذا الحساب يكون المجموع خمسة وثلاثين كوبك، فيكون ما يبقى لك من رهن الساعة روبل وخمسة عشر كوبك، وهاك هي».

فقال الفتى: «ماذا؟ أصار المبلغ كله روبل وخمسة عشر كوبك؟».

فأجابت: «هو هذا...».

فلم يجادلها الشاب، بل أخذ النقود ووقف ينظر إليها ولم يتعجل بالخروج، كأنه كان يضر شيئاً يريد أن يقوله أو يفعله ولكنه لا يتبين ما يريد.

وقال في ارتباك: «قد أحضر لك شيئاً آخر بعد يوم أو يومين يا أليونا إيفانوفنا.. شيئاً ثميناً.. من الفضة. علبة سجائر أحب أن أرهاها عندك إذا ما استردتها من صديق».

فقالت: «ستكلم عنها عندئذ يا سيدي».

فقال لها: «وداعاً إذن.. أنقيمين وحدك دائماً في البيت؟ أليست أختك معك هنا؟»، وسألها هذا السؤال أثناء سيره إلى الردهة وهو يحاول جهده ألا تنم نعمته عن اهتمامه..

فقالت له: «وما شأنك في هذا يا سيدي؟».

فأجاب: «ليس لي مأرب خاص، بل أسأل لمجرد السؤال، ما أشد تسرعك!... وداعاً يا إليونا إيفانوفنا».

وخرج رسكولنكوف في ارتباك شديد كان لا يزداد إلا شدة، وتوقف مرتين أو ثلاثاً، وهو ينزل في السلم كأنما تتوارد عليه الخواطر فجأة، وما إن

وصل إلى الشارع حتى صاح: «رباه! ما أشد هذا الأمر كراهة إلى نفسي.. أأقدر؟ بل هل من المستطاع...» ثم مضى قائلاً في عزم: «لا بل هو تفكير فارغ سقيم. وكيف يدور مثل هذا الأمر الفظيع في رأسي؟ أيجرؤ قلبي على مثل هذه الخواطر القذرة؟ أجل، إنها قدرة وكريهة وحقيرة، وقد ظلمت شهراً طويلاً...».

ولكن الكلمات والعبارات لم تعبر عن اضطرابه، فإن الشعور بالاشمئزاز العميق الذي بدأ يثقل قلبه ويعذبه وهو ذاهب إلى العجوز قد بلغ غايته في تلك اللحظة وتحدد في مشاعره، حتى لم يكن يعرف ماذا يفعل بنفسه لكي يخلص مما هو فيه من عذاب، فسار على الرصيف كالرجل الذي أخذ منه الشراب لا يهتم للمارة من حوله فيصطدم بهم، ولم يتمالك حواسه إلا بعد أن بلغ الشارع الثاني، فنظر حوله ورأى أنه واقف قريباً من حانة يدخل إليها بسلم نازل من الرصيف إلى أسفل البناء الذي هي فيه.

وفي تلك اللحظة خرج من باب الحانة رجلان مخموران وأخذوا يصعدان في السلم وهما يتبادلان اللعنات ويتساندان، وتقدم رسكولنكوف ونزل في السلم دون تفكير، وكان إلى تلك اللحظة لم يدخل حانة قط، ولكنه كان عند ذلك يشعر بدوار، وتعذبه نار عطش شديد وهو في حاجة إلى شراب الجعة البارد، وعزا ضعفه الطارئ إلى حاجته للطعام، وجلس على مائدة صغيرة قدرة في ركن مظلم قدر وطلب كأساً من الجعة، وشربها في لهفة فشعر بارتياح وسرعان ما استنارت أفكاره.

وقال وقد دب فيه الأمل: «كل هذا هراء وليس في الأمر ما يدعو إلى القلق، فما هو إلا نتيجة تعب جسدي، فكوباً من الجعة وكسرة من خبز

كافية في لحظة لأن تعيد إلى الذهن صفاءه، وإلى العقل قوته، وإلى الإرادة ثباتها، وما أتفه كل هذا الذي اعتراني».

ولكنه كان بالرغم من هذا التفكير الساخر بادي الارتياح وكأن ثقلاً رُفِعَ عن كتفيه، وألقى نظرة ودية نحو الجالسين في الحانة، ولم يلبث أن خطر له خاطر غامض بأن هذا الارتياح لم يكن طبيعياً.

لم يكن في الحانة غير عدد قليل من الناس، إذ خرج منها جماعة مؤلفة من نحو خمسة رجال وفتاة معهم آلة عزف فضلاً عن المخمورين اللذين رآهما عند المدخل، فصارت الحانة بخروجهم هادئة تكاد تكون خالية، ولم يبق فيها غير رجل يظهر أنه صانع أخذ منه الشراب، وإن لم يصل إلى نهاية السكر، وكان جالساً أمام إناء من الجعة، مع رفيق ضخم الجثة، ذي لحية بيضاء، يرتدي سترة قصيرة كثيرة الأزرار، وكان قد سكر ونام على المائدة، وهو بين حين وآخر يفرقع أصابعه، وكأنه يفعل ذلك في منامه، وقد مد ذراعيه، وبدأ أعلى جسده المليء يتطوح حول المنضدة، وكان بين حين وآخر يرفع عقيرته بغناء لا معنى له كأن يقول:

وأحب زوجته طوال العام وأحب زوجته... طوال.. العام
أو يصحو فجأة وينشد:

قد سار يخترق الجموع وقد رأى تلك التي كان الفؤاد يحبها
ولكنه لم يجد من يشاركه في غبطته، فإن رفيقه الصامت كان ينظر متأففاً في حلق إلى ما كان يبدو منه. وكان في الحانة رجل آخر كأنه كاتب من كُتَّاب الدولة متقاعد وهو يجلس وحده يرتشف بين حين وآخر خمراً من قدحه ويقلب بصره فيما حوله ويظهر عليه شيء من الاضطراب.

(٢)

لم يكن رسكولنكوف يألف المجتمعات، وقد ذكرنا من قبل أنه كان يتجنب كل نوع منها لا سيما في المدة الأخيرة، ولكنه شعر فجأة بالرغبة في أن يجتمع بالناس وكأن شيئاً جديداً أخذ ينفذ إلى نفسه، فبدأ يشعر بتعطش نحو الرفاق، إذ بلغت منه الملالة والوحشة بعد شهر كامل من الضيق والقلق، حتى أنه صار يتوق إلى أن يعيش ولو لحظة في عالم آخر يذوق فيه الاطمئنان مهما كان هذا العالم. ولهذا أحس أنساً لوجوده في الحانة مع قذارة كل من كان وما كان فيها.

كان صاحب الحانة في غرفة أخرى، ولكنه كان كثيراً ما ينزل من سلم إلى القاعة الكبرى، وأول ما يبدو منه حذاءه الطويل ذو اللون البهيج والبطانة الحمراء، وقد ثني من أعلاه، ثم يبدو بعد ذلك شخصه وهو يرتدي سترة طويلة وصداراً من الحرير الأسود القذر ولا يضع ربطة حول رقبته،

ويبدو وجهه كأنه مدهون بالزيت كقفل من الحديد، وكان يقف على منضدة الخدمة صبي في الرابعة عشرة من عمره، ويخدم الجالسين صبي آخر أصغر منه قليلاً، وعلى منضدة الخدمة خيار مقطّع وكسر من الخبز الأسود الجاف، وبعض الأسماك قطعت قطعاً صغيرة وفاحت منها رائحة نتن، وكان المكان مكتوماً، وقد عبق برائحة الخمر حتى أن خمس دقائق في جوه قد تسكر الرجل بلا خمر.

كثيراً ما يقابل المرء أناساً غرباء عنه يهتم لهم منذ اللحظة الأولى قبل أن يبادلهم كلمة واحدة، وهذا هو الأثر الذي شعر به رسكولنكوف نحو الشخص الجالس على مسافة قريبة منه وكأنه كاتب متقاعد، وقد بقي هذا الأثر عالقاً في ذهنه، بل لقد وقع في روعه فيما بعد أن ذلك الأثر من قبيل الحس بالغيب.

وجلس يعيد النظر إلى الكاتب كرّة بعد كرّة، وقد يكون بعض السبب في هذا أن الشخص الآخر كان يحدق فيه ولا يكاد يرفع بصره عنه، وكان من الواضح أنه كان يرغب في أن يجاذبه الحديث، ويظهر أن ذلك الكاتب كان قديم العهد بجلوس الحانة وبصاحبها حتى سئم من أحاديثهم. وكان يظهر في مسلكه نحوهم شيئاً من التعالي كأنه يشعر بأنهم أشخاص أقل منه منزلة وثقافة، وأنه لا يجمل بمثله أن يتحدث إليهم، وكان رجلاً قاربت سنه على الخمسين، أصلع الرأس مبيض الشعر متوسط القامة يميل إلى السمنة وقد تضخم وجهه لإدمانه الخمر، على أن لون وجهه كان أصفر يميل إلى الخضرة، وجفون عينيه متورمة تلمع من بين فتحتيهما عينا حمران حادّتان يلاحظ فيهما شيء غريب كأن نوراً من الإحساس العميق

يشع منهما، بل لقد كان فيهما ما يشبه بريق التفكير والذكاء أو بريق شيء كأنه الجنون.

وكان يرتدي سترة عتيقة ممزقة سوداء لم يبق فيها من الأزرار غير زر واحد، وقد ضم صدرها بهذا الزر الواحد كأنه يحتفظ به كآخر أثر من مظاهر الوقار، وكان صدره من قماش أشبه بالخيش يظهر من تحته قميص غير مكوي عليه بقع من الوسخ. وهو - كشأن الكتّاب - حليق اللحية والشارب، ولكنه لم يحلق شعر وجهه منذ زمن مديد فبدأ أشبه بفرشاة قوية الشعر رمادية اللون، ومع هذا فقد كان في مسلكه شيء من التوقر الذي يتسم به موظفو الحكومة، ولكنه كان كثير الحركة يشد شعره أحياناً ثم يعود من وقت إلى آخر فيضع رأسه بين يديه كأنه في حالة من القنوط ويسند ذراعيه إلى المنضدة القذرة. ثم نظر إلى رسكولنكوف آخر الأمر قائلاً في صوت عال ونغمة ثابتة:

«هل تسمح لي يا سيدي المفضل أن أدخل معك في حديث مؤانسة؟ إذ إن مظهرك - وإن كان لا يبعث على الاحترام - ينم في نظري على أنك رجل متعلم لم تتعود الشراب، وأنا دائماً أحترم التعليم عندما يكون مصحوباً بعواطف صادقة، ولقد كنت موظفاً في وظيفة، رئيس إدارة.. مرملا دوف.. هذا هو اسمي.. رئيس إدارة، فهل أجروا على سؤالك عما إذا كنت تعمل في الحكومة؟».

فأجاب الشاب وقد عراه بعض الدهش من الأسلوب الفخم الذي تكلم به المتحدث، كما دهش لتوجيه مثل هذا الكلام إليه بغير تمهيد، فقال: «كلا، إني لا أزال أدرس». ومع أنه كان منذ قليل يحس رغبة طارئة

في الانتعاش بمجالسة إنسان كائنًا ما كان، فإنه ما كاد يبدأ الحديث حتى شعر بكرامية وثار فيه حنقه على كل غريب يحاول أن يقترب منه.

وصاح الكاتب: «إنك إذن طالب أو كنت طالبًا، هذا ما ذهب إليه ظني، فأني رجل ذو تجارب - تجارب واسعة يا سيدي» ومس جبهته بأنامله علامة الرضا عن نفسه.. «كنت طالبًا أو حضرت دروسًا في معهد.. إذن فاسمح لي...» وقام من مكانه وهو يترنح ويحمل زجاجة شرابه وقدحه، فجلس أمام الشاب منحرفًا عنه، وكان الشراب قد أخذ منه، ولكنه كان يتحدث في طلاقة وجرأة لا يكاد يفقد خيط العبارات، ويمط ألفاظه وقد هجم على رسكولنكوف في نهم كأنه هو أيضًا لم يتحدث لإنسان منذ شهر.

وابتدأ حديثه في لهجة جدية قائلاً: «سيدي المبجل، ليس الفقر برذيلة، هذا حق، ولكنني أعرف أيضًا أن السكر ليس بفضيلة، وهذا أصدق من الأول، ولكن الحاجة يا سيدي، الحاجة هي الرذيلة. فقد تحتفظ مع الفقر بنبل النفس، ولكنك لا تستطيع مع الحاجة أن تحتفظ به أبدًا، فالمحتاج يطرد من أجل حاجته طردًا من الهيئة الاجتماعية، ولكنه لا يطرد بالعصا بل يكنس كنسًا بالمكنسة كي تكون مهنته أوجع وأنكى، وهذا حق أيضًا لأن المحتاج التعس هو أول من يحط من قدر نفسه، وهذا هو السبب في ارتياد الحانات. حدث منذ شهر يا سيدي الفاضل أن ضرب السيد ليزيانكوف زوجتي، وهذه الزوجة تختلف عني كل الاختلاف، أتفهمني؟ اسمح لي أن أسألك سؤالًا آخر لمجرد الفضول: هل قضيت مرة ليلة على قارب محمل بالتبن فوق نهر النيفا؟».

فأجاب رسكولنكوف: «لا، لم أفعل! ماذا تقصد؟» فمضى الرجل

قائلاً: «إني آت الساعة من أحد هذه القوارب، وقد قضيت فيه خمس ليال...» ثم ملاً قدحاً وأفرغه في جوفه وسكت لحظة، وكانت قطع من التبن حقاً لاصقة بملابسه وبشعره، ومن الراجح أنه لم يخلع ثيابه ولم يغتسل في هذه الأيام الخمسة الأخيرة، ويداه تسترعيان النظر بقذارتهما، وهما غليظتان حمراوان ولهما أظافر سوداء.

ويظهر أن حديثه أثار شيئاً من الاهتمام، وأخذ الصبيان وهما واقفان وراء منضدة الخدمة يتغامزان، ونزل صاحب الحانة من الغرفة العليا قصداً لسماع حديث هذا الشخص المضحك، وجلس على مقربة وهو يتشاءب في تراخ يشوبه التعاطف. ومن الواضح أن مرملاذوف كان معروفاً في المكان، ولعل ميله نحو العبارات المنمقة نشأ من عادة تجاذب الحديث في الحانة مع الأغراب من كل نوع، فإن هذه العادة تصبح ضرورة لدى بعض السكيرين، ولا سيما من يكون منهم مكبوتاً في بيته، فيجدون في صحبة إخوان الشراب ما يرضيهم عن أنفسهم إذ يحسون أنهم يفوزون برضاء الناس عنهم.

وقال صاحب الحانة: «إنك رجل عجيب! لماذا لا تعمل ولا تقوم بواجباتك إذا كنت لا تزال في الخدمة؟».

فمضى مرملاذوف في حديثه قائلاً: «لماذا لا أقوم بواجبي يا سيدي المفضل؟» وكان يتجه إلى رسكولنكوف وحده كأنه هو السائل.. «لماذا لا أقوم بواجبي؟ ألا يتألم قلبي حينما أفكر في أنني لا أزيد على حشرة غير نافعة؟ ألم أتألم عندما ضرب السيد ليزياتنكوف زوجتي وأنا ملقى تحت تأثير الخمر؟ اسمح لي أيها الشاب، ألم يحدث لك أنك... حاولت أن

تقترض نقودًا بغير أمل؟».

فقال الفتى: «نعم حدث، ولكن ماذا تقصد بقولك بغير أمل؟».

فأجاب الرجل: «إنني أقصد هذه العبارة بمعناها الكامل، أي إنك تعرف قبل الطلب أنك لن تحصل على شيء، فأنت تعرف مثلاً من قبل معرفة مؤكدة أن هذا الرجل، هذا المواطن المعروف المثالي في مسلكه لن يعطيك نقودًا بأية حال.. بل إنني أسألك: لماذا يعطيني وهو يعلم بلا ريب أن هذه النقود لن ترد إليه؟ فهل يعطي من باب الشفقة؟ لكن السيد ليزياتنكوف الذي يعلم الآراء الحديثة بين لي منذ أيام أن العلم الحديث نفسه يحرم الشفقة، وهذا هو الشأن في إنجلترا في هذه الأيام التي يؤمنون فيها بعلم الاقتصاد السياسي، فأنا أسألك: لماذا يعطيني نقودًا؟ ولكن بالرغم من أنني أعرف من قبل أنه لن يعطيني فإني قصده و...».

وقاطعه رسكولنكوف سائلًا: «إذن لماذا ذهبت؟».

- نعم، إذا لم يجد المرء أحدًا ولا مكانًا يذهب إليه. فلا بد لكل إنسان من أن يكون له من يقصده، إذ لا بد من أن يضطر الإنسان في بعض الأحيان إلى أن يجد ملجأ يقصده، وعندما خرجت ابنتي لأول مرة بالتذكرة الصفراء، اضطررت إلى الذهاب معها (لأن لابنتي تذكرة صفراء)..

وكان يقول هذه الكلمة المعترضة وهو ينظر بشيء من القلق نحو الشاب، ثم استمر فقال: «ليس هذا مهمًا يا سيدي، ليس هذا مهمًا!» قال هذا في سرعة وهدوء ظاهر، على حين ضحك الصبيان من وراء منضدة الخدمة وابتسم صاحب الحانة، ومضى الرجل قائلاً: «هذا لا يهم ولا يخجلني هزهم لرؤوسهم؛ لأن كل إنسان يعرف هذا الأمر وكل ما كان

سرًا قد صار علنًا، وأنا أقبل هذا جميعه في احتقار ولكن في خضوع. ليكن ذلك! ليكن ذلك! انظر إلى الرجل!! معذرة أيها الشاب، هل تقدر... بل أقول لك ما هو أشد وأكثر وضوحًا، لا أقول هل تقدر، بل هل تجرؤ وأنت تنظر إليّ ألا تؤكد أنني خنزير؟».

ولم يجب الشاب بكلمة.

وعاد الخطيب فاستأنف حديثه في قوة، بل في عظمة متزايدة بعد أن انتظر هدوء الضحك الذي عم المكان: «إذن، فليكن! إني خنزير! ولكنها سيدة! إني مثل الحيوان، ولكن كاترينا إيفانوفنا زوجتي امرأة متعلمة، وهي ابنة أحد ضباط الجيش! أسلم... أسلم بأني وغد، ولكنها امرأة نبيلة القلب مليئة بالعواطف هذبها التعليم، ومع ذلك... لو أنها كانت ترق لي أيها السيد المفضل، أيها السيد المفضل! إنك تعلم أن كل إنسان في حاجة إلى مكان يجد فيه على الأقل شفقة عليه، ولكن كاترينا إيفانوفنا امرأة غير عادلة بالرغم من سمو روحها... ولو أنني واثق من أنها عندما تشد شعري فإنها تفعل ذلك شفقة بي - لأنني أكرر دون خجل أنها تشدني من شعري أيها الشاب»، وكان ينطق بآخر كلماته في وقار مضاعف إذ سمع ضحك الحضور، ثم مضى قائلاً: «ولكن رباه! لو أنها يومًا... ولكن لا لا، كل هذا باطل ولا فائدة من الحديث، لا فائدة من الحديث، فقد حدث مرارًا أن حققت رغبتني ورقت عليّ ولكن... هذا قضائي فأنا وحش بالطبيعة».

فقال صاحب الحانة وهو يتشاءب: «طبعًا...»، ولكن مرملادوف قرع المنضدة بقبضته في ثبات وقال:

«هذا قضائي الذي قدر عليّ نعم! أتعرف يا سيدي، أتعرف أنني

بعت جواربها من أجل الشراب؟ لم أذكر حذاءها لأن ذلك أمر طبيعي، ولكنني بعت كل شيء حتى جواربها. بعت شالها الصوف الفاخر، وهو مهدي إليها من زمن بعيد، فهو ملك لها وليس ملكاً لي، ونحن نعيش في غرفة باردة، وقد أصابها البرد في هذا الشتاء فأخذت تسعل وتبصق دماً! إن لنا ثلاثة أطفال صغار وكاترينا إيفانوفنا تعمل من الصباح إلى الليل، فهي تمسح أرض الغرفة وتنظف وتغسل الأطباق وتُحمّي الأطفال لأنها اعتادت النظافة منذ الطفولة، ولكن صدرها ضعيف وعندها استعداد للسيل. إنني أشعر بذلك. أنتظن أنني لا أشعر؟ وهذا هو السبب في أنني أسكر، وبالشراب أزداد شعوراً فأحاول أن أجد الحزن والعطف في الشراب... إنني أشرب لكي يكون ألمي مضاعفاً». ووضع رأسه فوق المنضدة كأن اليأس قد غلبه.

ثم عاد فرفع رأسه واستمر في حديثه قائلاً: «أيها الشاب، إنني أقرأ آثار المتاعب في وجهك. قرأتها منذ دخولك، وهذا هو السبب في أنني أردت محدثتك. وإنني لا أبسط قصة حياتي أمامك لكي أجعل نفسي أضحوكة أمام هؤلاء الحاضرين المتطفلين فهم يعلمونها، ولكنني أبحث عن رجل ذي شعور ونبل، فلتعلم إذن أن زوجتي تعلمت في مدرسة داخلية لبنات النبلاء، وعندما غادرت المدرسة رقصت رقصة الشال أمام الحاكم وغيره من الشخصيات فمُنحت نوطاً ذهبياً وشهادة بالتفوق. أما النوط.. فمن الطبيعي أنه بيع - منذ زمن مديد، ولكن شهادة التفوق ما تزال موجودة في حقيبتها، وقد أرتها منذ وقت قصير لصاحبة الدار، فهي تحب أن تفضي إلى أحد من الناس بما مر بها من أيام سعيدة. ولست أستبج عملها ولا ألومها على ذلك إذ لم يبق لها إلا ذكرى الماضي، وقد أصبح كل ما عدا ذلك هباء!

«نعم! نعم! إنها امرأة نشيطة ذات كبرياء. وغريبة، إنها تسمح أرض الغرفة ولا تأكل غير الخبز الأسمر، ومع ذلك لا تسمح لأحد بأن يعاملها معاملة خالية من الاحترام، وهذا هو السبب في أنها لم تتحمل خشونة السيد ليزياتنكوف، فعندما ضربها لزمّت فراشها وكان ما أصابها من جرح في إحساسها أشد عليها من تأثير الضربات! لقد كانت أرملة عندما تزوجتها ولها ثلاثة أطفال كل منهم يكبر الآخر. تزوجت زوجها الأول وهو ضابط من المشاة، أحبته وقرّت معه من منزل أبيها. وكانت تحبه حبًا شديدًا، ولكنه كان مقامرًا يلعب الورق، فحلت به المتاعب ثم مات، وكان في آخر الأمر يضرّ بها. حقًا أنها كانت تقابله بالمثل، ولديّ الوثائق التي تثبت ذلك، إلا أنها حتى اليوم لا تتكلم عنه إلا والدموع تنحدر من عينيها، وهي توازن بينه وبينني، وإني لسعيد بأن تشعر أنها كانت ذات مرة سعيدة، ولو كان ذلك من نسيج خيالها...».

«وقد تركها عند موته مع أطفالها في جهة بعيدة نائية اتفق أني كنت أعمل بها في ذلك الوقت، وكانت في حالة من الفقر المدقع لا أستطيع أن أصفها لك مع كل ما مرّ بي من حلو الحياة ومرها، فقد تبرأ منها كل أقاربها، وهي متكبرة مغالية في كبريائها. وعندئذ، عندئذ يا سيدي المفضل كنت أرمل ولي ابنة في الرابعة عشرة من عمرها من زوجتي الأولى. فممدت يدي إليها لأنني لم أحتمل رؤية مثل هذه الآلام، ويمكنك أن تتصور مبلغ بؤسها من أنها- وهي امرأة متعلمة ومن أسرة عريقة- وافقت على أن تكون زوجًا لي.. ولكنها فعلت وهي تبكي وتتنهد وتقرع يداً بيد، وقد تزوجت مني إذ لم يكن لها مكان تأوي إليه.. هل تفهم يا سيدي؟ هل تفهم ما معنى ألا يجد المرء مكانًا يأوي إليه؟ لا، إنك لا تعلم هذا بعد...».

«وظللت سنة أقوم بواجباتي في إخلاص وفي دقة، وكنت لا أقرب هذا» ونقر على إناء الخمر بأصابعه «لأنني رجل ذو ضمير، ومع ذلك لم أستطع إرضاءها. ثم فقدت عملي، لا بسبب خطأ ارتكبته ولكن بسبب الاقتصاد في المناصب، وحينئذ عدت إلى الخمر... وبعد رحلات متعددة وكوارث شتى حللنا في هذه العاصمة العظيمة التي تزينها معالم آثار لا حصر لها. وهنا وجدت عملاً.. وجدته ولكني لم ألبث أن فقدته! هل تفهم؟ في هذه المرة فقدته بسبب خطأي، فقد ظهرت نقطة الضعف فيّ. ونحن نقيم الآن في مكان حقير لدى أماليا فيدورفنا ليقكسل. ولا أستطيع أن أصف لك كيف نعيش ولا كيف ندفع أجرة المنزل. وهناك سكان كثيرون يعيشون مثلنا في هذا المسكن، في كل مكان تجد القذارة والفوضى وكأننا في دار للمجانين.. نعم.. وفي هذه الأثناء كبرت ابنتي من زوجتي الأولى، ولا أصف ما تحملته من زوجة أبيها فإن كاترينا إيفانوفنا امرأة ذات شعور حي، إلا أنها امرأة سريعة الغضب حادة الطباع.. ولكن ما الفائدة من ذلك؟ إن سونيا كما ترى لم تتلق أي تعليم. لقد حاولت منذ أربع سنوات أن ألقنها دروسًا في الجغرافيا والتاريخ العام، ولكني أنا نفسي لم أكن أعلم الكثير عن هذه المواد ولم أجد كتبًا ملائمة، والكتب التي كانت لدينا.. على كل حال لم تعد لدينا كتب الآن، فلم تلبث الدروس أن توقفت ولم نتعد الكلام على (كورش) ملك فارس..».

«ولما صارت في سن البلوغ أخذت تنزع إلى قراءة القصص الخيالية، وأخيرًا قرأت باهتمام كتابًا حصلت عليه عن طريق السيد ليزياتنكوف وهو كتاب لويس في علم وظائف الأعضاء - هل تعرف هذا الكتاب؟ إنها كانت تتلو لنا نبدًا منه، وهذا كل ما تعلمته.. والآن هل أجزؤ أن أسألك يا سيدي

المفضل سؤالاً خاصاً بي؟ هل تظن أن فتاة فقيرة تستطيع أن تكسب كثيراً بالعمل الشريف؟ إنها لن تكسب خمسة عشر كوبك إذا كانت شريفة وليس لها ميول خاصة، وإن كانت لا تنقطع عن العمل لحظة...».

«وفضلاً عن ذلك فإن إيفان إيفانوفتش كلويستوك الموظف الكبير - هل سمعت عنه؟ - لم يسدد لها حتى هذا اليوم ثمن القمصان الستة التي صنعتها له، وطردها بخشونة وهو يضرب الأرض بقدميه ويلعنها زاعماً أن ياقات القمصان لم تصنع كالنموذج وأنها حيكت مقلوبة. وكان الأطفال لا يجدون ما يأكلونه... وكاترينا إيفانوفنا تضطرب ذاهبة وجائبة وهي مشبكة يديها وقد توردت وجنتاها كما يحدث دائماً للمصابين بذلك المرض وهي تقول لها: «إنك تعيشين معنا وتأكلين وتشربين وتحاطين بالدفع دون أن تعمل شيئاً لمساعدتنا»، وما أكثر ما كانت تجده من أكل وشرب، بينما لا توجد كسرة من خبز لإطعام الأطفال الصغار منذ ثلاثة أيام!».

«كنت راقداً عندئذ... ولكن ما علينا من ذلك! كنت راقداً وأنا سكران وسمعت ابنتي سونيا تتكلم (وهي فتاة رقيقة ذات صوت ناعم صغير... وشعر أشقر ووجه صغير حائل اللون) قالت الفتاة: «أحسباً تريدان يا كاترينا إيفانوفنا أن أفعل شيئاً مثل ذلك؟» وكانت داريا فرانتسوفنا - وهي امرأة سيئة السلوك معروفة لرجال الشرطة - قد حاولت مرتين أو ثلاثاً أن تصل إلى ابنتي عن طريق صاحبة البيت، فقالت لها كاترينا إيفانوفنا في سخرية: «ولم لا؟ هل بلغت من نفاسة القدر أن تحتفظي بنفسك؟» ولكن لا تلمها، لا تلمها يا سيدي الفاضل، لا تلمها فإنها لم تكن في وعيها حين قالت ذلك، بل دفعها إلى اليأس مرضها وبكاء أطفالها الجائعين، وقالت هذا القول لتجرح كبرياء الفتاة أكثر من أي غرض آخر... وهذه هي طباع

كاترينا إيفانوفنا، فهي إذا بكى الأطفال من الجوع تأخذ في ضربهم...».

«وفي الساعة السادسة رأيت سونيا تقوم وتضع منديلاً على رأسها، ودثارها على كتفيها، وتخرج من الغرفة، ثم عادت في نحو الساعة التاسعة، وقصدت إلى كاترينا إيفانوفنا، ووضعت أمامها على المنضدة ثلاثين روبل في صمت، ولم تفه بكلمة واحدة، ولم تنظر إليها، بل أخذت شالها الكبير (فإن لدينا شالاً من صوف نستعمله جميعاً) وغطت به رأسها ووجهها ونامت على الفراش، وقد اتجهت نحو الحائط، وكان كتفاها الصغيرتان ترتعدان، وجسدها يرتعد أحياناً، وظللت أنا راقداً كما كنت من قبل... فماذا رأيت أيها الشاب؟ رأيت كاترينا إيفانوفنا تذهب إلى فراش سونيا الصغير في صمت وتركع وتقبل قدميها طول المساء لا تقوم من ركعتها، ثم نامتا وقد تعانقتا... معاً، معاً... نعم... أما أنا... فكنت راقداً في سكرتي».

وتوقف مرملا دوف عن الحديث كأن صوته خافه، ثم ملأ في سرعة قدحه وشرب وتنحنح.

وتابع حديثه بعد فترة قصيرة: «منذ ذلك الوقت يا سيدي، منذ ذلك الوقت حدث ما حدث نتيجة حادث مؤسف بسبب بلاغ بعث به أناس سيئون النية- وكان لداريا فرانتسوفنا في ذلك البلاغ القسط الأكبر إذ حسبت أنها لم تعامل باحترام- منذ ذلك الوقت اضطرت ابنتي سونيا سميونوفنا أن تكون لها بطاقة صفراء، وبسبب هذا لا تستطيع أن تستمر في المعيشة معنا؛ لأن صاحبة دارنا أماليا فيودورفنا لا تسمح بذلك (ولو أنها كانت تعاون داريا فرانتسوفنا من قبل) وكذلك السيد ليزياتنكوف...»

«نعم... إن كل الخلاف بينه وبين كاترينا إيفانوفنا هو بسبب سونيا،

وكان في مبدأ الأمر يحوم حولها، ثم انقلب فجأة ليدافع عن كرامته... فقال: كيف يعيش رجل مثقف مثلي في مكان واحد مع فتاة من نوع سونيا؟ ولكن كاترينا إيفانوفنا لم تذعن ودافعت عن الفتاة، وهكذا صار الأمر إلى ما صار إليه، وصارت سونيا لا تأتي إلينا إلا في الليل فتطيب من خاطر كاترينا إيفانوفنا وتمدها بما تستطيع من مال... وهي الآن تسكن في غرفة لدى كابريانووف حائك الثياب، وهو رجل أعرج يثأثي في حديثه، وجميع أفراد أسرته الكبيرة يثأثون، وكذلك زوجته ثأثي، وهم يعيشون جميعاً في غرفة واحدة، ولكن سونيا لها غرفة مقطوعة. نعم... إنهم فقراء جداً وجميعهم يثأثون».

«وبعدئذ قمت في الصباح وارتديت خروقي، ورفعت يدي أستعين بالله، وقصدت سعادة إيفان إفسيفتش، هل تعرفه؟ لا؟ إنك إذن لا تعرف رجلاً من الأتقياء! إنه سراج من الشمع يذوب أمام الله... وقد اغرورقت عيناه بالدموع عندما سمع قصتي وقال: «لقد خيبت أمني فيك مرة يا مرملادوف... ولكني سأخذك مرة ثانية على مسؤوليتي (هكذا خاطبني) فاخرج الآن وتذكر ما أقول لك» وقد قبلت التراب تحت قدميه - فعلت ذلك في الخيال فقط، إذ إنه في الحقيقة لا يمكن أن يسمح لي بذلك لأنه رجل عظيم، ورجل ذو آراء حديثة متنورة، وعدت إلى الدار. ولا أستطيع أن أصف لك ما حدث عندما أعلنت أنني عدت ثانية إلى الخدمة وسيصبح لي مرتب...».

وتوقف مرملادوف مرة ثانية في تأثر شديد، وفي هذه اللحظة دخلت من الشارع جماعة من السكارى وسمع صوت صندوق موسيقى مستأجر،

وصوت صغير لطفل في السابعة يغني أنشودة «القرية» وهو واقف في المدخل، وامتلات الغرفة ضوضاء، وشغل صاحب الحانة وصبيه بالقامين، ولم يهتم بمرملاذوف بالحضور أقل اهتمام، واستمر في قصته، وقد ظهر عليه الضعف الشديد، ولكنه كان كلما زاد تلاعب الخمر برأسه تزايدت ثرثرته، وقد أعادت إليه نشاطه ذكرى حصوله منذ حين على عمل، وظهر ذلك واضحًا في الضوء الذي كان يشع من محياه، وأصغى إليه رسكولنكوف في اهتمام:

«كان ذلك منذ خمسة أسابيع يا سيدي... نعم! وما سمعت كاترينا إيفانوفنا وسونيا بذلك حتى كأني انتقلت بهما إلى الجنة! كنت أرقد من قبل كالحيوان لا أسمع إلا السباب، أما منذ ذلك الوقت فالمشي لا يكون إلا على أطراف الأصابع، ويجب أن يصمت الأطفال: «اسكتوا فإن سميون زهاروفتش متعب من عمله في المكتب وهو يستريح الآن!» وتصنع لي قهوة البن قبل الذهاب إلى العمل وتوضع لي القشدة ساخنة، وكانوا يأتون إليّ بقشدة خالصة، أسمع هذا؟ ولا أعرف من أين جاء المال الذي اشترت به كسوة كاملة تكلفت أحد عشر روبل وخمسين كوبك، واشتري لي حذاء ووجهة قميص من القطن - فخمة المنظر - وثياب من الزبي الخاص بالموظفين ذات منظر لائق، وبلغ ثمن ذلك أحد عشر روبل ونصفًا!»

«وفي أول يوم عندما عدت من المكتب وجدت كاترينا إيفانوفنا قد طهت نوعين من الطعام - حساء ولحمًا مملحًا مع الجزر - ولم تكن نحلم بمثل هذا الأكل إلى ذاك الوقت، ولم تكن لديها هي نفسها ثياب... لم يكن لديها أي شيء، ولكنها عنيت بنفسها كأنها ذاهبة في زيارة... لم يكن

لديها ما تتجمل به، ولكنها مع ذلك تزينت بأقل شيء فسوت شعرها، ثم وضعت على ثوبها بنية نظيفة وأكمأًا، وبذلك صارت شخصًا آخر أصغر مما كانت وأجمل منظرًا. وكانت صغيرتي سونيا هي التي ساعدت على كل ذلك بمالها، وقالت: «لا يحسن الآن أن آتي لزيارتكم كثيرًا، ولكن قد آتي بالليل عندما لا يراني أحد!» أسمع، أسمع؟ وبعد الغداء رقدت قليلاً لأرتاح، فماذا حدث؟ لقد سبق أن تشاحنت كاترينا إيفانوفنا مشاحنة شديدة مع أماليا فيودورفنا منذ أسبوع واحد، ومع ذلك فإنها لم تستطع أن تقاوم الرغبة في دعوتها لتناول شيء من القهوة، وظلنا جالستين مدة ساعتين وهما تتسارآن، وقالت لها: «لقد عاد سميون زهاروفتش إلى الخدمة فأصبح صاحب مرتب وقد ذهب إلى صاحب السعادة، ولم يجعله صاحب السعادة ينتظر، بل خرج إليه وجعل الآخرين ينتظرون، وجذبه من يده أمام الجميع، ودخل به إلى المكتب!».. أسمع؟ أسمع؟.. «وقال له إنني أذكر خدمتك السابقة يا سميون زهاروفتش بالرغم من تغلب ذلك الضعف السخيف عليك، ولكنك تعد الآن ألا تعود. إننا لم نستطع العمل بدونك».. أسمع؟ أسمع؟.. «أعتمد على كلمتك بصفتك رجلًا شريفًا!».

«ولست أكذبك أن هذه الأقوال قد ألفتها زوجتي لا لمجرد الكذب، ولا على سبيل الفخر، بل لأنها تعتقد فيها، وتحب أن تلهو بخيالاتها! أقسم لك! ولست ألومها! لا! لا ألومها... ومنذ ستة أيام عندما جئت لها بمرتبتي الأول كاملاً - وهو ثلاثة وعشرون روبل وأربعون كوبك - سمعتي دميته! نعم! قالت إنني دميته، دميته الصغيرة، وكنا منفردين، هل تفهم؟ ويعلم الله إنني خال من الجمال ولا يمكن أن تصورني زوجًا معزلاً، أليس كذلك؟.. ومع ذلك فإنها قرصت خدي وقالت لي: يا دميته الصغيرة»..

وقطع مرملا دوف حديثه وحاول أن يتسم، ولكن ذقنه بدأت تختلج فجأة في حركة عصبية، ثم تمالك نفسه، وكانت الحانة ومنظر الرجل المنهار، والليالي الخمس التي قُضيت في قارب التبن وآنية الخمر، ثم حبه العنيف لزوجته وأطفاله مما حير سامعه. فكان رسكولنكوف يصغي في اهتمام مع شعور بالألم، وقد أخذ يتضايق من أنه جاء إلى هذا المكان.

واستعاد مرملا دوف ثبات نفسه وصاح: «أيها السيد المفضل! أيها السيد المفضل! ربما بدا لك هذا باعثاً على الضحك، كما يبدو لغيرك، وربما كنت أثقل عليك بسخافة التفاصيل التافهة لحياتي المنزلية، ولكنها ليست موضوع ضحك لي فأني أشعر بها جميعاً... إنني أشعر بكل ما في ذلك اليوم السماوي من حياتي، وبكل ذلك المساء الذي أمضيته في أحلام عابرة، أدبر في نفسي كيف أرتب الأمور، وكيف أكسو الأطفال جميعاً، وكيف أتيح لزوجتي الراحة، وكيف أنقذ ابنتي من العار وأعيدتها إلى أحضان الأسرة.. وفكرت فيما هو أكثر من ذلك... ومن الطبيعي أن يفتح باب الرجاء، ولكن يا سيدي (وهنا اعترت مرملا دوف فجأة رعشة ورفع رأسه وحدث في سامعه) ولكن في اليوم التالي لهذه الأحلام، أي منذ خمسة أيام تمامًا، عمدت في المساء إلى حيلة مأكرة، فتسللت كاللص في الليل وسرقت من كاترينا إيفانوفنا مفتاح صندوقها، وأخذت ما بقي من كسبي ولا أذكر مقدار.. والآن انظروا إليّ جميعاً، إنه اليوم الخامس بعد أن غادرت داري. وهم يبحثون عني، وهذه نهاية خدمتي، وثياب الخدمة تركتها في حانة على الجسر المصري، واستبدلت بها الثياب التي أرتديها... وهذه هي نهاية كل شيء».

وضرب مرملادوف جبهته بقبضته، وصر على أسنانه، ثم أغمض عينيه وابتكأ بكوعه على المنضدة، ولكن وجهه تغير فجأة بعد لحظة وتظاهر بالمكر والجراة، ونظر إلى رسكولنكوف وضحك وقال: «في هذا الصباح ذهبت لرؤية سونيا! ذهبت لأطلب منها ما يعينني على الشراب! ها! ها!». فصاح أحد الرجال الذين دخلوا أخيراً: «لا أظن أنها أعطتك شيئاً»، ثم انطلق في ضحك عال.

وأعلن مرملادوف وهو يوجه الخطاب إلى رسكولنكوف وحده: «لقد دفعت ثمن هذه الزجاجة من نقودها، إذ أعطتني ثلاثين كوبك بيديها، وهي آخر ما عندها كما رأيت... لم تقل شيئاً، بل نظرت إليّ دون أن تفوه بكلمة.. مثل هذا لا يحصل في الأرض، بل هناك في العلا... حيث يرجون ويتألمون للناس، ولكنهم لا يؤنبونهم، لا يؤنبونهم مرة، وإنه لأكثر إيلاًماً حين لا يؤنبون. نعم! أعطتني ثلاثين كوبك.. ربما كانت هي في حاجة إليها الآن! ماذا ترى في ذلك يا سيدي العزيز؟ وأنت تفهم أنه من الواجب على من كانت في مثل حالها أن تحافظ على مظهرها وأناقته، هذا النوع الخاص من التألق.. هل تعرفه؟ وهل تفهمني؟ ذلك التألق يكلف مالاً، فهناك الأدهان وما إلى هذه الأشياء.. والثياب المنشأة والأحذية ذات اللون البهيج.. لتبدي منكبيها عندما تتخطى حفرة ملاءها الماء! هل تفهم يا سيدي، هل تفهم ما معنى هذه الأناقة؟ وأنا والدها آخذ منها ثلاثين كوبك لأنفقها في الخمر. فأنا أشرب هذه النقود، بل شربتها! قل لي هل رجل مثلي جدير بالشفقة؟ أنت آسف عليّ أم لست آسفاً؟ قل لي: أنت آسف أو غير آسف؟ ها ها..».

وأراد أن يملأ قدحه، ولكنه لم يجد به شرابًا، كان الإناء فارغًا..

وصاح صاحب الحانة وكان قد عاد فاقترب منهما: «علام تستحق الشفقة؟».

وتبع ذلك صيحات الضحك واللعنات، وكان الضحك واللعنات من السامعين ومن الذين لم يسمعوا شيئًا. بل كانوا ينظرون إلى شخص الكاتب الحكومي الطريد..

ورد مرملاذوف فجأة: «أستحق الشفقة! لماذا أستحق الشفقة؟» وكان قد وقف ومد ذراعيه كأنه كان في انتظار هذا السؤال.

«يتساءلون لماذا أستحق الشفقة؟ نعم ليس هنالك ما أستحق من أجله الشفقة! يجب أن أصلب.. أستحق أن أشد إلى صليب، لا أن يشفق عليّ أحد! اصلبني أيها القاضي! اصلبني ولكن أشفق عليّ فيما بعد! وعندئذ سأسير من تلقاء نفسي لكي أصلب لأنني لا أبحث عن الفرح، بل أبحث عن الدموع والأحزان... أظن يا بائع الشراب أن هذا الرطل من مشروبك كان حلواً لدي؟ إنها الأحزان التي أبحث عنها في أعماق هذه الآنية! الأحزان والدموع هي التي وجدتها وذقتها، ولكن سيرحمنا من يرحم الناس جميعًا.. اللطيف الخبير بما عند الناس، الذي يحيط بكل شيء علمًا، فهو الأحد، وهو الحَكَم الذي سيسأل في ذلك اليوم العظيم أين الابنة التي سلمت نفسها من أجل امرأة أبيها القاسية المصدورة ومن أجل أطفال من امرأة غير أمها؟ أين الابنة التي أشفقت على ذلك السكير القذر أبيها الأَرْضِي ولم تتأفف لِقذارته؟» ثم يقول لها: «تقدمي إليّ، لقد غفرت لك مرة.. لقد غفرت لك مرة.. وغفرت لك ذنوبك الكثيرة لأنك تحبين كثيرًا...».

«إنه سيعفو عن سونيا، سيعفو عنها، إني أعلم ذلك.. شعرت به في قلبي عندما كنت عندها. إنه الحاكم على كل شيء، والغفور لكل ذنب، يغفر لفاعل الخير والشر والحكيم والضعيف، فإذا ما فرغ من كل هؤلاء دعانا نحن إليه ويقول لنا: «تقدموا إليّ، تقدموا أيها السكيرون، تقدموا أيها الضعفاء، تقدموا يا أولاد العار..» فنتقدم دون خجل ونقف أمامه فيقول لنا: «إنكم كالخنازير، وقد خلقتكم في صورة الحيوان وفيكم سماته، ولكن تقدموا أنتم أيضًا»، وحينئذ يسأله الحكماء وأصحاب الرأي قائلين: «ربنا لم ترضى عن هؤلاء؟»، فيجيبهم قائلًا: «إنما رضيت عنهم أيها الحكماء لأنهم جميعًا كانوا لا يحسون أنهم جديرون بالرضاء».

«وسيمد يده إلينا وسنخر أمامه سجدًا... ونبكي... وسنفهم كل شيء!.. سنفهم كل شيء! وسنفهم كاترينا إيفانوفنا أيضًا!.. رباه... فليأت ملكك!.. ثم تهالك على مقعده وقد أخذ منه الإعياء وهو لا ينظر إلى أحد، وكأنه نسي من حوله وغاص في تفكير عميق، وكان لكلماته بعض التأثير فمرت لحظة صمت، ولكن لم يلبث الضحك واللغات أن تعالت مرة أخرى.

- هذه هي فكرته..

- لقد تحدث حتى صارت أقواله لغوًا..

- إنه لموظف عجيب!..

وهكذا سمعت تعليقات مختلفة.

ورفع مرملادوف رأسه فجأة ووجه القول إلى رسكولنكوف: «لنذهب يا سيدي! تعال معي إلى دار كويزل فهي تطل على الفناء! إني ذاهب

لكاترينا إيفانوفنا وقد حان الوقت للذهاب».

وكان رسكولنكوف منذ زمن يريد الخروج وقد عزم على مساعدة الرجل، وكان مرملا دوف أقل قدرة على السير منه على الكلام فسار مستنداً بثقله على الشاب، وكان عليهما أن يقطعا مائتين أو ثلاثمائة خطوة، والرجل المخمور يزداد رهبة وارتباكاً كلما اقترب من داره وهو يتمتم في ارتباك:

- لست أخشى كاترينا إيفانوفنا ولا أعبأ بأنها ستشد شعري، وماذا يهمني من شعري؟ إني لا أهتم للشعر. هذا ما أقوله، بل يكون خيراً لو بدأت بشد الشعر، فليس هذا ما أخشاه... إني أخشى عينيها... نعم عينيها... واللون الأحمر على خديها يخيفني أيضاً... وزفرتها أيضاً... أعرفت كيف يتنفس المرضى بهذا المرض... عندما يتأثرون؟ وإني لأخشى بكاء الأطفال كذلك... فأغلب ظني أن سونيا لم تأتهم بطعام... لست أدري ما كان! لا أعرف! أما الكلمات فلا أخشاها... لتعلم يا سيدي أن مثل هذه الكلمات لا تؤلمني، بل لعلي أتمتع بها، والواقع أنني لا أستغنى عنها... فليكن ذلك.. فلتضربني، فإن ذلك يخفف العبء عن قلبي... فليكن ذلك... هذا هو البيت، بيت كويزل، صانع الأقفال... وهو ألماني متيسر الحال فلتقدم.

ودخلا إلى الفناء، ومنه صعدا إلى الطابق الرابع والسلم يزداد ظلاماً كلما تقدما، وكانت الساعة قد بلغت الحادية عشرة وليل الصيف ما أقصره في بطرسبرج، ولكن الظلام كان يلف أعلى السلم.

وبلغا باباً صغيراً رثاً في أعلى السلم، وكان منحرفاً غير مغلق وظهرت منه غرفة صغيرة جداً يبلغ طولها عشر خطوات مضاءة بقطعة من الشمع،

وكانت الغرفة بأجمعها ظاهرة من الباب ولا أثر للنظام فيها تملؤها خرق من جميع الأنواع أكثرها ثياب أطفال، وفي أبعد أركانها مدت ملاءة عتيقة لعلها كانت تخفي وراءها سريراً، ولم يكن في الغرفة غير مقعدين وأريكة مخرقة من الجلد الأمريكي وأمامها منضدة المطبخ عارية، وهي من خشب لم يدهن، وعند حافة المنضدة بقية شمعدان من الحديد. وظهر أن الأسرة كانت تقيم في غرفة خاصة لا في جزء من غرفة، ولكنها كانت لا تزيد على ممر يؤدي إلى غرف أخرى هي أقرب إلى أن تكون خزانات منها إلى أن تكون غرفاً، وهي التي تتألف منها شقة أماليا ليثكسل، وكان الباب الذي يؤدي إليها مفتوحاً نصف فتحة ويسمع من ورائه صياح وضجة وضحك، كأن بها أناساً يلعبون الورق ويشربون الشاي، وكانت تسمع منهم بين حين وآخر ألفاظ من أقبح ما يقال.

وتبين رسكولنكوف كاترينا إيفانوفنا عندما وقع بصره عليها، وكانت قامتها أقرب إلى الطول نحيلة القوام فيها شيء من الملاحظة ولكن وجهها بارز العظام، ولها شعر كثيف لونه بني قاتم، وعلى خديها حمرة المرض، وهي تقطع الغرفة ذهاباً وجيئة، وتضع يديها على صدرها، وكانت شفتاها جافتين وتخرج تنفسها في زفرات عصبية متقطعة، وكانت عيناها تلمعان كأن بها الحمى، وهي تتلفت في نظرة عابسة ثابتة، وكان هذا الوجه المريض القلق الذي يلعب عليه ضوء الشمعة مما يترك في النفس أثراً أليماً، وظهرت لرسكولنكوف كأنها في الثلاثين من عمرها، فكان زواجها من مرملادوف يبدو غريباً.. لم تسمعهما ولم ترهما قادمين كأنها غارقة في أفكار لا تسمع ولا ترى شيئاً.

وكانت الغرفة خائقة، ولكنها لم تفتح النافذة، وكانت تتصاعد رائحة كريهة من السلم لكن الباب الذي يؤدي إليه لم يقفل، وكانت تخرج من الغرفة الداخلية سحب من الدخان فيأخذها السعال، ولكنها لم تغلق الباب الذي يؤدي إليها، وكان أصغر الأطفال صبية في السادسة من عمرها نائمة وقد جلست على الأرض منحنية وأسندت رأسها إلى الأريكة، ووقف صبي أكبر منها بسنة يبكي ويهتز في ركن من أركان الغرفة، والراجح أنه تلقى ضرباً قبل ذلك، وإلى جانبه وقفت فتاة طويلة نحيلة في التاسعة من عمرها ترتدي قميصاً مخرقاً وتضع معطفاً قديماً من الصوف على كتفيها العاريتين، ويظهر أنه صنع قبل ذلك بسنين، وقد نما جسمها فلم يعد يصل إلى ركبتيها، وكانت ذراعها النحيلة كالقصبه تحيط برقبة أخيها وهي تحاول أن تخفف عنه وتسرع إليه شيئاً وتبذل جهدها كي تمنعه من البكاء، وكانت عيناها الواسعتان السوداوان تبدوان أوسع مما هما بسبب نحول وجهها، وتنظران في الوقت ذاته إلى أمها في دعر.

لم يدخل مرملا دوف من الباب بل جثا على ركبتيه عند مدخله ودفع رسكولنكوف أمامه، فلما رأت المرأة أمامها رجلاً غريباً عنها نظرت إليه في عدم اهتمام ثم عادت إلى نفسها لحظة كأنها تسأل نفسها فيم جاء، ثم كأنها ظنت أنه يريد الدخول إلى الغرفة الأخرى ولا بد له أن يمر بغرفتها فذهب كل اهتمام به، ومشت نحو الباب الخارجي لتقفله وراءه ثم صرخت فجأة عندما رأت زوجها راكعاً على ركبتيه عند المدخل.

صاحت في سورة الغضب: «أيها المجرم! أيها الوحش! أين النقود؟ ماذا في جيبيك؟ أرني! لقد غيرت ثيابك، فأين ملابسك؟ أين النقود؟ تكلم!».

وأخذت في تفتيشه، ورفع مرملاذوف ذراعيه في خضوع كي يسهل بحثها. ولم تجد لديه فلسًا واحدًا..

فصاحت الزوجة: «أين النقود؟ رباه! هل شربت بها كلها؟ لقد كان في الصندوق اثنا عشر روبل».

وفي سورة غضبها أمسكت بشعره وجرته إلى الغرفة، وكان مرملاذوف يساعدها على جهدها بأن يزحف في خضوع على ركبتيه.

وأخذت تهز مرملاذوف وتجذبه من شعره من جانب إلى آخر حتى ارتطمت جبهته مرة بالأرض فصاح قائلًا: «إن في ذلك عزاء لي. هذا لا يؤلمني بل هو عزاء يا سيدي المفضل».

واستيقظت الطفلة التي كانت نائمة على الأرض وأخذت تبكي، أما الصبي الذي كان واقفًا في أحد أركان الغرفة فلم يعد يتمالك نفسه وأخذ يرتعد ويصرخ، وجرى نحو أخته في رعب عنيف وهو يكاد يفقد صوابه، وأما الابنة الكبرى فكانت ترتعد كورقة الشجر.

وكانت المرأة المسكينة تصرخ في يأس: «لقد شرب بكل النقود، لقد شرب بها كلها، وذهبت ثيابه وهم جائعون لا يجدون لقمة» ثم ضربت كفًا بكف وأشارت إلى الأطفال - «آية حياة تعيسة!» ثم التفتت فجأة إلى رسكولنكوف قائلة: «وأنت ألا تستحي من الذهاب إلى الحانة؟ أكنت تشرب الخمر معه؟ لقد كنت تشرب معه بلا شك! فلتخرج من هنا».

وتسلل الشاب دون أن يفوه بكلمة، وكان الباب الداخلي قد انفتح على مصراعيه وأخذت وجوه الفضوليين تطل منه، وهي بين وجوه ضاحكة في تبذل وفي فمها الغليون أو السيجارة، وبين رؤوس عليها قلانس. وفيما

وراءها أشخاص في ثياب البيت وقد انحسرت عن بعض أجسامهم وآخرون في ملابس ناقصة غير لائقة، وكان بعضهم ممسكاً بأوراق اللعب وقد اشتد سرورهم عندما رأوا مرملا دوف وهو يُشد من شعره ويصرخ قائلاً: «إن في ذلك عزاء لي».. بل إن بعضهم أقبل داخلاً إلى الغرفة. ثم سُمعت آخر الأمر صرخة عالية، وكانت من أماليا ليثكسل إذ اخترقت الصفوف وحاولت أن تعيد النظام على طريققتها. وللمرة المائة صاحت في المرأة المسكينة لترهبها، وجعلت تصب عليها السباب المقذع وتنذرها بأن تغادر الغرفة في اليوم التالي.

واستطاع رسكولنكوف قبل خروجه أن يجمع العملة الصغيرة التي بقيت من الروبل الذي استبدله في الحانة ووضعتها على النافذة دون أن يلحظه أحد، ولكنه لم يلبث وهو في السلم أن غير رأيه وكاد يعود أدراجه ليسترجعها.

وقال لنفسه: «ما أسخف ما أتيت! إن لديهم سونيا وأنا في حاجة إلى هذه النقود!» ولكنه رأى من المستحيل أن يستردها، وما كان ليرضى على كل حال أن يستردها، فعدل عن الفكرة بحركة من يده وسار قاصداً مسكنه.. وكان يقول ضاحكاً في سخرية وهو يسير في الشارع: «إن سونيا في حاجة إلى أذهنة أيضاً، والتأنق يحتاج إلى نقود.. ولكن من يدري؟ فقد تكون سونيا نفسها مفلسة اليوم، فإن في محاولة الصيد السمين مجازفة.. إنها باحثة عن الذهب.. وقد يبقى الجميع بلا كسرة في الغد من غير نقودي! إذن مرحي يا سونيا! إنك لكنز ثمين وهم يستثمرونه أيما استثمار، نعم يستثمرونه إلى أقصى حد! لقد بكوا منه أولاً ولكنهم اعتادوه! إن الإنسان لو غداً! لأنه يعتاد كل شيء..».

وغاص في بحر من أفكاره...

وصاح فجأة بعد لحظة من التفكير: «ولكن ما أدراني؟ فلعلي مخطئ، ولعل الإنسان لم يكن في الحقيقة وغداً؟ أقصد الإنسان على وجه العموم.. الجنس البشري كافة! ولعل أحكامنا على الناس تنطوي على الظلم والتحيز لما ألفناه من العقائد والأوهام، ولعلها مخاوف خلقناها بأنفسنا، ولعل الحقيقة أنه ليس في الحياة حدود وقيود، وأن الأمور في العالم تجري في مجراها كما ينبغي لها أن تكون!».

(٣)

استيقظ رسكولنكوف في اليوم التالي متأخرًا بعد نوم متقطع لم يبعث فيه نشاطًا، فقام وهو يشعر باضطراب وقلق وبضيق في النفس، ونظر في كراهية إلى غرفته الضيقة التي لا يزيد طولها على ست خطوات، وكان منظرها يدل على البؤس فجدرانها مغطاة بورق أصفر مترب يتساقط قطعًا، وسقفها منخفض حتى ليكاد الإنسان لا يستقيم فيها إذا كان طويلًا، ويخيل إليه في كل لحظة أن رأسه يوشك أن يصطدم بالسقف، وكان أثاثها مناسبًا لها، فهو لا يزيد على ثلاثة كراسي عتيقة غير ثابتة ومنضدة مدهونة في ركن عليها بعض كراسيات مخطوطة وكتب، وكان ما علاها من التراب دليلًا على أنها لم تُمس منذ حين طويل، وكان بها أريكة كبيرة ثقيلة تشغل طول أحد الجدران وتملأ نصف مساحة الغرفة، وكان غطاؤها من نسيج ملون برح به القدم فأصبح أثرًا بعد عين ولم تبق منه إلا خرق ممزقة، وكان رسكولنكوف يتخذها فراشًا، وكثيرًا ما نام عليها دون أن يخلع ملابسه،

ودون أن يضع عليه غطاء، متدثرًا بمعطفه القديم الذي كان يلبسه وهو طالب، ويضع رأسه على وسادة واحدة صغيرة، يجمع تحتها كل ما لديه من ملاءات بيضاء نظيفة وغير نظيفة كي يرفعها، وكان أمام الأريكة منضدة صغيرة.

فلا نستطيع أن نتصور من الفوضى ما قد ينحدر إليه المرء أعمق من تلك، ولكن رسكولنكوف كان في حالة نفسية تجعله يرى هذا النظام مرضيًا، فقد اعتزل الناس جميعًا، كما تفعل السلحفاة إذ تدخل في صدفتها، حتى لقد كان ينفر من رؤية الخادمة التي كان لا بد له منها لكي تخدمه وتنظر أحيانًا في ترتيب غرفته، فكان إذا رآها اتقد غضبًا وحنقًا. ومجمل القول إنه بلغ الحالة التي يبلغها بعض المجانين الذين تتسلط عليهم فكرة واحدة، ولقد توقفت صاحبة البيت منذ أسبوعين عن أن ترسل إليه طعامًا، فلم يفكر في سؤالها وآثر أن يبقى بلا طعام، أما نستاسيا الطاهية والخادمة الوحيدة فقد سرت لحالة الساكن إذ تخففت من تنظيف الغرفة وتنظيمها، وصارت لا تدخل إليها إلا مرة واحدة كل أسبوع أو نحو ذلك لتزيل الغبار بمكنستها.

وقد أيقظته في ذاك اليوم وصاحت به: «أما تستيقظ من نومك وقد مرت الساعة التاسعة؟ لقد جئت لك بشيء من الشاي، فهل لك في فنجان منه؟ أغلب ظني أن الجوع قد برح بك».

وفتح رسكولنكوف عينيه مرتجفًا، وعرف فيها نستاسيا، وسألها في ببطء وقد جلس على الأريكة ووجهه كالمريض: «هل بعثت صاحبة الدار بهذا؟».

- صاحبة الدار؟ هل تظن ذلك؟

ووضعت أمامه إبريقاً به شدوخ وقد مُلئ بشاي خفيف فاتر، ووضعت إلى جانبه قطعتين من السكر الأسمر.

وشرع يبحث في زوايا جيبه - إذ كان نائماً بثيابه - فعثر على بعض دريهمات، وقال: «أرجوك يا نستاسيا أن تأخذي هذه الدريهمات وتشتري لي رغيفاً وقطعة من المصير المحشو من أرخص ما تجدينه لدى بائع لحم الخنزير».

- سأتى لك بالرغيف في لحظة، ولكن أليس خيراً لك أن تتناول شيئاً من حساء الكرنب بدل هذا المصير المحشو؟ إنه حساء جيد حجزته لك من الأمس ولكنك جئت متأخراً. إنه حساء جيد..

ولما جاءت بالحساء وبدأ في شربه جلست نستاسيا إلى جانبه على الأريكة وأخذت تتحدث إليه، فقد كانت فتاة ريفية ثرارة.

قالت له: «إن رسكوفيا بافلوفنا عازمة على أن تشكوك للشرطة».

فتقطب وجهه وقال: «للشرطة؟ وماذا تريد؟».

فقالت: «إنك لا تدفع لها نقوداً ولا تترك لها الغرفة، هذا ما تريده بلا شك».

وتتمم وهو يصبر بأسنانه: «يا للشيطان! هذا آخر ما بقي» ثم قال بصوت مرتفع: «هذا لا يوافقني... لا سيما الآن! إنها حمقاء.. سأذهب وأتحدث إليها اليوم».

- إنها بلا شك حمقاء مثلي، ولكن إذا كنت أنت ذكي الفؤاد فلماذا

تظل راقداً كالزكية ولا تفعل شيئاً بذكائك؟ إنك تقول إنك كنت تذهب في وقت ما تعلم الأطفال، فلماذا لا تعمل الآن شيئاً؟..

فقال رسكولنكوف في غضب وفي تردد: «ولكنني أعمل...».

- ماذا تعمل؟

- أعمل عملاً...

- أي نوع من العمل؟

وأجاب في جد وبعد لحظة: «إنني أفكر...».

فاستولى الضحك على نستاسيا، وكانت شديدة الميل إليه، فإذا بدا لها ما يستوجهه أخذها الضحك دون أن يُسمع لها صوت، فترتعد وترتعث إلى أن تخور قواها..

وأخيراً استطاعت أن تنطق بالسؤال فقالت: «وهل كسبت نقوداً كثيرة بهذا التفكير؟».

فأجاب: «إن الإنسان لا يستطيع أن يخرج ليلقي دروساً وهو بغير حذاء، وقد مللت هذا العمل».

فقالت: «يجب ألا يقاطع الإنسان ما يزوده بالخبز والزبد».

فقال: «إنهم لا يدفعون عن الدروس إلا قليلاً، وما الفائدة في بضعة دريهمات؟» وكان يجيبها في تردد وكأنه يجيب على أفكاره.

فقالت: «وهل تريد أن تحصل على الثروة في طرفة عين؟».

فنظر إليها نظرة غريبة، ثم أجاب في ثبات بعد لحظة صمت قصيرة: «نعم أريد ثروة».

فقالت: «لا تكن هكذا عجولاً. إنك تخيفني. هل أذهب لآتيك بالرجف؟».

فقال: «كما تشائين».

فقالت: «لقد نسيت! جاءك خطاب بالأمس وأنت غائب عن البيت».

فقال: «خطاب؟ لي؟ ممن؟».

فقالت: «لا أعرف، لقد دفعت ثلاثة كوبك من أجله إلى عامل البريد، ألا ترد إليّ هذه النقود؟».

فصاح رسكولنكوف في تأثر شديد: «بالله هاتي الخطاب، هاتيه بالله عليك».

وجاءته بالخطاب بعد لحظة، وكان من والدته في إقليم... فامتقع لونه وهو ممسك به إذ لم يصله خطاب منذ مدة طويلة، ولكن شعوراً آخر حز في قلبه فجأة.

قال: «بالله يا نستاسيا اتركيني وحدي، وهذه هي الثلاثة كوبك ولكن أسرع بالذهاب».

وكانت يده ترتعش وهو ممسك بالخطاب، ولم يرد فضه في حضورها إذ كان يريد أن يخلو إليه. فلما ذهبت نستاسيا رفعه سريعاً إلى شفتيه وقبله، ثم أنعم النظر في العنوان وفي الخط الصغير المائل العزيز المعروف لديه، خط أمه التي كانت تعلمه كيف يقرأ ويكتب، وتردد في فض الخطاب كأنه خائف من شيء. ثم فضه، وكان خطاباً ثقيلاً يزن أكثر من أوقيتين وهو من ورقتين كبيرتين ملئتاً بكتابة صغيرة جداً.

كتبت أمه:

عزيزي روديا..

«مضى شهران منذ تحدثت إليك في رسالة، وهذا يقلقني ويجعلني أقضي الليل ساهرة أفكر، ولكنني واثقة من أنك لا تلومني على سكوت كان لا يمكن تلافيه. إنك لتعلم إلى أي حد أحبك، فإنك الوحيد الذي نعلق عليه الآمال - دنيا وأنا - إنك كل شيء لدينا. أنت أملنا، وأنت سندنا في الحياة، وما كان أشد حزني عندما سمعت أنك تركت الجامعة منذ بضعة أشهر لأنك لا تجد الوسيلة لتعيش وأنك تركت الدروس التي تلقيها وغيرها من أعمال، وكيف أستطيع مساعدتك من معاشي السنوي الذي لا يزيد على مائة وعشرين روبل في العام؟ وإنك لتعلم أن الخمسة عشر روبل التي أرسلتها إليك منذ أربعة أشهر قد اقترضتها من فاسيلي إيفانوفتش فهورشين، وهو تاجر في هذه المدينة أقرضني إياها بضمان معاشي، وهو رجل طيب القلب كان صديقاً لوالدك. ولكنه قد أصبح له الحق في تسلم المعاش، فكان عليّ أن أنتظر حتى يسترد الدين، وهذا ما لم يتم إلا منذ قليل، ولذلك لم أستطع إرسال أي شيء إليك كل هذه المدة. ولكني الآن أحمد الله فإنني أستطيع أن أرسل إليك بعض النقود، والواقع أنه يجب أن نهأن على حظنا السعيد الذي سأقص عليك حديثه.

فاعلم أولاً يا عزيزي روديا - ولست أدري أكان هذا يخطر ببالك - أن أختك تعيش معي في الأسابيع الستة الأخيرة وسوف لا نفترق بعد ذلك، ونشكر الله على أن متاعبها قد زالت، ولكنني سأخبرك بكل شيء في مكانه كي تعلم كيف حدث وتعلم كل ما أخفيناه عنك. إنك عندما كتبت إليّ منذ

شهرين وقلت لي إنك سمعت أن دنيا غير مرتاحة في دار سفدريجايلوف وسألتني أن أخبرك بما كان، كنت لا أستطيع أن أجيبك به. وماذا كنت أقول؟ فلو أنني كتبت لك كل الحقيقة لكدت بكل شيء وجئت إلينا ولو اضطررت إلى أن تقطع الطريق سيرًا على الأقدام؛ لأنني أعرف خلقك ومشاعرك وأنت لا ترضى لأختك بأن تهان.

وكنتم أنا في تعاسة، ولكن ما حيلتي؟ وكنتم فضلًا عن ذلك لا أعرف الحقيقة بأكملها عندئذ، ومما زاد في تعقد الأمور أن دنيا أخذت مائة روبل مقدمًا عندما عملت مربية في تلك الأسرة، بشرط أن يخصم جزء من مرتبها في كل شهر لسداد ذلك الدين، فصار من المستحيل عليها أن تترك هذا العمل من غير أن تسدد الدين، وكان السبب الأكبر الذي دفعها إلى أخذ هذا المبلغ - والآن أستطيع أن أفسر لك كل شيء يا ولدي روديا الغالي - إنما هو عزمها على أن ترسل إليك ستين روبل كنت في حاجة شديدة عندئذ إليها. وقد بعثنا ذلك إليك في السنة الماضية، وخذعناك قائلتين إن هذا المال جزء مما ادخرته دنيا ولكن ذلك لم يكن الحقيقة، وما كنت لأخبرك الآن بكل شيء لولا أن الأمور - والشكر لله - قد تحولت إلى ما هو أحسن لكي تعلم مقدار حب دنيا لك وما ينطوي عليه قلبها من النبل.

وكان السيد سفدريجايلوف يعاملها في مبدأ الأمر بجفاء شديد، حتى لقد كان يتحدث إليها وهو على المائدة بعبارات فيها سخرية وازدراء.. ولكني لا أريد أن أطيل في التفاصيل المؤلمة حتى لا أتعبك بأمور قد مرت وانقضت. مجمل القول إنها قاست الشدائد حينًا مع كل ما كان من كرم مسلك مارفا بتروفتنا زوجة سفدريجايلوف ومن في البيت جميعًا، فقد عاد السيد سفدريجايلوف إلى عادته القديمة التي ألفها في حياة الجيش

واستولت الخمر على لبه، أتدري يا ولدي كيف تبينت الأمور فيما بعد؟
هل تصدق أن هذا الرجل المخبول قد أحب دنيا من أول الأمر فجعل
يغطي عاطفته بمظهر من الجفاء والاحتقار؟ ولعل الرجل قد خجل
واستفزع الآمال التي جاشت في نفسه، وهو رجل كبير السن ورب أسرة،
فكان من ذلك أن غضب على دنيا، ولعله كذلك أراد أن يخفي الحقيقة عن
أعين الآخرين تحت ثوب الخشونة والاحتقار، ولكنه أخيراً لم يملك نفسه
وجرؤ على أن يقترح على دنيا اقتراحاً مفضوحاً مزيئاً، فوعدها بكل وسائل
الإغراء وعرض عليها أن يعرض عن كل شيء ويسافر بها إلى ضيعة أخرى
من أملاكه، أو أن يخرج بها من البلاد..

ويمكنك أن تتخيل ما مر بها من آلام، فقد كان من المستحيل عليها أن
تترك عملها في الحال، لا من أجل الدين الذي اقترضته وحده بل محافظة
على شعور مارفا بتروفتنا، إذ كان لا بد لها أن تساورها الشكوك في سبب
خروجها فتكون دنيا بذلك سبباً في تصدع الأسرة.. ولا شك كذلك في
أن هذا كان يشير فضيحة كبرى، وهنالك أسباب أخرى كثيرة كانت تحول
دون أمل دنيا في الخلاص من تلك الدار البغيضة قبل مضي ستة أسابيع،
ولا شك في أنك تعرف دنيا وتعرف ذكاءها وقوة إرادتها، فهي تستطيع أن
تحتمل كثيراً، ولها في أصعب الحالات مقدرة على التمسك بثباتها، فلم
تفكر حتى في الكتابة إليّ عن كل شيء خوفاً من إيلامي، مع أننا كنا على
اتصال مستمر..

على أن كل شيء انتهى بعد قليل، فقد اتفق أن سمعت مارفا بتروفتنا
زوجها وهو يتوسل إلى دنيا في الحديقة، ولكنها فسرت الموقف تفسيراً

خاطئًا، فألقت اللوم عليها وظنتها السبب في كل شيء، فثارت بينهما على الأثر مشاحنة فظيعة، وذهبت مارفا بتروفتنا في غضبها إلى حد أن لطمت دنيا على وجهها ورفضت أن تسمع منها شيئًا، وظلت ساعة كاملة تصيح في وجهها، ثم أمرت بأن تبعث دنيا إليّ في الحال في عربة عادية من عربات الفلاحين، فأركبوها ورموا بكل ثيابها كومة واحدة دون أن تنظم أو توضع في حقيبة.. وقد هطل مطر شديد زادها بؤسًا..

فانظر كيف عادت دنيا بعد أن أهينت ولطخت بالعار وهي راكبة في عربة مفتوحة مع أحد الفلاحين طوال السبعة عشر ميلًا إلى المدينة.. فأني جواب كنت أستطيع أن أرسله إليك ردًا على خطابك الذي وصلني منذ شهرين؟ وماذا كنت أستطيع أن أكتب؟ كنت عند ذلك في غمرة اليأس فلم أجروء على أن أكتب الحقيقة خوفًا من أن أملأ قلبك بؤسًا وذلاً وحنقًا، ومع ذلك فماذا كنت تستطيع أن تفعل؟ ما كنت تستطيع أكثر من أن تهلك نفسك، ولم تكن دنيا لترضى بأن أكتب إليك بذلك، وما كنت كذلك أقوى على أن أملأ لك الخطاب بالتفاهات وقلبي يفيض بالأحزان.

ظلت المدينة مشغولة مدة شهر بالإشاعات عن هذه الفضيحة، وبلغت الإشاعات حدًا صرت لا أستطيع معه أن أذهب أنا ودنيا إلى الكنيسة، بسبب نظرات الاحتقار والهمسات بل العبارات التي كانت تقال عنا جهراً، وتجنبنا كل معارفنا ولم يعد أحد يحني لنا الرأس في الشارع، وسمعت أن بعض أصحاب الحوانيت والموظفين عزموا على إهانتنا بطريقة مخجلة بأن يلطخوا باب منزلنا بالقار، وأخذ صاحب البيت يشير علينا بمغادرة بيته. وكانت مارفا بتروفتنا هي التي تثير هذه الحركة، وحاولت أن تلتطخ

سمعة دنيا لدى جميع الأسر، وهي تعرف كل الناس في تلك الجهة، وكانت في ذلك الشهر لا تنقطع عن المدينة، وهي امرأة ثرثرة لا تكف عن الحديث في شئون أسرتها وتحب بصفة خاصة أن تشكو لكل الناس من زوجها- وهذا مسلك خاطئ- فلم يمض وقت طويل حتى نشرت قصتها لا في المدينة وحدها بل في كل المنطقة التي تحيط بالمدينة، وقد مرضتُ لذلك ولكن دنيا احتملت أكثر مني، فيا لها من ملاك..

ولو أنك رأيتها وهي محتملة كل شيء تحاول أن تخفف عني وتهون من همومي! ولكن رحمة الله أرادت أن تزيل آلامنا فجأة، فإن السيد سفدريجاييلوف عاد إلى صوابه وندم على فعلته، ولعله تألم لما أصاب دنيا فوضع أمام مارفا بتروفنا برهاناً كاملاً على براءتها، وهو رسالة كانت دنيا اضطرت لكتابتها وأعطته إياها قبل أن تفاجئها مارفا بتروفنا في الحديقة.

كتبت هذه الرسالة، التي ظلت في يد السيد سفدريجاييلوف بعد رحيلها، تبدي فيها رفضها لكل ما طُلب منها من رغبته في الإفشاء إليها بما عنده والاجتماع بها سرًا. وفيها وجهت إليه أشد اللوم في حرارة وحق على حقارة مسلكه نحو مارفا بتروفنا، وذكرته بأنه رب أسرة وأنه من العار عليه أن يعذب فتاة وحيدة لا حامي لها ويزيد من تعاستها.

والحقيقة يا عزيزي روديا أن هذه الرسالة كانت نبيلة ومؤثرة في عبارتها، حتى لقد بكيت عندما قرأتها، ولا أستطيع قراءتها اليوم بغير بكاء. وفضلاً عن ذلك، شهد الخدم بما أزال الوصمة عن دنيا، فإنهم رأوا وعرفوا أكثر مما كان يظن السيد سفدريجاييلوف- وهذه عادة الخدم دائماً- وقد دهشت مارفا بتروفنا أشد الدهش وأحست بأنها «تحطمت ثانية» كما قالت

لنا، ولكنها تحققت من براءة دنيا.

وكان اليوم التالي يوم أحد، فقصدت إلى الكنيسة الكبرى وركعت
تصلي للعذراء والدموع في عينيها طالبة أن تهب لها القوة لتحمل هذه
الصدمة الجديدة والقيام بواجبها، ثم خرجت من الكنيسة الكبرى قاصدة
إلينا وقصت علينا القصة كلها، وبكت بكاءً مرًا وكان ندمها شديدًا،
واحتضنت دنيا وطلبت إليها المغفرة..

وفي صباح ذلك اليوم بادرت ذاهبة تنتقل بين بيوت المدينة وفي
كل أركانها وهي تذرف الدمع وتؤكد براءة دنيا ونبل أخلاقها وشعورها
في عبارات ثناء عاطر، وفعلت ما هو أكثر من ذلك فكانت تبرز الرسالة
التي كتبتها دنيا بخطها إلى السيد سفدريجايلاف وتقرؤها لكل إنسان، بل
سمحت لمن يريد أن يأخذ صورًا منها، وهذا أمر فيما أعتقد لا ضرورة له..

وهكذا شغلت بذلك الأمر أيامًا وهي تدور في المدينة؛ لأن بعض
الناس غضبت من أنها قصدت إلى غيرهم قبلهم، ولذلك كان عليها أن
تمر على الجميع في دورهم، وكانوا ينتظرون زيارتها في كل بيت قبل
حضورها، وكل بيت يعرف أنه في يوم كذا ستقرأ مارفاً بتروثنا الرسالة في
مكان كذا، فيجتمع الناس لكل قراءة، بل إن كثيرًا منهم كان يذهب لسماع
هذه الرسالة وقد سبق أن سمعها عدة مرات في بيته وفي بيوت غيره. وفي
رأبي أن كثيرًا، بل كثيرًا جدًا، من كل هذا لم يكن ضروريًا.. ولكن هذه
أخلاق مارفا بتروثنا..

وعلى كل حال فإنها نجحت نجاحًا تامًا في إعادة سمعة دنيا إليها،
وحلت معرة هذه المسألة على زوجها، ووصمته بوصمة لا تمحى، إذ صار

هو وحده الجدير باللوم، حتى لقد بدأت أرثي له، فقد بالغت السيدة في قسوتها على ذلك الشخص المفتون، وسرعان ما تهافت الناس على دنيا يسألونها أن تذهب لإلقاء الدروس في بيوتهم، ولكنها رفضت.. وأخذ الناس فجأة يظهرن لها آيات الاحترام، وكان ذلك مما أدى إلى الحادث الذي نستطيع أن نقول إنه أبدل كل حظنا في الحياة، فيجب أن تعرف يا عزيزي روديا أن خاطبًا تقدم إلى دنيا، وأنها قبلت الزواج منه، وأبادر بإخبارك بكل شيء في هذا الأمر.

وإذا كان كل شيء قد تم بغير استشارتك فإني أظن أنك لن تغضب مني ولا من أختك من أجل هذا، وأنت ستري أننا كنا لا نستطيع الانتظار ونؤجل قرارنا إلى أن يصل إلينا ردك. على أنك ما كنت لتستطيع أن تقدر كل الأمور دون أن تكون حاضرًا، وهذا ما حدث. فإن الخاطب بيوتر بتروفتش لوجين في منصب مستشار وله قرابة من بعيد بمارقا بتروفتنا، وقد أظهرت السيدة نشاطًا كبيرًا في تدبير هذا الزواج، فابتدأ الخاطب بأن أعرب بوساطتها عن رغبته في معرفتنا، فقبلت مقابلة حسنة وقُدمت إليه القهوة وشربها معنا.. وفي اليوم التالي أرسل إلينا رسالة عرض فيها الزواج في عبارات مهذبة، وطلب ردًا سريعًا حاسمًا. وهو رجل كثير الأعمال، ويريد أن يعود إلى مدينة بطرسبرج سريعًا، وكل لحظة ثمينة لديه.

وقد عرتنا الدهشة طبعًا في مبدأ الأمر؛ لأن كل شيء حدث سريعًا وعلى غير انتظار، فظللنا نفكر في الأمر ونتحدث فيه طوال اليوم.. وهو رجل ميسور الحال، ويمكن الاعتماد عليه، ويشغل في الحكومة منصبين، واستطاع أن يسير في مدارج الشراء.. أجل إنه في الخامسة والأربعين من عمره، ولكنه حسن المنظر وقد يرضي النساء، وهو وجيه أنيق وإن كان

يبدو جهماً، وفيه شيء من الغرور ولكن ربما كان ذلك من تأثير النظرة الأولى.. فحاذر يا عزيزي روديا، إذا ذهب إلى بطرسبرج - فلعله يذهب إليها قريباً - حاذر من الحكم حكماً سريعاً وقاسياً كما هي عادتك، إذا رأيت فيه ما لا تحب عند النظرة الأولى..

وإني، وإن حذرتك من هذا، واثقة من أن أثره عندك سيكون طيباً، وفضلاً عن ذلك فإن من أراد أن يعرف حقيقة أحد من الناس وجب عليه أن يكون متريثاً، فلا يندفع إلى فكرة متحيزة أو خاطئة يصعب عليه فيما بعد تصحيحها أو التغلب عليها. وهنالك دلالات ثابتة تدل على أن بيوتر بتروفتش رجل جدير بكل تقدير، وقد قال لنا في زيارته الأولى إنه رجل عملي، ولكنه - على قوله - يشاطر «الجيل الجديد الناهض» اعتقاداته، وهو عدو للجمود على الآراء. وقد قال أكثر من ذلك كثيراً؛ لأنه على ما يظهر فيه شيء من الغرور ويحب أن ينصت إليه الناس، ولكن هذا الأمر لا يكاد يكون خطيئة، وأنا بطبيعة الحال لا أفهم في هذه الأمور كثيراً، ولكن دنيا بينت لي أنه رجل ذكي - وإن لم يتلق تربية واسعة - ويظهر أنه طيب القلب.

وأنت تعلم طبع أختك يا روديا، فهي حازمة حساسة صبور كريمة، ولكنني واثقة من أن قلبها مليء بالعواطف.. ومما لا شك فيه أنه ليس بينهما حب كبير، لا من جانبه ولا من جانبها، ولكن دنيا فتاة ذكية ولها قلب ملاك، وسترى أن واجبها أن تجعل زوجها سعيداً، ولا شك أنه من جانبه سيجعل همه إسعادها، وليس لدينا من سبب للشك في ذلك، وإن كنت أقر بأن هذا الأمر قد رُتب في عجلة شديدة. وهو فوق هذا كله رجل حازم، وسيرى أن سعادته ستكون أكثر ثباتاً كلما زادت سعادة دنيا معه.

أما فيما يتعلق ببعض العيوب في أخلاقه وبعض العادات أو بعض الخلاف في الرأي - وهي أمور لا يمكن تجنبها حتى في أسعد حالات الأزواج - فقد قالت دنيا فيما يتعلق بذلك إنها تعتمد على نفسها، وليس هنالك ما يدعو إلى القلق وإنها على استعداد لتحمل الكثير ما دامت علاقتهما المستقبلية شريفة مستقيمة..

وقد بدا لي مثلاً في أول الأمر أن الرجل فيه جفاء، ولكن ذلك قد يكون ناشئاً من أنه رجل صريح، بل هذا هو السبب بلا شك.. ففي زيارته الثانية مثلاً - بعد أن وافقت دنيا على الزواج منه - قال في ثنايا حديثه إنه كان قد عقد العزم، قبل أن يعرف دنيا، على أن يتزوج من فتاة طاهرة السمعة لا يسألها مهرًا، وإنه يحرص على أن تكون فتاة ممن عرفن الفقر؛ لأن الرجل في رأيه لا ينبغي أن يكون مدينًا لزوجته، وأنه من الخير أن تنظر المرأة إلى زوجها على أنه محسن إليها.. ويجب أن أضيف إلى هذا أنه كان في إبداء رأيه يتحرى أن تكون عباراته أليق وأكيس من هذا الذي أقوله لك، فإنني نسيت عباراته ولا أذكر غير معناها.. وفضلاً عن ذلك كان من الواضح أنه لم يقل هذه العبارات عن عمد، بل لقد كانت تنفلت منه في حرارة الحديث، فكان يعود فيحاول أن يصلح منها ويلطف من حديثها، ولكنني مع ذلك وجدت فيه شيئاً من الجفاء..

وقد أفضيت بذلك إلى دنيا فيما بعد، ولكنها تضايقت وأجابتنني قائلة: «إن الأقوال غير الأفعال»، وهذا حق لا شك فيه.. وقضت دنيا ليلة لم تذق فيها النوم حتى استقرت على رأيها، وكانت تحسب أنني نائمة فقامت من فراشها وظلت تمشي في الغرفة جيئةً وذهاباً طوال الليل، ثم ركعت آخر الأمر أمام الأيقونة وأخذت تصلي صلاة طويلة حارة، فلما كان الصباح

أخبرتني أنها قررت قبول الزواج.

ذكرت لك أن بيوتر بتروفتش قام قاصداً مدينة بطرسبرج إذ إن له فيها أعمالاً كثيرة، وهو يعتزم أن يفتح بها مكتباً قضائياً، وكان منذ سنوات طويلة يشرف على القضايا المدنية والتجارية، ومنذ أيام قليلة كسب قضية كبرى أمام مجلس الشيوخ، ولذلك نرى أنه قد يكون نافعاً لك كل النفع يا عزيزي روديا من كل الوجوه، وقد قررنا أنا ودنيا أنك تستطيع من هذا اليوم أن تعمل لمستقبلك، والمستقبل أمامك مرسوم ممهد، فعسى الآمال تتحقق في هذا الأمر، فإن فيه فائدة كبيرة نكاد نراها نفحة من نفحات العلي القدير، فأختك دنيا لا تحلم بغير هذا..

وقد جرونا على أن نلمح ببضع كلمات في هذا المعنى لبيوتر بتروفتش، فكان حذراً في جوابه وقال إنه لا يستطيع بالطبع الاستغناء عن كاتم سر، وهو يفضل أن يذهب مرتب الوظيفة لقريب بدل غريب، إذا كان القريب لائقاً لهذه الأعمال.. (كأنه يشك في لياقتك!).. ولكنه أعرب عن شكه في أن دراساته في الجامعة تترك لك من الوقت ما يتسع للعمل في مكتبه، فتركنا الحديث في هذا إلى حين. ولكن دنيا لا تفكر الآن في غيره، ولقد انتابها ما يشبه الحمى في الأيام الأخيرة، وأخذت ترسم خطة منظمة تفضي في آخر الأمر إلى أن تكون زميلاً، بل شريكاً لبيوتر بتروفتش في عمله القضائي، وهذا ممكن لأنك طالب تدرس القانون، وأنا أوافقها كل الموافقة يا روديا وأشاطرها خططها وآمالها، وأرى أن هناك ما يبشر بإمكان تحقيقها، ومع أن بيوتر بتروفتش لم يجب جواباً شافياً - وهو أمر طبيعي في الوقت الحاضر، إذ هو لا يعرفك - فإن دنيا ثابتة الاعتقاد بأنها ستكسب كل شيء بتأثيرها الحسن في زوجها المستقبل، وهي لا تفتأ تعول على ذلك..

ولا حاجة بنا إلى أن نقول لك إننا نحاذر من الخوض في هذه المشروعات البعيدة مع بيوتر بتروفتش، لا سيما فكرة مشاركتك إياه في العمل، فهو رجل عملي وقد يستقبح منا مثل هذا الرأي ويستقبله استقبالا فاترا، وقد يرى في كل هذا أمني جوفاء وأحلاما يخيلها لنا الوهم في اليقظة، ولذلك لم ننطق بكلمة واحدة- لا أنا ولا دنيا- عن آمالنا الكبيرة في أن نساعدك على سداد نفقة دراساتك بالجامعة.

لم نتكلم في هذا الأمر لأنه سيحدث من تلقاء نفسه فيما بعد، فلا ريب في أنه سيرض القيام بذلك دون أن نحتاج إلى كثرة اللجاج (وهل كان ليرفض لدنيا مثل هذا الطلب؟) بل إنه لا بد يفعل ذلك عن طيب خاطر، حين يجد أنك أصبحت بجذك يده اليمنى في مكتبه، فإذا قبلت هذه المساعدة لم تكن إحساناً منه بل أجراً اكتسبته بعملك.. هكذا تريد دنيا أن تدبر الأمر، وأنا أوافقها كل الموافقة.

ثم إننا لم نتحدث إليه في الأمر لسبب آخر، وهو أنني أردت أن تشعر أنك على قدم المساواة معه عندما تقابله لأول مرة، فإن دنيا عندما تكلمت عنك معه في حماسة أجابها قائلاً إن الإنسان لا يستطيع أن يحكم على رجل دون أن يراه عن قرب، وأنه ينتظر أن يكون رأياً عندما يتعرف إليك.

أتعلم أيها العزيز أنني أرى لبعض الأسباب- وهي أسباب لا علاقة لها ببيوتر بتروفتش بل لمجرد رغبة شخصية قد تكون أوهام عجوز- أرى أنه من الخير أن أستمّر في المعيشة وحدي بدلاً من أن أعيش معهما بعد الزواج؟ ولست أشك في أنه سيكون كريماً رقيقاً فيدعوني ويلح في أن أبقى مع ابنتي في المستقبل.. وإذا كان لم يتحدث عن ذلك حتى الآن فذلك

لأنه عد هذا الأمر مقررًا، ولكني سأرفض.. فقد لاحظت أكثر من مرة في حياتي أن الأزواج لا يكونون على علاقة حسنة مع أمهات زوجاتهم، ولست أريد أبدًا أن أقحم نفسي على أحد.. ومن أجل نفسي أيضًا أفضل أن أكون مستقلة كل الاستقلال، ما دمت أجد كسرة خبز وأبناء مثلك ومثل دنيا، وأفضل - إذا كان ذلك ممكنًا - أن أكون في مكان قريب منهما..

على أن خير الأخبار وأبعثها على السرور قد حجزته لآخر هذه الرسالة يا عزيزي روديا.. فلتعلم إذن يا ولدي العزيز أننا سنتلاقى في القريب العاجل ونتعانق مرة أخرى بعد فراق طال ثلاث سنوات، إذ من المقرر أن نساfer أنا ودنيا إلى مدينة بطرسبرج.. ولا أعلم متى يكون ذلك، ولكني أعتقد أنه في القريب العاجل، بل لعله يكون بعد أسبوع، وهذا كله يتوقف على بيوتر بتروفتش.. فإنه سيبحث إلينا إذا فرغ من مشاغله في بطرسبرج، وهو حريص - لأغراض خاصة به - على أن تتم حفلة الزواج في أسرع وقت، وقد يكون ذلك قبل صيام العذراء، إذا كان مستطاعًا، أو بعد هذا الصيام تواء..

فما أكبر سعادتي حين أضمك إلى صدري، وما أشد شوق دنيا إلى التمتع برؤيتك.. وقد قالت ذات يوم على سبيل المزاح: «إن ذلك الأمل وحده كافٍ ليحملها على قبول الزواج من بيوتر بتروفتش»، فيالها من ملاك.. وهي لم تكتب إليك رسالة بعد بل طلبت مني أن أكتب؛ لأن لديها الكثير مما تقوله حتى أنها لا تستطيع أن تتناول القلم فتخط به بضعة أسطر، فإن ذلك لا ينقل إليك شيئًا مما عندها ولا يزيد على أن يحرك أشجان فؤادها، فحسبها أن أنقل إليك حبها وقبلاتها التي لا حصر لها..

ومع أننا ستتقابل في القريب، أرسل لك ما أقدر عليه من نقود بعد يوم أو يومين، إذ ما كاد الناس يسمعون أن دنيا ستتزوج من بيوتر بتروفتش حتى عظمت ثقتهم بي فجأة، وسمعت أن أفاناس إيفانوفتش على استعداد لإقراضي ما يبلغ خمسة وسبعين روبل بضمان معاشي، ولهذا فإني أستطيع أن أرسل لك خمسة وعشرين أو ثلاثين روبل. وقد كنت أود أن أرسل لك أكثر من ذلك لولا أنني أحب أن أحتاط لنفقات سفري.

حقاً أن بيوتر بتروفتش تكرم بأن يتحمل جزءاً من نفقات السفر، أي إنه سيأخذ على عاتقه نقل حقائبنا وصندوق الثياب الكبير معه (وسينقلها عن طريق أحد أصحابه)، ولكن لا بد لنا أن ننفق بعض المال عند وصولنا إلى بطرسبرج، ولا نستطيع أن نظل فيها بلا مال ولو في الأيام الأولى، ولكننا حسبنا حساب هذا السفر أنا ودنيا ووجدنا أنه لا يكلفنا كثيراً، فإن المسافة بيننا وبين السكة الحديدية لا تزيد على تسعين ميلاً، وقد اتفقنا مع سائق إحدى المركبات من معارفنا لكي يكون على استعداد لنقلنا إليها ومن هناك نسافر أنا ودنيا دون تعب في الدرجة الثالثة، وعلى ذلك أرسل إليك ثلاثين روبل لا خمسة وعشرين..

ولكن حسبي هذا، فقد ملأت صحيفتين من الورق ولم يبق فيهما مكان لأكثر من ذلك، وقد وصفت لك تاريخنا كاملاً، فعدراً إذ إن الحوادث كثيرة! والآن يا روديا العزيز أعانقك وأرسل إليك دعوات الأم إلى أن نلتقي.

أحب يا روديا أختك دنيا.. أحبها كما تحبك، واعلم أنها تحبك أكثر من كل شيء، أكثر من نفسها، فهي ملاك.. وأنت يا روديا كل شيء لدينا- أملنا الوحيد، وعزاؤنا الوحيد، فإذا كنت سعيداً فنحن سعداء..

ألا زلت تتلو صلواتك يا روديا وتعتقد في كرم الإله الخالق المخلص؟
أخشى في أعماق قلبي أن تكون مستك الروح الجديدة، روح الإلحاد التي
انتشرت في هذا العصر، فإذا كان الأمر كذلك فإنني أصلي من أجلك، واذكر
يا ولدي كيف كنت في طفولتك، حينما كان والدك حيًا، تلثغ في صلاتك
وأنت جالس في حجري، وكيف كنا سعداء في ذلك الوقت..
وداعًا حتى نلتقي، وإنني أعانقك بحرارة وأرسل إليك قبلات لا نهاية
لها.

حببتك حتى الممات

بولكيريا رسكولنكوف»

كان الدمع يسيل على وجه رسكولنكوف منذ شرع يقرأ الرسالة،
ولكنه عندما انتهى منها كان وجهه ممتنعًا متجهمًا، عليه مرارة، وقد لعبت
على شفثيه ابتسامة غضب وغل، ووضع رأسه على وسادته القذرة الممزقة
وأخذ يفكر، ويفكر طويلاً، وقلبه يدق عنيفًا، وعقله في شبه زوبعة..

ثم شعر بما يشبه الخدر والاختناق في تلك الغرفة الصفراء الصغيرة
التي تشبه الخزانة أو الصندوق، وكانت عيناه وعقله في حاجة إلى مكان
فسيح فأخذ قبعته وخرج، وكان عند ذلك لا يحس خشية من لقاء أحد، فقد
نسي خوفه.. وقصد ناحية فاسيليفسكي أوستروف، وهو يمشي إلى جانب
قنطرة فاسيليفسكي كأنه يسرع لقضاء حاجة، ولكنه كان يسير كعادته لا
يلتفت إلى شيء في طريقه، وهو يغمم أحيانًا أو يتكلم لنفسه بصوت عال،
فكان ذلك مبعث الدهشة في نفوس المارة، وحسب كثير منهم أنه سكران..

(٤)

أثارت رسالة أمه أشد الألم في نفسه، ولكنه لم يتردد لحظة حيال أخطر ما جاء فيها حتى وهو يتلوها، وعقد العزم في نفسه بلا رجعة قائلاً: «لن يكون هذا الزواج ما دمت حيًا، ولعنة الله على السيد لوجين!».

وتمتم لنفسه في ابتسامة خبيثة وهو يتوقع انتصاره في قراره:

- إن الأمر واضح كل الوضوح! لا يا أماه! لا يا دنيا! لن تخذعاني! إنهما تعذران عما أقدمتا عليه بغير استشارتي! أجل! لعلهما تحسبان أن الأمر قد انتهى ولا يمكن الرجوع فيه.. لكن سنرى، أيمن الرجوع أم لا! إنه لعذر عظيم: «إن بيوتر بتروفتش رجل كثير المشاغل، وهو لذلك يريد أن يتم زواجه في سرعة مركبة السفر أو القطار السريع...».

لا يا دنيا، إنني أرى كل شيء وأعلم ما تريدين قوله، وأعلم أيضًا فيم كنت تفكرين عندما كنت تمشين ذهابًا وجيئة طوال الليل، ولماذا كانت

صلواتك أمام أيقونة عذراء فازان المعلقة في غرفة نوم والدتي. إن طريق الصليب لصعب المرتقى.

إذن.. لقد تقرر الأمر بغير رجعة، واعتزمت الزواج من رجل أعمال ذكي يا أفدرونيا رومانوفنا.. رجل ذي ثراء «حاز ما حاز من الثروة التي لا ينكر قدرها ولا يجهل وزنها..» رجل يشغل مركزين في الحكومة، ويشارك الجيل الناشئ آراءه كما تقول أُمِّي.. رجل يظهر أنه طيب القلب كما تقول دنيا نفسها. إن كلمة «يظهر» تقلب كل شيء، فدنيا إنما تزوج منه لأنه «يظهر..» أنه عظيم! عظيم!..

ولكني أريد أن أعرف ماذا حمل أُمِّي على أن تذكر الجيل الناشئ في رسالتها؟ أهي لمسة وصفية أم هي كلمة تقصد بها التأثير عليّ حتى أكون في صف السيد لوجين؟ أي مكر هذا! أريد أن أعلم شيئاً آخر، أريد أن أعرف إلى أي حد كانت كل منهما صريحة مع الأخرى في ذلك اليوم، وفي تلك الليلة، ومنذ ذلك الوقت حتى الآن؟ هل عبرتا بالألفاظ عما في نفسيهما، أم تفاهمتا في صمت على أنهما متفقتان على أمر واحد بقلبيهما وعقليهما فلا حاجة بهما إلى الكلام فيه، بل من الخير ألا يكون فيه كلام؟

والراجح عندي أن الأمر كان فيه شيء من هذا، وهذا واضح من خطاب والدتي. لقد شعرت أُمِّي أنه على شيء من الجفاء، وفي بساطتها أفضت بهذه الملاحظة إلى دنيا، وكان من الطبيعي أن تضيق دنيا بقولها فتجيبها في غضب.. هذا أغلب ظني. فمنذا الذي لا يغضب من الحديث في أمر في مثل هذا الوضوح، لا حاجة فيه إلى التساؤل الساذج، وبعد أن تفاهمتا على أنه لا فائدة من المناقشة فيه؟

ولماذا تكتب أُمِّي إلَيَّ أن «أحب دنيا يا روديا.. فهي تحبك أكثر من نفسها؟» هل تشعر في أعماق نفسها بوخز الضمير لأنها تضحى بابتها في سبيل ابنها؟.. «إنك أملنا الوحيد، إنك كل شيء لنا».. آه يا والدتي...

وكانت مرارة نفسه تزداد شدة، حتى لو أنه قابل السيد لوجين في تلك اللحظة لكان من المحتمل أن يقتله..

ثم مضى في هواجسه الثائرة التي تتسابق في عقله، وقال في نفسه:

- نعم.. هذا حق. هذا حق. حقيقة الرجل لا تنكشف إلا بعد حين وبعد روية، ولكن لا محل للشك في أمر السيد لوجين، فليس يعيننا منه سوى أنه رجل أعمال.. و«يظهر» أنه طيب القلب، إنه أتى عملاً طيباً حين أخذ على نفسه إرسال الحقائق وحقيقة الثياب الكبيرة، أليس كذلك؟

لا شك في أنه رجل طيب القلب! ولكن عروسه وأمها تركبان عربة فلاح مليئة بالأكياس.. إني لأعلم هذا فقد ركبت مثل هذه العربة.. فليكن! إنها مسافة لا تزيد على تسعين ميلاً، ثم بعد ذلك «تكون السياحة في راحة في الدرجة الثالثة» لتقطعاً ألف ميل! وهذا أيضاً حق. يجب على المرء أن يفصل ثوبه على قدر قماشه، ولكن ما بالك أنت يا سيد لوجين؟ إنها عروسك... ولا بد أن تكون على علم بأن أمها تقترض نقوداً بضمان معاشها لأجل هذا السفر! من المؤكد أنك تنظر إلى المسألة على أنها صفقة أو شركة تتحقق فيها مصلحة الشريكين جميعاً لكل منهما نصيبه ونفقته.. إن الأكل والشراب مكفولان، ولكن يجب أن تدفع ثمن دخانك..

غير أن رجل الأعمال قد غبنهما في الصفقة، فإن نقل الحقائق يكلف أقل من أجر السفر، وأغلب الظن أن ذلك لن يكلفه شيئاً، فكيف لا ترى

كلتاها كل هذا؟ أم هما لا تريدان أن تريا؟ إنهما مسرورتان تفيضان غبطة، وتظنان أن هذا أول ازدهار الشجرة، ثم يأتي الثمر من بعد.. إن ما يهم حقًا ليس البخل ولا الحقارة، ولكن لون المسألة كلها، فإن ذلك سيكون لون الزواج. هذا هو المذاق الأول..

وأمي، لست أدري ما بالها.. ما بالها تسرف مثل هذا الإسراف؟ ماذا يتبقى لها من المال إذا بلغت بطرسبرج؟ ثلاثة روبل من الفضة أو اثنان من الورق كما تقول... هذه العجوز المسكينة... علام تتوقع أن تعيش في بطرسبرج بعد ذلك؟ إن لديها من الأسباب حتى الآن ما يحملها على الظن بأنها لا تقدر على العيش مع دنيا بعد الزواج ولا لأشهر قليلة، فلا بد أن الرجل الطيب قد بدرت منه كلمة في هذا الشأن أيضًا ولو أن أُمِّي تنكر.. فهي تقول: «إنني سأرفض» فعلام تعتمد؟ هل تعتمد على ما يتبقى من معاشها بعد سداد دين أфанاس إيقانوفتش؟ مع أن معاشها كله لا يزيد على مائة وعشرين روبل؟ إنها تستطيع عمل أوشحة من الصوف وتطريز الأكمام، وهي بذلك تجهد عينيها اللتين أضعفتها الشيخوخة، ومع ذلك لن تكسب من كل هذا غير عشرين روبل في السنة، تضاف إلى المائة والعشرين روبل من معاشها..

إنني أعلم ذلك، فهي إذن ما تزال تعلق الآمال على كرم السيد لوجين، «فإنه سيعرض عليها المساعدة من تلقاء نفسه، وسيلح عليها».. ستنتظرين طويلًا يا أماه دون أن يتم ذلك! هذه هي عادة أصحاب القلوب النبيلة الذين وصفهم شيللر في كتاباته بأنهم يظلون إلى اللحظة الأخيرة يظنون الإوزة بجعة، ويظلون حتى اللحظة الأخيرة يأملون في الخير ولا يرون السوء في شيء، ومع أنهم يلمحون الجانب الآخر من الصورة، فهم لا

يواجهون الحقيقة حتى يضطروا إلى مواجهتها اضطرارًا! فمجرد التفكير فيها يجعلهم يرتعشون وهم يدفعون الحقيقة بكلى يديهم..

إني لأود أن أعلم هل حصل السيد لوجين على أنواط وأوسمة تقديرًا لجدارته، وأغلب ظني أنه يحمل زر نيشان القديسة آنا في عروة سترته، وأنه يضعه عندما يذهب للعشاء مع المتعهدين والتجار، ومن المؤكد أنه سيضعه عند زواجه أيضًا! فلنتركه، لعنة الله عليه!

أما أمي فلست أدهش لها، فتلك طبيعتها.. بارك الله فيها.. ولكن كيف تُخدع دنيا؟ عزيزتي دنيا.. أأست على علم بحقيقتك؟ إنك كنت قد شارفت العشرين عندما رأيتك آخر مرة وعرفت حقيقتك عندئذ! إن الأم تقول: «إن دنيا تستطيع أن تحتمل كثيرًا»، إني أعرفك حق المعرفة، أعرف ذلك فيك منذ سنتين ونصف، وفي هاتين السنتين والنصف كنت لا أفكر في غير ذلك: إن دنيا تستطيع أن تحتمل كثيرًا..

إنها إن كانت قد استطاعت أن تحتمل السيد سفدرىجايلوف وطغمته، فإنها بلا شك تستطيع أن تحتمل كثيرًا، ولقد وقع في روعها وروع أمي أنها تستطيع أن تحتمل السيد لوجين الذي لا يخفي رأيه في تفضيل الزوجات اللاتي ينتشلن أزواجهن من البأساء لأنهن يشعرن بأنهن مديونات بكل شيء لكرم أزواجهن.. وهو يعلن ذلك أيضًا في أول عهده بهما، بل لعله أعلنه عند المقابلة الأولى، فلنفرض أن هذا القول فلتة لسان منه ولو أنه رجل رزين- ولكن لعل هذا لم يكن فلتة لسان، بل كان قولًا مقصودًا يريد به أن يقضي على كل سوء فهم منذ البداية- ولكن ما شأن دنيا! دنيا؟ إنها بلا شك تفهم الرجل وترضى أن تعيش معه!

كان خيرًا لها أن تعيش على الخبز الأسمر والماء، وألا تبيع نفسها وألا تتنازل عن حريتها الأدبية من أجل اليسر المادي. كان يجب ألا تتنازل عنها ولو وهبت لها بلاد سلزفيچ هولستين بدلًا من مال السيد لوجين! لا! إن دنيا التي أعرفها تختلف كثيرًا عن هذا! لا، لست أشك في أنها على عهدي بها لم تتغير! نعم، لا يمكن أن ننكر أن حادث أسرة سفديرجايلوف كان وقعه أليمًا، وإنه لأمر كريه أن تنفق حياتها في الريف مربية للأطفال نظير مائتي روبل في العام، ولكنني أعلم أنها لتفضل أن تكون من العبيد لدى المزارعين الأمريكيين، أو من فلاحي لاتفيا الذين يعملون لسيد من السادة الألمان في تلك البلاد، أعلم أنها تؤثر ذلك على أن تحط من نفسها ومن مكانتها الأدبية بأن تربط نفسها إلى الأبد إلى رجل لا تحترمه ولا تشترك معه في شيء - وذلك كله من أجل نفع لها! ولو أن السيد لوجين كان من الذهب الخالص أو من الماس لما رضيت بأن تنزل إلى أن تكون خلية شرعية له..

فما الذي يحملها على ذلك إذن؟ ما غرضها؟ كيف تحل هذا اللغز؟ إنه واضح وضوحًا كافيًا! فهي من أجل نفسها ومن أجل راحتها، بل من أجل إنقاذ حياتها لا يمكن أن تبيع نفسها! ولكنها تفعل ذلك من أجل شخص آخر! من أجل شخص تحبه وتعبده تبيع نفسها! هذا هو مجمل القول، فهي تبيع نفسها وتبيع كل شيء من أجل أخيها أو من أجل أمها. ففي مثل هذه الحالة نضغط على شعورنا الأدبي إذا كان ذلك ضروريًا! ونعرض للبيع حریتنا وهدوئنا، بل نعرض ضميرنا، ولتكن الحياة ما تكون إذا كان ذلك يؤدي إلى سعادة من نحبهم.. وعندئذ نبتدع أنواعًا من المغالطات ونحذو حذو اليسوعيين في الدفاع عن مسلكنا فنرضي أنفسنا إلى حين، وننقع أنفسنا أننا نؤدي واجبًا ونقصد غاية شريفة!

إن الأمر هو شبه هذا! إنه واضح كالنهار! واضح أن راديون رومانوفتش رسكولنكوف هو وحده محور الأمر كله! نعم! فهي تستطيع أن تكفل له السعادة وتبقيه في الجامعة وتجعل منه شريكاً في المكتب وتضمن مستقبله ومن يدري؟ فقد يصبح رجلاً ثرياً فيما بعد يتمتع بالرخاء والاحترام، بل لقد ينتهي أمره إلى الشهرة! وهذه الأم؟ إنها لا ترى غير روديا الغالي، ابنها البكر! فمنذا الذي لا يضحى بابتته من أجل مثل هذا الابن؟

آه أيتها القلوب المحبة الحائرة! نعم من أجله لا نتردد في أن ندفع ابتتنا إلى مثل القضاء الذي عصف بسونيا! سونيا مرملا دوف هي الضحية الدائمة ما دام هذا العالم قائماً. هل قدرتما مقدار ما تقدمان عليه من تضحية؟ أهذا عدل؟ هل تستطيعان تحمل مثل هذه التضحية؟ وهل هناك فائدة فيها؟ وهل هنالك معنى لها؟

ولتسمحي لي أن أقول لك يا دنيا إن حياة سونيا ليست أقبح من حياتك مع السيد لوجين! فها هي ذي والدتي تكتب إليّ وتقول إن «ليس في هذا الأمر حب»، وماذا يكون إذا لم يكن فيه احترام كذلك، بل إذا كان هنالك أضداد ذلك من كراهية واحتقار ومقت؟ وإذن فلا بد لك من أن «تحتفظي بمظهرك».. أليس كذلك؟

هل تفهمين ما معنى هذا التائق؟ هل تفهمين أن التائق من أجل السيد لوجين هو نفس تائق سونيا بل لعله أقبح وأسوأ وأحقر؛ لأنه في حالتك يا دنيا يكون صفقة من أجل الترف، على حين هو في حالة سونيا صفقة يدفع إليها الجوع! إن دنيا تدفع ثمن هذا التائق غالباً! وماذا يكون إذا صار العبء أكثر مما تحتملين، وتحسين الندم على ما فعلت؟ وأية مرارة وتعاسة

ولعنات ودموع تخفينها حينئذ عن العالم لأنك لست مارفاً بتروثنا! وماذا يكون شعور والدتك عندئذ؟ إنها الآن قلقة معذبة، ولكن ماذا يكون حالها عندما ترى كل شيء واضحاً؟ وأنا؟ نعم أنا، ماذا ظننت في أخيك؟ لن أقبل تضحيتك يا دنيا! لن أقبلها يا أماء! لن يكون هذا ما دمت حيّاً، لن يكون! لن يكون! لن أقبل هذا!..»

ثم انقطع فجأة سيل الخواطر ووقف عن المسير.

- لن يكون؟ ولكن ماذا تفعل حتى تمنع هذا؟ وكيف تقف في سبيله، وأي حق لك فيه! وماذا تستطيع أنت أن تبذل حتى يكون لك هذا الحق؟ أتبذل حياتك كلها ومستقبلك كله إذا ما فرغت من دراساتك وحصلت على منصب؟ نعم، لقد سمعنا كل هذا من قبل، وما هي إلا أقوال.. فلندع هذا، ولنسرع منذ الآن في عمل شيء، أتفهم هذا؟ فماذا تعمل الآن؟

إنك عالة عليهما، فهما تقترضان على معاش قدره مائة روبل وتقترضان من أسرة سفدريجاييلوف! فماذا تعمل لإنقاذهما من أمثال سفدريجاييلوف وأفاناس إيفانوفتش فهورشين! أنت يا من تظن أنك ستكون في المستقبل مليونيراً تدبر لهما حياتهما؟ هل تنتظران عشر سنوات أخرى؟ بعد عشر سنوات ستكون الأم ضريبة من التطريز ومن الدموع، وستكون شبيحاً من تأثير الحرمان.. وماذا تكون أختي؟ فلتتصور لحظة ماذا يحل بأختي بعد عشر سنوات؟ ماذا يحدث لها في عشر سنوات؟ هل نستطيع تخيل ذلك؟

وهكذا عذب نفسه وهو يقلقها بهذه الأسئلة، وكأنه وجد متعة في هذا العذاب، ومع ذلك لم تكن هذه الأسئلة جديدة واجهته فجأة بل هي جروح قديمة معروفة مضى عليها زمن طويل، منذ ابتدأت تتوغل وتمزق من قلبه،

فهذه الهواجس الأليمة ابتدأت من زمن قديم ما أبعد، ونمت وقويت ثم
نضجت وتركزت، حتى اتخذت شكل سؤال مخيف هائل غريب كان
يعذب قلبه وفكره، وهو يطاوله في إلحاح طالبًا الجواب! فلما جاءت
رسالة أمه سقطت عليه كالصاقعة، وصار من الواضح أنه لا ينبغي له بعد
أن يتعذب في صمت شاغلًا نفسه بمسائل لا يتيسر حلها بل يجب أن يفعل
شيئًا، ويفعله وشيكًا، ويفعله في سرعة. على كل حال يجب أن يعتزم أمرًا،
وإلا...

وصاح فجأة في غضب: «وإلا فلا بد من نبذ الحياة كلها، أأقبل حظي
في هذه الحياة كما أراها في خضوع، وأقضي على كل ما يجيش في صدري
نازلًا عن كل حق في النشاط والحياة والحب؟».

وجال سؤال مرملا دوف في خاطره فجأة إذ قال: «هل تفهم يا سيدي؟
هل تفهم ما معنى ألا يكون لك مكان تستطيع أن تأوي إليه؟ فإن كل إنسان
يجب أن يكون له مأوى...».

وفجأة عاوده خاطر آخر ساوره بالأمس، فلم يذعر لعودته إذ كان يعلم
أنه أحس من قبل أنه لا بد عائد إليه فكان يتوقع عودته.. على أنه لم يكن
وليد الأمس، إنه كان يعاوده منذ شهر ولكنه كان حتى الأمس مجرد حلم،
أما عند ذلك فإنه لم يكن في نظره حلمًا بل كان هاجسًا خطيرًا لا عهد
له بمثله. فتنبه إلى ذلك.. وتمثله واضحًا في نفسه.. وشعر بدق شديد في
رأسه، وأظلمت عيناه..

ونظر بسرعة فيما حوله كأنه يبحث عن شيء، وقد أراد أن يجلس
وأخذ يبحث عن مقعد، وكان عندئذ يسير في شارع ك.. الكبير، ووجد

مقعداً على بعد مائة خطوة أمامه، فسار إليه بأسرع ما يستطيع، ولكنه في الطريق إليه حدث له حادثة صغيرة استغرقت كل اهتمامه، فعندما كان يبحث عن المقعد رأى امرأة تسير أمامه على بعد عشرين خطوة فلم يهتم لها أكثر من اهتمامه للأشياء الأخرى في طريقه، وكثيراً ما يحدث له وهو ذاهب إلى مسكنه ألا يلتفت إلى الطريق الذي هو سائر فيه، فتلك عادته أن يسير هكذا، ولكن المرأة التي كانت تسير أمامه استرعت نظره بشيء غريب تبينه فيها لأول وهلة، مما جعل اهتمامه يتزايد فبدأ يتردد حتى أحس شيئاً من الضيق، ثم فجأة شعر برغبة في أن يتبين ذلك الأمر الغريب في هذه المرأة، فهي تبدو صبية وتسير عارية الرأس برغم الحرارة الشديدة، دون شمسية أو قفاز، وهي تهز ذراعيها بطريقة عجيبة، وثيابها من نسيج حريري خفيف، ولكنها تلبسها بطريقة عجيبة غير منتظمة ولا تشدها شداً محكمًا، وقد تمزق ثوبها من الوسط على مقربة من خصرها، وتدلّت قطعة كبيرة من ثوبها كانت تتحرك في كل خطوة، ولفت حول رقبتها العارية منديلاً صغيراً كان يغطي جانباً واحداً منها، وكانت تسير في خطوات غير متزنة وهي تتعثر وتترنح من جانب إلى جانب.. وأخيراً استرعت كل نظر رسكولنكوف وقد أدركها عند المقعد، فما وصلت إليه حتى ترامت على ركن منه وأسندت رأسها إلى الخلف، وأقفلت عينيها وظهر عليها الإعياء الشديد، فلما تأملها عن قرب رأى في الحال أنها تحت وطأة الخمر، وكان منظرها غريباً مزعجاً فلم يكذب يصدق عينيه، كان وجهها وجه صبية صغيرة السن شقراء الشعر في السادسة عشرة من عمرها بل لعلها لم تكن في غير الخامسة عشرة، ووجهها جميل صغير ولكنه محمر وكأنه متورم، وكان يظهر عليها أنها لم تكن تشعر بما هي فاعلة، فقد وضعت ساقاً على الأخرى رافعة ساقها بطريقة

غير لائقة، وكان من الواضح أنها لا تشعر بأنها في الطريق.

لم يجلس رسكولنكوف على المقعد ولكنه شعر بأنه لا يرغب في تركها، فوقف أمامها متحيراً، ولم يكن ذلك الطريق كثير المارة فكاد يكون مهجوراً خالياً في الساعة الثانية وفي شدة الحر، ولكنه لمح رجلاً إلى الجانب الآخر من الطريق على بعد خمس عشرة خطوة، وكان على حافة الإفريز، والظاهر أنه كان يريد أن يقترب من الفتاة لغرض في نفسه، ولعله رآها من بعد وتبعها فلما وجد رسكولنكوف يحول بينه وبينها نظر إليه في غضب وإن حاول ألا يلفت إليه نظره، ووقف ينتظر فرصة بعد أن يسير الشاب ذو الثياب الممزقة في طريقه.

وكانت نياته لا يمكن أن تخفى، فهو رجل ممتلئ الجسم في نحو الثلاثين من عمره يرتدي ثياباً على آخر زي ولونه مزدهر وشفته حمراوان وله شاربان رقيقان، فشعر رسكولنكوف بغضب شديد وأحس برغبة في إهانة هذا السيد المعجب بنفسه بطريقة من الطرق، فترك الصبية لحظة وسار نحوه، وصاح به ساخراً وهو يتميز غيظاً وقد ضم قبضته: «أنت يا سفدريجايلاف! ماذا تريد هنا؟».

فقال الرجل في عبوس وقد قطب جبينه في كبرياء ودهشة: «ماذا تعني؟»، فصاح به قائلاً: «سر في طريقك، هذا ما أعنيه!».

فقال الرجل: «كيف تجرؤ أيها الحقيр؟».

ورفع الرجل عصاه، وهجم عليه رسكولنكوف بقبضتيه دون أن يفكر في أن الرجل الضخم يستطيع مقاومة رجلين من أمثاله، ولكنه أحس في هذه اللحظة بقبضة تمسك به من الخلف، وإذا بشرطي يقف بينهما..

- هذا يكفي أيها السادة، لا مشاجرة في مكان عام..

ثم سأل رسكولنكوف في شدة وقد لاحظ أسماؤه: «ماذا تريد؟ من أنت؟».

ونظر إليه رسكولنكوف فوجد فيه وجه جندي صريح معقول، وشاربين وخطهما الشيب ولحية في جانبي الوجه.

فصاح وقد أمسك بذراعه: «إنك الرجل الذي أريده. أنا طالب واسمي رسكولنكوف... ويحسن أن تعرف هذا أنت أيضًا» قال ذلك موجهاً الخطاب للرجل الآخر «تعال معي فإن لدي ما أريد أن تراه»..

ثم جر الشرطي من يده نحو المقعد، وقال له:

- انظر.. إنها بلغت من السكر غايته، وكانت قبل لحظة تسير في هذا الشارع ولا يمكن معرفة من هي، أو ما هي.. وليس في منظرها ما يدل على أنها تحترف المهنة المعروفة، بل أغلب الظن أنها سقيت هذا الشراب وغرر بها في مكان ما... لأول مرة... هل تفهم؟ ثم أوصلوها إلى الشارع على هذه الصورة. انظر كيف تمزقت ثيابها وكيف ارتدت هذه الثياب، لم تلبسها هي بل ألبستها بيد غير متمنة، يد رجل، هذا واضح، ثم انظر بعد ذلك إلى هناك، لست أعرف هذا السيد المتجمل الذي كدت أشاجره، وهذه أول مرة أراه فيها، ولكنه قد رآها الآن كما رأيته في هذا الطريق وقد غلبها الشراب فهي لا تعرف ما تعمل، وهو الآن راغب في أن يستولي عليها ويسير بها وهي في هذه الحالة.. هذا مؤكد.. صدقني، إنني لم أخطئ، فقد رأيته بنفسه يراقبها ويتبعها ولكني منعه، وهو ينتظر حتى أسير في سبيلي، وها هو ذا تراه يتباعد قليلاً ثم يقف وهو يتظاهر بأنه يخرج سيجارته...

ففكر كيف نخلصها من يديه، وكيف ننقلها إلى دارها؟

وفهم الشرطي مرماه في لمح البصر، وكان من السهل فهم أغراض الرجل الضخم، وبقي تدبير أمر الفتاة.. وانحنى الشرطي عليها ليفحصها عن قرب، وكان وجهه ينم عن عطف صريح.

وقال وهو يهز رأسه: «إن هذا لمدعاة للأسف! إنها لم تكد تخرج عن دور الطفولة، وقد خدعت! هذا واضح لأول وهلة؟» ثم أخذ يوجه إليها الخطاب قائلاً: «اسمعي أيتها الأنسة، أين تسكنين؟» وفتحت الفتاة عينيها المتعبتين النائمتين وهي تنظر في غير وعي نحو المتكلم ولوحت بيدها.

وبحث رسكولنكوف في جيبه فوجد عشرين كوبك وقال: «خذ هذا وادع عربة ومر سائقها بأن يقصد إلى مسكنها.. والمسألة الباقية الآن، هي أن نعرف عنوان هذا المسكن».

فتمتت الفتاة وهي تلوح مرة أخرى بيدها: «اذهب فإنهم لن يتركوني وشأني».

وهز الشرطي رأسه مرة ثانية مشمئزاً عطوفاً غاضباً وقال: «آه ما أفضح هذا! إنه مخجل أيتها الأنسة الصغيرة، إنه لمخجل».

ووجه الشرطي الخطاب لرسكولنكوف وقال: «إنها لمهمة صعبة». وبينما هو يقول ذلك أجال نظره فيه سريعاً من رأسه إلى قدمه فقد كان هو كذلك غريباً في نظر الشرطي، وما كان أعجبه في ثيابه الممزقة وهو يقدم إليه نقوداً!..

وسأله: «أقابلتها بعيداً من هنا؟».

فأجابه: «قلت إنها كانت تسير أمامي وهي تترنح في هذا الشارع، وما كادت تصل إلى المقعد حتى تهالكت عليه».

فقال الشرطي: «ما أفزع المخازي التي ترتكب في العالم اليوم، فليرحمنا الله! طفلة بريئة مثل هذه الطفلة تشرب الخمر! إنها خدعت بغير شك! انظر كيف مزقت ثيابها.. ألا ما أكثر الآثام في هذه الأيام! إنها من أسرة محترمة بلا شك وإن تكن فقيرة.. إن مثيلاتها كثيرات في هذه الأيام، فإن منظرها ليبعث على الظن أنها من أسرة طيبة، وفي هيئتها ما ينم عن رقة وذوق».

وانحنى عليها مرة أخرى، ولعله كذلك كان أبًا لبنات منظرهن يبعث على الظن بأنهن من أسرة «طيبة»، وفيهن الكثير من الرقة والذوق..

وعاد رسكولنكوف يقول: «إن أهم شيء هو إنقاذها من يدي هذا الوغد حتى لا يهتك أيضًا حرمتها. هذا واضح كالنهار فهو يتبعها! تبًا لهذا الوحش، إنه لا يريد الذهاب!».

وكان رسكولنكوف يتكلم في صوت عال ويشير إلى الرجل، فسمعه وكاد يندفع في الغضب ولكنه أثر أن يملك نفسه، واكتفى بأن نظر إليه في احتقار ومشى في ببطء عشر خطوات أخرى ثم وقف.

فقال الشرطي في تفكير: «إنه لمن المستطاع أن ننقذها من يديه لو أخبرتنا أين تقيم، ولكن والأمر كما ترى.. أيتها الأنسة الصغيرة انتبهي! أيتها الأنسة الصغيرة!».

وانحنى عليها مرة ثانية، ففتحت عينيها على سعتيها فجأة، وأخذت تحديق فيه وكأنها تنبهت إلى شيء فقامت من المقعد وسارت في الاتجاه

الذي جاءت منه وهي تلوح بيدها مرة ثانية وتقول: «هؤلاء الأوغاد الذين لا يتورعون.. ما لهم لا يريدون أن يتركوني وشأني..».

وكانت تمشي بسرعة ولو أنها كانت ما تزال تترنح، وتبعها الرجل المتجمل ولكن في الجانب الآخر من الطريق وهو يتبعها بعينه.

وقال الشرطي في صراحة: «لا تقلق فأني لن أدعه يأخذها».. وسار خلفهما، وكان يكرر في صوت عال وهو يتنهد: «ما أكثر الآثام التي يراها المرء في هذه الأيام!».

وفي تلك اللحظة أصيب رسكولنكوف بما يشبه لسعة حشرة وتبدلت مشاعره فجأة، فصاح وراء الشرطي: «اسمع! اسمع!».

فاستدار الرجل إليه، فصاح به:

«دعهما فليس هذا من شأنك! اتركها تذهب، واتركه يرفه عن نفسه» مشيراً إلى الرجل المتجمل «ماذا يعنيك من هذا؟».

فحار الشرطي وأطال النظر فيه وقد فتح عينيه على سعتهما، وضحك رسكولنكوف.

فصاح الشرطي باحتقار: «حسنًا»، ثم سار وراء الرجل المتجمل والفتاة، ولعله ظن في رسكولنكوف أنه مجنون أو ما هو شر من المجنون. وتمتم رسكولنكوف في غضب عندما صار وحيداً:

- لقد أخذ مني العشرين كوبك.. فليكن، وليأخذ مثل هذا المبلغ من الرجل الآخر ليسمح له بالفتاة وتنتهي المسألة! لماذا أردت أن أتدخل؟ أنا مكلف بأن أساعد الناس؟ هل من حقي أن أساعد؟ فليأكل الواحد

منهم لحم أخيه وهو حي.. ما شأني بذلك؟ وكيف جرؤت على أن أعطيه العشرين كوبك؟ أكانت نقودي؟

وشعر بحرقة وغم بالرغم من هذه الكلمات الغريبة فجلس على المقعد المهجور، وأخذت أفكاره تسبح دون مرمى.. ووجد من الصعب عليه أن يحصر فكره في تلك اللحظة في أي شيء، وود لو استطاع أن ينسى نفسه وينسى كل شيء، ثم يستيقظ ويتدبّر حياة جديدة..

ونظر إلى الركن الخالي الذي جلست فيه الفتاة وقال:

- مسكينة هذه الصبية.. ستعود لنفسها، وتبكي، ثم تكشف أمها الأمر.. فتضربها ضرباً فظيماً مخجلاً، وقد تطردها من البيت.. فإذا لم تطردها، فإن نساء من أمثال داريا فرانتزوفنا، سيبلغن الأمر، ولن تلبث الصبية أن تتسلل سرّاً هنا وهناك، ثم بعد ذلك يكون الذهاب إلى المستشفى.. هذا هو دائماً حظ الفتيات اللاتي لهن أمهات محترمات ويفسدن سرّاً.. ثم.. المستشفى مرة أخرى.. والشراب.. والحنان.. ثم المستشفى مرات أخرى.. ولا تمضي سنتان أو ثلاث حتى تصير حطاماً، وتنتهي حياتها في الثامنة عشرة أو التاسعة عشرة من عمرها.. ألم أر حالات مثل هذه! وكيف وصلت الفتيات إليها؟ إنهن جميعاً وصلن إلى هذه الحالة بهذه الطريقة.. ولكن ماذا يهم في ذلك؟ إنهم يقولون إن هذا ما يجب أن يكون ولا حيلة فيه، ويخبروننا أن نسبة مئوية يجب أن تسلك كل سنة هذا الطريق إلى الشيطان.. وأظن أن ذلك ككل السبل لكي يبقى العدد الآخر نقيّاً، ولا ينبغي أن يتدخل أحد في أمر النسبة المئوية! ما أفخم هذه الألفاظ التي يرددونها، إنها ألفاظ علمية فيها عزاء كبير.. فإذا ما قلت: «نسبة مئوية» وجب عليك ألا تشغل بالك

بشيء، ولو أننا قلنا كلمة أخرى.. لأحسنا قللاً أكبر.. ولكن ماذا يكون إذا كانت دنيا ضمن هذه النسبة! أو إذا لم تكن في هذه النسبة، ففي نسبة أخرى؟..

ثم فكر فجأة: «ولكن أين أنا ذاهب؟ أمر غريب! لقد خرجت أقصد مكاناً، أذكر أنني منذ قرأت الخطاب خرجت.. وكنت أقصد جزيرة فاسيليشسكي لمقابلة رازوميخين، هذا ما كنت أقصده.. الآن تذكرت، ولكن لأي شيء؟ وما الذي جاء بفكرة الذهاب لرازوميخين إلى رأسي الآن، هذا غريب!».

وعجب من نفسه، فإن رازوميخين كان أحد زملائه القدماء في الجامعة، مع أن رسكولنكوف لم يكذب يكون له أصدقاء فيها، فقد كان يتجنب زملاءه ولا يذهب لزيارة أحدهم ولا يرحب بمن يأتي منهم لزيارته، فانتهى الأمر بأن باعدوه جميعاً.. وكان لا يشترك في اجتماعات الطلبة أو لهوهم أو أحاديثهم، ويقبل على عمله وغيره يشفق على نفسه، فكان زملاؤه يحترمونه لذلك وإن كانوا لا يحبونه.. وكان فقيراً جداً وفيه كبرياء وتحفظ كأنه يحتجز لنفسه سرّاً، فكان يبدو لبعض زملائه أنه ينظر إليهم على أنهم أطفال، وأنه أكثر منهم نمواً ومعرفة وأنضج منهم فكراً، وكان آراءهم وأفعالهم أقل من مستواه.

أما رازوميخين فقد كان معه على علاقة طيبة، أو كان معه أقل تحفظاً وأكثر اتصالاً. والواقع أنه من المستحيل أن تكون علاقته غير ذلك مع رازوميخين لأنه شاب بشوش صريح، طيب القلب إلى حد البساطة، وإن كانت هذه البساطة تخفي عمقاً واعتزازاً بالنفس. وكان أقرب أصدقائه

يقدرّون صفاته بينما الجميع يحبونه، وكان ذكيًا جدًّا ولو أنه في بعض الأحيان تغلب عليه البساطة، فكان منظره يسترعى النظر - فهو طويل نحيل، أسود الشعر، لا يجيد حلق شعر وجهه، وكان يهرج أحيانًا، والمعروف عنه أنه شديد القوة، ففي ذات ليلة كان مع جماعة يقصفون، واستطاع بلكمة واحدة أن يلقي شرطيًا عملاقًا على ظهره، ولم يكن لقوته على تحمل الشراب حد، ولكنه كان يستطيع الانقطاع الحاسم عن الشراب، وكان يذهب أحيانًا في هذره إلى حد بعيد، ولكنه كان كذلك يستطيع أن يقلع عن ذلك بآتًا، ومما يسترعى النظر أيضًا في رازوميهيّن أنه كان لا يذهل للفشل، وأن الظروف مهما تكن غير ملائمة لا تستطيع تحطيمه، وهو يستطيع أن يسكن في أي مكان ويتحمل أشد البرد والجوع، وهو فقيرًا جدًّا ويعيش معتمدًا على ما يكسبه من العمل أيًّا كان، وكان واسع الحيلة في كسب المال وقد ظل شتاءً بأكمله لا يوقد نارًا، وكان يصرح بأنه يفضل ذلك قائلاً: «إن نوم المرء في البرد أكثر هدوءًا».. وقد اضطر إلى ترك الجامعة إلى حين، وكان يعمل باذلاً كل جهده كي يدخر ما يكفيه للعودة إلى دراساته، ولم يره رسكولنكوف منذ أربعة أشهر، وكان رازوميهيّن لا يعرف عنوان مسكنه، وقد تلاقيا في الشارع منذ شهرين فتجنبه رسكولنكوف بل عبر إلى الجانب الآخر كي لا يراه، ولاحظ رازوميهيّن ذلك منه فمر به منصرفًا عنه إذ لم يرد أن يضايقه.

(٥)

وقال رسكولنكوف في نفسه:

- نعم! نعم! أردت الذهاب منذ عهد قريب إلى رازوميهين كي أسأله أن يدبر لي عملاً، بعض الدروس أو أي شيء.. ولكن أية مساعدة تنتظر منه الآن؟ هبه دبر لي بعض الدروس، أو هبه شاطرنى آخر فلس من نقوده لو أن معه نقوداً؟ فاستطعت شراء حذاء وأصلحت من هندامي كيما أصير لائقاً لإعطاء الدروس فماذا يكون عندئذ؟ وماذا أعمل بالنقود الضئيلة التي أكسبها؟ هذا ما لا يغني الآن.. وما أحسب فكرة الذهاب إلى رازوميهين إلا سخيفة..

وكان تساؤله عن السبب في ذهابه إلى رازوميهين يشغل خاطره أكثر مما يريد أن يعترف به لنفسه، فظل يبحث عن معنى خطير في هذا العمل العادي في ظاهره.

وساءل نفسه في حيرة: «أأكون قد اعتزمت أن أمضي فيما عقدت عليه نيتي؟.. وأن ألتمس الخلاص بعد ذلك عن طريق رازوميهين وحده؟».

وظل يتأمل ويفكر في هدوء وكأنه وصل إلى قرار أخير، وقال في نفسه: «أحقاً أقصد مسكن رازوميهين؟ أجل، سأذهب إليه بلا ريب ولكني.. لن أذهب إليه الآن، سأذهب إليه.. في اليوم التالي عندما أفرغ من هذا الأمر وأبدأ في الحياة صفحة جديدة..».

وعند ذلك تبين فجأة أيان تتجه أفكاره، فصاح وقد هب واقفاً من مقعده: «أحقاً سيحدث هذا الأمر؟ هل من الممكن أن يحدث حقاً؟».

وغادر المقعد وهو يكاد يجري قاصداً أن يعود أدراجه إلى مسكنه، ولكنه ما كاد يتمثل صورة مسكنه حتى امتلأت نفسه بمقت عميق، ففي هذا الحي، في هذه الخزانة التي يسكنها، ظل «الأمر» ينمو في نفسه طوال الشهر الماضي، ولذلك سار يهيم في الطرق لا يلوي على شيء.

وانقلبت رعدته العصبية إلى حمى جعلته يشعر برعشة، فأحس بالبرد مع شدة حرارة الجو، على أنه أحس دافعاً إلى تأمل الأشياء التي أمامه باذلاً في ذلك جهداً عظيماً، كأنه أراد أن يصرف نفسه عن التفكير، ولكنه لم ينجح في ذلك وظل يعود بين حين وحين إلى أفكاره. ورفع ذات مرة رأسه فجأة ونظر فيما حوله، فما هو إلا أن فعل ذلك حتى نسي كل ما كان يفكر فيه، بل نسي أين هو.. وعلى هذه الحال قطع جزيرة فاسيليشسكي حتى وصل إلى فرع النيشا الصغير، وعبر الجسر واتجه نحو الجزائر..

وكانت الخضرة النضرة في أبادئ الأمر رفق بعينيه المتعبتين اللتين غشاهما غبار المدينة، وأحس انطلاقاً عندما خرج من بين الدور الكبيرة

التي كانت تنقل عليه. ووجد نفسه آخر الأمر في براح خال من الحانات ومن الضيق الخائق ومن الرائحة الكريهة، ولكن هذا الابتهاج لم يلبث أن غادره وتحول إلى ضيق وقلق. وكان أحياناً يقف أمام دار صيفية زاهية الطلاء قائمة بين الأشجار الخضراء، فيتأمل ما وراء سورها ويرى من بعيد نساء في ثياب أنيقة جالسات على الشرفات ومنافذ الدار، وأطفالاً تجري في الحدائق، وكانت الأزهار خاصة تسترعى نظره يحب أن يتمتع بها بصره أكثر من أي شيء، وكان يلقي في طريقه عربات مترفة ورجالاً ونساء يمتطون الجياد فيتأملهم في دهشة ثم ينسأهم قبل أن يغيبوا عن ناظره..

وذات مرة وقف فجأة وعد نقوده فوجدها ثلاثين كوبك، وأخذ يقول في نفسه: «عشرون كوبك للشرطي، وثلاثة لنستاسيا من أجل الرسالة، فلا بد أنني إذن أعطيت أسرة مرملا دوف بالأمس سبعة وأربعين أو خمسين كوبك».

وكان يعد نقوده لغرض في نفسه، ولكنه لم يلبث أن نسي الغرض الذي أخرج من أجله النقود من جيبه، ثم عاد فذكره.. إذ كان قد مر على مطعم أو حانة وشعر بالجوع.. فدخل الحانة وشرب كأساً من الفودكا وأكل قطعة من الفطير وأتم أكلها وهو يخرج من المكان..

وكان قد مضت عليه مدة طويلة لم يشرب فيها شيئاً من الفودكا، فكان لها تأثير سريع عليه، ولو أنه لم يشرب غير كأس واحدة، فشعر بثقل في ساقيه وأخذ النعاس يستولي عليه، فاتجه نحو البيت ولكنه ما كاد يصل إلى جزيرة بتروفسكي حتى وقف وقد قهره الإعياء، فخرج عن الطريق إلى منطقة تظللها الأشجار فارتقى على الحشائش، وما لبث أن غاب في

سبات.. ولكن أي سبات؟ ففي الحالات التي يكون فيها المخ مريضًا تنتاب المريض أحلام تبدو كأنها حقائق واقعة، وقد تظهر له في بعض الأحيان أشباح فظيعة، ولكن الصورة التي تحيط بها تمثل الحقيقة وتكون مليئة بالتفاصيل الدقيقة العجيبة الغريبة، على أنها تكون منسجمة من الوجهة الفنية حتى أن الحالم لو كان فنانًا مثل بوشكين، أو على الأقل تورجنيف، لما استطاع أن يخترع مثلها وهو في يقظته.. وهذه الأحلام المرضية تبقى طويلًا في الذاكرة، وتخلّف أثرًا شديدًا على الأعصاب المتعبة المختلة..

وقد كان حلم رسكولنكوف مخيفًا، فقد رأى أنه عاد إلى طفولته في البلدة الصغيرة التي ولد فيها، وصار طفلًا في السابعة من عمره، يسير في الريف مع أبيه في مساء يوم عطلة، وكان يومًا معتمًا ثقيلًا، وكانت جهات الريف كما يتذكرها تمامًا، بل إنها كانت في حلمه أوضح منها في ذاكرته، وكانت البلدة الصغيرة في أرض منبسطة عارية كراحة اليد، لا يرى شجرة على مقربة منها، إلا أن تلوح من بعيد أجمة تبدو في الأفق كبقعة مظلمة..

وعلى بعد خطوات قليلة من آخر حديقة في البلدة، كانت حانة كبيرة طالما أثارت في نفسه شعور الكراهية بل الخوف عندما كان يمر أمامها مع والده، فهناك كانت لمة من الناس تجتمع دائمًا ويعلو منها الصياح والضحك واللعنات والغناء القبيح بأصوات جافية نابية، وكثيرًا ما كان الشجار يثور حولها، فكان كلما مر بها رأى جمعًا من المخمورين حولها، فيتعلق بوالده وهو يرتعد..

وكان الطريق ينتهي عند الحانة إلى شعب مترب لون ترابه أسود، وهو طريق ملتف ينعرج بعد مائة خطوة إلى اليمين نحو المدافن، وفي وسط

المدافن كانت كنيسة من الحجر لها قبة خضراء، كان يذهب إليها مرتين أو ثلاثًا في السنة مع أبيه وأمه؛ للقداس الذي يقام لذكرى جدته التي ماتت منذ زمن بعيد قبل أن يراها، وفي هذه المناسبات كانوا يأخذون معهم نوعًا من الفطير المصنوع من الأرز المحلى بالزبيب، على شكل صليب يجعلونه في طبق أبيض ويلفونه بفوطه المائدة، وكان يحب هذه الكنيسة العتيقة ذات التماثيل المقدسة غير المزخرفة، ويحب قسيسها الكهل ذا الرأس المرتعش..

وكان قبر جدته معلمًا بحجر، وعلى مقربة منه كان قبر صغير لأخيه الصغير الذي مات بعد ستة أشهر من حياته، ولم يك يذكر هذا الأخ الصغير وإن كان قد سمع عنه، فكان إذا ما زار المدافن رسم علامة الصليب في احترام وخشوع وانحنى يقبل القبر الصغير. فرأى في حلمه أنه يسير مع أبيه، مارًا بالحانة في طريقه إلى المدافن، وهو ممسك بيد والده ينظر في خوف إلى الحانة، ويسترعى اهتمامه حادث خاص، إذ يظهر أنه كان هنالك نوع من الاحتفال، اجتمع له أهل البلدة وقد ارتدوا خير ثيابهم، فيهم نساء فلاحات مع رجالهن وخليط من الناس، يغنون جميعًا وقد أخذ منهم الشراب شيئًا..

وعلى مقربة من مدخل الحانة وقفت عربة، وكانت عربة غريبة من العربات الكبيرة التي تجرها جياد قوية كبيرة، وتحمل براميل النبيذ وغيرها من الأمتعة الثقيلة، وكان دائمًا يحب النظر إلى هذه الجياد الكبيرة التي تجر تلك العربات ويتأمل أعرافها الطويلة وسيقانها الغليظة وخطواتها البطيئة المنتظمة، وهي تجر ما يشبه الجبل من الأمتعة دون مجهود ظاهر، كأنها تجد السير بهذه الأحمال أسهل عليها من السير بغيرها..

ولكن من العجيب أنه رأى هذه العربة وقد شدت إليها فرس صغيرة نحيلة، من تلك الخيل الضعيفة التي يملكها الفلاحون، ونراها أحياناً تبذل قصارى قوتها في جر حمل ثقيل من الخشب أو التبن، ولا سيما عندما تغوص عجلات العربة في الوحل أو في أخاديد الأرض، فيضربها الفلاحون في قسوة لا يبالون أن تقع ضرباتهم أحياناً فوق أعينها أو أنوفها، وكان يتأثر لذلك ويشتد به التأثير حتى يكاد يبكي فتسرع أمه بإبعاده عن النافذة..

وسمع على حين فجأة ضجة من الصباح والغناء وأنغام البلاليكا، وخرج من الحانة عدد من الفلاحين السكارى ضخام الأجسام يلبسون قمصاناً حمراء وزرقاء وقد علقوا ستراتهم على أكتافهم، وصاح أحدهم وهو فلاح شاب ذو رقبة غليظة ووجه ممتلئ أحمر كالجزرة وقال:

- سأخذكم جميعاً، اركبوا..

فمضى الجمع في الضحك والصخب..

وصاح صوت: «أركب وحيوانك هكذا؟».

وقال آخر: «ماذا يا ميكولكا؟ ماذا أصاب عقلك حتى تشد فرساً كهذه في مثل هذه العربة؟».

وقال ثالث: «إن عمر هذه الفرس عشرون سنة يا رفاق!».

ثم صاح ميكولكا مرة ثانية، وكان أول من قفز إلى العربة وأمسك باللجام ووقف في صدرها:

- اركبوا وسنجركم جميعاً، فإن ماتيو أخذ الجواد، وهذا الحيوان يا رفاق يكاد يقضي عليّ وأشعر بأني أكاد أقتله، فهو يركب رأسه.. أقول لكم

اركبوا وسأجلعه يجري بنا، نعم سيجري..

وأمسك بالسوط واستعد لضرب الفرس الصغيرة.. وتصايح الجمع ضاحكًا: «اركبوا جميعًا، هيا بنا.. أما تسمعون أنها ستجري؟».

- ستجري حقًا! إنها لم تجر منذ عشر سنوات..

- سترون أنها تجري!

- لا تهتموا أيها الرفاق، فليأت كل منكم بسوط واستعدوا..

- حسنًا، فلنركب..

وتسلك الجميع عربية ميكولكا بين الضحك والفكاهة، فركب ستة رجال وما زال فيها مكان لغيرهم، فرفعوا إليها امرأة سمينة ذات خدين متوردين، تلبس ثوبًا أحمر من القطن وعلى رأسها قبعة مدببة محلاة بالخرز، وفي قدميها حذاءان ثقيلان، وكانت تكسر بفمها بندقًا وتضحك، وكان الجمهور المتجمع حول العربية يضحك أيضًا، إذ كيف له أن ينقطع عن الضحك وصاحب العربية يزعم أن تلك الفرس الحقيرة سوف تجر هذا الحمل كله وتجري به؟..

وأتى شابان من ركاب العربية بسوطين ليساعدا ميكولكا، وعندما صاح هذا: «هيا الآن!» جذبت الفرس العربية بكل قوتها، ولكنها لم تكدر تستطيع أن تتقدم خطوة فضلًا عن أن تجري، وجاهدت بسيقانها وهي تلهث وتتضاءل تحت ضربات الأسواط الثلاثة التي نزلت عليها كالمطر، وتضاعف الضحك من فوق العربية ومن الجمهور، فاستشاط ميكولكا غضبًا وانهال عليها ضربًا كأنه ظن أن من الممكن أن تجري حقيقة..

وصاح فتى من الجمهور انفتحت نفسه للكلام فقال: «دعوني أركب يا رفاق...».

فصاح صاحب العربة: «اركب! اركبوا جميعاً! ستجركم جميعاً وإلا ضربتها حتى الموت».. وظل يضرب الفرس ويضرب، وقد أفقده الغضب صوابه..

فصاح الغلام في ألم: «أبتاه! أبتاه! ماذا يفعلون؟ أبتاه! إنهم يضربون الفرس المسكينة...».

فقال له أبوه: «هيا بنا، هيا بنا، إنهم سكارى وقد فقدوا عقولهم وهم يهذرون، تعال بنا ولا تنظر».. وحاول أن يسير به ولكنه تخلص من يده وجرى إلى الفرس وهو في رعب شديد، وكانت حالة الحيوان المسكين مما يرثى له، يلهث وهو واقف ثم يحاول الجر ويكاد يسقط.

وصاح ميكولكا: «لنضربها إلى الموت فقد آن لها ذلك، سنقضي عليها...».

وصاح شيخ من بين الجمهور: «ماذا تفعل أيها الشيطان؟ أأست مسيحياً؟».

وقال آخر: «هل رأى أحد مثل هذا؟ فرس حقيرة مثل هذه تجر حمل هذه العربة!».

وصاح ثالث: «إنكم ستقتلونها».

فقال صاحب العربة: «لا شأن لكم بها! إنها ملكي أعمل بها ما أريد، فليركب بعضكم أيضاً، لتركبوا جميعاً ولا بد من أن تسير جرياً!...».

وفجأة ارتفع الضحك وغطى على كل شيء: فإن الفرس هاجت لسيل الضربات فأخذت ترفس في ضعف، حتى أن الشيخ لم يستطع إلا الابتسام لأن حيواناً ضعيفاً مسكيناً كهذا يحاول الرفس!..

وخطف صبيان سوطين وجريا إلى الفرس ليضرباها على أضلاعها، وقد جرى كل منهما إلى جانب.

وصاح ميكولكا: «اضربوها في الوجه وفي العينين! في العينين!».

وصاح أحد الراكبين في العربة: «هيا بنا نغني يا رفاق».. وأخذ جميع الراكبين يشتركون في أنشودة صاخبة، وأحدهم يضرب على دف وبعضهم يصفر، وظلت المرأة تكسر البندق وتأكل..

... وجرى الغلام في الحلم إلى جانب الفرس، وجرى أمامها، وراها تضرب بين عينيها وفوق عينيها! وهو يبكي ويشعر باختناق، وتجري الدموع على خديه، وطاش سوط أحد الرجال فأصاب وجهه فلم يشعر به، وكان يضرب كفاً بكف ويصرخ، وجرى إلى الشيخ ذي الشعر الأبيض واللحية البيضاء الذي يهز رأسه وهو غير راض، فأمسكت به امرأة من يديه وحاولت أن تجره بعيداً، ولكنه جذب نفسه منها وجرى عائداً إلى الفرس، فكانت في آخر رمق ولكنها مع ذلك عادت إلى الرفس..

وصاح ميكولكا في شراسة: «سأعلمك كيف ترفسين».. ورمى السوط وانحنى ورفع من أسفل العربة قضيباً من الخشب طويلاً غليظاً وأمسك أحد طرفيه بيديه الاثنتين ورفع في جهد فوق الفرس..

وصاح الذين حوله: «إنه سيحطمها، إنه سيقتلها!».

فصاح ميكولكا: «إنها ملكي..» وانهاled عليها بضربة شديدة بالقضيب
سمع لها وقع ثقيل..

وصاحت بعض الأصوات: «اضربوها بالسوط، اضربوها بالسوط،
لماذا توقفتن؟».

ورفع ميكولكا القضيب مرة ثانية وأهوى به على ظهر الفرس السيئة
الحظ، فسقطت على ركبتيها ثم عادت فقامت وشدت بكل قواها أولاً إلى
جانب، ثم إلى جانب آخر، وهي تحاول أن تحرك العربية، ولكن أسوأ ستة
كانت تهاجمها من جميع الجهات، ورفع صاحبها القضيب ونزل عليها مرة
ثالثة، ثم مرة رابعة، بضربات ثقيلة موزونة، وتملك ميكولكا الغضب لأنه
لم يستطع قتلها بضربة واحدة، وصاح الجمهور: «إنها فرس قوية!».

- ستسقط بعد دقيقة يا رفاق وينتهي أمرها سريعاً..

قال هذا القول أحد المعجبين بالمنظر..

وصاح ثالث: «فلنأت ببلطة كي ننتهي منها».

وصرخ ميكولكا في جنون: «سأريكم، ابتعدوا عنها». ورمى بالقضيب
وانحنى إلى العربية وأخرج منها قضيباً من الحديد وصاح: «انظروا...» ثم
ضرب الفرس المسكينة بكل قوته ضربة عنيفة، ونزلت الضربة على الفرس
فترنحت ورجعت إلى الخلف وحاولت الجر، ولكن قطعة الحديد نزلت
ثانية بضربة قاصمة على ظهرها فسقطت على الأرض ككتلة من خشب..

وصاح ميكولكا: «لنته منها..» وقفز من العربية وقد فقد صوابه،
وأمسك عدد من الشبان السكارى كل ما استطاعوا أن يجدوه أمامهم - من
أسواط وعصي وأعواد خشبية - وجروا إلى الفرس التي كانت تموت،

ووقف ميكولكا على جانب وبدأ ينزل بضربات كيفما اتفق، ومدت الفرس رأسها وشهقت شهقة طويلة.. وماتت...

وصاح أحد المتجمهرين: «لقد ذبحتموها ذبحًا...».

وصاح آخر: «لماذا لم تقو على الجري؟».

وصاح ميكولكا وهو ممسك بقطعة من الحديد في يده يهزها وقد احمرت عيناه: «إنها ملكي!» ووقف كأنه آسف إذ لم يعد يجد ما يضربه.. وصاحت عدة أصوات من الجمهور: «ليس من شك في أنك لست مسيحيًا».

ولكن الغلام المسكين طار صوابه وشق طريقه بين الجمهور إلى الفرس وهو يصرخ، وطوق رأسها بذراعيه وهي ميتة والدم ينبثق منها، وقبلها من عينها وقبل شفيتها... ثم انتصب واقفًا وهجم في سورة الغضب بقبضتيه الصغيرتين على ميكولكا، وفي تلك اللحظة أدركه أبوه - وكان يجري وراءه - فجذبه إليه وحمله من بين الجمع وقال له: «هيا بنا! هيا بنا! لنعد إلى البيت...».

وكان يبكي ويقول: «أبتاه! لماذا.. قتلوا... الفرس المسكينة؟».

ولكن صوته انحبس، وكانت الكلمات تخرج في صرخات من صدره اللاهث.

قال الوالد: «إنهم سكارى.. إنهم متوحشون.. ليس هذا من شأننا».

فأحاط والده بذراعيه ولكنه أحس باختناق، ثم حاول أن يتنفس ويصيح، وإذا به يستيقظ..

وقام من نومه وهو يلهث، وقد بلل العرق شعره الذي وقف من
الخوف..

وقال بعد أن جلس تحت شجرة وأخذ يستنشق الهواء بقوة: «شكرًا
لله، فما هو إلا حلم! ولكن ما هو؟ هل هو حمى وافدة عليّ؟ إنه لحلم
فظيع!».

وشعر بتعب شديد، وكان الظلام يخيم على نفسه والاضطراب
يفعمها، فوضع كوعه على ركبته وأسند رأسه على يديه.

وصاح: «رباه! هل يكون حقًا؟ أحقًا أنني سأمسك ببلطة وأضربها على
رأسها، وأحطم جمجمتها، وأنني سأخطو فوق الدم الحار اللزج وأكسر
القفل، وأسرق، وأرتجف، وأستخفي وقد لوثني الدم... بالبلطة؟.. رباه!
هل يكون هذا؟».

وكان يرتجف كورقة الشجر وهو يقول هذا..

واستمر يقول بعد أن جلس ثانية وكأنه في دهشة عميقة: «ولكن لم
أمضي فيما أنا فيه هكذا؟ لقد عرفت أنني لن أجروء على هذا، فعلام أعذب
نفسي بهذه الأوهام؟ بالأمس، بالأمس عندما ذهبت لأقوم بتلك... التجربة،
بالأمس أيقنت كل اليقين أنني لن أحتمل القيام بهذا العمل... فلماذا أعود
إلى التفكير فيه الآن؟ أما زلت مترددًا؟ عندما نزلت السلم بالأمس قلت
لنفسي إن هذا حقير وكرهه وشر، وشر من الشر.. فإن مجرد التفكير في هذا
الأمر تغى له نفسي ويملائي استفظاعًا..

«لا! لن أستطيع عمله! لن أستطيع عمله! ليكن الحق ما بدا
لي وإن كل ما وصلت إليه في الشهر الأخير واضح كالنهار وصحيح

كالحساب... ولكن، رباة! إني لا أستطيع حمل نفسي عليه.. لا أستطيع هذا العمل!... فلماذا؟ لماذا إذن لا أزال..؟».

ووقف على قدميه ونظر فيما حوله في اندهاش، كأنه يستغرب وجوده في هذا المكان، وسار نحو الجسر «ت».. وكان حائل اللون، وعينه تلمعان، وكل عضو من أعضاء جسمه متعباً.. ولكنه شعر فجأة كأنه يتنفس بسهولة، كأنه ألقى حملاً مخيفاً يثقل عليه، وشعر فجأة بنوع من الارتياح والهدوء يملأ نفسه، وقال في دعاء: «اللهم اهدني سواء السبيل.. إني أعدل عن.. ذلك الحلم اللعين».

وعبر الجسر وتأمل في هدوء وسكون نهر النيفا والشمس الغاربة المتوقدة، وبالرغم من ضعفه لم يكن يشعر بالتعب، وكأن الورم الذي كان يتجمع في الشهر الماضي داخل قلبه قد انفتح فجأة. الحرية، الحرية! لقد تخلص من ذلك السحر، ولم يعد لتلك الفكرة الخبيثة المتسلطة تأثير عليه.

كان فيما بعد يتذكر ذلك الزمن، وما حدث له في تلك الأيام لحظة فلحظة ومسألة فمسألة، فيشعر بتأثر لا يدرك كنهه من حادث واحد ليست له غير أهمية عادية، ولكنه بدا له فيما بعد أنه نقطة التحول المقدرة من قبل في حظه. إذ لم يستطع أن يفهم أو يفسر لنفسه الباعث الذي جعله يعود- مع تعبته وإرهاقه- عن طريق سوق التبغ الذي لا حاجة به إلى المرور فيه، مع أنه كان من الأصلح له أن يقصد مسكنه بأقصر طريق.. وكان دائماً يسائل نفسه عن السر في ذلك الاتفاق العجيب الذي هباً له تلك المقابلة المهمة في سوق التبغ (حيث لا سبب لذهابه) وعن السر في حدوث ذلك اللقاء- في تلك الساعة، وفي تلك اللحظة من حياته- حين كان استعداده

وظروفه تجعل لهذه المقابلة أخطر تأثير وأكبره على مستقبله بأسره؟ أكانت المقادير تتربص به عن عمد؟

كادت الساعة تبلغ التاسعة عندما اجتاز سوق التبغ، وكان المشتغلون في السوق يجمعون أمتعتهم، من المناضد أو عربات اليد أو صناديق البيع والحوانيت ليغلقوا أماكنهم أو ينقلوا الأمتعة منها، فهم يحزمونها كي يذهبوا إلى دورهم. وقد أخذ جامعو الخرق القديمة وبائعو الحداث يجتمعون عند الحانات القذرة، المنبثة في الأفنية الكريهة الرائحة بسوق التبغ. وكان رسكولنكوف يحب هذا المكان خاصة، والأزقة المجاورة له يسير فيها دون غرض، ففي ذلك المكان لا تجذب ثيابه الخلقة نظرات الاحتقار، ويستطيع أي إنسان أن يلبس أية ثياب دون أن يجد من يستنكرها. وفي ركن من أركان زقاق «ك».. رأى بائعًا وزوجته وقد وضعا منضدتين عليهما أشرطة وخيط ومناديل من القطن وما شابه ذلك، وقد وقفا يستعدان للذهاب إلى مسكنهما، ولكنهما تخلفا يتجاذبان الحديث مع صديقة جاءتهما في ذلك الوقت، وهذه الصديقة هي ليزا فتا إيفانوفنا، أو كما يدعوها الجميع ليزا فتا، وهي الأخت الصغيرة للمرابية العجوز إلينا إيفانوفنا التي زارها رسكولنكوف في اليوم السابق ليرهن ساعته عندها ويقوم بتجربته...

وكان يعرف كل شيء عن ليزا فتا وهي تعرفه بعض المعرفة، وهي امرأة غير متزوجة في الخامسة والثلاثين من عمرها، طويلة القامة ثقيلة الحركة خجول خاضعة لتكاد تكون بلهاء.. وكانت لدى أختها بمثابة الأسيرة، فهي تخافها وترتعد أمامها، والأخت تحملها على العمل ليلاً ونهارًا، وأحيانًا

تضربها. وكانت واقفة ومعها حزمة أمام بائع الخردوات وزوجته تصغي إليهما في اهتمام، وكانا يتحدثان إليها في حماسة ظاهرة، وعندما رآها رسكولنكوف عرته دهشة عميقة، وإن لم يكن هناك ما يدهش في هذه المقابلة.

كان بائع الخردوات يقول في صوت مرتفع: «عليك أن تقرري يا ليزافتا إيفانوفنا، تعالي غداً في الساعة السابعة فإنهم سيكونون هنا أيضاً». فقالت ليزافتا في بطاء وتفكير كأنها مترددة: «غداً؟».

وصاحت زوجة البائع، وهي امرأة ضئيلة الجسم نشيطة: «حقاً إنك لفي خوف شديد من إيلونا إيفانوفنا.. إنني أنظر إليك وكأنك طفلة صغيرة! إنها ليست أختك، فهي لا تزيد على أخت من الأب، ومع ذلك فإن يدها ثقيلة عليك...».

وقاطعها زوجها قائلاً: «ولكن حذار في هذه المرة أن تقولي كلمة إلى إيلونا إيفانوفنا، هذه هي نصيحتي! تعالي إلينا دون أن تسألها، ففي هذا فائدة لك، وفيما بعد يمكننا أن نقنع أختك». فقالت: «قد آتي!».

فقال الرجل: «في نحو السابعة غداً، وسيكونون هنا، فافعلي كما تشائين».

وأضافت الزوجة: «وسنشرب فنجاناً من الشاي».

فقالت ليزافتا وهي لا تزال تفكر، وقد أخذت تتحرك في بطاء تريد الذهاب: «حسنًا، سأحضر...».

وكان رسكولنكوف قد مر بهما ولم يسمع أكثر من ذلك، ومر في هدوء

دون أن يسترعى النظر وهو يحاول ألا يدع كلمة تفلت منه، وكانت دهشته الأولى قد تبعثها رعشة من الاستفطاع سرت في بدنه.. فقد علم، وعلم فجأة على غير توقع، أن ليزا فتاة أخت العجوز وزميلتها الوحيدة ستكون في الساعة السابعة بعيدة عن الدار، وعلى ذلك ففي الساعة السابعة تمامًا ستكون العجوز وحيدة..

وكان على بعد خطوات من مسكنه، فدخل إليه وكأنه رجل محكوم عليه بالموت، لا يفكر في شيء، بل ولا يقدر على التفكير، ولكنه أحس فجأة بشعور غمر كل كيانه، أنه لم يعد طليقًا في تفكيره، ولم تعد له إرادة، فقد تعمد كل شيء فجأة ولا يمكن الفكك منه.

وأيقن في نفسه أنه لو ظل سنوات كاملة ينتظر فرصة ملائمة لما لاحت له فرصة مثلها تفضي به حتمًا إلى نجاح خطته.

ومهما يكن من أمره، فقد تذلت له عقبة كان لا يدري كيف يذللها.. فقد تيسر له أن يعرف قبل الإقدام على إنفاذ خطته، أن العجوز التي كان يريد اغتيالها سوف تكون في بيتها وحيدة في ساعة معينة من اليوم التالي، وأن يعرف ذلك على وجه الدقة بغير كبير مخاطرة، وبغير أن يضطر إلى سؤال أحد أو يتجسس الأخبار من أحد..

(٦)

عرف رسكولنكوف فيما بعد سبب زيارة ليزافتا للبائع وزوجته. وكان ذلك السبب أمرًا عاديًا ليس له خطورة خاصة، فقد جاءت أسرة إلى المدينة وحل بها الفقر فاعتزمت بيع أمتعتها وثيابها، وكلها من متاع النساء. وكانت هذه الأشياء مما لا يشتريه أهل السوق إلا بضمن ضئيل، فأرادوا أن يكلوا البيع إلى من يتجر في هذه الأشياء القديمة، وكانت ليزافتا تقوم بمثل هذا العمل.

وكثيرًا ما كان يعهد إليها في مثل ذلك؛ لأنها معروفة بالأمانة وهي تحدد ثمنًا عادلًا لا تنزل عنه. وهي عادة لا تتكلم إلا قليلًا، وكانت فضلًا عن ذلك كما وصفناها من قبل مسالمة جدًا ويغلبها الحياء.

ولكن رسكولنكوف صار منذ حين يؤمن بالخرافة، ولزمه ذلك الوسواس حينًا طويلاً من بعد حتى كاد لا يفارقه، فكان يرى في كل ما

يعرض له معنى غريبًا وسرًا خفيًا، كأن أمور الحياة تتحرك طوعًا لنواميس خفية وخوارق غير طبيعية، وكأنه واقع تحت تأثير أقدار محتومة ومصادفات مقدورة.. فقد اتفق له في الشتاء السابق أن كان يتحدث إلى طالب يدعى بوكوديف، وقد رحل إلى مدينة هاركوف، فعرف منه في أثناء الحديث عنوان إلونا إيفانوفنا المرابية العجوز، وقال له صاحبه إن ذلك قد ينفعه يومًا إذا أراد أن يرهن شيئًا، وظل مدة طويلة لا يذهب إليها لأنه كان يلقي دروسًا يستعين بأجرها على تدبير حياته بعض التدبير.

ومنذ ستة أسابيع تذكر العنوان.. وكان عنده شيئان يريد رهنهما: ساعة فضية من أبيه، وخاتم صغير من الذهب فيه ثلاثة فصوص حمراء، وهو هدية من أخته أهدتها إليه عند رحيله. فعزم على أن يذهب بالخاتم فيرهته، وعندما رأى المرأة العجوز شعر نحوها من النظرة الأولى بنفور لم يستطع مقاومته، ولو أنه لم يعرف عنها شيئًا خاصًا، فأخذ منها روبلين وذهب إلى حانة صغيرة في طريقه إلى الدار، وطلب شايًا وجلس غارقًا في تفكير عميق، إذ ساورته فكرة غريبة أخذت تضطرب في مخه كالجنين إذ ينقر البيضة..

وتملكته هذه الفكرة كأنها وسواس، ثم اتفق له يومًا أن كان يجلس إلى المنضدة التي بجواره طالب لا يعرفه ولم يره من قبل، ومعه ضابط صغير كان يلاعبه البلياردو، وجلسا يشربان الشاي، وفجأة سمع الطالب يذكر للضابط اسم إلونا إيفانوفنا المرابية ويعطيه عنوان مسكنها فأخذه العجب من ذلك ورأى فيه غرابة. إذ كان آتيًا من عندها، فما أعجب أن يسمع اسمها في الحانة، وقد كان ذلك بغير شك مصادفة محضة، ولكنه لم

يستطع التخلص من الأثر العميق الذي أحدثته تلك المصادفة، وخيل إليه أن ذلك الطالب لم ينطق بقوله إلا من أجله خاصة. وأخذ الطالب يحدث صديقه بدقائق شتى عن إلونا إيفانوفا.

- إنها مرابية فذة تستطيع دائماً أن تدبر لك نقوداً، فهي غنية كاليهود، وتستطيع أن تعطيك خمسة آلاف روبل مرة واحدة، وهي لا ترفض أن تأخذ رهناً لروبل واحد، وكثيرون من زملائي يعاملونها، ولكنها عجوز شمطاء فظيعة...

وأخذ يصف لصاحبه مبلغ خبثها قائلاً: «امرأة خيانة خبيثة، إذا تأخرت يوماً عنها في سداد الفائدة أضعت رهنك، وهي لا تعطيك إلا ربع قيمة المرهون وتستولي على فائدة قدرها خمسة في المائة أو سبعة في الشهر الواحد».. وهكذا ظل الطالب يثرثر لصديقه، فذكر أن لها أختاً اسمها ليزاقتا، وأن تلك المرأة اللعينة تضربها دائبة وتسيطر عليها وتستعبدها كأنها طفل صغير، ولو أن ليزاقتا تبلغ في طولها ستة أقدام..

وصاح الطالب: «هذه ظاهرة من الظواهر الجديرة بدرسك».. ثم ضحك، وأخذ الصاحبان يتحادثن عن ليزاقتا، وكان الطالب يتكلم عنها في سرور واضح وهو يضحك، بينما كان الضابط يصغي إليه في اهتمام كبير، وطلب منه أن يرسل إليه ليزاقتا لتصلح له بعض ثيابه، ولم تفت رسكولنكوف كلمة من حديثهما وعلم كل شيء عنها، فليزاقتا أصغر من العجوز وهي أخت غير شقيقة من أم أخرى، وهي في الخامسة والثلاثين من عمرها تشتغل ليلاً ونهاراً لأختها، فتقوم بالطهي والغسل وتحوك الثياب للناس وتخدم في بيوتهم ثم تعطي أختها جميع ما تكسبه، وهي لا تجسر

على قبول أي أمر أو عمل من أي نوع من غير إذن أختها، وقد قامت العجوز بكتابة وصيتها وعلمت ليزا فتا بها وعرفت أنها لن يصيبها من هذه الوصية درهم إلا بعض المنقولات كالكراسي وغيرها وسيذهب مال العجوز كله لدير في مدينة ن... لتقام صلوات من أجلها على طول الزمن.

فكانت ليزا فتا في طبقة أخط من أختها، وهي غير متزوجة ومنظرها أشعث غير متناسق، فهي طويلة القامة طولاً يسترعى النظر، وقدماهما طويلتان كأنهما تنحنيان إلى الخارج، وهي تحتذي دائماً حذاءً قديماً من جلد الماعز، على أنها نظيفة في شخصها، ولكن الأمر الذي كان يدهش له الطالب ويشير فكاهته هو أن ليزا فتا كانت دائماً حاملاً.

فقال الضابط: «ولكنك تقول إنها قبيحة».

فأجاب: «نعم، إنها سمراء اللون وتشبه في منظرها جندياً في ثياب عمله، ولكنها مع ذلك لا تبلغ حد القبح.. فإن لها وجهًا وعينين تسترعى النظر بما فيها من مظهر الطيبة، والبرهان على ذلك أن عددًا كبيرًا من الناس ينجذبون إليها، فهي امرأة ناعمة رقيقة ترضى أن تحتل كل شيء وهي امرأة مواتية ترغب في أن تعمل كل شيء، وفي الحق أن ابتسامتها حلوة جدًا».

فضحك الضابط وقال: «يظهر أنها جذابة لك أيضًا».

فقال: «نعم، لغرابتها». ثم أضاف الطالب في حرارة: «استمع إلى ما أقول لك: ثق أنني لو قتلت تلك العجوز اللعينة وفررت بمالها لما شعرت بوخزة في ضميري».

فضحك الضابط مرة أخرى، بينما ارتعد رسكولنكوف وقال في نفسه:
«ألا ما أعجب هذا!».

ومضى الطالب يقول في حرارة: «اصغ إليّ، أريد أن أسألك سؤالاً خطيراً... لقد كنت بلا ريب أمزح؛ ولكن انظر: ها هي ذي امرأة عجوز سخيفة حمقاء لا قيمة لها، وهي خبيثة مريضة فظيعة، لا أقول إنها لا فائدة منها، بل أقول إنها مضرّة فعلاً، وهي لا تعرف لماذا تعيش، وقد تموت بعد يوم أو بعد يومين على كل حال... أتفهم قولي؟».

فنظر الضابط في اهتمام إلى رفيقه المتحمس وقال: «نعم، نعم، أنا فاهم...».

فقال الشاب: «إذن اصغ إليّ: ضع هذه المرأة في جانب ثم ضع في الجانب الآخر شاباً يافعاً يضيعون ألوفاً في مسارب الحياة لأنهم لا يجدون عوناً، وأموال هذه العجوز تدفن بعدها في دير مع أنها كافية لمئات الألوف من أعمال البر والمساعدة. ولو أحسن التصرف في ذلك المال لمساعد على إصلاح حال مئات الألوف، ولأنقذ عشرات الأسر من الفاقة والسقوط والإثم، ومن مستشفيات الدعارة... كل ذلك كان من الممكن تدبيره بأموالها. فلتُقتل ولتؤخذ أموالها لتستعمل في خدمة الإنسانية ولمنفعة الجميع! أفلا تظن أن مئات الألوف من أعمال الخير تمحو وزر جرم صغير؟ هنا حياة واحدة تضيع وهناك ألوفاً من الأنفس تنجو من الفساد والتحطم! فموت واحد تبادله بمائة حياة.. إنه لحساب بسيط! وفضلاً عن ذلك ما قيمة حياة تلك العجوز المريضة الغبية الخبيثة في ميزان الوجود؟ إنها لا تزيد على حياة قملة أو خنفسة بل هي أقل من ذلك؛ لأن العجوز

تضر بالناس وفي حياتها ضياع لحياة الآخرين، ولقد عضت منذ أيام أصبع ليزافتنا في غضبها فكاد الأمر يفضي إلى قطعه».

فقال الضابط: «إنها بلا ريب لا تستحق الحياة، ولكنها وجدت فيها، هذه هي سنة الكون».

فقال الطالب: «ليكن! ولكن يا صديقي علينا أن نصحح أخطاء الطبيعة ونوجهها، ولو أننا لم نفعل لغرقنا في محيط من الضلالة، ولو أننا لم نفعل لما ظهر رجل واحد عظيم. إنهم يتكلمون عن الواجب وعن الضمير - ولست أريد أن أغض من معنى الواجب والضمير - ولكن المسألة هي أنني أسأل عن معناه.. صبراً، إن لدي سؤالاً آخر أوجه إليك! اصغ إليّ!...».

فقال الضابط: «لا، بل انتظر أنت! سأسألك أنت سؤالاً! اصغ أنت إليّ!...».

- حسناً!

- إنك تتكلم وتحدد!! ولكن أخبرني.. هل تقتل العجوز أنت بنفسك؟

- طبعاً لا! كنت فقط أتكلم من وجهة العدالة. إنه أمر لا علاقة لي به..

- إذن فما دمت لا تحب أن تفعل ذلك فهو أمر بعيد عن العدالة! لن ندع هذا ولنعد إلى اللعب..

فاضطرب رسكولنكوف لهذه الأقوال اضطراباً عنيفاً، على أنها لم تكن سوى أحاديث وخواطر تجري عادة في أحاديث الشباب، وكثيراً ما سمع مثله في عبارات مخالفة وميادين شتى، ولكنه عجب أن يسمع هذه

المناقشة وهذه الآراء في تلك اللحظة التي كان ذهنه منصرفاً فيها إلى هذه الأفكار بعينها.. فأى اتفاق عجيب ذلك الذي يسوقه إلى حيث يسمع ذلك الحديث عن العجوز في هذه اللحظة التي خرج فيها جنين فكرته؟ لقد كانت مصادفة ما أعجبها عنده. فكان هذا الحديث التافه في حانة هو الذي دفعه فيما بعد إلى مخاطرته الكبرى، كأنه كان شيئاً مقدراً من قبل، وكأنه كان قضاء يتجه به في سبيله قسراً.

ولما عاد من سوق التبغ، رمى بنفسه على منضدة وجلس ساعة كاملة لا يتحرك، وكان الظلام قد أرخى سدوله ولم تكن لديه شمعة، بل لم يكن يفكر في إضاءة غرفته، ولم يستطع أن يتذكر هل كان يفكر في شيء في ذلك الوقت أم كان ذهنه خالياً، ثم أحس بما كان في جسده من حمى ورعدة، وارتاح حين تحقق لديه أنه يستطيع الرقاد على المقعد، ولم يلبث أن احتواه نوم ثقيل كأنه يريد أن يحطمه.

ونام مدة طويلة لم يسبق له أن نام مثلها دون أن يحلم بشيء، وعندما جاءت نستاسيا في الساعة العاشرة من صباح اليوم التالي إلى الغرفة لم تستطع إيقاظه إلا بعد لأي، وكانت قد جاءت به بشاي وخبز... شاي مغلي من قبل وفي الإناء الخاص بها.

وصاحت في غضب: «رباه!.. إنه لينام عميقاً، وإنه لدائم النوم!».

وقام بعد جهد وكان رأسه يؤلمه، فوقف ودار في الغرفة، ثم عاد فسقط على مقعد النوم.

وصاحت نستاسيا: «هل تعود للنوم؟ أأنت مريض؟».

فلم يرد عليها بجواب..

فسألته: «أما تريد الشاي؟».

فقال في جهد: «فيما بعد!»، ثم عاد فأغمض عينيه واستدار نحو الحائط...

ووقفت نستاسيا تنظر إليه، ثم قالت: «لعله مريض حقيقة!».

ثم استدارت وغادرت الغرفة، وعادت مرة ثانية في الساعة الثانية بعد الظهر ومعها حساء، وكان راقداً كشأنه من قبل ولم يذق الشاي، فشعرت نستاسيا بالغضب وأخذت توقظه في عنف.

وصرخت فيه وهي تنظر إليه في احتقار: «أما تزال راقداً ككتلة من خشب؟».

وقام من نومه وجلس ولكنه لم يقل شيئاً، وظل يحدق في الأرض.

فسألته نستاسيا: «مريض أنت أو غير مريض؟»، ولكنه لم يجبها..
فقالت له: «خير لك أن تخرج لتتنفس الهواء الطلق»، ثم قالت بعد فترة: «أما تأكل؟».

وقال في ضعف: «فيما بعد. فاذهبي إن شئت!».

وأشار إليها بالخروج..

فوقفت برهة ونظرت إليه في شفقة ثم خرجت.

وبعد بضع دقائق رفع عينيه وظل ينظر فترة طويلة إلى الشاي والحساء ثم أخذ الخبز وتناول ملعقة وأخذ يأكل.

ولكنه لم يأكل إلا قليلاً، ثلاث ملاعق أو أربعاً من غير رغبة كأنه آلة تتحرك، فقل الصداع في رأسه، وتمدد ثانية على المقعد بعد الأكل ولكنه

لم يستطع النوم، ثم رقد دون حراك ووجهه إلى المخذة.. وتملكته أحلام اليقظة، ولكنها كانت أحلامًا غريبة. تخيل في أحد هذه الأحلام - وكثيرًا ما كانت تعاوده - أنه في أرض تشبه أن تكون أفريقيا أو مصر، وكأنه في إحدى الواحات، وكأن القافلة قد قبعت للراحة، وركد الجمال في هدوء والنخيل يحيط بهم، وأقبلوا على طعام العشاء، وأما هو فذهب ليشرب من عين تتدفق على مقربة من المكان، وكان الماء لطيفًا في برودته، عجيبيًا في زرقته، يتدفق على حصى كالجواهر في ألوانه، وعلى الرمال النقية التي تلمع كالنبر في صفائه..

ثم سمع فجأة دقات ساعة فهب وقام من أحلامه ورفع رأسه فأطل من النافذة، فلما تبين له أن الوقت قد تأخر به قام واثبًا وذهب عنه كل أثر النعاس كأن أحدًا جذبه من المقعد، ثم مشي على أطراف أصابعه إلى الباب وفتحته خلسة وأخذ ينصت على السلم وقلبه يدق في عنف، ولكن السكون كان شاملاً. كان السكان جميعًا قد ناموا.. وبدأ له أنه من الغريب أن يستسلم للنوم هذا الاستسلام، ويستغرق في الشرود من اليوم السابق لا يفعل شيئًا ولا يعد عدة..

ولعل الساعة قد دقت السادسة، فزال عند ذلك خموله وفارقت دهشته وحل محلها نشاط أشبه بنشاط المحموم أو سرعة المخبول، ولكن الاستعداد الذي كان ينبغي له كان يسيرًا، فجمع كل نشاطه ليفكر في كل شيء ويحيط بكل أمر فلا ينسى شيئًا، وكان قلبه ما زال يدق ويخفق حتى كاد لا يستطيع التنفس. كان عليه أولاً أن يعقد عروة يخطيها في معطفه - وذلك لا يستغرق لحظة - ويبحث تحت مخدته وأخرج من الخرق التي دسها هناك قميصًا باليًا قدرًا فقطع منه قطعة طويلة تبلغ أربعين سنتيمترًا في

الطول وفي عرضها نحو خمسة سنتيمترات، ثم طواها طية وأتى بمعطفه الصيفي الواسع المتين، وكان من قماش قطني غليظ، ولم يكن له رداء غيره، وبدأ يحوك جانبي العروة فيه من داخله تحت الكم الأيسر.

وكانت يدها تهتزان وهو ماض في حياكته، ولكنه نجح في عمله فلم يظهر شيء على المعطف حين لبسه، وقد أعد من قبل الإبرة بالخيط ووضعتها ملفوفة على قطعة من الورق فوق منضدته، وكانت العروة حيلة بارعة ابتدعها لحمل البلطة، إذ كان لا يتسنى له أن يحمل البلطة في يده في الطريق، وإذا أخفاها تحت سترته اضطر لإسنادها بيده وذلك قد يسترعى النظر، أما وقد اتخذ تلك العروة فلم يكن عليه إلا أن يعلق رأس البلطة فيها فتكون تحت ذراعه من الداخل، فإذا مد يده من جيب سترته فإنه يستطيع أن يمسك بيد البلطة طول الوقت حتى لا تهتز، ولما كان المعطف واسعاً كالكيس فلن يحسب أحد أنه ممسك بشيء في اليد التي في جيبه، وقد ابتدع رسم تلك العروة منذ أسبوعين.

فلما فرغ من هذا، دس يده في الفتحة الصغيرة بين الأريكة والأرض وبحث في الركن الأيسر فاستخرج الرهن المزيف، وكان قد أعدّه من وقت طويل وخبأه هنالك، وكان لا يزيد على قطعة ناعمة من الخشب في حجم علبة السجائر الفضية وثخانتها، وقد وجد هذه القطعة من الخشب في أثناء تجواله، وكانت ملقاة في رجة بها مصنع من المصانع، ثم أضاف إليها فيما بعد قطعة رقيقة ناعمة من الحديد وجدها في الوقت ذاته في الطريق وكانت قطعة الحديد أصغر من الخشب، فشدّها عليها وربطهما ربطاً محكمًا بأن لف عليهما الخيط عدة مرات ثم لفهما بعناية ودقة في ورق أبيض نظيف،

وربط الورقة ربطاً محكمًا حتى يكون من الصعب فتحها.. وكان غرضه من كل هذا أن يوجه اهتمام العجوز إليها فترة من الوقت وهي تحاول حل الرباط فينفسح أمامه الوقت لإنفاذ خطته، وقد أضاف قطعة الحديد ليكون لها ثقل فلا تستريب بها المرأة منذ اللحظة الأولى وتدرّك أنها من الخشب، وقد دس كل هذا من قبل تحت المقعد. وما كاد يخرج الرهن حتى سمع صوتًا يصيح فجأة في الفناء:

- لقد دقت الساعة السادسة منذ زمن طويل..

- منذ زمن طويل؟ ربا!..

وجرى إلى الباب وأصغى، ثم أخذ قبعته ومضى في حذر يتسلل في سكون هابطاً درج السلم كأنه هرة، وكان عدد الدرج ثلاث عشرة درجة، وكان عليه بعد ذلك أن يعمل أهم شيء، وذلك أن يسرق البلطة من المطبخ فقد نوى منذ زمن طويل أن يأتي فعلته بالبلطة، وكانت معه مدية جيب كبيرة ولكنه كان لا يعتمد عليها ويعتمد أقل من ذلك على قوته، فحملة ذلك على أن يستقر رأيه على استعمال البلطة..

ولنقف هنا وقفة قصيرة لتحدث عن أمر يتصل بعزائم ذلك الشاب، فقد كان إذا انتهى إلى قرار حاسم في أمر من الأمور فإنه لا يلبث أن ينكره ويبدو له سخيًّا، وكان لا يكاد يصدق أنه سوف ينفذ خطته التي استقر عزمه عليها، على حين كان قلبه يضطرم ويضطرب بما فيه..

فلو أنه كان قد حدد كل كبيرة وصغيرة تحديداً كاملاً بعد أن أعمل فكره فيها، ولم يبق عنده شيء غير مؤكد، لكان أغلب الظن أن يعدل عنه آخر الأمر ولبدا له شيئاً سخيًّا فظيماً مستحيلاً.. ولكنه لم يفعل ذلك، بل بقي

كثير من المسائل معلقاً لم يصل به إلى رأي قاطع. أما الحصول على البلطة فكان عملاً هيناً لا يدعو إلى قلق، فإن نستاسيا كثيرة الخروج من البيت ولا سيما في المساء، فهي تخرج إلى الجيران أو إلى حانوت من الحوانيت وتترك الباب مفتوحاً، وهو أمر كانت صاحبة البيت تؤنبها عليه دائماً، فإذا حان الوقت لم يكن عليه إلا أن يذهب في هدوء إلى المطبخ ويأخذ البلطة، وبعد ساعة- بعد أن يتم كل شيء- يعود ويردها إلى موضعها..

لكن الشكوك كانت تحيط بكل هذه المسائل، فقد يعود بعد ساعة ليرد البلطة فإذا نستاسيا قد عادت، فيجدها هناك في مكانها، فيكون عليه بلا ريب أن يذهب عنها وينتظر حتى تخرج مرة أخرى، ولكنها قد تفتقد البلطة في تلك الأثناء فلا تجدها فتبحث عنها وتثير ضجة.. ألا يكون معنى هذا قيام الشكوك أو احتمال إثارتها على الأقل؟..

كل هذه الأمور كانت توافه لم يكذب يتدبّر التفكير فيها، ولم يكن لديه الوقت لها؛ لأنه كان يفكر في المسألة الكبرى، ويترك الدقائق التافهة إلى حين يثبت رأيه على أنه مقدم حقاً على فعلته، ويعقد العزم عليها، ولكنه كان ما يزال يرى أن الأمر لا يمكن تحقيقه. أو على الأقل كان هذا ما ظهر له عند ذلك، فهو لم يتصور مثلاً أنه في وقت ما سيطرح التفكير جانباً ويهم ذاهباً بغير تردد إلى هناك.. حتى تجربته الأخيرة- أي زيارته بغرض إلقاء نظرة على المكان- لم تكن سوى محاولة تجربة ولم تكن شيئاً حقيقياً. وهل يصح في الأذهان أن يقول الإنسان لنفسه: «هلم فلنذهب ونحاول، ولنعد ما نحن فيه من أحلام»؟

وخلاصة القول إنه لم يشعر إلا وهو ينهار فجأة ويخرج مسرعاً لاعناً

حانقًا على نفسه. ومع ذلك فقد كانت حاله تنم عن أنه قد فرغ فيما بينه وبين نفسه من التفكير والتحليل، وأنه قد انتهى إلى رأي قاطع ماض كأنه حد الموسي، ولم تبق في نفسه شكوك أو وساوس تعوق عزيمته.. ومع هذا فقد كان ما يزال يتوارى من نفسه ويخيل إليها في عناد أنه لا يظن أنه يستطيع الإقدام على فعلة مثلها، وانساق في مخادعة نفسه يلتمس وجوه الرأي المعارضة ويتحسسها جاهدًا، كأنه كان مرغماً على عمل ويحاول أن يجد منه خلاصًا..

وقد كان في مبدأ الأمر، ومنذ زمن بعيد، مشغولاً بأمر واحد.. كان يسأل نفسه عن السبب الذي من أجله تكون أكثر الجرائم مهتوكة الستر لا تلبث أن تكشف ويستدل عليها.. وما الذي يجعل أكثر المجرمين يخلفون وراءهم آثارًا واضحة تنم عليهم؟.. وقد وصل من تفكيره شيئًا فشيئًا إلى نتائج شتى عجيبة، ففي رأيه أن السبب الأكبر في ذلك لم يكن استحالة إخفاء معالم الجريمة، بل إنه هو المجرم نفسه.. فالكثرة العظمى من المجرمين يعترفهم ما يعصف بإرادتهم وقوة تفكيرهم، ويصيبهم نوع من التفريط عن غير قصد منهم، ويكون مسلكهم في ذلك أشبه بمسلك الطفولة، في حين كان ينبغي لهم أن يكونوا أشد الناس حرصًا وحذرًا.

وكان يرى أن هذا الشلل الذي يصيب تفكيرهم، وهذا الانهيار الذي يلم بإرادتهم، ما هما سوى عارضين يشبهان الأمراض، وينموان شيئًا فشيئًا حتى يبلغ ذروتها قبل ارتكاب الجريمة، ثم يبقى أثرهما على أشده في أثناء ارتكابها، ويظل بعد ذلك حينًا طويلاً أو قصيرًا تبعًا لحالة الشخص، ثم يأخذ في الزوال كما يزول كل مرض آخر. إما أن هذا العارض هو

الذي يؤدي إلى الجريمة، أو أن الجريمة بطبيعتها الخاصة تستلزم مثل هذا العارض الذي يشبه المرض، فإنه سؤال لم يستطع الاهتداء فيه إلى قرار.. ولما بلغ هذه النتائج تقرر لديه أنه لن تعتريه مثل هذه الحالة المرضية، وأن تعقله وإرادته سيظلان سليمين في الوقت الذي ينفذ فيه خطته لسبب واحد، وهو أن العمل الذي يهتم بإنفاذه لم يكن بالجريمة.. وسنغفل ذكر كل المقدمات وكل النتائج التي مهد بها للوصول إلى هذه النتيجة الأخيرة، فإننا قد بعدنا كثيرًا عما كنا بصده. وكل ما نريد إضافته هو أن الصعوبات العملية المادية في هذا الأمر لم تشغل من فكره إلا مكانًا ضئيلًا، فكل ما تقرر عنده هو أن الإنسان ينبغي له أن يحافظ على قوة إرادته وصفاء عقله حتى يعالج الصعاب التي تعترضه، وما عليه إلا أن يحيط بدقائق عمله ويلم بكل ما يتصل به..

ولكنه لم يعد شيئًا من هذا، وكانت قراراته النهائية أقل ما يثق فيه أو يركن إليه، فلما حانت الساعة المرتقبة سارت الأمور على خلاف ما دبره، كأنه قد ارتكب ما ارتكب عفواً بغير تدبير ولا تفكير.

فإن حادثًا ضئيلًا قد بدل من تدبيره قبل أن يترك السلم، وذلك أنه عندما وصل إلى مطبخ صاحبة البيت ووجد الباب مفتوحًا كالعادة أطل منه في حذر ليرى أوصاحبة البيت هناك في غيبة نستاسيا؟ وهل الباب المفضي إلى غرفتها بقفل حتى لا تطل منه إذا دخل لأخذ البلطة؟.. وما كان أشد دهشته عندما طالعه نستاسيا - وكانت ماضية في عملها هناك، كانت تخرج ثيابًا من سلة وتنشرها على حبل - فلما رآته تركت نشر الثياب واتبعته بنظرها وهو ينصرف عنها، وأما هو فقد لفت بصره عنها ومضى كأنه لم يلاحظ

شيئًا، وخيل إليه أن الأمر كله انتهى، وأنه لن يعمل شيئًا، وقد أفلته السلام وغمره شعور جارف.

وقال في نفسه وهو يخرج من باب الدار: «ما الذي حملني على الظن أنها لن تكون هناك في تلك اللحظة؟ لماذا، لماذا ظننت ذلك مؤكدًا؟».

وخارت قواه وأحس ما يشبه الهوان، وكاد يسخر من نفسه من شدة الغضب.. وثار في أعماق نفسه غضب وحشي غامر.

ووقف مترددًا عند باب الدار، حائقًا يمقت أن يخرج إلى الطريق، متظاهراً بأنه كان يقصد النزهة، كما يمقت الرجوع أدراجه إلى غرفته، بل لعله كان لذلك أكثر مقتًا. وتمتم قائلاً: «أية فرصة أضعتها أبد الدهر!» ووقف حائرًا أمام غرفة البواب الصغيرة المظلمة، وكان بابها مفتوحًا أيضًا، فارتجف فجأة لأن عينيه رأتا في الغرفة على خطوتين منه شيئًا لامعًا تحت دكة إلى اليمين.. فنظر حوله فلم يجد أحدًا، فاقترب من الغرفة ماشيًا على أطراف أصابعه، ثم نزل درجتين إلى داخلها، ونادى البواب في صوت منخفض، فلم يكن في غرفته.. ولكنه كان بلا شك قريبًا منها في الفناء، إذ كان الباب مفتوحًا على سعته، فهجم قاصدًا البلطة (فقد كان ذلك الشيء اللامع بلطة) وجذبها من تحت الدكة، وكانت بين قطعتين من خشب، وسرعان ما وضعها في العروة قبل الخروج، ووضع يديه الاثنتين في جيبه، وخرج من الغرفة دون أن يلححه أحد، وأخذ يفكر وعلى فمه ابتسامة غريبة، فقال في نفسه: «لئن خان العقل فقد ساعد الشيطان!» وأمدته هذه المصادفة بقوة شديدة في عزمته..

ومشى في هدوء واتزان دون إسراع حتى لا يوقظ الشبهات، وهو لا

يكاد يلتفت إلى المارة، بل كان يتجنب النظر إلى وجوههم كيلا يلتفت إليه الأنظار ما استطاع، وفجأة تذكر قبعته: «رباه! كانت لديّ النقود من يومين، ولكنني لم أشتري قنسوة بدلاً منها».. وانطلقت لعنة من أعماق نفسه..

ونظر بمؤخر عينه إلى الحانوت، فوجد الساعة المعلقة على الحائط تشير إلى عشر دقائق بعد السابعة، فكان عليه أن يسرع وأن يتخذ في الوقت ذاته طريقاً دائراً حتى يصل إلى البيت من الناحية القصوى.

ومن عجب أنه كان من قبل إذا ما تصور هذا الأمر بدا له رهيباً لا يقوى عليه، ولكنه وقد أقدم عليه لم يكن خوفه شديداً، بل لم يكن فيه خلجة من خوف. وكانت تخطر له خواطر شتى، ولكنه كان لا يلبث أن ينصرف عنها. فلما مر بحديقة يوسوبوف مثلاً انصرف إلى التفكير مستغرقاً في بناء النوافير الكبيرة، وتأثيرها المنعش على الجو في كل الميادين.. ثم استطرد في فكره شيئاً بعد شيء، حتى انتهى إلى أنه لو مدت الحديقة الصيفية إلى ميدان مارس ووصلت بحديقة قصر ميهايلوفسكي، فإن ذلك يكون أمراً عظيماً تستفيد منه المدينة فائدة كبرى.. ثم أخذ يسائل نفسه في اهتمام عن السر الذي يلجئ أهل المدن الكبرى، أو يجعلهم يميلون ميلاً غريباً، إلى السكنى في الأحياء التي لا تحتوي على حدائق أو نوافير، مع ما فيها من القاذورات والروائح الكريهة وكل أنواع الفظائع، وذهب فكره عند ذلك إلى جولاته في سوق التبن، فاستيقظ من سبحة لحظة وعاد إلى الحقيقة وقال لنفسه: «أي هراء ذلك الذي أفكر فيه.. لخير من هذا ألا أفكر في شيء!».

وخطر له وهو يحدث نفسه بذلك أنه «من الراجح أن الذين يساقون

إلى الإعدام تتعلق خواطرهم بكل شيء يقابلهم في طريقهم»، وما كاد ذلك الخاطر يبرق له حتى طرده على عجل... واقترب من مقصده آخر الأمر... فهنا البيت، وهنا بابه، وفجأة دقت الساعة دقة واحدة.. «ماذا؟ أبلغت الساعة السابعة والنصف؟ هذا مستحيل، لا بد أن هذه الساعة مسرعة!».

ومن حسن حظه أن الأمور سارت على ما يحب عند باب الدار. ففي تلك اللحظة، وكأن القضاء كان يمهد له سبيله، دخلت من الباب عربة كبيرة محملة بالتبن فأخفته تمامًا وهو يمر منه، ولم تكد العربة تصل إلى الفناء حتى مرق في سرعة البرق إلى اليمين، وسمع في الجانب الآخر من العربة صراخًا وعراكَ، ولكن لم يلاحظه أحد ولم يقابله أحد، وكان الكثير من النوافذ التي تطل على هذا الفناء المربع مفتوحًا في تلك اللحظة، ولكنه لم يرفع رأسه - إذ لم تكن له القوة على ذلك - وكان السلم الذي يؤدي إلى مسكن العجوز قريبًا إلى اليمين من مدخل الدار، فلم يلبث أن صعد السلم...

وتنفس نفسًا طويلاً، ووضع يده على قلبه الخافق، ثم تحسس البلطة وعدلها في موضعها، ثم عاد يصعد السلم في لطف وحذر وهو يرهف سمعه بين لحظة وأخرى، ولكن السلم أيضًا كان مهجورًا، والأبواب جميعها مغلقة، فلم يلق أحدًا.. على أن باب إحدى الشقق في الطابق الأول كان مفتوحًا على مصراعيه، وبعض العمال يعملون في دهانها، ولكنهم لم ينظروا إليه، فوقف لحظة يفكر، ثم عاد إلى الصعود وقال في نفسه: «لا شك أنه كان خيرًا لي لو لم يكن هؤلاء هنا، ولكن.. لا بأس فإن هنالك طابقين فوقهم».

وبلغ الطابق الرابع، ورأى الباب أمامه، ورأى الشقة الخالية المجاورة، ويظهر أن الشقة التي تحت العجوز كانت خالية أيضًا، فقد مُزقت البطاقة الملتصقة إلى بابها، فلا شك أن قد غادرها سكانها... وكان رسكولنكوف يلهث، ومرت به لحظة قصيرة تردد فيها، ومرت بخاطره فكرة العودة من حيث أتى، ولكنه لم يأبه لذلك، وأخذ ينصت عند باب العجوز، فإذا سكوت شامل، ثم أخذ ينصت مرة أخرى على السلم، وقضى حينًا يرهف سمعه... ثم نظر حوله للمرة الأخيرة، ثم نصب قامته وجمع قوته وتحسس البلطة في عروتها مرة أخرى، وتساءل: «أ يكون لوني ممتنعًا؟ أو يظهر عليّ الاضطراب؟ إنها امرأة كثيرة الشك... أفلا يكون خيرًا لو انتظرت قليلًا، حتى يكف قلبي عن الوثوب؟».

ولكن قلبه استمر في دقاته، بل كأنه أراد أن يغيطه فأخذت دقاته تزداد قوة، فلم يحتمل الموقف أكثر من ذلك. ومد يده في بطنه إلى الجرس ودقه، وبعد نصف دقيقة عاد فدقه مرة أخرى، ولكنه لم يسمع حسًا.. ولم يكن يجديه أن يستمر في دق لا فائدة منه، فالعجوز كانت بلا ريب في مسكنها، ولكنها شديدة الارتياب، وهو يعرف شيئًا من صفاتها... إنها هناك وحدها، ووضع أذنه على الباب.. ولم يدر أكان الصوت الذي سمعه واضحًا أم كان حسه المرهف يخيل إليه أنه كذلك، ومهما يكن من الأمر فقد سمع فجأة كأن يدا حذرة تلمس القفل. وسمع خفيف ثياب خلف الباب، إذن فقد كان هناك إنسان إلى جنب القفل، يقف في حذر من وراء الباب كما كان هو واقفًا من أمامه.. بل لقد خيل إليه أن ذلك الشخص يميل بأذنه إلى الباب متسمعًا، فتحرك قليلًا عن عمد، وتمتم شيئًا بصوت عال لكي لا يظهر بمظهر من يرغب في التخفي. ثم دق الجرس مرة ثالثة، ولكن في

هدوء وثبات ومن غير تعجل. وكان كلما تذكر هذه اللحظة فيما بعد رآها
ماثلة في ذهنه، واضحة إلى الأبد.. ولم يستطع تعليل ما أظهره من حسن
الحيلة، فقد كان ذهنه كأنما تغطيه غمامة، ولا يكاد يشعر بجسده... وبعد
لحظة سمع مزلاج الباب يرفع من مكانه.

* * *

(٧)

فُتح الباب قليلاً كما فُتح من قبل، ونظرت إليه من الظلام عينان حادتان مرتابتان، وكاد زمام رسكولنكوف يفلت من يده فيرتكب خطأ كبيراً..

فقد خشي أن تخاف المرأة العجوز من انفرادهما، ولم يأمل أن يزيل منظره شكوكها، فأمسك بالباب وجذبه نحوه ليمنع المرأة من محاولة إغلاقه، ولما رأت العجوز ذلك لم تحاول جذب الباب، ولكنها لم تترك مقبضه حتى كاد يجذبها معه إلى جانب السلم. ولما رأى أنها واقفة في طريق الباب لا تسمح له بالمرور تقدم نحوها فارتدت في ذعر وحاولت أن تقول شيئاً، وكأنها لم تستطع أن تنطق وحملت فيه بعينين مفتوحتين.

فبدأ يحاول أن يخاطبها في سهولة، ولكن صوته لم يطاوعه، فكان يتقطع ويهتز فقال: «أسعدت مساء يا إيلونا إيفانوفا! إني جئت... وجئت بشيء... ولكن... خير لنا أن ندخل... إلى الضوء...».

وتركها ودخل تَوًّا إلى الغرفة دون أن ينتظر دعوتها، وجرت المرأة وراءه وقد انطلق لسانها فقالت: «رباه! ما هذا؟ من هذا؟ ماذا تريد؟».

- إنك تعرفيني يا إيلونا إيفانوفا... رسكولنكوف... ها أنا ذا جئت بالرهن الذي حدثتكَ عنه منذ أيام...

ومد يده بالرهن، فنظرت العجوز لحظة إلى الرهن، ولكنها عادت تحمَلُ في عيني زائرهما الذي يقحم نفسه، وكانت نظرتها ثابتة خبيثة تفيض استرابة.. ومرت لحظة، وخيل إليه أن في عينيها شيئاً أشبه بالسخرية كأنها حزرت كل شيء، وشعر بأنه يفقد السيطرة على نفسه وأن الخوف يملكه، ويشد به، ولو استمرت تنظر إليه مثل تلك النظرة دون أن تقول كلمة لمدة نصف دقيقة أخرى لولى منها فراراً..

ثم قال فجأة في خبث: «لماذا تنظرين إليَّ كأنك لا تعرفيني؟ لك أن تأخذي الرهن وإلا ذهبت لغيرك فإني على عجل».

وقال هذا عفواً فلم يدبره في نفسه من قبل، كأن الكلمات كانت تجري على لسانه فجأة من تلقاء نفسها، فاستردت العجوز هدوءها، وكان من الواضح أن نغمة الحزم في صوته أعادت إليها اطمئنانها.

وسألته وهي تنظر إلى الرهن: «ولكن ما لك تستعجل يا بني؟.. ما هذا؟».

فقال: «إنها علبة السجائر الفضية التي تحدثت عنها في المرة الأخيرة كما تعرفين».

فمدت إليه يدها ثم قالت: «ولكن ما أشد امتقاع لونك... ويداك ترتعشان أيضاً، أكنت في الحمام أم ماذا؟».

فأجاب في اقتضاب: «إنها الحمى، وكيف لا يكون لون المرء ممتعًا.. إذا لم يكن لديه ما يأكله؟».

وقد أضاف هذه العبارة وهو ينطق بكلماتها في صعوبة، وأخذت قواه تخونه مرة ثانية، ولكن إجابته كانت فيها مسحة من الحقيقة، فأخذت المرأة الرهن.

وسألته مرة ثانية وهي تحقق فيه وتزن الرهن في يدها قائلة: «ما هذا؟».

فأجاب: «شيء... علبة سجائر... من الفضة... انظري إليها...».

- من الفضة؟ لا يظهر عليها ذلك... لقد لفت لفاً عجباً..

وحاولت أن تفك الخيط، واستدارت نحو النافذة تستقبل النور (وكانت النوافذ جميعاً مقفلة مع شدة الحرارة) فتركته وحده بضع ثوان، وأدارت إليه ظهرها، ففك أزرار معطفه وخلص البلطة من عروتها، ولكنه لم يخرجها، بل أمسها بيده اليمنى تحت المعطف. وكانت يداه ضعيفتين ضعفاً شديداً، وشعر بأنهما في كل لحظة تزدادان خدرًا وتخشبًا، وخشي أن تنفلت منه البلطة وتسقط، وشعر بدوار يستولي عليه..

وصاحت المرأة العجوز متضايقه وقد تحركت نحوه: «ولكن لم ربطتها على هذه الصورة؟».

ولم تكن لديه دقيقة يضيعها، فأخرج البلطة ورفعها بكلتا يديه وهو لا يكاد يشعر بنفسه، ثم أهوى بظهر البلطة على رأسها بغير عناء، بل بحركة تكاد تكون آلية، وكأنه لم يبذل جهداً في هذا، فما كادت البلطة تهوى حتى عادت إليه قوته.

وكانت العجوز دائماً عارية الرأس، وشعرها الخفيف الذي وخطه الشيب يلمع دهناً، وكانت تجعل منه ضفيرة ترفعها بمشط مكسور من قرن الحيوان يبرز عند قفاها.. وكانت العجوز من القَصْر بحيث نزلت الضربة على قمة رأسها، فصرخت بصوت خفيض، ثم سقطت فجأة في كومة على الأرض، رافعة يديها إلى رأسها وهي لا تزال ممسكة بالرهن بإحدى اليدين. ثم لحقها بضربة أخرى وثانية في نفس الموضع، فانبثق الدم كأنه يندلق من إناء مقلوب.. وسقط الجسد، فخطا إلى الخلف ليفسح له، ثم أسرع فانحنى على وجهها، فإذا هي ميتة وعيناها تحملقان كأنهما خرجتا من موضعهما، وكان الجبين والوجه كله متشنجاً متقلصاً.

ووضع البلطة على الأرض على مقربة من الجثة (وهو يحاول ألا يقرب من الدم المتدفق) وشرع يبحث في الجيب الأيمن، وهو الجيب الذي أخرجت المرأة منه المفاتيح في الزيارة السابقة، وكان متمالكاً كل حواسه لا يعتريه ارتباك ولا دوار، ولكن يديه كانتا لا تزالان ترتجفان، وقد تذكر فيما بعد أنه كان جامعاً كل قواه، يُعنى بكل صغيرة وكبيرة، يجتهد كل الوقت ألا يتلطح بالدم... وأخرج المفاتيح، وكانت كلها كما عهدتها من قبل في حلقة واحدة من الصلب، وأسرع بها في الحال إلى غرفة النوم، وهي غرفة صغيرة جداً في ركنها عدد كبير من التماثيل المقدسة كأنها محراب.

وكان بجانب الجدار الأقصى سرير كبير نظيف جداً عليه غطاء من الحرير المنقوش المحشو بالريش، وإلى جانب جدار ثالث صندوق ذو أدراج. ومن الغريب أنه ما كاد يضع المفاتيح في الصندوق ويسمع صليلها حتى شعر برعشة عصبية تسري في جسمه، وشعر فجأة برغبة في أن يترك كل شيء ويغادر المكان. ولكن ذلك لم يدم غير لحظة، فضحك من

نفسه قائلاً: «لقد فات وقت الرجوع». ولكن فكرة أخرى مخيفة طرأت على ذهنه، فقد خيل إليه فجأة أن العجوز قد تكون ما تزال حية بها رmq، وقد تستعيد وعيها، فترك المفاتيح في الصندوق وجرى عائداً إلى الجنة، واختطف البلطة ورفعها مرة ثانية فوق العجوز، ولكنه لم ينزل بها إذ لم يكن ثمة مجال للشك في أنها ماتت.. فانحنى عليها وأخذ يفحصها عن قرب، فرأى بوضوح أن الجمجمة مكسورة، بل محطمة من جانب منها. وكاد يتحسسها بأصبعه، ولكنه سحب يده، فإن الأمر كان واضحاً لا يحتاج إلى تأكيد..

وتجمعت في هذه الأثناء بركة كاملة من الدماء، ولاحظ فجأة خيطاً في رقبة العجوز، فحاول أن يقطعه ولكنه كان متيناً فلم ينقطع، وكان فوق ذلك ملوثاً بالدماء، وحاول أن يجتذبه من صدر الثوب، ولكن شيئاً كان يعوق الخيط ويحول دون خروجه، ونفذ صبره فرفع البلطة مرة أخرى فوق الجنة ليقطع الخيط، ولكنه لم يجرؤ.. ثم استطاع آخر الأمر في مشقة أن يقطع الخيط، بعد أن لطخ يده والبلطة بالدم بعد مضي دقيقتين من عمل سريع، وأخذ ما كان معلقاً في الخيط دون أن يمس الجنة بالبلطة..

ولم يكن مخطئاً، فقد كان كيساً، وكان في الخيط صليبان، أحدهما من خشب قبرصي، والآخر من النحاس، وتمثال صغير من الفضة المطلية وكان الكيس صغيراً قدرًا من جلد الماعز، له حلقة من الصلب، وكان مليئاً إلى آخر سعته، فدسه في جيبه دون أن ينظر فيه، ورمى الصليبين على جثة العجوز، وعاد في سرعة إلى غرفة النوم وقد حمل معه البلطة في هذه المرة. وكان في عجلة مخيفة، فخطف المفاتيح، وأخذ يجربها مرة ثانية،

ولكنه لم ينجح فلم تكن لتلائم الأقفال، ولم يكن ذلك بسبب رعشة يديه بقدر ما كان بسبب تكرار الأخطاء. فكان مثلاً يرى المفتاح لا يرى القفل ومع ذلك يستمر في تجربته. وفجأة تذكر وتحقق لديه أن المفتاح الكبير ذا الأخاديد العميقة المدلى مع المفاتيح الصغيرة لا يمكن أن يكون مفتاح الصندوق ذي الأدراج (وقد لاحظ ذلك في الزيارة السالفة) ولكنه مفتاح صندوق آخر متين. وليس من البعيد أن تكون العجوز قد وضعت كل أشياءها في ذلك الصندوق، فترك الصندوق ذا الأدراج وأخذ يتحسس تحت السرير، وهو يعرف أن العجائز يحتفظن عادة بصناديقهن تحت أسرتهن، وهذا ما كان.. فقد وجد تحت السرير صندوقاً كبير الحجم لا يقل طوله عن ياردة، وغطاؤه مقوس مغطى بجلد أحمر رشقت فيه مسامير من الصلب، فلما وضع فيه المفتاح الكبير فتحه، ورأى فيه ملاءة بيضاء من تحتها سترة من الحرير الأحمر المزخرف تحلى حافتها فروة من جلد الأرنب، ومن تحت ذلك ثوب آخر من الحرير، ثم دثار، ولكنه لم يجد في الصندوق غير ثياب، وكان أول همه عند ذلك أن ينظف يديه الملطختين بالدم، فمسحهما بالحرير الأحمر قائلاً في نفسه: «إنه ثوب أحمر والدم لا يظهر فيه كثيراً» ثم استرد صوابه فجأة، وفكر في خوف.. «رباه! أكاد أفقد صوابي».

ولكنه لم يكذب يلمس الثياب حتى تدرجت ساعة ذهبية من تحت معطف الفرو، فأسرع يقلب الثياب وأخرج منها أشياء مختلفة مصنوعة من الذهب، وأغلب الظن أنها كانت جميعاً رهوناً لم يستردها أصحابها، وكانت في انتظار استردادهم إياها، وهي أساور وسلاسل وأقراط ودبابيس وما مائل ذلك، بعضها في علب والبعض ملفوف في صحف، وقد لفت لفتاً محكماً، وربطت بشريط، فأخذ يملأ جيوب سرواله ومعطفه بلا إبطاء دون

أن يفحص الربط أو العلب. ولكن لم يتح له الوقت ليأخذ الكثير منها..
فإنه سمع فجأة خطوات في الغرفة التي كانت فيها جثة العجوز،
فوقف عن عمله، وسكت سكوت الموت. ولكن كل شيء كان هادئًا، وقد
لا يعدو الأمر أن يكون وهمًا. ثم سمع فجأة وفي وضوح صرخة خافتة كأن
أحدًا يشن أنينًا متقطعًا ضعيفًا، ثم أعقب ذلك سكوت مدة دقيقة أو دقيقتين.
وكان جالسًا القرفصاء بجانب الصندوق ينتظر وهو يمسك أنفاسه، ثم
وثب فجأة فأمسك بالبلطة وخرج مسرعًا من غرفة النوم.

وكانت ليزافتا واقفة وسط الغرفة، وتحت ذراعها ربطة كبيرة تتأمل
ذاهلة في جثة أختها القتل وقد امتنع لونها امتناعًا شديدًا، ويظهر أنه لم
تبق لها قوة على الصراخ! فلما رآته يخرج جاريًا من غرفة النوم بدأ جسدها
يرتعد كورقة الشجرة.. وأخذ وجهها يرتجف، ورفعت يدها وفتحت فمها،
ولكنها مع ذلك لم تصرخ. وأخذت ترتد عنه في بضع إلى ركن الغرفة،
وهي تحمق فيه في ثبات واستمرار، ولكنها لم تخرج صوتًا، كأنها كانت
لا تستطيع التنفس أو الصراخ. وقد بلغت ليزافتا المسكينة حدًا كبيرًا من
البساطة، وتحطمت نفسها، وتملكها الجبن، واعتادت الضربات، حتى إنها
لم ترفع يدًا لتذب عن وجهها. مع أن هذه الحركة طبيعية لازمة لكل من
كان في مثل ذلك الموقف والبلطة مرفوعة فوق رأسها، فلم تفعل سوى
أن رفعت يدها اليمنى الخالية، لا إلى وجهها بل أمامها كأنها تطلب منه أن
يبتعد عنها. وسقطت البلطة بحدها فوق الجمجمة، وشطرت قمة الرأس
شطرين بضربة واحدة، فسقطت صريعة.. وفقد رسكولنكوف كل سيطرة
على عقله فخطف حزمته ثم رماها ثانية، وجرى إلى المدخل..

وأخذ الخوف يتسلط عليه، ولا سيما بعد هذا القتل الثاني الذي لم يتوقعه، وود لو استطاع مغادرة المكان في أسرع وقت.. ولو أنه كان في تلك اللحظة قادرًا على رؤية ما حوله وإدراكه على حقيقته، ولو أنه استطاع أن يقدر كل الصعاب التي تكتنف موقفه، وتبين ما في ذلك الموقف من بأس وفضاعة وسخافة.. ولو أنه عرف ما كان عليه أن يقتحمه من الجرائم لكي يخرج من ذلك المكان، حتى يبلغ إلى مسكنه.. لو أنه أدرك ذلك كله لكان من المحتمل جدًا أن يقذف بكل شيء ويذهب في التو ليسلم نفسه، لا نتيجة للخوف بل لما كان يحسه من استفظاع وكراهية لما أتاها، فإن شعور المقت أخذ يطغى على نفسه ويزداد قوة في كل دقيقة، ولم يكن ليعود إلى الصندوق أو إلى الغرفة في سبيل أي شيء مهما بلغ قدره..

ولكن نوعًا من الخمول الحالم بدأ يتملكه تدريجًا، وكان في بعض الأحيان ينسى نفسه أو على الأصح ينسى ما يهم ويتمسك بالتوافه، فقد نظر إلى المطبخ فوجد فيه دكة عليها إناء مملوء إلى نصفه بالماء. ففكر في غسل يديه وبلطته، فإن يديه كانتا لزجتين من الدم. فوضع البلطة بسلاحها في الماء، وخطف قطعة من الصابون وجدها في طبق مكسور على النافذة وأخذ يغسل يديه في الجردل، فلما صارتا نظيفتين أخرج البلطة وغسل سلاحها. وقضى في ذلك وقتًا طويلًا، نحو ثلاث دقائق، ثم فرك الخشب الذي تلطخ بقطرات الدم وأجاد غسله بالصابون، ثم مسحه في ثوب كان منشورًا في المطبخ لكي ينشف ماءه.

وأمضى فترة طويلة يفحص البلطة بعناية إلى جانب النافذة، حتى وثق من أنها لم يبق عليها أثر، إلا ما بقي على الخشب من بلل الماء، ثم علق البلطة بعناية في الرباط تحت معطفه، وفحص معطفه وسرواله وحذاءه

بقدر المستطاع في الضوء الضعيف في المطبخ، فلم يجد سوى بقع من الدم على حذائه، فبل خرقة ومسح الدم الذي عليه، وكان يعرف أنه لم يجد الفحص، وقد تكون هناك آثار باقية لم يلحظها، ووقف وسط الغرفة غارقاً في الأفكار. وخطرت له خواطر مظلمة ومؤلمة، فتارة يتهم نفسه بالجنون، وأنه كان في تلك اللحظة غير قادر على التفكير أو حماية نفسه، وتارة يحسب من الواجب عليه أن يعمل شيئاً مخالفاً لما يعمل. وتمتم قائلاً: «رباه! يجب أن أفر! أفر!..»، وهجم إلى المدخل فما بلغه حتى اعترته نوبة من الخوف لم يعرف لها شبيهاً من قبل..

فوقف وتأمل ولم يصدق عينيه.. فإن الباب الخارجي المفضي إلى السلم - وهو الذي وقف أمامه منتظراً منذ زمن ليس ببعيد - كان ذلك الباب غير مقفل، بل كان مفتوحاً نحو ستة قراريط. ولم يكن فيه قفل ولا مزلاج. أبقى الباب كذلك طول الوقت؟ كل ذلك الوقت؟.. إذن فالحجوز لم تقفله وراءها، كأنما فعلت ذلك على سبيل الاحتياط.. ولكن رباه! لقد رأى ليزاقتا من بعد، فكيف؟ كيف لم يفكر في أنها دخلت بطريقة ما؟ فهي لم تدخل من الحائط!..

وهجم على الباب وأغلق المزلاج..

- ولكن لا! إني أرتكب خطأ للمرة الثانية! يجب أن أغادر المكان..
يجب أن أغادر المكان..

ورفع المزلاج وفتح الباب، وأخذ ينصت على السلم..

أخذ ينصت مدة طويلة، فإذا هو يسمع من بعيد - ولعل ذلك كان على مقربة من باب الدار - صوتين مرتفعين يتبادلان الشتائم.. «ما أمرهما؟!»،

وانتظر في صبر.. وأخيرًا ساد السكون كأن الأصوات انقطعت فجأة. لقد سكتا ومضيا في سبيلهما. وعزم على الخروج. ولكنه سمع فجأة بابًا يفتح في صخب بالطابق الذي يليه، وأخذ إنسان ينزل وهو يترنم بنغمة، فمرت في عقله فكرة خاطفة.. «مالي أرى الناس جميعًا يحدثون ضجة مرتفعة؟».. ثم أقفل الباب مرة ثانية، وانتظر حينًا حتى ساد السكون، ولم يعد مخلوق يتحرك، وخطا خطوة نحو السلم، وإذا هو يسمع وقع أقدام مرة أخرى..

كان وقع الأقدام بعيدًا في أسفل السلم، ولكنه تذكر في بيان ووضوح فيما بعد، أنه لأمر ما تنبأ بأن إنسانًا سيأتي إلى الطابق الرابع يقصد المرأة العجوز نفسها، لماذا؟ هل كان في وقع تلك الأقدام دلالة خاصة؟ إن الخطوات كانت ثقيلة ومنظمة ولا تدل على عجلة. وقد اجتاز الشخص الطابق الأول، وهو يصعد إلى أعلى، وبدأت خطواته تسمع في وضوح متزايد، وكان يستطيع أن يسمع تنفسه العميق. ثم وصل إلى الطابق الثالث.. إنه آت إلى هنا! وشعر فجأة كأنه تحول إلى حجر أو كأنه في رؤيا مفزعة، كأن شخصًا يوشك أن يلحق به ويقبض عليه ويقتله، وتسمر في مكانه لا يستطيع حتى تحريك ذراعه..

فلما أخذ القادم المجهول آخر الأمر يصعد إلى الطابق الرابع، زال عنه خموله واستطاع أن ينفلت سريعًا إلى الشقة ويقفل الباب خلفه، ثم أمسك بمشبك الباب وأثبتته في حلقة بخفة دون صوت. وكانت الغريزة تساعد، وبعد أن أتم ذلك انكمش بجانب الباب وهو يكتم أنفاسه. وقد بلغ الزائر المجهول ذلك الباب حتى صار كل منهما إلى جانب منه، كوقفته السابقة مع العجوز والباب يفصل بينهما وهو ينصت وراءه..

وتنفس الزائر نفسًا عميقًا عدة مرات، وقال رسكولنكوف في نفسه وهو يضغط البلطة: «لا بد أنه رجل ضخمة الجثة غليظها». وكأنه في حلم حقًا، وأمسك الزائر بالجرس ودقه في قوة.

وما أن دق الرجل الجرس حتى خيل إلى رسكولنكوف أن شيئًا يتحرك في الغرفة، فظل لحظات يصغي في اهتمام. ودق الرجل المجهول الجرس مرة أخرى، ثم انتظر.. وفجأة شد مقبض الباب في عنف ونفاد صبر. وكان رسكولنكوف ينظر في دعر إلى المشبك وهو يهتز في حلقة. وكان في خوفه الشديد ينتظر كل لحظة أن يخرج المشبك من مكانه. وقد كان ذلك محتملًا، فإن الباب كان يهتز في عنف. وفكر في أن يمسك بالمشبك. ولكنه فطن إلى أن الرجل قد يتنبه إلى ذلك، فاستولى عليه الدوار مرة ثانية. ومرت بذهنه فكرة خاطفة: «أكاد يغمى عليّ!» ولكن الرجل المجهول بدأ يتكلم، فاسترد روعه وشيكا..

وقال الرجل في صوت غليظ: «ماذا حدث؟ أهما نائمتان أو قتيلتان؟ لعنة الله عليهما! يا إيلونا إيفانوفنا! أيتها الساحرة العجوز! يا ليزافتا إيفانوفنا! يا حبيبتي الجميلة! افتح الباب! لعنة الله عليهما؟ أهما نائمتان أم ماذا؟».

وأخذه الغضب مرة ثانية، فقرع الجرس عشرات المرات، وقد كان من المؤكد أنه رجل ذو جاه وصديق حميم.

وفي تلك اللحظة سمعت خطوات ضعيفة سريعة على السلم لا تبعد كثيرًا. وكان شخص آخر يقترب. مع أن رسكولنكوف لم يسمع الخطوات في مبدأ الأمر.

وصاح الزائر الجديد في صوت رنان مرح وهو يخاطب الزائر الأول الذي ظل يدق الجرس: «لا أظن مطلقاً أن الدار خالية من أهلها! أسعدت مساء يا كوخ».

فقال رسكولنكوف: «يظهر من صوته أنه صغير السن».

وأجاب كوخ: «يا للشيطان! ما أدراني؟ لقد كدت أكرس القفل، ولكن من أين تعرفني؟».

- أعرفك! أما غلبتني منذ يومين ثلاث مرات متتابة في لعبة البلياردو بمحل جمبرينوس؟

- حقاً!

- إذن فهما ليستا في الدار؟ هذا عجيب، بل إنه غباء منهما! إلى أين ذهبت هذه العجوز؟ فإني في حاجة إليها!

فصاح الشاب: «إذن ماذا نفعل؟ يجب أن نعود أدراجنا على ما أظن، مع أنني كنت أوّمل الحصول على شيء من المال».

- يجب بلا ريب أن نعدل عن هذا! ولكن لماذا حددت لي هذا الوقت؟ فإن تلك الساحرة العجوز هي التي حددت بنفسها الوقت الذي أجيء فيه، مع أنه غير مناسب لي! فإلى أين ذهب بها الشيطان؟ ذلك ما لا أستطيع معرفته إذ هي تقبع هنا سنة بعد سنة، تلك العجوز الشمطاء! فإن ساقها مريضتان، ولست أدري ما الذي حملها على أن تخرج للتنزه!

- أليس من الخير أن نسأل البواب؟

- عم نسأله؟

- نسأله أين ذهبت، ومتى تعود!

- فليكن... لعنة الله على كل شيء... لنسأل... ولكنك تعلم أنها لا تذهب إلى مكان!

ومرة أخرى شد مقبض الباب.

- لعنة الله على كل شيء! لا سبيل أمامنا غير الذهاب!

وصاح الشاب فجأة: «انتظر، ألا ترى أن الباب يهتز عندما تشده؟».

- ما معنى هذا؟

- هذا يدل على أنه ليس مقفلاً بالقفل، بل هو محتجز بالمشبك، أما تسمع رنة المشبك؟

- وما معنى ذلك؟

- ماذا! ألا ترى معناه؟ إن هذا يدل على أن إحداهما في الدار، ولو كانتا كلتاهما في الخارج لأقفلتا الباب من الخارج بالمفتاح لا بالمشبك من الداخل، اصغ.. ألا تسمع رنة المشبك؟ إن إغلاق الباب بالمشبك من الداخل لا يكون إلا إذا كانتا في الداخل! ألا ترى هذا؟ فهما إذن جالستان في الداخل ولا تفتحان الباب!

فصاح كوخ في دهشة: «نعم، يجب أن تكونا في الدار! ماذا تعملان هنالك؟». وأخذ يهز الباب بعنف..

وصاح الشاب مرة ثانية: «انتظر، لا تشد الباب! لا بد أن هنالك حادثاً... فإنك قد ظللت مدة ترن الجرس وتشد الباب ولم تفتحا، فيما أن تكون قد أغمى عليهما، وإما...».

- ماذا؟

- أقول لك! دعنا نذهب ونأتي بالبواب فهو الذي يوقظهما.

- فليكن...

وأخذا ينزلان..

- انتظر! ابق هنا أنت، بينما أجري أنا إلى البواب..

- لماذا؟

- أرى ذلك خيرًا..

- ليكن!

وصاح الشاب بحرارة: «إنني أدرس القانون، ومن الواضح أن هنالك حادثًا».. وجرى نازلاً السلم..

وبقي كوخ حينًا، ولمس الجرس بلطف مرة أخرى، فكان له رنين شديد. ثم أخذ يلمس مقبض الباب بلطف وكأنه يفكر ويبحث، فشده ثم تركه ليتحقق أن الباب مغلق بالمشبك وحده. ثم انحنى وهو ينفخ ويلهث، وأخذ ينظر في خرق الباب، ولكن المفتاح كان من الداخل فلم ير شيئًا..

وظل رسكولنكوف واقفًا وهو قابض بشدة على البلطة فيما يشبه الهذيان، بل كأنه كان يستعد للقتال عندما يدخلان، وبينما الرجلان يقرعان الباب ويتحدثان معًا خامرته الفكرة عدة مرات بأن ينهي كل شيء مرة واحدة ويصيح بهما من وراء الباب.. وكان بين حين وآخر يشعر برغبة في أن يلعنهما ويسخر منهما وهما غير قادرين على فتح الباب، وقال في نفسه: «يا للشيطان! ماذا يريد؟..». وكان الوقت يمر دقيقة بعد دقيقة، ولم يأت

أحد، وبدأ كوخ يضجر.

ثم صاح الرجل فجأة: «يا للشيطان!»، ونفذ صبره فغادر عمله كحارس، وأخذ ينزل السلم وهو يسرع. وكان رسكولنكوف يسمع صوت حذائه الثقيل، ثم خفت ذلك الصوت.. فقال: «رباه! ماذا أفعل؟».

ورفع المشبك وفتح الباب، فلم يسمع صوتًا، فخرج فجأة دون أن يفكر في شيء، وأغلق الباب بقدر ما يستطيع، ثم نزل السلم..

نزل ثلاثة منحنيات من السلم، وإذا هو يسمع فجأة ضجة عالية من الأسفل.. أين يذهب؟ لم يكن هناك مكان للاختفاء، فهم بالعودة إلى الشقة..

- هيا!! امسكوا الوحش!

خرج شخص يجري من شقة تحته وهو يصيح هكذا، ويمكن أن تقول إنه كان يهوي بدلاً من أن تقول إنه كان يجري نازلاً السلم، وهو يجأر بأعلى صوته:

- متكا! متكا! متكا! متكا! لعنة الله عليه..

وانتهى الصياح إلى صراخ، وكانت الأصوات الأخيرة آتية من فناء البيت، ثم ساد السكون، ولكن في اللحظة نفسها أخذ عدة رجال يتكلمون في صوت مرتفع وسريع وهم يصعدون السلم في ضجة، وكانوا ثلاثة أو أربعة، وكان صوت الفتى الرنان يعلو واضحًا، فقال لنفسه: «ها هم هؤلاء يأتون!».

واستولى عليه اليأس، فتقدم ليلقاهم وهو يقول في نفسه: «فليكن ما

يكون»، فإذا أوقفوه خسر كل شيء، وإذا تركوه يمر خسر كل شيء أيضًا، فإنهم يتذكرونه. وكانوا يقتربون، ولم يبق بينه وبينهم غير منحني واحد من السلم، وفجأة جاء الإنقاذ.. فعلى بعد بضع خطوات إلى اليمين كانت الشقة الخالية وبابها مفتوح على سعته، وهي الشقة التي كان النقاشان يعملان فيها بالطبقة الثانية، وقد غادراها منذ قليل، وكأنهما فعلا ذلك خدمة له، فهما بلا ريب اللذان كانا ينزلان السلم ويتصايحان. وقد طليت الشقة بالدهان، وكان في وسطها دلو وإناء مكسور فيه دهان، وبعض الفرش. ففي لحظة اقتحم الباب المفتوح واختبأ وراء الحائط. وتم ذلك في الوقت المناسب، فإن الرجال بلغوا الطابق ثم استداروا وصعدوا قاصدين الطابق الرابع وهم يتحدثون في صوت عال. وانتظر قليلاً، ثم خرج على أطراف أصابعه وجرى نازلاً السلم.

لم يكن أحد في السلم ولا في مدخل البيت، فمر سريعاً من المدخل واتجه نحو اليسار في الشارع..

وكان يعلم حق العلم أنهم في هذه اللحظة لا بد قد وصلوا إلى الشقة، وأنهم قد أخذتهم الدهشة الشديدة إذ وجدوا الباب مفتوحاً بعد أن كان مغلقاً، وأنهم كانوا عند ذلك يرون الجثتين، وأنهم قبل أن تمر دقيقة سيحزرون ويتحققون من أن الجاني كان هنالك، وأنه نجح في الاختفاء في مكان ما وتملص منهم ونجا. وسيظنون أيضاً أنه دخل الشقة الخالية بينما كانوا يصعدون السلم. ومع ذلك كان لا يجرؤ على الإسراع في خطواته، مع أن ناصية الشارع كانت لا تبعد أكثر من مائة خطوة وساءل نفسه: أيتسلل إلى مدخل طريق فيبقى حيناً في شارع مجهول؟ لا! لا أمل في شيء من ذلك!

وأخيرًا وصل إلى الناصية، وعرج إلى الشارع الجانبي وهو أقرب إلى الموت منه إلى الحياة.. وأيقن عند ذلك من أنه قد قطع منتصف الطريق إلى النجاة. وكان هنالك أقل تعرضًا للخطر، إذ كان يسير بين جمهور كبير من الناس يمكن أن يخفى فيه كحبة من الرمال. ولكن ما مر به أضعف من قوته، حتى كان لا يكاد يستطيع الحركة. وكان العرق يتصبب منه نقطًا. وابتلت رقبته حتى أنه حين بلغ جانب القناة صاح أحد الناس يشير إليه: «ألا ما أشد تعب هذا الرجل من طول السير!».

وكان لا يكاد يتمالك شعوره. وكلما أمعن في السير ازدادت حالته سوءًا. ولكنه تنبه إلى ما انتابه من الذعر عندما وصل إلى شاطئ القناة، إذ وجد عددًا قليلًا من الناس، وكان ذلك حربيًا بأن يجعله ظاهرًا. وفكر في العودة أدراجه، ولكنه مضى في سيره وإن كان يوشك أن يخر من الإعياء. ودار في طريق طويلة حتى بلغ مسكنه من الناحية الأخرى.

ولم يكن في وعيه تمامًا عندما اخترق مدخل البيت وأخذ يصعد السلم، ثم تذكر البلطة، وكانت أمامه مشكلة خطيرة، فكيف يعيدها إلى مكانها دون أن يلحظه أحد؟ وكان بلا ريب غير قادر على أن يرى أن الأولى به ألا يعيد البلطة أبدًا، بل يرميها فيما بعد في أحد أفنية الدور ولكنه كان موفقًا فيما حدث. فقد وجد باب غرفة البواب مغلقًا بغير القفل، وخطر له أن البواب قد يكون في البيت، ولكنه لم يفكر فيما هو صانع، بل سار قاصدًا إلى الباب وفتحه، ولو كان البواب هناك وسأله: «ماذا تريد؟» لمد إليه يده بالبلطة في بساطة، ولكن البواب لم يكن في الغرفة، ونجح في وضعها تحت الدكة، بل غطاها بقطعة الخشب كما كانت من قبل.. ولم يقابل أحدًا، لم يقابل مخلوقًا بعد ذلك وهو يسير إلى غرفته. وكان باب

صاحبة البيت مغلقاً. فلما وصل إلى غرفته ألقى بنفسه على المقعد كما هو.. ولم ينم، بل غاص في شرود عميق. ولو أن أحداً دخل إلى غرفته عندئذ لقفز فجأة وصرخ. وكانت الأفكار تضطرب في عقله قطعاً ممزقة لا يستطيع التمسك بواحدة منها، ولا الوقوف عند واحدة منها مهما حاول أو جاهد.

القسم الثاني

(١)

هكذا بقي راقداً مدة طويلة، وكان بين حين وآخر يبدو عليه أنه يستيقظ. وفي تلك اللحظات كان يدرك أن الليل قد مضى منه صدر طويل. ولكن لم يخطر له أن يقوم من رقده، ثم لاحظ أن نور النهار أخذ ينبثق وهو راقداً على ظهره، وكان عقله لا يزال شاردًا من تأثير الغيبوبة التي انتابته من وقت قصير. وكانت تبلغ سمعه صرخات يائسة مخيفة مقبلة من الشارع، وهي أصوات كان يسمعاها في كل ليلة تحت نافذته بعد الساعة الثانية. فلما أيقظته هذه الأصوات قال في نفسه: «إنهم السكارى يخرجون من الحانات، فالساعة جاوزت الثانية».

ثم قفز فجأة كأن أحدًا جذبه من فوق الأريكة.. «ماذا! أقد مضت الساعة الثانية؟».

وجلس على المقعد، وفجأة تذكر كل شيء!.

وظن في اللحظة الأولى أن به مسًا من جنون، وشعر ببرد فظيع يسري في جسمه. ولكن البرد كان من أثر حمى حلت به من قبل نومه. وأخذ جسمه فجأة يرتجف ارتجافًا عنيفًا، وأسنانه تصطك، وأعضاؤه جميعًا تهتز. ثم فتح الباب وأخذ ينصت، فإذا كل شيء نائم في البيت. وجعل يجيل بصره مندهشًا في كل ما حوله في الليل، ثم عاد يفكر في نفسه وهو يعجب كيف جاء في الليلة السابقة دون أن يقفل الباب. وكيف رمى بنفسه على المقعد دون أن يخلع ثيابه، بل بغير أن يخلع قبعته، فإنها سقطت عن رأسه وتدحرجت إلى الأرض على مقربة من الوسادة.

وقال في سره: «أترى لو دخل أحد ورآني على تلك الحال فماذا كان يظن؟ لا شك أنه يظن أنني مخمور.. ولكن...».

وجرى إلى زجاج النافذة، وكان الضوء كافيًا فأخذ في سرعة ينظر إلى نفسه من قمة الرأس إلى أخمص القدم ليرى هل بقيت آثار على ثيابه؟ ولكنه لم يستطع أن يتبين شيئًا بتلك الطريقة، وأخذ يخلع ثيابه وهو يرتعد بردًا، وجعل يفحصها ويقلبها ويفحص خيوطها والقطع التي تمزقت منها، ولم يثق في نفسه فكرر بحثه ثلاث مرات..

ويظهر أنه لم يجد شيئًا سوى أثر في مكان واحد لصقت به بعض نقط ثقيلة من الدم المتجمد عند ثنية سرواله، فأخذ مدية وقطع خيوط الثنية فلم يبق بعد ذلك أثر..

وتذكر فجأة أن الكيس والأشياء التي أخذها من صندوق العجوز لا تزال في جيبه، ولم يفكر حتى ذلك الوقت في إخراجها وإخفائها، بل لم يفكر فيها وهو يفحص ثيابه! فماذا يكون؟ وأخذ يخرجها ويرمي بها على

المنضدة، فلما أخرجها جميعاً وفحص الجيب ليتأكد من أنه لم يترك به شيئاً، حمل كومة الأشياء إلى ركن من الغرفة كان ورق الحائط قد انحسر عن أسفله وبقي لاصقاً في قطع ممزقة، فأخذ يحشر هذه الأشياء في الثقب الذي يغطيه الورق، حتى إذا فرغ من ذلك قام مرتاحاً ونظر إلى الثقب فوجده منفوخاً ظاهراً فقال في نفسه: «لقد حواها جميعاً! فاخفت كلها فيه حتى الكيس».

ولكنه عاد فارتعد استفظاعاً، وتمتم في يأس قائلاً: «رباه! ماذا جرى لي؟ أحسب أن هذه الأشياء مخبأة؟ أهذه هي الطريقة لإخفاء الأشياء؟». ولم يكن قدر من قبل أنه سيخفي حلياً، لأنه لم يفكر إلا في النقود، ولذلك لم يعد مكاناً لإخفائها..

وقال في نفسه: «ها أنذا لا بد لي من إخفاء الحلي، فكيف أطمئن على أنني أخفيها؟ أهذا الذي صنعت يكفي لإخفاء هذه الأشياء؟ ليت شعري ماذا أصنع؟ إنني أفقد عقلي.. هذه هي الحقيقة الظاهرة!».

وجلس على المقعد وقد غلبه الإعياء واعترفته مرة أخرى رعدة لا تحتمل. فمد يده في حركة آلية إلى كرسي بجانبه، فجر معطف الشتاء الذي كان يستعمله وهو طالب- وكان ممزقاً، ولكنه كان لا يزال مدفتاً- فغطى نفسه ثم غاص مرة أخرى في شبه غيبوبة، وما لبث أن فقد وعيه..

ولم تمض على ذلك غير خمس دقائق، ثم وثب قائماً وهجم على ثيابه مرة ثانية في ثورة وقال: «كيف أخلد إلى النوم مرة ثانية دون أن أعمل شيئاً؟ نعم! نعم! إنني لم أخلع العروة من فتحة الكم! لقد نسيت! أنسى شيئاً كهذا؟ أنسى إزالة ذلك الدليل البين؟...».

ونزع العروة مسرعًا، بأن قطعها قطعًا ورماها بين الخرق تحت الوسادة وقال في نفسه: «إن خرق القماش مهما يكن من الأمر لا تثير الشكوك! لا أظنها تثير شكًا.. لا أظن ذلك على كل حال».. وكان واقفًا في وسط الغرفة يتأمل ما حوله مرة ثانية في تدقيق مؤلم، يتأمل الأرض وكل ركن من زوايا الحجرة محاولاً أن يستوثق من أنه لم ينس شيئًا، وكان يخامرهُ وسواس ملح يجعله يعتقد أن حواسه تخدعه، وأن ذاكرته تخونه، وأنه فقد كل قدرة على التفكير، فكان ذلك يوقع به عذابًا أليمًا..

ومضى في فكره قائلاً: «لا شك أنه لم يبدأ بعد! لا شك أن العقاب لم يحل بي بعد! هذا هو الحق...».

وكانت المرق التي اقتطعها من سرواله مبعثرة في وسط الغرفة على الأرض، يستطيع أن يراها كل من يدخل الغرفة.. فصرخ مرة ثانية كالمجنون: «ماذا حدث لي؟».

ثم طرأت على ذهنه فكرة عجيبة: ألا تكون ثيابه كلها مغطاة بالدم أو بها بقع كبيرة، ولكنه لا يراها ولا يلاحظها لأن قوة الإدراك تخونه، بل هي زالت عنه؟.. وكان عقله غائمًا... وفجأة تذكر أن الكيس قد تلطخ بالدم أيضًا.. «إذن فلا بد أن يكونا الجيب ملطخًا بالدم كذلك؛ لأنني وضعت الكيس المبلل فيه...».

وفيما يشبه خطف البرق أخرج جيبه فوجد باطنه حقًا ملوثًا بآثار دماء، وأحس شيئًا يشبه زهو الانتصار، وتنفس تنفسًا عميقًا في ارتياح قائلاً في نفسه: «ها هي ذي قوة العقل لم تغادرني، وها هو ذا حسي وتلك ذاكرتي، فقد صدق ظني وليس الذي بي سوى ضعف من الحمى يسبب لي غيبوبة

عارضة...».

ومزق بطانة الجيب الأيسر من سرواله، وفي تلك اللحظة نفذت أشعة الشمس وسقطت على حذائه الأيسر، وعلى الجورب الذي كان يظهر من الحذاء، فخیل إليه أن به آثارًا، فخلع حذاءه في فزع قائلاً:

- وأية آثار حقًا! فإن طرف الجورب كان ينضح دمًا..

وأدرك أنه لم يكن حذرًا فخطا فوق تلك البركة من الدماء، وقال في نفسه: «ليت شعري ما أنا فاعل بهذا؟ وأين أخفي الجورب والخرق والجيب؟».

وجمعها كلها في يده ووقف وسط الغرفة..

- في المدفأة؟ ولكنهم لا بد يبحثون في المدفأة قبل كل شيء..
أأحرقها؟ ولكن بماذا أحرقها؟ إني لا أجد حتى الكبريت، بل إنه خير لي أن أخرج وأرمي بها جميعًا في مكان ما..

وعاد إلى الجلوس على الأريكة وهو يقول: «نعم! من الخير أن أرميها، وأن أفعل ذلك في الحال! في هذه الدقيقة! ومن غير توان...».

ولكنه لم يفعل بل تهاوى رأسه على الوسادة، وعادت إليه الرعدة الباردة ثقيلة الوطأة، وجر المعطف عليه..

وظل مدة طويلة، لعلها بضع ساعات، يتسلط عليه هاجس واحد.. أن يبادر في الحال وفي تلك اللحظة إلى أحد الأمكنة ليقذف بتلك الأشياء كلها، حتى تزول عن نظره ويتخلص منها تَوًّا! في الحال! وحاول عدة مرات أن يقوم من الأريكة، ولكنه لم يستطع.

ثم استيقظ في آخر الأمر وعاد إلى كل وعيه عندما سمع قرعًا عنيفًا على الباب.

وسمع نستاسيا تصيح وهي تقرع الباب بقبضتها: «فلتفتح! أحي أنت أم ميت؟ إنه يظل نائمًا هكذا! إنه يظل أيامًا عدة يرقد هنا كالكلب! أقول لك افتح.. لقد مضت الساعة العاشرة».

وقال صوت رجل: «لعله لا يكون في غرفته».

- ماذا؟ صوت البواب؟... ماذا يريد؟

وقفز فجلس على المقعد وقلبه يدق دقًا أليماً..

وأجابت نستاسيا: «إذن فمن الذي وضع مزلاج الباب؟ إنه تعلم أن يقفل على نفسه كأن أحدًا يجد لديه ما يستحق السرقة! افتح أيها البليد! استيقظ!».

- ماذا يريدون؟ لماذا جاء البواب؟ أعرفوا الحقيقة؟ أقاوم أم أفتح وليكن ما يكون؟..

وقام نصف قيام، وانحنى إلى الأمام وفتح الباب.. فقد كانت الغرفة صغيرة بحيث يستطيع فتح المزلاج من غير أن يغادر الفراش، ورأى حقًا أن البواب ونستاسيا كانا واقفين هنالك..

ونظرت إليه نستاسيا نظرة غريبة محملقة فيه، ونظر هو نظرة تحد ويأس إلى البواب الذي مد إليه يده دون أن يتكلم بورقة طويت وختمت بالشمع.

قال وهو يعطيه الورقة: «هذا إنذار من المكتب».

- أي مكتب؟

- دعوة من مكتب الشرطة بلا ريب، إنك تعرف أي مكتب..

- الشرطة؟.. لماذا؟..

- ما أدراني؟ إنك مطلوب فعليك أن تذهب.

ونظر إليه الرجل نظرة فاحصة، وأدار نظره في الغرفة ثم استدار ليذهب... وقالت نستاسيا ولم ترفع عينيها عنه: «إنه مريض بلا شك» فأدار البواب رأسه لحظة، ثم أضافت: «لقد أخذته الحمى منذ أمس».

لم يجب رسكولنكوف، وأمسك الورقة بيده دون أن يفتحها، وقالت له نستاسيا في عطف إذ رأت أنه يريد أن ينزل بقدميه من المقعد: «لا تقم فإنك مريض! ولا تخرج فليس هنالك سبب للعجلة! ماذا في يدك؟».

ونظر فإذا يده اليمنى تمسك قطعاً في سرواله وجوربه وجيبه، فهو قد نام وهذه الخرق في يده.. وفكر في هذا الأمر فيما بعد، فتذكر أنه عندما استيقظ وهو في الحمى أمسك بهذه القطع في يده ثم نام.

فقالت نستاسيا: «انظر إلى هذه الخرق التي جمعها ونام بها وكأنه حصل على كنز...».

وأخذتها نوبة من ضحكها العصبي، فأسرع ورمى بهذه الخرق كلها تحت معطفه ودقق النظر فيها، ووقع في نفسه شيء من الهدوء مع ما كان في ذهنه من اضطراب، إذ لا يمكن أن يسلك الناس مثل هذا المسلك مع شخص يراد أن يقبض عليه.

- ولكن... الشرطة؟

فقالت نستاسيا: «من الخير لك أن تشرب شيئاً من الشاي! أترضى؟ سأحضره! فلا يزال لدينا بقية منه».

وتتمم وقد وقف على قدميه: «لا!...! إني ذاهب! سأذهب في الحال».

فقالت: «إنك لن تستطيع الوصول إلى أسفل السلم».

وأجابها: «بل سأذهب».

فقالت: «كما تريد!».

وذهبت في أثر البواب خارجة.

وما كادا يخرججان حتى اندفع متجهاً إلى النور، وأخذ يفحص الجورب والخرق..

- ها هي ذي عليها بقع، وإن كانت غير ملحوظة فإن الوسخ يغطيها، وقد طالما دعت وحال لونها ولا يمكن لأحد أن يلحظ فيها شيئاً إلا إذا كان مرتاباً.. ومهما يكن من الأمر فإن نستاسيا لا يمكن أن تلاحظ شيئاً عن بعد! الحمد لله!

ثم فض خاتم الورقة وهو يرتجف، وأخذ يقرأ، وظل يقرأ طويلاً قبل أن يفهم، فإذا الورقة لا تزيد على دعوة للحضور في ذلك اليوم إلى مركز الشرطة، في الساعة التاسعة والنصف صباحاً بمكتب رئيس المركز..

وفكر في حيرة مؤلمة: «متى حدث لي مثل هذا؟ ليس لي أي عمل مع الشرطة.. فلماذا أُدعى في هذا اليوم ذاته؟ رباه! فلنفرغ من هذا سريعاً..».

وهم أن يجثو على ركبتيه ليصلي، ولكنه ضحك فجأة - لا من فكرة الصلاة، ولكن من نفسه..

وأخذ يرتدي ملابسه في سرعة قائلاً: «إذا كنت قد انتهيت فليكن ذلك! إنني لا أهتم لما يكون».. ثم تردد فجأة: «ألبس الجورب؟ إنه سيزداد اتساعاً فتختفي الآثار»..

ولكنه لم يكد يلبسه حتى عاد فخلعه في كراهية واستفظاع، ثم تذكر أنه لا يملك جورباً آخر، فأمسك به ولبسه مرة أخرى.. ثم ضحك ثانية.. وفكر في مثل لمح البصر: «ليست الأحكام على الأفعال سوى أثر من آثار العرف الذي يصطلح الناس عليه، وهو أمر نسبي أو هو وجهة نظر».. ولكنه كان يفكر في ذلك بعقله الواعي وحده، على حين كان كل جسمه يرتجف، وعاد يقول في نفسه: «ها قد فرغت من لبسه، وانتهيت إلى أن لبسته»..

ولكن دفعة الضحك تبعتها موجة يأس سريعة.. ثم قال: «إن هذا الأمر فوق طاقتي».. وكانت ساقاه ترتعشان، فتمتم قائلاً: «أنا خائف؟». وكان في رأسه دوار وبه صداع من الحمى، وقال وقد خرج إلى السلم: «إنها لحيلة! إنهم يريدون أن يجروني إلى هناك! ثم يغرروا بي في كل شيء، وشر ما في الأمر أن رأسي مزعزع.. وقد ينفلت مني تصریح سخيف»..

وتذكر وهو في السلم أنه ترك كل الأشياء في مكانها في ثقب الحائط فقال: «لعلهم يستدرجونني إلى هناك ليفتشوا الغرفة في غيابي».. ووقف فجأة، ولكن اليأس بلغ منه مبلغاً اعتقد معه اعتقاداً جازماً أنه قد خسر كل شيء، وانتهى إلى حد السخرية من كل ما قد يحل به من الشقاء، وأشار بيده إشارة المستيس يظهر عدم الاهتمام، ثم مضى في نزوله وهو يقول: «فلنفرغ من هذا»..

وكانت الحرارة في الشارع لا تحتمل، فلم تسقط قطرة من مطر في كل تلك الأيام، واستقبله التراب وقوالب الطوب والأسمنت، وتصاعدت إليه روائح الحوانيت ومشارب الخمر، ورأى السكارى والبائعين الجائلين من أهل فنلندة، والمركبات القديمة والشمس تسطع في عينيه فتؤلم ناظره.. وأحس برأسه يدور - كما يحدث لمن كان مصاباً بالحمى عندما يخرج إلى الشارع في يوم حار مشمس.

ووصل إلى ناصية الشارع مبهوراً من السير، فالتفت إليه ووقعت عيناه على البيت المعهود.. فحولهما مجفلاً.

وفكر وهو يقترب من مركز الشرطة قائلاً: «لا أدري ما أنا فاعل إذا سألوني، ولعلني أقول كل شيء ببساطة...».

وكان مركز الشرطة على بعد ربع ميل، فقد انتقل منذ عهد قريب إلى شقة جديدة في الطابق الرابع من دار حديثة، وسبق له أن ذهب إلى المركز القديم، ولكن ذلك كان منذ مدة بعيدة، وعندما اجتاز باب الدار رأى السلم على اليمين ينزل منه فلاح يحمل سجلاً في يده.. «إنه بلا ريب بواب منزل!».. إذن فالمكتب من هذا الاتجاه، وأخذ يصعد السلم على هذا الظن، فإنه لم يكن يرغب في سؤال أحد.

وفكر عندما وصل إلى الطابق الرابع قائلاً: «ألا أدخل وأركع على ركبتي وأعترف بكل شيء؟»..

وكان السلم عالياً ضيقاً ولزجاً مما أصابه من المياه القذرة، وكانت مطابخ الشقق مفتوحة كلها على السلم، وتظل مفتوحة طول النهار، فالرائحة فظيعة والحرارة كذلك. وكان السلم مزدحماً بالحجاب، صاعدين

ونازلين وسجلاتهم تحت آباطهم، وبالشرطة وبالأفراد من جميع الأنواع ومن الجنسين. وكان باب المكتب مفتوحًا كذلك على سعته، ووقف داخله جمع من الفلاحين، وكانت الحرارة على عهدا لا تطاق، وتتصاعد رائحة تشمئز منها النفس من الدخان والزيت، إذ إن الغرف كانت حديثة الطلاء.

وبعد أن انتظر قليلاً عزم أمره، فسار إلى الغرفة التالية، وكانت كل الغرف ضيقة واطئة السقف، وكان يدفعه قلق مخيف، ولكن أحداً لم يلتفت إليه. وكان في الغرفة الثانية عدد من الكتبة جالسين يكتبون في هيئة نابية، وثيابهم لا تكاد تكون خيراً من ثيابه، فذهب إلى أحدهم فقال له: «ماذا تريد؟».

وقدم إليه الإعلان الذي وصله، فسأله الرجل وهو ينظر إلى الإعلان: «هل أنت طالب؟».

فأجاب: «نعم، كنت طالباً».

ونظر إليه الكاتب دون أن يبدي أي اهتمام، وكان شخصاً يسترعى النظر برثائه ثيابه، وعيناه تدلان على أنه من شواذ الطبع الذين تستولى عليهم فكرة ثابتة.

وفكر رسكولنكوف قائلاً: «لا يمكن الوقوف على أي شيء من هذا! فهو لا يهتم لشيء!».

وقال الكاتب وهو يشير إلى الغرفة القصوى: «اذهب هناك إلى رئيس الكتبة».

فدخل إلى تلك الغرفة، وهي رابعة الغرف، وكانت صغيرة تزدهم بأناس ثيابهم خير من ثياب من رأى في الغرف الأخرى، وكان بينهم

سيدتان إحداهما في ثياب الحداد ويلوح أنها فقيرة، وكانت جالسة على المنضدة أمام رئيس الكتبة تكتب شيئاً من إملائه، وكانت الأخرى امرأة مفرطة البدانة، لها وجه أحمر داكن وتلبس ثياباً زائدة في الأناقة، وعلى صدرها حلية كبيرة كأنها طبق صغير، وهي واقفة في جانب ويظهر أنها كانت تنتظر شيئاً. فدفع رسكولنكوف الإعلان إلى رئيس الكتبة فنظر فيه وقال: «انتظر لحظة».. وانصرف إلى السيدة المرتدية ثياب الحداد فوجد رسكولنكوف فسحة للتنفس وقال: «لا يمكن أن أكون قد دعيت من أجل هذا الأمر...».

وأخذ يسترد ثقته شيئاً فشيئاً، ويحث نفسه على أن يتشجع ويهدأ.. ثم قال في نفسه: «فلتة من الحماقة أو زلة من قلة الحرص فإذا بي أفضح نفسي... أما من نفحة من الهواء؟ إن الجو يكاد يخنق الأنفاس... ويزيد الرأس دواراً... والعقل خبالاً...».

وكان يشعر كأن عاصفة تثور في قلبه، وخشي أن يفقد السيطرة على نفسه، وحاول أن يمسك بزمام فكره فيركزه في أمر من الأمور، ولكنه لم يستطع شيئاً من هذا. ومع ذلك فقد رأى في رئيس الكتبة شيئاً يسترعى نظره، فانصرف إليه بفكره لعله يعرف كنهه ويستشف شيئاً من توسم وجهه.

وكان شاباً صغير السن في نحو الثانية والعشرين من عمره، ذا وجه أسمر تظهر عليه حركات نفسه، وكان يلوح أكبر من سنه، ويلبس ثياباً من طراز الزي الحديث يتألق فيها، وقد فرق شعره من الوسط ومشطه ودهنته، وكان في أصابعه ذات الأظافر النظيفة عدد من الخواتم، وعلى صدره سلسلة من الذهب، وقد نطق بوضع كلمات باللغة الفرنسية إلى أجنبي في

الغرفة، ونطقها بلهجة لا بأس بها..

وخاطب رئيس الكتبة السيدة ذات الثياب الأنيقة والوجه الأحمر قائلاً لها في غير احتفال: «لتجلسي يا لويز إيفانوفنا»..

وكانت السيدة لا تزال واقفة لا تجرؤ على الجلوس، مع أنها كانت تقف إلى جانب كرسي، فقالت في لطف وباللغة الألمانية: «أشكر».. وسمع حفيف الحرير وهي تجلس على الكرسي بالثوب الذي ترتديه، وهو سماوي اللون محلى بالمخرمات البيضاء يكاد يملأ نصف الغرفة كأنه منطاد هوائي، وسبح جانب منه على المكتب، وكانت رائحة العطر تفوح منها، ولكن الارتباك كان يظهر عليها؛ لأنها ملأت نصف الغرفة بثوبها، ولأن الرائحة القوية تفوح منها، وكانت ابتسامتها تجمع بين التذلل والتبجح معاً، إلا أن من يراها كان يدرك من هيئتها أنها مطمئنة..

وفرغت السيدة ذات ثياب الحداد من الكتابة وقامت، ودخل ضابط فجأة في ضجة وهو يهتز بأكتافه في كل خطوة، فرمى بقبعته ذات الشارة على المكتب وجلس في مقعد، فهبت المرأة الأنيقة من كرسيها عندما رآته، وأخذت تنحني له في شيء يشبه حماسة المتعبد، ولكن الضابط لم يعرها اهتماماً، ولم تجرؤ أن تجلس مرة ثانية في حضرته.. وكان هذا الضابط مساعد رئيس المركز، وله شاربان أحمران يمتدان منتصبين إلى جانبي وجهه، ولم تكن في وجهه ملامح بارزة، بل كانت ممسوخة لا تدل على شيء إلا أن تكون الوقاحة. ونظر شزراً في شيء من الغضب إلى رسكولنكوف؛ لأنه كان يرتدي ثياباً قديمة، وكان مع هوان موقفه يسلك مسلكاً لا يتفق مع حقارة ثيابه، فقد شمله رسكولنكوف دون أن يشعر بنظرة

طويلة ثابتة حملت إليه شعورًا بالإهانة.

ويظهر أنه دهش إذ رأى هذا الشخص الرث الثياب لا يخضع لجلال نظرتة وصاح فيه: «ماذا تريد؟».

وغمغم رسكولنكوف قائلاً: «لقد جئت.. على أثر دعوة..».

فأسرع رئيس الكتبة متدخلًا في الحديث، بعد أن نزع نفسه من أوراقه وقال: «لقد دعي هذا الطالب ليدفع نقودًا مستحقة عليه».. ثم رمى إلى رسكولنكوف وثيقة وأشار إلى مكان فيها قائلاً: «هنا! اقرأ هذا!».

فقال رسكولنكوف في نفسه: «نقود؟ أية نقود؟ إذن... فلم أدع من أجل هذا الأمر..».

وأخذ يرتعد سرورًا، وشعر بارتياح مفاجئ عميق لا يوصف، وكأن حملاً ثقیلاً رفع عن ظهره..

وصاح مساعد رئيس المركز، وكان يزداد غضبًا لسبب مجهول: «خبرني أيها السيد! في أي ساعة طلب إليك أن تحضر؟ إنك طلبت في الساعة التاسعة والآن قد صارت الساعة الثانية عشرة..».

فأجاب رسكولنكوف في صوت عال وهو ينظر من وراء كتفه: «إن الإعلان لم يأت إليّ إلا منذ ربع ساعة».. وعجب لنفسه إذ بدأ يغضب، وأحس في نفس الوقت ارتياحًا وقال: «ألا يكفي أنني جئت هنا وأنا مريض بالحمى؟».

فقال له مساعد الرئيس: «أرجو أن تمتنع عن الصياح!».

فأجاب: «إني لا أصيح، بل أتكلم في هدوء، أنت الذي تصرخ في!»

وأنا طالب ولا أسمح لأحد بأن يصرخ في وجهي...».

واشتد غضب مساعد رئيس المكتب حتى إنه لم يستطع النطق حيناً، وأخذ يبرطم، فكان أول ما خرج منه هديرًا غير مفهوم، وهب من مقعده قائلاً: «اسكت! إنك في مكتب حكومي.. لا تخرج عن حدك أيها السيد!».

وصاح رسكولنكوف: «أنت أيضًا في مكتب حكومي، وأنت تدخن السجائر وتصرخ فينا ولا تبدي احترامًا لنا جميعًا...».

وشعر بارتياح لا يوصف لأنه فاه بهذا القول..

ونظر إليه رئيس الكتبة وهو يتسم، فقد أصاب نقده مساعد رئيس المركز إصابة واضحة..

وأخيرًا صاح مساعد رئيس المكتب في صوت علا علوًا غير طبيعي: «ليس هذا من شأنك، أرجو أن توقع التعهد المطلوب منك. أفهمه يا ألكسندر جريجورفتش كيف يفعل. إن هنالك شكوى ضدك بأنك لا تدفع ديونك! حقًا إنك لشخص أمين!».

لم يكن رسكولنكوف يصغي إليه الآن، فقد أمسك بالورقة التي مدت إليه وأخذ يستجلي معناها ويقرأها مرة مرة، ولكنه لم يفهم فحواها ثم سأل رئيس الكتبة مستفهمًا: «ما هذا؟».

فأجابه: «إنه إعلان لاسترداد نقود كتبت بها صكًا، فإما أن تدفع الدين بفوائده ونفقاته وغير ذلك، وإما أن توقع تعهدًا كتابيًا تبين فيه الوقت الذي تستطيع الدفع فيه، وتتعهد في الوقت ذاته بألا تبرح العاصمة دون أن تدفع الدين، ولا تباع ممتلكاتك أو تخفيها، وتعترف بأن للدائن الحق في بيع هذه الممتلكات والتنفيذ بما يقضي به القانون».

قال رسكولنكوف: «ولكني لست مدينًا لأحد!».

فرد رئيس الكتبة: «ليس هذا من شأننا. إن عليك صكًا بمائة وخمسة وعشرين روبل، موقعًا عليه من شهود كما يقضي القانون، وهو واجب الأداء، وجيء به إلينا للسداد، وقد كتبته الدائنة زارنتين منذ تسعة شهور، وحولت السيدة هذا الصك لرجل اسمه تشيباروف، وقد أعلنك بناء على طلبه».

قال رسكولنكوف: «إنها السيدة التي أسكن لديها».

فقال رئيس الكتبة: «وماذا في ذلك؟».

ونظر إليه رئيس الكتبة في ابتسامة تدل على العطف، كما تدل على شيء من الانتصار، لأنه يرى شابًا يجرب نار المعاملات لأول مرة، وكأنه يتساءل في نظره: «كيف حالك الآن؟» غير أن رسكولنكوف لم يكن الآن مكرثًا لهذا الموضوع، وكيف يكثرث لصك يراد دفعه أو تعهد يكتبه لدفع مبلغ؟.. هل هذا الأمر جدير بأن يشغل خاطره أو يسترعى اهتمامه؟ لقد كان واقفًا يقرأ ويصغي ويعجب بل يوجه أسئلة في صورة آلية، فقد امتلأت نفسه ارتياحًا في تلك اللحظة إذ طغى عليه الشعور بالأمن والخلاص من خطر داهم دون أن يتجه بخاطره نحو المستقبل، أو يحلل موقفه، أو يفرض فروضًا أو تتباه الشكوك.

كانت اللحظة فرحة طاغية غامرة غريزية.

على أنه في الوقت ذاته هبت في المكتب ما يشبه العاصفة، فإن مساعد الرئيس كان لا يزال متضايقًا يغلي لما أظهره رسكولنكوف من عدم الاحترام، فكان من الجلي أنه حريص على أن يحتفظ بمكانته التي

جرحت، فاستدار إلى السيدة الأنيقة، وكانت تنعم النظر فيه منذ دخوله بابتسامة لا معنى فيها... أما السيدة الأخرى المرتدية ثياب الحداد فقد بارحت المكتب، وصاح بأعلى صوت: «وأنت أيتها المرأة الداعرة! ماذا كان بمنزلك في الليلة الماضية؟ ماذا؟ أمر مخجل مرة ثانية.. إنك لفضيحة الشارع كله!.. المشاحنة والسكر مرة ثانية.. أتريدان الذهاب إلى دار الإصلاح؟ إنني قد حذرتك قبل ذلك عشر مرات، فلن أتركك في المرة الحادية عشر.. وها أنت هنا مرة ثانية.. أنت... أنت!..»

فسقطت الورقة من يدي رسكولنكوف ونظر مأخوذاً إلى السيدة الأنيقة التي عوملت هذه المعاملة المنكرة، ولكنه لم يلبث أن فهم معنى ذلك، وأخذ للحال يجد تسلية في هذه الفضيحة، وأخذ ينصت في سرور، وود لو ضحك وضحك... وكانت كل أعصابه متوترة.

وابتداً رئيس المكتب يقول في قلق: «إيليا بتروفتش!..» ولكنه وقف عن الكلام؛ لأنه كان يعلم بالتجربة أن الضابط الغضوب لا يوقف إلا بالقوة. أما السيدة الأنيقة فكانت ترتعد ارتعاداً أمام العاصفة، ولكن من العجيب أنها كانت تزداد تودداً كلما تعددت الإهانة واشتد عنفها، وكانت بسماتها للمساعد العنيف جذابة، وهي تتحرك في قلق وتنحني له بلا انقطاع، وتنتظر في نفاذ صبر أن تجد فرصة لتقول كلمتها..

وسنحت لها الفرصة آخر الأمر، ونطقت بعبارات تتساقط كالحب، وبلغة روسية طليقة وإن كانت مشوبة بلهجة ألمانية ظاهرة، فقالت:

- لم يكن هنالك أي نوع من الضجة أو المشاحنة في داري يا سيدي الضابط، ولم يحدث أي نوع من الفضيحة.. فقد جاء الرجل من الخارج

سكران، وهذه هي الحقيقة بأكملها يا سيدي الضابط، فليس عليّ لوم في ذلك.. إن داري لشريفة يا سيدي الضابط، وإني لأكره الفضائح، ولكنه جاء وقد أخذ منه الشراب، وطلب ثلاث زجاجات أخرى، ثم رفع إحدى ساقيه وأخذ يعزف على البيانو بقدمه، وهذا لا يليق أبدًا في منزل شريف، وكاد يكسر البيانو، وهذا مسلك شائن، وهو ما قلته له. فأخذ زجاجة وبدأ يضرب بها كل من هناك، فدعوت البواب، وجاء كارل، فأمسك بكارل وضربه في عينه، وضرب هنرييت في عينها أيضًا، ولطمني خمس لطمات على خدي. ولم يكن ذلك مسلك سيد في دار شريفة يا سيدي الضابط، فصرخت، ففتح الباب المطل على الشارع ووقف في النافذة، وأخذ يصرخ كالخنزير الصغير، وهذا أمر مخجل، فإن الصراخ كالخنزير الصغير من نافذة على الشارع أمر لا يليق بغير شك! تبًا له! تبًا له! فجره كارل من سترته بعيدًا عن النافذة، ولست أكذبك يا سيدي الضابط، فإنها تمزقت.. وحينئذ صاح قائلاً: إنه يجب أن يدفع له خمسة عشر روبل على سبيل التعويض، فدفعت له يا سيدي الضابط خمسة روبلات من أجل سترته، وهو الزائر الذي سلك مسلكًا لا يليق بالسادة وأحدث كل تلك الفضيحة، وقال لي: سأريك ما أفعل إذ أستطيع أن أكتب إلى جميع الصحف عنك..

- إذن فهو مؤلف؟

- نعم يا سيدي الضابط، وزائر سيء المسلك في دار شريفة...

- حسبك الآن! كفى! أما سمعت ما قلت لك من قبل؟...

وكرر رئيس الكتبة نداءه ذا المعنى: «إيليا بتروفتش!».

ونظر إليه المساعد نظرة سريعة، فهز رئيس الكتبة رأسه قليلًا.

وتابع المساعد حديثه قائلاً: «... وإذن أخبرك يا سيدتي لويزا إيفانوفنا المحترمة، وأخبرك للمرة الأخيرة، أنه إذا حدثت فضيحة في دارك الشريفة مرة أخرى فإنني سأقضي بحجزك في المكان المعهود كما يسمى في المجتمعات، هل تسمعين؟.. إذن فهو أديب ومؤلف ذلك الذي أخذ منك خمسة روبلات من أجل سترته في «دار شريفة»؟ إنهم حقًا جماعة من الظرفاء هؤلاء المؤلفون!». .

وألقي على رسكولنكوف نظرة احتقار واستطرد قائلاً: «لقد حدث أيضًا منذ أيام فضيحة في مطعم، فإن مؤلفًا أكل طعامه ولم يرد الدفع وقال لصاحب المطعم: «سأكتب فيك هجوعًا»، وفي الأسبوع الماضي استعمل أحدهم في باخرة أقبح العبارات في مخاطبة أسرة محترمة مؤلفة من مستشار مدني وزوجته وابنته، وطرد آخر منذ أيام من محل حلوى! هذا شأن المؤلفين والأدباء والطلبة الحفاة فأف لهم! اذهبي أنتِ وسأمر عليك بنفسي ذات يوم، فعليك أن تحذري! هل تسمعين؟».

فأخذت لويزا إيفانوفنا تنحني في أدب سريع إلى جميع الجهات حتى خرجت من الباب، ولكنها اصطدمت عند الباب بضابط له وجه نضر صريح وشوارب ضخمة جميلة، وهو نيكوديم قومتش رئيس المركز نفسه، فأسرعت لويزا إيفانوفنا بالانحناء أمامه حتى كادت تلامس الأرض، وانسحبت من المكتب في خطوات صغيرة كأنها تقفز...

وقال نيكوديم قومتش موجهاً الكلام لإيليا بتروفتش في لهجة مودة وتحمل: «الرعد والبرق مرة أخرى؟.. وهبوب العاصفة! أهكذا ثور ثائرتك فترغي وتزبد! لقد سمعتك من السلم!». .

وقال إيليا بتروفتش هادئاً بلهجة مهذبة: «ماذا أفعل؟».. ومشى ببعض الأوراق إلى منضدة أخرى وهو يهز كتفيه في كل خطوة.. «هنا، إذا تكرمت بالنظر، مؤلف أو طالب- أو كان طالباً على الأقل- لا يدفع ديونه، وقد كتب بها صكاً ولا يريد مغادرة غرفته، وتأتي شكايات منه دائماً، وهو قد تفضل بالاحتجاج على تدخيني في حضرته! إنه يسلك مسلك الأوغاد، فأرجوك أن تنظر إليه.. هذا هو السيد وما أبهى منظره!».

فقال نيكوديم فومتش: «ليس الفقير يا صديقي عيباً، ولكننا نعلم أنك تنطلق كالبارود ولا تحتمل أن يرد أحد عليك لفظاً..».

والنفت إلى رسكولنكوف في تودد وقال: «أظن أنك تضايقت من شيء فخرجت عن حدك، ولكنك مخطئ! فإني أؤكد لك أنه من خيرة الناس، ولكنه ينفجر وينفجر، وتلك عادته.. فهو كلما شعر بالحرارة انطلق يغلي ولا يمكن وقفه، ثم لا يلبث ذلك أن يزول! أما في أعماقه فإن قلبه من ذهب، ورجال فرقته يسمونه الضابط المتفجر...».

فسر إيليا بتروفتش لهذا المزاح الطريف، وإن ظل متجهماً وقال: «يا لها من فرقة!».

وأحس رسكولنكوف برغبة ملحة في أن يقول شيئاً يرضيهم جميعاً، فبدأ يتكلم في سهولة مخاطباً نيكوديم فومتش: «معذرة يا سيدي الضابط! أرجو أن تضع نفسك في موقعي... إني على استعداد لأن أطلب العفو لو أنني سلكت مسلكاً غير لائق! إني طالب فقير ومريض، وقد حطمني الفقر! ولست أدرس الآن لأنني لا أستطيع أن أقوم بأودي، ولكني سأجد المال... إن لي أمّاً وأختاً في إقليم س.. سترسلان إليّ مالاً، وسأدفع! وصاحبة

المنزل امرأة طيبة القلب، ولكنها غضبت مني لأنني فقدت الدروس التي كنت ألقياها، ولم أدفع لها الأجرة في الأشهر الأربعة الأخيرة، حتى لقد أصبحت لا ترسل إليّ غذائي... وأنا لا أفهم أمر الصك الذي تطلب إليّ أن أدفعه لها، فكيف أدفع لها؟.. تصوروا هذا لأنفسكم!...».

وقال رئيس الكتبة: «ولكنك تعرف أن ذلك ليس من شأننا».

فأجاب: «نعم! نعم! إني أوافقك كل الموافقة، ولكن اسمح لي أن أفسر...».

قال رسكولنكوف هذا الكلام متجهًا إلى نيكوديم فومتش، وإن حاول بما في وسعه أن يخاطب أيضًا إيليا بتروفتش، غير أن هذا أصر على أن يتشاغل بالبحث في أوراق كأنه نسي وجوده احتقارًا، واستمر رسكولنكوف قائلاً: «اسمح لي أن أفسر مسلكي، فقد عشت معها ما يقرب من ثلاثة أعوام، وفي أول الأمر... في أول الأمر... لماذا لا أقول لكم الحق؟ أقول إني في مبدأ الأمر وعدت بأن أتزوج ابنتها وعدًا شفهيًا أعطيته من تلقاء نفسي... وهي فتاة كنت أميل إليها، ولكنني لم أقع في حبها... كانت في الحق دفعة شباب. أعني أن أقول إن صاحبة المسكن كانت تقرضني في سهولة في تلك الأيام، وكنت أسلك حياة... كنت لا أهتم لشيء...».

فتداخل إيليا بتروفتش في الحديث وقال في جفاء وزهو: «لم تقول كل هذا ولم يسألك أحد عن دقائق شؤونك الخاصة وليس لدينا من الوقت ما نضيعه؟».

ولكن رسكولنكوف أوقفه في حرارة، وإن وجد فجأة أنه من الصعب عليه أن يمضي في حديثه، وقال: «ولكن معذرة، معذرة إذ لا بد لي من شرح...».

كيف حدث... هذا... وإن كنت أنا كذلك أو افقك... أنه غير ضروري! على أن الفتاة ماتت بالتيفوس منذ سنة، وظللت مقيمًا كما كنت من قبل، ولما انتقلت صاحبة الدار إلى مسكنها الذي نقيم فيه الآن قالت لي... وفي لهجة الود... إن لها ثقة كبيرة بي، ولكنها تحب أن أعطيها صكًا بمبلغ مائة وخمسة وعشر روبل، وهو الدين الذي أدين به لها، ووعدتني إن أعطيتها هذه الورقة أن تعود إلى ثقتها فيّ، وأنها لن تستعمل هذا الصك أبدًا.. أبدًا.. وهذه هي ألفاظها- حتى يتيسر لي الوفاء بالدين، من تلقاء نفسي... والآن بعد أن فقدت كل دروسي، وصرت لا أجد ما أكله، تهب هكذا وتشكوني؟.. فماذا أقول في ذلك؟».

وقاطعه إيليا بتروفتش في جفاء: «كل هذه التفصيلات المؤثرة ليست من شأننا، ويجب أن تكتب تعهدًا كتابيًا، أما شئون حبك، وكل هذه الحوادث المحزنة فليس لنا بها شأن..».

فجلس نيكوديم قومتش إلى المكتب، وأخذ يكتب، وتمتم وقد ظهر عليه شيء من الخجل: «اسمع!.. لقد عنفت عليه!». وقال رئيس الكتبة لرسكولنكوف: «اكتب!». فسأل في صوت أجش: «ماذا أكتب؟».

فقال له: «سأملّي عليك».

وخيل إلى رسكولنكوف أن رئيس الكتبة بدأ يزدرية ولا يلتفت إليه منذ سمع حديثه، ولكن الغريب أنه أحس فجأة بعدم الاهتمام لرأي أحد من الناس، وحدث فيه هذا الانقلاب كالبرق في لحظة، ولو أنه وقف ليفكر قليلًا لدهش حقًا من أنه قال ما قال منذ دقيقة، ولعجب من أنه أقحم عليهم شؤنه

ومشاعره التي لا تعنيهم، بل لعجب كيف طرأت عليه هذه المشاعر... فلما تبدل هذا التبدل الفجائي، خيل إليه أنه لو كان في تلك الغرفة جمع زاهر من ضباط الشرف، أو من أقرب الناس إليه وأعزهم عليه، لما وجد كلمة عطف واحدة أو استعطاف يوجهها إليهم، إذ صار قلبه جامدًا فاترًا يخيم عليه شعور مؤلم كئيب، ويفيض وحشة عارمة وعزلة قاطعة أبدية..

ولم ينشأ هذا الانقلاب في قلبه من شعور بحقارة اندفاعه مع العاطفة أمام إيليا بتروفتش، ولا من شعوره بالهوان لانتصار هذا عليه، فلم يكن لشيء من ذلك أثر فيه، ولم يكن يبالي تلك الحقارة، ولا يعاب بذلك الهوان، ولا بانتصار ضابط مفتون، ولا بالنساء الألمانية والديون ومكاتب الشرطة جميعًا.. ولو أنه حكم عليه بالحرق في تلك اللحظة لما تحرك، ولما عني بالإصغاء إلى الحكم حتى نهايته..

فالذي أحدث الانقلاب في نفسه كان شيئًا جديدًا فجائيًا لا يدري ما هو، شيء لا يصدر عن عقله، بل يتدفق من قلبه، جعله يحس إحساسًا قويًا أنه غني عن هؤلاء الناس الذين كانوا في مكتب الشرطة، وأنه لا يجمل به أن يكشف لهم شيئًا مثل الذي كشفه لهم. بل إنه لن يحتاج إليهم في شيء مطلقًا. وأنهم لو كانوا إخوة أو أخوات له بدلًا من أن يكونوا ضباط شرطة، فإنه لن يدور في خلد أنه يلتجئ إليهم في أمر من أمور الحياة. لم يجرب من قبل مثل هذا الإحساس الممض الغريب، وكان مما زاد في ألمه أنه كان إحساسًا عميقًا لا رأيًا ولا فكرة، فهو إحساس خالص مطلق أشد ألمًا من كل ما عرفه من المشاعر في حياته..

وأخذ رئيس الشرطة يملي عليه التصريح المعتاد بأنه لا يقدر على

الدفع، وأنه يتعهد بأن يدفع في المستقبل، وأنه لا يغادر المدينة، ولا يبيع ممتلكاته، إلى آخر ما في التصريح..

وقال رئيس الكتبة وهو ينظر في فضول إلى رسكولنكوف: «أراك لا تقدر على الكتابة، ولا تستطيع إمساك الريشة! أنت مريض؟».

فأجاب: «نعم، إنني أشعر بدوار! استمر!».

فقال: «هذا كل ما هنالك، فوقع عليه».

وأخذ رئيس الكتبة الورقة وانصرف إلى عمله مع آخرين.

وأعاد رسكولنكوف الريشة، ولكنه لم يهب للانصراف، بل وضع ذراعيه على المكتب، وضغط رأسه بيديه وقد شعر كأن مسمارًا يدق في جمجمته. وجاءته فجأة فكرة غريبة، هي أن يقوم في الحال ويقصد إلى نيكوديم فومتش ويخبره بكل شيء حدث بالأمس، ثم يسير معه إلى مسكنه ويريه الأشياء التي وضعها في الثقب بركن الغرفة.. وقد بلغت منه هذه الفكرة الملحة أن قام من مقعده لينفذها، ثم مر في ذهنه خاطر سريع.. «أليس من الخير أن أفكر لحظة قبل أن أقدم على هذا؟.. بل إنه من الخير أن ألقى بهذا العبء عن كاهلي بدون تفكير!».. ولكنه وقف فجأة في مكانه كأنه تسمر فيه، فإن نيكوديم فومتش كان منصرفًا إلى إيليا بتروفتش يحدثه، وبلغت أذنيه كلمات:

- هذا مستحيل، سيطلق سراح الاثنين.. وذلك لأسباب أولها أن القضية يناقض بعضها بعضًا، فلماذا دعوا البواب إذا كان ذلك من فعلهما؟ أكانا يريدان التبليغ عن نفسيهما؟ أم هما فعلا ذلك للتعمية؟ لا! إن هذا يكون خداعًا فوق طاقتهما! فضلًا عن ذلك، فإن الطالب بسترياكوف

رؤي عند المدخل.. وقد شهد بذلك البوابان، كما شهدت به امرأة رآته وهو داخل إلى الدار. وكان يمشي مع ثلاثة من الأصدقاء الذين لم يتركوه إلا عند المدخل، وسأل البوابين أن يدلّاه على مقصده، وكان ذلك أمام أصدقائه.. فهل كان ليسأل عن طريقه لو أنه ذهب لهذا الغرض؟ أما كوخ فإنه أمضى نصف ساعة عند الصائغ في أسفل الدار قبل أن يصعد إلى العجوز، وقد تركه قبل الساعة الثامنة بربع ساعة تمامًا، فتصور هذا..

- ولكن معذرة، فكيف تفسر تناقضهما في أقوالهما؟ إنهما يصرخان قائلين إنهما قرعا الباب وكان الباب مغلقًا، ولكنهما عند عودتهما مع البواب بعد ثلاث دقائق ظهر لهما أن الباب مفتوح.

- هذا مصداق لقولي، فلا بد أن القاتل كان هناك وأغلق الباب على نفسه. وكان من المحقق أنهما يقبضان عليه لو أن كوخ لم يسلك مسلك الحمار فيذهب أيضًا للبحث عن البواب. ولا بد أن القاتل انتهز هذه الفرصة للنزول والإفلات منهما بطريقة ما. ولا يزال كوخ يرسم علامة الصليب ويكرر قوله: «لو أنني بقيت هناك لقفز المجرم خارجًا وقتلني ببلطته».. وقد عزم على أن يقيم صلاة شكر! ها! ها!

— ألم ير القاتل أحد؟

قال رئيس الكتبة، وكان يصغي للحديث: «من الطبيعي أنهم لم يروه، فإن الدار أشبه بسفينة نوح».

فعاد نيكوديم فومتش يقول بحرارة: «المسألة واضحة! المسألة واضحة جدًا!».

ولكن إيليا بتروفتش حاوره قائلاً: «لا! قل ما شئت إلا الوضوح».

فحمل رسكولنكوف قبعته وقصد إلى الباب، ولكنه لم يصل إليه..

ولما عاد إلى صوابه وجد نفسه جالسًا على كرسي وشخص عن يمينه يسنده، بينما وقف عن يساره شخص آخر ممسك بكوبة صفراء اللون فيها ماء أصفر، وكان نيكوديم ثومتش واقفًا أمامه وهو يطيل النظر إليه، فقام من الكرسي..

وسأله نيكوديم ثومتش في شيء من الحدة: «ما هذا؟ أنت مريض؟». وقال رئيس الكتبة وقد عاد للجلوس في مكانه واستأنف عمله: «كان لا يكاد يمسك بالقلم وهو يوقع إمضاءه».

وصاح إيليا بتروفتش وهو في مكانه ماضيًا في فحص أوراقه: «أكنت مريضًا منذ مدة طويلة؟».. وكان بتروفتش قد قام من مكانه لينظر إلى الرجل المريض عندما أغمى عليه، ثم عاد إلى مكانه عندما رجع إلى صوابه. وتمتم رسكولنكوف مجيبًا: «منذ أمس».

- هل خرجت بالأمس؟

- نعم..

- بالرغم من مرضك؟

- نعم.

- في أي وقت؟

- في نحو السابعة.

- هل لي أن أسأل أين ذهبت؟

- تمشيت في الشارع.

- كلام مختصر وواضح..

كان رسكولنكوف يجيب في حدة عبارات مختصرة وهو ممتنع اللون كالمنديل الأبيض، ولم يخفض من عينيه السوداوين المحمومتين أمام حملكة بتروفتش فيه..

وبدأ نيكوديم فومتش يقول: «إنه لا يكاد يستطيع الوقوف، وأنت..».

فقال إيليا بتروفتش في نغمة خاصة: «إذن فلا بأس!».

وكان نيكوديم فومتش ينطق بعبارة لوم أخرى، ولكنه التفت إلى رئيس الكتبة فرآه ينظر إليه نظرة صارمة فامتنع عن الكلام. وساد السكون، وكان سكوناً غريباً..

واختتم إيليا بتروفتش الكلام بقوله: «لا بأس إذن! فلسنا نحب أن نعوقك».

فخرج رسكولنكوف، وسمع صوت محادثة قامت على أثر انصرافه، وكان صوت نيكوديم فومتش يعلو فوق أصوات أصحابه..

ولما خرج الفتى إلى الطريق ذهب عنه كل أثر من الإعياء، وكان يقول في نفسه وهو يسرع نحو داره: «إنهم سيفتشون.. سيفتشون بعد قليل! هؤلاء الأوغاد يرتابون في!».

وعاد إليه خوفه السابق واستولى عليه..

(٢)

ثم قال في نفسه: «وماذا يكون لو أنهم ذهبوا من قبل وفتشوا الغرفة؟ وماذا يكون لو وجدتهم في الغرفة؟».

ولكنه وصل إلى غرفته فلم يكن بها شيء، ولم يكن بها أحد، بل لم يدخل فيها أحد، حتى نستاسيا لم تمسها. ولكن رباه! كيف ترك جميع هذه الأشياء في ثقب الحائط؟

وجرى إلى ركن الغرفة فدرس يده تحت الورق وأخرج الأشياء وملاً بها جيوبه، وكان عددها ثمانية: علبتان صغيرتان فيهما قرطان أو ما يماثلهما فهو لم يكده ينظر إليهما، ثم أربع محافظ صغيرة من الجلد، ثم سلسلة ملفوفة في ورقة من أوراق الجرائد، وشيء آخر في لفة من ورق الجرائد يشبه الوسام.. ووضع الأشياء جميعها في جيوب معطفه وفي الجيب الباقي من سرواله محاولاً أن يخفيها بقدر المستطاع. وأخذ كيس النقود أيضاً، ثم غادر الغرفة تاركاً الباب مفتوحاً..

وسار بخطوات سريعة ثابتة، وكان مع إعبائه متمالكًا حواسه، يسير خائفًا يتربص أن يتبعه أحد، وتساوره الهواجس أن يلحق به أحد يقتفي أثره، وكان يخشى أن يصدر الأمر بتعقبه بعد ربع ساعة، فكان لا بد له من أن يخفي كل أثر قبل ذلك مهما كلفه الأمر، وأن يفرغ من ذلك كله وهو لا يزال متماسكًا يمتلك شيئًا من قوته، ومن قدرته على التفكير... فإلى أين يقصد؟

وعقد العزم قائلاً: «لأقذف بهذه الأشياء في القناة فتختفي الآثار في الماء وينتهي الأمر».. هكذا كان قرر ليلة مرضه وهذيانه، عندما أحس بدافع يدفعه مرارًا إلى القيام والخروج والإسراع إلى التخلص من كل شيء. ولكنه وجد ذلك أمرًا عسيرًا.. فظل يسير على شاطئ قناة إيكاترينسكي، حتى قضى أكثر من نصف ساعة في تجواله، ووقف عدة مرات ينظر إلى الدرج الذي ينزل إلى الماء، ولكنه لم ينفذ ما عقد عليه العزم، إذ كانت الأرمات قائمة في أسفل الدرج والنساء من حولها يغسلن الملابس، وكانت القوارب مشدودة إليها، والناس منبثين في كل مكان..

وفضلاً عن ذلك فقد كان من السهل أن يسترعى الأنظار من أعلى شاطئ القناة، وأي شيء أبعث على الريبة من رجل ينزل عامداً إلى الماء ليرمي فيه شيئاً؟ وقد تطفو العلب بدلاً من أن تغوص، وما كان أجدرها أن تطفو. بل لقد خيل إليه أن الناس يحملقون فيه بغير سبب، وينظرون إليه من خلفهم كأنهم إنما خرجوا ليتبعوه بأبصارهم. وقال في نفسه: «لم كل هذا؟ أليس هو الوهم الذي يخيّل إليّ كل هذا؟».

وخطر له آخر الأمر أنه قد يكون خيرًا له أن يقصد إلى نهر النيثا؛ فالناس

هناك أقل عددًا، فيكون أقل جذبًا للأنظار، فضلًا عن أن ذلك المكان بعيد منعزل، فهو من كل الوجوه أصلح له وأوفى بقصده.. وعجب لنفسه كيف قضى مدة نصف ساعة كاملاً في ذلك الموضع الخطر، وهو مشغول القلب، قلق البال، ولم تطرأ عليه هذه الفكرة، فأضاع نصف ساعة في محاولة غير معقولة، لا لشيء سوى أنه فكر فيها وهو تحت وطأة الحمى. وتبين له أنه قد صار مشتت الفكر كثير النسيان، فيجب عليه أن يبادر إلى إنفاذ عزمته..

وسار نحو نهر النيقا... ولكنه ما لبث أن طرأت عليه فكرة أخرى في أثناء سيره.. فما باله يقصد نهر النيقا؟ أليس خيرًا له أن يذهب إلى مكان بعيد، في إحدى الجزائر مثلاً، فيخفي الأشياء في مكان منعزل منها، مثل غابة أو تحت خميلة أو أجمة، وقد يضع بالموضع علامة تدل عليه؟..

وكان يشعر بأنه غير قادر على التفكير السليم. على أن الفكرة بدت له صائبة. ولكن لم يكن مقدراً له أن يذهب إلى هناك. فبينما هو يسير قاصداً إلى الميدان، رأى إلى يساره ممراً يؤدي إلى فناء يحيط به عن يمين ويسار جداران عاريان، وكان الجدار الأيمن جانباً غير مدهون لدار مؤلفة من أربعة طوابق يمتد إلى مسافة في الفناء. وأما الجدار الأيسر فكان سوراً من الخشب يمتد في الفناء نحو عشرين خطوة، ثم ينحرف إلى اليسار نحو فضاء مهجور مسور، فيه أنواع مختلفة من المهملات، وفي أقصاه حظيرة مسورة ببناء قذر من الحجر. وهي على أغلب الظن قطعة من مصنع، يُطل من وراء الألواح الخشبية، ولعلها كانت حظيرة يتخذها صانع عربات أو نجار، وكان المكان كله ملطخاً من مدخله بغبار الفحم. فوقع في نفسه أن هذا هو المكان الصالح للقاء تلك الأشياء..

ولما لم ير أحدًا في ذلك الفضاء دخل إليه خلصة، ورأى أول شيء على مقربة من مدخله بالوعة من النوع الذي يكون في الأفنية، التي يكون فيها الكثير من العمال أو سائقي العربات. ورأى فوق لوحة السور الخشبي كتابة بالطباشير، وهي العبارة المألوفة: «البول ممنوع هنا قطعاً».. فكان ذلك أروح له، إذ يجعل دخوله إلى هناك لا يثير شكًا، وقال في نفسه: «هنا أستطيع إلقاءها جميعاً في كومة، ثم أغادر المكان»..

ونظر حوله مرة أخرى ويداه في جيبه، فرأى حجرًا كبيرًا يبلغ وزنه نحو ستين رطلاً، وكان ملقى بين المدخل والبالوعة مستندًا إلى الحائط الخارجي. أما الجانب الآخر من الحائط فكان من ورائه شارع تسمع منه أصوات المارة، وهم كثيرون العدد في تلك الناحية. ولكنه كان مستورًا لا يراه أحد من الداخل، إلا إذا دخل قصدًا من الشارع. وكان ذلك محتملاً بالطبع، وكان لا بد له من الإسراع..

وانحنى فوق الحجر، وأمسك به من أعلاه بيديه الاثنتين، وبذل كل قوته، وأمكنه أن يديره، فوجد تحته حفرة صغيرة. فأفرغ جيوبه فيها، وكان كيس النقود في أعلاها، ومع ذلك لم تمتلئ الحفرة. ثم أمسك بالحجر مرة ثانية وأداره بحركة واحدة، فأعاده إلى مكانه لولا أنه صار أكثر ارتفاعًا، وغطى جوانبه بالتراب، وضغطه بقدميه حتى سواه بما حوله، فلا يمكن أن تلمح العين به نشورًا.

ثم خرج عائدًا إلى الميدان، ومرت عليه لحظة استولى عليه فيها سرور عميق لم يكده يحتمله، كما حدث له من قبل في مكتب الشرطة، وقال في نفسه: «لقد أخفيت أثاري، فمنذا يفكر في البحث تحت هذه الصخرة؟ إنها

على أغلب الظن في هذا المكان منذ بناء البيت، وقد تمضي عليها هناك سنوات أخرى! فإذا وجدت هذه الأشياء تحتها يومًا فمندا يفكر في؟ لقد انتهى كل شيء ولم يبق دليل ينم عليّ!».

ثم ضحك، وقد تذكر فيما بعد كيف أخذ يضحك في أول الأمر ضحكة ضئيلة عصبية لا صوت لها. ثم ظل يضحك طوال مدة اجتيازه الميدان، ولكنه لما بلغ طريق ك... وجد نفسه في المكان الذي صادف فيه تلك الفتاة منذ يومين، فانقطع ضحكه فجأة، وعادت إلى عقله أفكار أخرى. وشعر فجأة أنه يكره أن يمر على ذلك المقعد الذي جلس عليه غارقًا في أفكاره، بعد أن ذهبت عنه الفتاة. وأنه يكره كذلك أن يقابل رجل الشرطة ذا الشاربين، ذلك الذي أعطاه عشرين كوبك: «لعنة الله عليه!».

وسار ينظر حوله في غضب وهو مشئت الفكر، ويظهر أن أفكاره كانت تدور حول نقطة واحدة، وتبين عند ذلك لأول مرة في مدة الشهرين اللذين مرابه أنه لم تبق له حقيقة غير هذه النقطة الواحدة. وقال في نفسه فجأة وهو في سورة غضب جارف: «لعنة الله على كل شيء! إذا كان الأمر قد بدأ، فهو قد بدأ! ولعنة الله على الحياة الجديدة! رباه! ما أشد حماقتي... وأية أكاذيب نطق بها اليوم! وما كان أشد حقارتي عندما تملقت ذلك الوغد إيليا بتروفتش! ولكن ذلك كله جنون! فماذا يعني من أمرهم جميعًا؟ ليس هذا ما يشغل قلبي! ليس الأمر كذلك...».

ووقف فجأة وقد هبط عليه سؤال بسيط غير منتظر، فحيره وجرحه اضطرابًا مرًا: «أأقدمت على هذا العمل عن عمد لا عن رعونة ولا عن سخف؟ أأقدمت عليه قاصدًا إلى غرض محدد واضح؟ إذن فكيف لم أكد

أنظر إلى كيس النقود ولم أعرف ما فيه؟ ألم أفعل ما فعلت من أجل هذا، ومن أجله قاسيت هذه الآلام، وتورطت في مثل هذا العمل الحقير القدر الذي هوى بي إلى أسفل درك؟ ومع ذلك فما أنذا أبادر مسرعاً أريد أن أقذف بالكيس وبالأشياء الأخرى جميعاً إلى الماء بغير أن أراها... فكيف ذلك؟».

أجل، إن الأمر كذلك! إن الأمر كذلك! وقد عرفه من قبل ولم يكن مجهولاً لديه عندما قرر في الليل ارتكاب فعلته بلا تردد ولا تفكير، كأنه أمر محتوم لا مفر منه... أجل، لقد عرفه وفهمه حق الفهم، فهو أمر مقدر كان واثقاً منه حتى بالأمس في الوقت الذي كان يقف فيه منحنيًا على الصندوق يخرج منه علب الحلي... أجل، هو كذلك.

وقال آخر الأمر وهو محزون: «السبب في كل هذا أنني مريض جدًا، فقد ظللت أرهق نفسي وأشغلها حتى صرت لا أعرف ماذا أفعل... فأمس واليوم السابق له وقبل ذلك كنت أرهق نفسي... فلأصبر حتى أسترده صحتي ثم لا أنغص حياتي بهذا... ولكن ماذا يكون إذا لم تعد إليّ صحتي أبدًا؟ رباه! لقد عييت بهذا وضقت به ذرعًا».

وسار دون أن يستريح وهو يشعر برغبة ملحة في أن يجد شيئًا يشغله عن التفكير، ولكنه لم يدر ماذا يعمل أو ماذا يحاول! فإن شعورًا جديدًا بدأ يستولى عليه ويزداد تسلطاً بين لحظة وأخرى، ذلك هو مقت خارق لا حد له يحسه في جوارحه وأعضائه، مقت لكل ما يحيط به، كراهة عنيفة خبيثة ملحة تجعله يبغض من يلقاها وينفر من النظر إلى وجوههم ولا يطبق لهم حركة ولا إشارة، ولو أن أحدهم وجه إليه الخطاب لثار به فبصق عليه أو

عقره عقراً...

ووقف فجأة عندما وصل إلى شاطئ نهر النيفا الصغير على مقربة من جسر جزيرة فاسيليشسكي، وفكر قائلاً في نفسه: «بلى! إنه يسكن هنا في هذا البيت! لا جرم أني لم أسع إلى هنا لكي أزور رازوميهين قصداً. فما هو إلا الأمر نفسه يتكرر ثانية... وإنه لجدير بي أن أعرف هل جئت عامداً أو أني سرت إلى هنا اتفاقاً، وعلى كل حال فقد كنت أرى منذ يومين أن أزوره في الغداة، فلا بأس أن أفعل ذلك الآن، ومهما يكن الأمر فإنني لن أستطيع السير أكثر من هذا...».

وصعد إلى غرفة رازوميهين في الطابق الخامس.

وكان صاحبه في غرفته منهما في الكتابة، وفتح الباب بنفسه. وقد مضت أربعة أشهر دون أن يرى أحدهما الآخر، وكان رازوميهين جالساً وقد ارتدى معطفاً منزلياً عتيقاً، وفي قدميه العاريتين نعل منزلي، وهو أشعث الشعر لم يحلق ذقنه ولم يغسل وجهه، وظهرت عليه علامة الدهشة وصاح به: «أهذا أنت؟!».

ثم نظر إليه من رأسه إلى قدميه، ثم صفر بعد فترة قصيرة، واستأنف القول وهو ينظر إلى ثياب رسكولنكوف الممزقة: «هل بلغ بك العسر هذا المبلغ؟ لماذا قاطعتني أيها الأخ؟ تعال اجلس فإنك متعب بلا شك!».

وجلس على مقعد من الجلد الأمريكي، كان في حالة أسوأ من مقعده، وما كاد رازوميهين يراه حتى عرف أنه مريض، وقال: «أرى عليك أثر المرض الشديد... أتعرف ذلك؟».

وأخذ يجس نبضه، ولكن رسكولنكوف سحب يده وقال: «لندع هذا!».

فما جئت إليك إلا لسبب واحد، وهو أنني لا أعطي دروسًا... وقد أردت...
ولكنني في الحقيقة لا أريد دروسًا..».

وقال رازوميهين وهو يدقق النظر إليه: «استمع إليّ.. إنك تهذي.. ألا تعلم؟».

- لا، ليس بي شيء من الهذيان!

وهب رسكولنكوف من المقعد واقفًا، فقد كان لا يدري وهو صاعد في السلم إلى غرفة رازوميهين أنه سيلقاه وجهًا لوجه، فما كادت عينه تقع عليه حتى تبين أن أبغض الأشياء إليه عند ذلك هو أن يلقى إنسانًا في العالم وجهًا لوجه، وثار حقدّه وكاد يخنقه الحنق على نفسه عندما خطا عتبة رازوميهين..

وقال فجأة: «وداعًا!..» ومشى نحو الباب.

فقال صاحبه: «قف! قف! أيها الإنسان العجيب».

وقال الآخر: «لا أريد».. وجذب يده منه.

فصاح به ذاك: «إذن فأَيُّ شيطان جاء بك؟ ماذا أصابك؟ جنتت؟ يكاد عملك هذا يكون إهانة! لن أسمح لك بالذهاب هكذا».

فأجابه: «حسنًا، إني جئت إليك لأنني لا أعرف أحدًا غيرك يود المساعدة.. أعني.. أنك أكثر شفقة من غيرك.. أقصد أنك تستطيع التقدير.. ولكنني أرى الآن أنني لا أحتاج إلى شيء! هل تسمع؟ لا أحتاج لشيء!.. ولا أطلب خدمات من أحد.. ولا أريد عطف أحد.. إني منفرد بنفسي.. وحيد.. فدعني وحسبي هذا.. فلتتركني وشأني».

فقال صاحبه: «انتظر لحظة أيها الساخر! إنك مجنون بلا ريب! ليكن ما تريد فلست أهتم، ليست لدي دروس كما ترى! وأنا لا أهتم لذلك! ولكن هنالك بائع كتب اسمه هيروفيموف، وهو يحل محل الدرس بل هو خير عندي من خمسة منها، فهو ينشر كتبًا من نوع خاص، فيصدر مؤلفات أولية عن العلوم الطبيعية، فتجد انتشارًا كبيرًا لأن العناوين جديرة بالثمن! إنك كنت تصر على أنني غبي، ولكنني أقسم بالله يا ولدي أن في الناس من هم أغبى مني! وقد شرع ذلك الكتبي يظن في نفسه أنه من دعاة التقدم، لا لأنه يفهم شيئًا من ذلك، ولكن بالطبع لأنني أشجعه على غروره. وها هنا فصلان من كتاب ألماني لا أرى فيه إلا تهريجًا خالصًا بالنص الألماني، فهو يناقش المسألة الآتية: «هل المرأة مخلوق بشري؟» وهو بالطبع يثبت أنها كذلك. وأخذ هيروفيموف في إصدار هذا الكتاب معاونة منه في بحث مشكلة المرأة، وأنا أترجمه له. وسوف يطيل هذين الفصلين والنصف ويمطها فيجعل منها ستًا. وسنضع عليه عنوانًا عظيمًا يملأ نصف صفحة، ونصدره لبيع بنصف روبل، فهذا كاف، وهو يدفع لي ستة روبل عن كل فصل فيكون حساب هذا العمل كله نحو خمسة عشر روبل. وقد تسلمت منه ستة روبل مقدمًا. فإذا انتهينا من هذا فسنبداً ترجمة كتاب عن الحيتان. ثم ننقل أسوأ الفضائح في الجزء الثاني من كتاب الاعترافات، فقد ذكر أحد الناس لهيروفيموف أن روسو هو نوع من المؤلفين يشبه راديشيف، وكن واثقًا أنني لا أراجع في ذلك، فإلى الجحيم! فهل تريد أن تترجم الفصل الثاني من كتاب «هل المرأة مخلوق بشري؟».. خذ الأصل الألماني للفصل الأول وخذ الأفلام والورق، فقد بعث بها الرجل إليّ. وهاك ثلاثة روبل، فإنني تسلمت مقدمًا ستة روبل للعمل كله، فلك منها ثلاثة. فإذا

ما فرغت من ترجمة هذا الفصل كان لك ثلاثة روبل أخرى، وأرجوك ألا تظن أنني أقوم لك بخدمة، فإنك أنت الذي تتفضل عليّ، وإنني ما كدت أراك داخلاً حتى رأيت أنك تستطيع مساعدتي، وذلك لأنني أولاً ضعيف في ضبط الإملاء، وثانياً إنني أحياناً لا أحسن فهم الألمانية فأهمل ما يغمض عليّ، وأمضي في عملي في أغلب الأحيان على غير هدى، وكل عزائي إنني أغير الأصل إلى ما هو أحسن منه.. ولكن من يدري؟ فربما كنت أحياناً أنتقل إلى ما هو أسوأ.. أفتقبل هذا؟».

فأخذ رسكولنكوف الصفحات الألمانية في سكوت، وأخذ الثلاثة روبل وخرج دون أن ينطق بلفظ واحد. ونظر رازوميهين نحوه في دهشة، ولما بلغ رسكولنكوف الشارع الثاني عاد أدراجه وصعد السلم إلى غرفة رازوميهين، ووضع على المنضدة الصفحات الألمانية والثلاثة روبل وخرج ثانية دون أن ينطق بكلمة..

فصاح به رازوميهين وقد أخذ منه الغضب: «ماذا اعتراك؟ أفقدت صوابك؟ أية مهزلة هذه!.. إنك تدفع بي إلى الجنون معك.. فيم جئت لتراني لعنة الله عليك؟».

فتمتم رسكولنكوف وهو في السلم: «لا أريد.. الترجمة».

وصاح رازوميهين من أعلى: «إذن لعمر الشيطان ماذا تريد؟».

ومضى رسكولنكوف ينزل السلم في صمت..

- أنت يا هذا! أين تسكن الآن؟

فلم يتلق جواباً.

- إذن فتعسًا لك!

ولكن رسكولنكوف كان قد بلغ الشارع، فلما صار على جسر نكوليفسكي أثارته حادثة كريهة فأعادت إليه انتباهه، وذلك أن أحد سائقي العربات ناداه مرتين أو ثلاثاً لأنه كاد يقع تحت حوافر الخيل، فضربه على ظهره ضربة عنيفة بسوطه، فثار ثورة ألقت به نحو حاجز الجسر؛ لأنه كان لسبب مجهول يسير في منتصف الجسر وسط حركة المرور، وجمع قبضته غاضباً وصر بأسنانه. وأثار ذلك ضحكات بلغت سمعه، وقال قائل:

- لقد نال جزاءه!

وقال آخر: «أظنه نشالاً!».

وقال ثالث: «إنه يدعي السكر ويلقي بنفسه تحت العجلات عمداً، وهذا خير رد عليه!».

وعقب آخر قائلاً: «إنها مهنة منظمة، وهي بلا شك كذلك!».

وبينما هو واقف عند الحاجز لا يزال ينظر في غضب وحيرة نحو العربات التي تتباعد عنه ويدلك ظهره، أحس فجأة بشخص يضع نقوداً في يده! فنظر فإذا امرأة متقدمة في السن، على رأسها منديل وفي قدميها حذاء من جلد الماعز، ومعها فتاة على رأسها قبعة وتحمل شمسية خضراء لعلها كانت ابنتها..

وقالت له المرأة: «خذ هذه النقود أيها الرجل الطيب من أجل المسيح».

فأخذها، وسارت المرأة والفتاة في طريقهما، وكانت قطعة من عشرين كوبك، ولعلهما ظنتا من ثيابه ومظهره أنه سائل يتكفف الناس في الطريق،

وكان الإحسان بعشرين كوبيك ثمنًا للضربة التي تلقاها وجعلتهما تعطفان عليه.

فأقفل يده على العشرين كوبيك، وسار عشر خطوات ثم استدار إلى نهر النيفا متجهًا بنظره نحو القصر. وكانت السماء صافية لا سحب بها والماء يكاد يكون أزرق لامعًا، وهو أمر نادر في نهر النيفا. وكانت الكنيسة العظمى تبدو في أبهى منظر من الجسر على بعد عشرين خطوة من كنيسة القصر، وقبتها تلمع متألقة في ضوء الشمس، وتبدو كل حلية فيها واضحة لصفاء الهواء. وزال عنه ألم السوط، ونسي ما حل به.

كانت فكرة واحدة قلقة غامضة تستولي عليه، فوقف ساكنًا ونظر طويلًا محدقًا في الفضاء، وكان هذا المكان بالذات معروفًا لديه فقد كان كلما ذهب إلى الجامعة يقف فيه ساكنًا مئات المرات وهو في طريقه إلى مسكنه. وكان دائمًا يحول بنظره في هذا المنظر البديع حقًا، ويعتريه شعور غامض غير محدد، وكان يعجب في كل مرة لما يشهده فيه من جمود وبرود، فهذا المنظر الفخم كان بالنسبة إليه عاريًا وخاليًا من الحياة. وكان في كل مرة يدهش لهذا التأثير المظلم الغامض فيشك في حكم نفسه، ويؤجل محاولة تفسير الأمر.

فلما تذكر هذه الشكوك وتلك الحيرة، ظهر له أن تذكره لها لم يكن مجرد مصادفة. ووقع في نفسه أنه من العجيب المفزع أن يجد نفسه مسوقًا إلى الوقوف في هذا المكان نفسه كما وقف من قبل. كأنه أتى إلى هناك قصدًا لعله يعاود أفكاره نفسها ويستغرق فيما كان يستغرق فيه من نظرات وصور، منذ وقت قصيرًا جدًا. وشعر بما يكاد يشبه الطرب. ومع ذلك فقد

أحس كأن قلبه يُعصر عصرًا، وخيل إليه أنه كان يرى الماضي كله بعيدًا في مكان سحيق، خفي بما فيه من أفكار وآراء ومشاكل وصور، بل كأنه هو نفسه ومشاعره القديمة وتلك الصورة التي كانت ماثلة أمام عينيه، كأن ذلك كله قد غاب عنه واختفى.. وشعر كأنه يطير متجرّدًا في الفضاء، وأن كل شيء يختفي عن ناظره، وحرك يده عند ذلك عن غير وعي، فإذا هو ينتبه إلى قطعة النقود في قبضته.. ففتحها، وأطال النظر فيها، ثم رفع ذراعه، ورمى بها في الماء.. ثم استدار وسار قاصدًا مسكنه، وقد بدا له في تلك اللحظة أنه قطع كل علاقة بينه وبين الناس، وبين كل شيء..

ووصل إلى داره عند المساء، وبذلك يكون قد سار نحو ست ساعات.. وهو لا يذكر كيف ولا من أين جاء، فخلع ثيابه وهو يرتجف كجواد أجهده السير، ثم رقد على المقعد وغطى نفسه بمعطفه الكبير، وغرق في بحر من الشرود..

واستيقظ في الغسق على صرخة مفزعة.. رباة! أية صرخة! فإنه لم يسمع من قبل مثل تلك الأصوات الغريبة، وهذا النواح والعويل والضجيج، وذلك البكاء والسباب..

لم يتصور قط من قبل مثل تلك القسوة ولا ذلك الصياح المائج، فجلس فزعًا في فراشه وهو يكاد يغمى عليه من الألم، ولكن الشجار والصراخ والسباب كانت لا تزداد إلا شدة. ثم ما كان أشد دهشته إذ سمع صوت صاحبة المنزل وهي تصيح وتعول وتولول في سرعة وفي جلبة مضطربة، حتى أنه لم يتبين عم كانت تتكلم. وكانت صيحاتها تنبئ أنها بغير شك تُضرب في السلم بلا رحمة، وتضرع إلى الذي يضربها أن يمسك

عنها.. وكان صوتها من شدة الحنق والغضب أجش يكاد يكون فحيحًا، وكان الضارب كذلك يقول شيئًا في سرعة ويدمدم فلا تتبين أقواله، فارتعد رسكولنكوف لأنه ميز صوت المعتدي، فهو صوت إيليا بتروفتش..

أيكون إيليا بتروفتش هنا وهو يضرب صاحبة البيت ويرفسها ويقرع رأسها في السلم؟ هذا واضح، ويمكن إدراكه من الأصوات والصرخات والصدمات! فكيف هذا؟ هل انقلبت الدنيا؟ وكان يسمع الناس يجرون متزاحمين من جميع الطوابق وعلى السلالم، ويسمع أصواتًا وصيحات فزع وخبطًا وأبوابًا تقفل في عنف، وكان يقول في نفسه: «عجبًا! لم كل هذا؟ وكيف يحدث هذا؟».. حتى لقد ذهب ظنه جاذًا إلى أنه فقد عقله، لولا أنه كان يسمع كل شيء واضحًا..

ووقع في نفسه أنهم سيأتون إليه بعد ذلك.. «فمما لا ريب فيه.. أن الأمر متعلق بهذا.. رباه!». وود لو يقفل الباب بالمزلاج، ولكنه لم يستطع أن يرفع يده... وفضلاً عن ذلك فقد كان ذلك لا يجديه نفعًا. وتملك الخوف قلبه بيد كالثلج، فآلمه وشل حركته... ولكن هذه الضجة الكبيرة أخذت تهدأ تدريجًا، بعد أن بقيت ثائرة نحو عشر دقائق، وكانت صاحبة البيت ما تزال تتأوه وتئن، وما يزال إيليا بتروفتش يصيح مهددًا لاعتنا، ولكنه سكت بعد حين فلم يعد يسمع صوته.. «أيكون قد ذهب؟ رباه!.. أجل، وصاحبة المنزل كذلك لم تلبث أن ذهبت وهي تبكي وتتأوه، ثم أغلق بابها في عنف... وأخذ الناس ينصرفون من السلم إلى غرفهم، وهم يتنادون ويتناقشون ويرفعون أصواتهم بالضجيج ثم يغضونها حتى تصير همسًا، ولا بد أن عددهم كان كبيرًا، يكادون يكونون كل سكان الدار.. «ولكن، رباه! كيف يحدث هذا؟ وماذا أتى به إلى هنا؟».

وتساقط رسكولنكوف على المقعد، ولكنه لم يستطع أن يغمض عينيه، وظل نصف ساعة راقداً في عذاب مما ألم به من دعر جارف مبرح لم يشعر بمثله من قبل. ثم لمع نور فجأة في غرفته، فقد جاءت نستاسيا بشمعة وطبق من الحساء، ونظرت إليه فاحصة تريد أن تتبين هل استيقظ من نومه، فوضعت الشمعة على المنضدة ثم أخذت تضع ما أتت به من خبز وملح وطبق وملعقة، وقالت:

- إني واثقة من أنك لم تأكل شيئاً منذ الأمس، وقد قضيت يومك هائماً على وجهك، وها أنذا أراك ترتعد من الحمى.

فقال لها: «نستاسيا!... لماذا يضربون صاحبة البيت؟».

فأطالت النظر إليه ثم قالت: «من ذا الذي ضرب صاحبة البيت؟!».

- الآن... منذ نصف ساعة كان إيليا بتروفتش مساعد رئيس المركز يضربها في السلم... فلماذا يسيئ إليها مثل هذه الإساءة؟.. ولماذا كان هنا؟

فأطالت نستاسيا النظر فيه وهي ساكنة، وقد تقطب جبينها، وظلت تفحصه مدة طويلة، فشعر بقلق بل بخوف من عينيها الفاحصتين، ثم قال هافتاً في صوت ضعيف: «لماذا لا تتكلمين يا نستاسيا؟».

فأجابت في صوت خافت، وكأنها تحدث نفسها: «إنه الدم...».

فتمتم وقد امتقع لونه واستدار نحو الحائط: «الدم؟ أي دم؟...».

وظلت نستاسيا تنظر إليه دون أن تتكلم.. ثم قالت بعد حين في صوت ثابت: «لم يضرب صاحبة الدار أحد...».

ونظر إليها متأملًا وهو لا يكاد يستطيع التنفس.

- لقد سمعت بنفسى... لم أكن نائمًا... بل كنت جالسًا..

قال ذلك وقد ازداد هفوتًا.. «وظللت أصغي مدة طويلة، وقد جاء مساعد رئيس المركز.. وجرى كل الناس من مساكنهم إلى السلم!».

- لم يأت هنا أحد.. إنه الدم يصرخ في أذنيك، فإذا لم يجد مخرجًا فهو يتجمد ويجعلك تتوهم أشياء لا حقيقة لها... أما تأكل شيئًا؟
فلم يجب، وظلت نستاسيا واقفة تراقبه.

- أعطيني شيئًا أشربه يا نستاسيا.

فنزلت، ثم عادت بإبريق ماء من الفخار، ثم لم يذكر بعد ذلك شيئًا سوى أنه شرب جرعة واحدة من الماء البارد، وصب منه على عنقه ثم غاص في الشroud..

(٣)

لم يفقد رسكولنكوف كل وعيه طوال مدة مرضه، بل كان-كشأن المحموم- يغيب عن الصواب أحياناً ويسترد شيئاً من الشعور أحياناً. وتذكر- وقد عاد إلى ذهنه فيما بعد- كثيراً مما وقع له، كأن يتوهم أحياناً أن أشخاصاً يحيطون به يريدون نقله إلى مكان آخر وهم يتشاجرون ويتجادلون بشأنه، ثم يبدو له أنه وحيد في غرفته، وأنهم غادروه جميعاً، وقد فروا خوفاً منه، على أنهم بين حين وآخر يفتحون شقاً من الباب فينظرون إليه ويهددونه ويدبرون فيما بينهم أمراً، ثم يهزأون به ويضحكون منه. وكثيراً ما تذكر نستاسيا وهي إلى جانب فراشه، وتبين رجلاً آخر يبدو أنه يعرفه جيداً، وإن كان لا يذكر اسمه، فكان ذلك يضايقه أو يدفعه إلى البكاء.

وكان يتصور أحياناً أنه ظل شهراً راقداً بغرفته، ثم يعود فيبدو له أنه لم يمض عليه إلا يوم. على أن ذلك الشيء، ذلك الشيء المهم، لم يخطر له مرة واحدة. وكان على ذلك يشعر في كل دقيقة أنه نسي أمراً كان من الواجب عليه أن يتذكره، فيقلق نفسه ويعذبها وهو يحاول أن يتذكر ذلك،

فيئن ثم يغضب أو يغمره خوف شديد مبرح، وعندئذ يجاهد أن يقوم كي يهرب، غير أنه كان يحس كأن أحدًا يمنعه دائمًا بالقوة، فيخر على المقعد ويستولي عليه العجز والذهول، وبعد حين يعود إليه وعيه كاملاً.

حدث ذلك ذات صباح في نحو الساعة العاشرة، وكان الجو صافياً والشمس تنفذ إلى الغرفة، وتلقى شعاعاً من ضوئها على الحائط فتضيء الركن القريب من الباب، وكانت نستاسيا واقفة على مقربة من فراشه ومعها رجل أجنبي لم يره من قبل، وكان ينظر إليه نظرة فاحصة، وهو شاب ذو لحية يلبس سترة طويلة ويشبه أن يكون عامل بريد، وكان صاحبة المنزل تتطلع إليه من فتحة الباب، فنهض رسكولنكوف وسأل نستاسيا مشيراً إلى الرجل: «من هذا يا نستاسيا؟».

قالت: «حقاً! لقد عاد إلى صوابه!».

وردد الرجل قولها: «لقد عاد إلى نفسه...».

فلما رأت صاحبة المسكن ذلك ردت الباب وانصرفت، وكانت امرأة نافرًا تتحاشى المحادثة والمجادلة، وهي في نحو الأربعين من عمرها، قصيرة القامة، بدينة حسنة المنظر، ذات عينين سوداوين وحاجبين أسودين، هادئة الطبع بسبب بدانتها وكسلها، ثم هي فوق ذلك خجول مغالية في الحياء.

وعاد رسكولنكوف فسأل الرجل: «من أنت؟».. وفي هذه اللحظة فتح الباب، ودخل رازوميخين الغرفة، وقد انحنى قليلاً بسبب طول قامته..

- أهذه حجرة في سفينة؟ ما جئت إليها مرة إلا صدمت رأسي! أتسمي هذه غرفة؟ هذا أنت تعود إلى وعيك أيها الصديق! بلغني ذلك من شنكا.

فقالت نستاسيا: «لم يستيقظ إلا منذ لحظة».

وردد الرجل قولها وهو يتسم: «لم يستيقظ إلا منذ لحظة؟».

فالتفت رازوميهين إلى المتكلم وسأله: «ولكن من أنت؟ إن اسمي فرازوميهين، لا رازوميهين كما يدعوني الناس، بل فرازوميهين.. طالب، ومن أسرة طيبة.. هذا السيد صديقي. وأنت؟ من أنت؟».

- إنني رسول جئت من مكتب التاجر شيلوييف في مهمة.

- تفضل بالجلوس.

وجلس رازوميهين إلى الجانب الآخر من المنضدة، ثم خاطب رسكولنكوف قائلاً:

- لقد أحسنت إذ عدت إلى وعيك يا صديقي.. فإنك لم تكذ تذوق طعاماً أو شرباً منذ أربعة أيام. لقد أعطيناك شيئاً من الشاي بالملعقة، وأتيت لك بزوسيموف مرتين.. أتذكر زوسيموف؟ إنه فحصك في عناية، وقال إن ما بك ليس خطراً. ولكنك أصبت بشيء في رأسك - اسم سخييف لمرض عصبي لا أدري ما هو - من أثر قلة الغذاء، وهو يزعم أن ذلك من نقص فيما تشربه وما تأكله من الفجل.. ولكن المرض تافه، وسيزول، وتسترد صحتك. إن زوسيموف من خيرة الشبان، وقد بدأ اسمه يشتهر.

ثم التفت إلى الرسول قائلاً: «لقد عُقتك عن مهمتك، وأرجوك أن تبين ما هي. ولتعلم يا روديا أنها المرة الثانية التي يجيء فيها رسول من هذا المكتب، ولكن الذي كان من قبل كان شخصاً آخر غيرك، فمن هو؟».

- نعم يا سيدي، لقد جاء ألكس سيميونوفتش منذ يومين، وهو من مكتبنا أيضاً.

- لقد كان أذكى منك! ألا تظن ذلك؟

- نعم يا سيدي، إنه أكبر مقامًا مني!

- هذا حق! أكمل حديثك..

ووجه الرجل الحديث إلى رسكولنكوف قائلاً: «لقد أبلغنا عن طريق أفئاس فاهروشين- ولا شيك أنك سمعت عنه أكثر من مرة- أن والدتك طلبت من مكتبنا أن نحمل إليك مبلغًا من المال وهو خمسة وثلاثون روبل، فإذا كنت في حالة تسمح بتسليمها فقد وصل المبلغ إلى مكتب سيميونوفتش محوّلًا من أفئاس فاهروشين، بناء على رغبة والدتك كما حدث في مرات سابقة، فهل تعرفه يا سيدي؟».

فقال رسكولنكوف حالماً: «نعم... أذكر... فاهروشين!».

فصاح رازوميهين: «هل تسمع؟ إنه يذكر فاهروشين! فهو في حالة تسمح بتسليم المبلغ! وأنت أيضاً رجل ذكي! وإن الإنسان ليسر حين يسمع عبارات حكيمة».

- نعم، إنه السيد فاهروشين: أفئاس إيفانوفتش، وقد فعل ذلك بناء على رغبة «ماما» التي أرسلت إليك مبلغًا من قبل عن طريقه، وهو لم يرفض في هذه المرة أيضاً أن يقوم بذلك، وأرسل إلى سميون سيميونوفتش منذ أيام يأمره بأن يسلم إليك خمسة وثلاثين روبل، مع الأمل فيما هو خير من ذلك.

- إن عبارتك عن الأمل فيما هو خير هي أحسن ما قلت، ولو أن قولك «ماما» عن الوالدة لا يقل عنه حسنًا.. قل إذن ما رأيك! ألا تراه كامل القوى؟

- نعم، إذا كان يستطيع أن يوقع هذه الورقة الصغيرة.

- إنه يستطيع أن يخط اسمه، هل لديك السجل؟

- نعم! هذا هو السجل!

- أعطني، اجلس يا روديا وسأسندك، وتناول القلم وخط كلمة

«رسكولنكوف».. فإن المال الآن لدينا أحلى مذاقًا من العسل!

فدفع رسكولنكوف بيده القلم وهو يقول: «لا أريد!».

- لا تريد؟!

- لا أوقع السجل!

- وإذن كيف تحصل على المال بلا توقيع؟

- لا أريد.. المال!

- لا تريد المال؟! إن ما تقوله أيها الصديق لهراء! لا تخش شيئًا فإني

شاهد بالتسليم. وليس في الأمر شيء سوى أن رأسه بدأ يدور قليلًا، ولكنه

أمر عادي عنده دائمًا... أنت رجل حكيم وفي استطاعتنا أن نحمله على

التوقيع، بأن آخذ يده وأجعله يكتب اسمه. هلم فاكذب هنا..

فقال الرسول: «ولكنني أستطيع أن أجيء مرة ثانية».

- لا! لا! لماذا نتعبك؟ إنك رجل حكيم.. هلم يا روديا لا تدع زائر

يبتظر..

وهم فعلاً بإمساك يد رسكولنكوف، فقال هذا: «اترك يدي! سأوقع

بنفسي!».

ثم تناول القلم ووقع، وأخرج الرسول المال ثم خرج..

- مرحي! والآن يا صديقي، ألا تشعر بالجوع؟

فأجاب رسكولنكوف: «نعم!».

فقال: «أما هناك حساء؟».

وكانت نستاسيا واقفة طول هذه المدة، فقالت: «لدي شيء من الحساء بقي من اليوم الماضي».

- به بطاطس وأرز، أليس كذلك؟

- نعم..

- إني أعرفه جيداً.. فلتأتي بالحساء، ولتحضري لنا الشاي..

- حسناً..

فنظر رسكولنكوف إلى الحاضرين في دهشة شديدة وخوف شامل لا معنى له، وقد عزم على أن يبقى هادئاً ينتظر ما يكون، وهو يقول في نفسه: «لست في حالة هذيان الآن! أظن الذي أرى حقيقة!».

وبعد بضع دقائق عادت نستاسيا ومعها الحساء، وقالت إنها ستحضر الشاي بعد قليل، وأحضرت معها ملعقتين وملحاً وفلفلًا وتوابل للحم البقري وغير ذلك، وأعدت المائدة في نظام غير مألوف من عهد بعيد، وكان غطاؤها نظيفاً.

- قد يكون من المناسب يا نستاسيا أن ترسل إلينا رسكوفيا بفلفونا زجاجتين من الجعة، فلا شك في أننا سنشربهما..

فتمتعت نستاسيا: «حقاً ما أعجبك!».. وذهبت لتنفيذ الأمر وظل رسكولنكوف يتأمل في انتباه صامت، أما رازوميهين فجلس إلى جانبه

على المقعد ومد ذراعه اليسرى، وفي مثل حركة الدب الثقيلة أسند رأس صديقه، وإن كان هذا الصديق قادرًا على الجلوس بلا معاونة، وشرع يناوله الحساء بملقعة في يده الأخرى. وكان ينفخ فيها بضع مرات قبل أن يقدمها إليه حتى لا تلسعه، مع أن الحساء لم يكد يكون دافئًا. وشرب رسكولنكوف الملعقة الأولى ثم الثانية والثالثة في نهم، وبعد ذلك توقف رازوميهين معلنًا أنه يجب استشارة زوسيموف.

ودخلت نستاسيا حاملة زجاجتي الجعة وقالت: «هل تريد الشاي؟».

- نعم..

- أرجوك أن تذهبي وتأتي سريعًا بالشاي يا نستاسيا، إذ فيما يتعلق بالشاي أظن ألا حاجة بنا إلى آراء أساتذة الطب! آه! هذه هي الجعة..

وجلس على الكرسي، وجر وعاء الحساء واللحم البقري، فانقض عليهما في نهم كأنه لم يذق طعامًا منذ ثلاثة أيام..

وتحدث بقدر ما سمح له ما في فمه من اللحم قائلاً: «إنني أتناول الطعام عندك هكذا كل يوم؛ لأنّ پشنكا صاحبة مسكنك الظريفة تغمرني بهذا الفضل، فإنها لا ترض عليّ بشيء. لست أسألها شيئًا بالطبع ولكني لا أرفض... لقد جاءت نستاسيا بالشاي، فما أخف حركتها من فتاة! أما تشربين شيئًا من الجعة يا عزيزتي نستاسيا؟».

- دع هذا الهذر!

- إذن ألا تشربين شايًا؟

- أما الشاي فلا بأس به..

- إذن فصبي لك فنجانًا. لا! بل انتظري! سأقدم لك الشاي بنفسي!
اجلسي!

وملاً فنجانين، وترك طعامه وجلس على المقعد. وفعل ما فعله من قبل، فأسند رأس المريض بذراعه اليسرى، وأخذ يسقيه الشاي في جرعات صغيرة بالملعقة بعد أن ينفخ فيها متأنياً محترصاً، كأن ذلك أجل عمل وأجده في شفاء صاحبه. وقبل رسكولنكوف هذه الرعاية ساكتاً، ولو أنه كان شاعراً بأنه قادر على الجلوس بغير مساعدة، وأنه كان يقوى على السير بل أن يحمل فنجانه أو كوبته. ولكنه كان يضمر في نفسه رغبة غريبة غريزية في أنه يخادع ويخفي حقيقة قوته، وتصنع المرض بل كان لا يتردد- إذا دعت الحال- في أن يموه ويتظاهر بأنه لم يستعد بعد قوة ذهنه، ثم يرهف سمعه كي يقف على ما يدور من الأحاديث..

ولكنه مع ذلك لم يستطع المضي في ذلك بعد أن شرب عدة ملاعق من الشاي، فأنف من ذلك التظاهر، ورد الملعقة في بدوة من بدواته، وخلص رأسه وانطرح على الفراش. وكانت تحت رأسه عند ذلك وسادة من الريش لها أغطية نظيفة، وقد لاحظ رسكولنكوف ذلك ووعاه في ذهنه.

فقال رازوميهين وقد عاد هاجماً على الحساء والجمعة: «يجب على بشنكا أن تعطينا اليوم شيئاً من مربى الوشنة كي نأكله مع الشاي».

وكانت نستاسيا تمسك طبق الفنجان بين أصابعها الخمس المفتوحة وتشرب منه الشاي، وقد وضعت في فمها قطعة من السكر وقالت: «ومن أين تأتيك بالوشنة؟».

- ستشترينها من البائع يا عزيزتي. إنك لا تعلم يا روديا أن أموراً كثيرة

حدثت وأنت راقد، فعندما خرجت من عندي بطريقتك القبيحة دون أن تترك لي عنوانك غضبت غضباً شديداً، حتى إني عزمت على أن أبحث عنك لأعاقبك. وابتدأت من ذاك اليوم فذهبت هنا وهناك أستقصي الأخبار عنك، فقد نسيت مسكنك هذا، والواقع أنني لم أتذكره لأنني لم أعرفه من قبل. أما مسكنك القديم فكنت لا أذكر عنه إلا أنه في جهة الأركان الخمسة، وأنه ملك له رملوف. وقضيت مدة أحاول الوصول إلى البيت. ولكن تبين لي أن صاحبه لم يكن بهذا الاسم بل اسمه بوخ، وكثيراً ما يخلط الإنسان بين نغمات الأسماء، فضقت من ذلك وقصدت مكتب العنوانات في اليوم التالي، وتصور أنهم وجدوا عنوانك في دقيقتين إذ كان اسمك مقيداً فيه..

- اسمي؟! -

- نعم، مع أن بعض الناس كانوا يبحثون، وأنا هناك، عن عنوان قائد اسمه كوپليف فلم يجدوه.. إنها حقاً لقصة طويلة، ولكن ما وطئت ذاك المكان حتى علمت كل شيء يختص بك.. كل شيء يا صديقي.. علمت كل شيء.. وتستطيع نستاسيا أن تشهد بذلك. وتعرفت إلى نيكوديم فومتش، وإيليا بتروفتش، وبواب المنزل، والسيد زامتوف ألكسندر جريجورفتش رئيس الكتاب في مكتب الشرطة، وأخيراً - وإن لم تكن أقلهم شأنًا - پشنكا، ونستاسيا تعلم ذلك...

وتمتت نستاسيا وهي تبسم بدهاء: «لقد استولى على لبها!».

- لماذا لا تضعين السكر في الشاي يا نستاسيا نكفوروفنا؟

فصاحت نستاسيا وقد انفجرت فجأة بالضحك: «إنك لعابث!».

ثم كفت فجأة عن الضحك، وقالت: «لست نكفوروفنا، بل پتروفنا».

- لن أنسى هذا.. والآن يا صديقي أقول لك إجمالاً إنني عزمت على أن أحدث انفجاراً هنا لأخلع جذور المؤثرات الخبيثة في هذا المكان، ولكن پشنكا كسبت المعركة، ولم أكن أتوقع أن أجدها هكذا... إنها جذابة، فما رأيك؟

فسكت رسكولنكوف ولم يقل شيئاً، ولكنه ظل ينظر إلى زميله نظرة قلق.

وآتم رازوميهين كلامه غير مكترث لسكوته، فقال: «هي كاملة من كل الوجوه...».

وصاحت نستاسيا: «ما أخبثه!.. وكان يبدو أن الحديث مصدر تسلية كبيرة لها..»

ومضى قائلاً: «ومما يدعو إلى الأسف يا صديقي العزيز أنك لم تعرف كيف تسلك معها، وقد كان يجدر بك أن تتقرب إليها من طريق أخرى، فيخيل إليّ أن طباعها عجيبة، وسنتكلم عن ذلك فيما بعد.. فكيف حدث مثلاً أنك تجعل الأمور تتخرج بينك وبينها حتى تجعلها تمتنع عن إرسال الطعام إليك وأن تبعث إليك ذلك الصك؟ لقد كنت أحرق إذ وقعته! وذلك الوعد الذي وعدته أن تتزوج من ابنتها المرحومة ناثاليا أبجدروفنا.. أنت ترى أنني واقف على كل شيء.. ومع ذلك أرى أنني مسست منك وتراً حساساً، فمعذرة يا أخي فإنني غبي.. وبمناسبة الغباء، هل تعلم أن برسكوفيا بافلوفنا ليست غبية كما يبدو عليها أول وهلة؟».

فأجابه رسكولنكوف وهو يشيح بوجهه قائلاً: «لا!.. ولكنه شعر أن من الخير له أن يستمر هذا الحديث.

فقال رازوميهين منشرح الصدر لأن سامعه أخذ يجاذبه الحديث:

- حقًا إنها ليست بالغبية، ولكنها كذلك ليست ذكية.. والواقع أن طباعها لا يمكن الحكم عليها... وكثيرًا ما أكون في حيرة من أمرها... إنها تبلغ الأربعين وإن قالت إنها في السادسة والثلاثين من العمر، ومن حقها أن تقول ذلك بلا شك. وأقسم لك أنني إنما أقدر مواهبها من وجهة عقلية وفلسفية. وقد قام بيننا ما يشبه الرمزية، أو التوافق الجبري، أو ما إلى ذلك مما لا أفهم معناه! أما عنك فإنها رأت أنك انقطعت عن الدار، وأنت انقطعت كذلك عن التعليم، ولم يبق عندك ثياب، ولم تعد بها حاجة لأن تعاملك كقريب بعد وفاة ابنتها، فدعاها كل ذلك إلى التخوف منك. ثم رأتك تنزوي في غرفتك وتقطع علاقتك القديمة بها، فعزمت على التخلص منك. وتمكنت هذه الفكرة منها منذ مدة طويلة، ولكنها لم ترد أن تخسر الصك إذ أخبرتها من قبل أن والدتك ستسد ديونك...

فقال رسكولنكوف في صوت قاطع حاد: «كان من النذالة والحطة أن قلت لها ذلك! فإن والدتي قد بلغت من العوز أقصى حد! وقد كذبت عليها كي أبقى هنا!».

- لقد كنت حكيماً في ذلك! وكان من سوء الحظ حضور السيد تشيباروف، وهو رجل أعمال، إذ لولاه لما فكرت پشنكا في أن تتخذ خطوة؛ لأنها امرأة شديدة الحياء، أما صاحب الأعمال فلا يمنعه الحياء من شيء.. وكان أول سؤال سألته: «هل يمكن تنفيذ هذا الصك؟» فماذا كان الجواب؟.. نعم، فإن لوالدته معاشاً قدره مائة وخمسة وعشرون روبل، وهي تفضل الجوع في سبيل مساعدته، وله أخت تقبل الاستعباد

من أجله. هذا هو ما اعتمد عليه.. لماذا تنتفض؟ إني أعرف الآن جميع خباياك أيها العزيز، فقد كنت على حق في الوثوق بيشنكا عندما كانت تنظر إليك على أنك زوج ابنتها مستقبلاً، وإني أحدثك بذلك لأنك صديقي... والواقع، الرجل الأمين الحساس يبوح بأسراره، أما رجل الأعمال فينصت إلى الأسرار ثم ينتفع بها. ثم إنها بعد ذلك حولت الصك لتشياروف على سبيل الدفع. فلم يتردد في إنذارك رسمياً بالدفع. فلما سمعت بذلك أحبيت بدافع ضميري أن أكيد له، ولكن حدث في هذه الأثناء أن توطدت بيني وبين يشنكا، فاستطعت أن أحملها على أن توقف المسألة، وضمنت لها أنك ستدفع، فأنا الآن ضامن لك.. هل تفهم أيها الصديق؟ لقد دعونا تشياروف ورمينا له عشرة من الروبل وسحبنا منه الصك، ولي الشرف بأن أردّه إليك، وهي واثقة بكلمتك. فخذ الصك، ولقد مزقته كما ترى!

ووضع رازوميهين الصك على المنضدة، فنظر إليه رسكولنكوف ثم استدار للحائط من غير أن يقول شيئاً. وتضايق رازوميهين لذلك، ثم قال بعد صمت قصير: «حقاً يا صديقي لقد ظهر لي أنني أتخطئ في قلبي، وقد أردت أن ألهيك بحدِيثي، فإذا بي أضايقك كما يظهر!».

فسأل رسكولنكوف أخيراً دون أن يستدير: «أكنت أنت الشخص الذي لم أعرفه حين كنت غائباً عن الصواب؟».

- نعم، يظهر أن وجودي كان يثير غضبك، لا سيما في اليوم الذي جئت فيه بزاميتوف..

فالت رسكولنكوف في الحال وحدث في رازوميهين قائلاً: «زاميتوف؟ رئيس الكتبة؟ لماذا؟».

- ماذا بك، وما الذي يزعجك؟ إنه أراد التعرف إليك إذ حدثته عنك كثيرًا، ولولاه ما استطعت الوقوف على الكثير من أمرك. وهو صديق كريم.. على طريقته، ولقد تصادقنا. وإننا نتقابل كل يوم تقريبًا إذ إنني أقيم الآن في هذا الحي، فقد نقلت سكني إلى هنا، وذهبت معه مرة أو مرتين إلى لويزا إيفانوفنا! هل تذكر لويزا.. لويزا إيفانوفنا؟

- هل قلت شيئًا وأنا غائب عن الصواب؟

- أظن ذلك! فإنك لم تكن في وعيك!

- ماذا قلت؟

- يا له من سؤال! قلت ما يقوله الناس دائمًا عندما لا يكونون في وعيهم.. والآن يا صديقي لا تضع الوقت سدى ولنذهب إلى أعمالنا. ثم نهض وأخذ قبعته.

- بم كنت أهذي؟

- إنك تصر على هذا السؤال، فهل تخشى من إذاعة أسرارك؟ لا تنزعج.. إنك لم تتحدث عن الكونتيسة! ولكنك تكلمت كثيرًا عن كلب، وعن الشرطة، وسلاسل ساعة، وجزيرة كرسثوفسكي.. وذكرت أحد البوابين ونيكوديم فومتش، وإيليا بتروفتش، مساعد رئيس الشرطة. ومن الغريب أنك كنت شديد الاهتمام بجوربك وطلبتة في صوت باك.. فبحث عنه زاميتوف في جميع الأركان، وناولك تلك الخرقه بيده البيضاء المعطرة ذات الأصابع التي تزينها الخواتم، وحينئذ هدأت حالتك. وبقيت طول النهار متمسكًا بتلك الخرقه القذرة، حتى أننا لم نستطع أن نأخذها منك، ولعلها الآن تحت غطائك! ثم عدت فطلبت أطراف سروالك، وحاولنا

أن نعرف ماذا تقصد بذلك فلم نستطع.. والآن هيا بنا للعمل.. هذه هي الخمسة والثلاثون روبل، وسأخذ عشرة منها وأقدم لك الحساب عنها بعد ساعتين. وسأمر على زوسيموف لأخبره، وكان من الواجب أن يكون قد حضر هنا، فقد قاربت الساعة أن تبلغ الثانية عشرة. ولا تنسي يا نستاسيا أن تزوريه كثيرًا؛ لعله يحتاج إلى شراب أو شيء سواه، وسأنبه بشنكا إلى ما يحتاج إليه. والآن أستودعك الله...

قالت نستاسيا بعد مغادرة الغرفة: «إن ذلك الرجل الخبيث يدعوها بشنكا».. ثم فتحت الباب وأخذت تنصت، وكانت حريصة على أن تسمع ما يقوله لصاحبة البيت، فنزلت تجري.. وكان لا يخفى على أحد أنها معجبة برازوميهين..

وما كاد الباب يغلق حتى رمى المريض بغطائه وقفز من فراشه كالمجنون، فقد كان ينتظر في قلق شديد أن ينصرف هؤلاء عنه كي يبدأ العمل، ولكن أي عمل؟ غابت عنه الفكرة كأنها كانت تراوغه! وقال في نفسه:

- رباه! رباه! بحقك ألهمني بأمر واحد.. أهم يعلمون الأمر أم لا يعلمونه؟ لعلهم يعلمونه ويظهرون غير الباطن أمامي سخرية مني وأنا مريض، ثم لا يلبثون أن يأتوا إليّ قائلين إن كل شيء قد كشف منذ حين، وأنهم لا يستطيعون إلا... فماذا أعمل الآن؟.. هذا هو ما نسيته فجأة كأنني أتعمد نسيانه، ومع ذلك فقد كنت أذكره منذ هنيهة؟

ووقف وسط الغرفة ونظر حوله في حيرة، وجرى إلى الباب وفتحه واستمع، على أن ذلك لم يكن ما أراد.. ثم كأنه تذكر فجأة ما أراد عمله

فعاد مسرعاً، وركع على مقربة من الثقب الذي تحت ورقة الجدار وأدخل يده فيه، ولكن هذا أيضاً لم يكن ما أراد.. ثم ذهب إلى الموقد وبحث في الرماد، وكانت القطع الممزقة من جيوبه لا تزال حيث ألقتها، ولا شك أن أحداً لم يرها، وتذكر الجورب الذي تحدث عنه رازوميهين، فوجده على المقعد تحت الغطاء، وكان مترباً شديد القذارة، وما كان زاميتوف ليلاحظ عليه شيئاً.

- زاميتوف! ضابط الشرطة! فيم استدعيت إلى هناك؟ أين إعلان الحضور؟ أف! إني مرتبك! كان ذلك في اليوم السابق، ولقد فحصت جوربي عندئذ.. ولكن! لقد مرضت بعدئذ! ولكن لماذا جاء زاميتوف؟ ولماذا جاء به رازوميهين إلى هنا؟

ثم انطرح على المقعد خائر القوى وغمغم قائلاً:

- ما هذا؟ أما أزال في غيبوبة المرض؟ أم أن هذا حقيقي؟.. لا جرم أنها الحقيقة، أجل إنني أتذكر.. يجب أن أفر! يجب أن أسرع بالفرار! يجب أن أسرع إلى النجاة... نعم.. ولكن إلى أين؟ أين ثيابي؟ إني لا أجد الحذاء! لقد أخذوها وأخفوها من غير شك! أفهم ذلك! هذا هو معطفي.. لقد تركوه.. وهذه نقودي.. حمداً لله! وهذا هو الصك.. سأخذ النقود وأسكن مكاناً آخر لا يهتدون إليّ فيه. نعم.. ولكن مكتب العنوانات.. إنهم سيهتدون إليّ.. وسيعثر عليّ رازوميهين! فمن الخير أن أفر إلى أبعد من ذلك.. إلى أمريكا! وليدركوني إذا استطاعوا! وسأخذ معي الصك، فقد ينفعني! وماذا أخذ معي غير ذلك؟ إنهم يظنونني مريضاً، ويحسبون أنني عاجز عن السير.. ها! ها! لقد قرأت في أعينهم أنهم يعرفون كل شيء!

رباه! لو كنت أقوى على نزول السلم! لكن ماذا يكون لو أنهم يترصدون لي ويرقبون حركتي؟.. الشرطة! ما هذا؟ شاي، ونصف زجاجة جعة أيضًا؟.. إنها منعشة!

وأخذ الزجاجة، وكان بها ملء قدح كبير، فشربه مرة واحدة في لذة، وكأنه يطفئ نارًا تتقد في حشاه.. ولم تمض غير بضع دقائق حتى صعد الشراب إلى رأسه، وشعر بنشوة وخفة في جسمه، فذهب إلى فراشه فتمدد وسحب عليه الغطاء، وكانت أفكاره المضطربة تزداد تشتتًا.. ولم يلبث أن ثقلت جفونه ودبت إليه نعسة رقيقة، واستراح إلى الوسادة، ولف نفسه في الغطاء اللين الذي حل محل معطفه القديم البالي، وتنفس نفسًا عميقًا ثم غرق في نوم هادئ مريح، فلم يستيقظ إلا حين أحس بشخص يدخل غرفته.. فلما فتح عينيه رأى أمامه رازوميهين واقفًا لدى الباب وهو متردد في الدخول، فنهض رسكولنكوف ونظر إليه وكأنه يحاول أن يتذكر أمرًا.

- لست نائمًا؟ هأنذا!

ثم صاح من أعلى السلم: «هاتي الربطة يا نستاسيا، وسأقدم لك الحساب الآن!».

ونظر رسكولنكوف حوله في قلق: «كم الساعة الآن؟».

- لقد نمت نومًا هنيئًا أيها الأخ! إننا على أبواب المساء، وكادت الساعة تبلغ السادسة.. لقد نمت ست ساعات.

- رباه! هل نمت هذه المدة الطويلة؟

- ولم لا؟ إن النوم مفيد لك فلا داعي للعجلة! هل أنت على موعد؟ إن الوقت فسيح أمامنا جميعًا، وقد لبثت أنتظرك ثلاث ساعات، ودخلت إلى

هنا مرتين فوجدتك نائماً وذهبت مرتين إلى زوسيموف فلم يكن في داره، ولكنه سيأتي. وقد ذهبت إلى بعض عملي كذلك، إذ انتقلت من مسكني لأسكن مع عمي، فإن لي الآن عمًا يقيم معي.. لكن دع ذلك الآن، وإلى العمل! هاتي الربطة يا نستاسيا.. والآن خبرني يا صديقي كيف حالك؟

- إن صحتي جيدة، ولست مريضاً، أكنت هنا منذ مدة طويلة يا رازوميهين؟

- قلت لك إني لبثت أنتظر ثلاث ساعات.

- لا! لست أقصد هذا، أقصد من قبل..

- ماذا تعني؟

- منذ متى جئت هنا؟

- قد أخبرتك بذلك، فهل نسيت؟

وحاول رسكولنكوف أن يستجمع أفكاره، فبدت له حوادث الصباح كالحلم، ولم يستطع أن يتذكر شيئاً. ثم نظر إلى رازوميهين متسائلاً، فقال صاحبه:

- عجباً لك.. هل نسيت؟ لقد كان يبدو لي عندئذ أنك لست في كامل قواك، ولكن النوم أفادك وأنت الآن أحسن حالاً، بل أنت في خير حال.. والآن، إلى العمل! انظر.. ها هي أيها الصديق العزيز!

وأخذ يحل الربطة، ويظهر أنه كان معجباً بها، وقال:

- صدقني أيها الأخ أن هذه المسألة كانت تشغل كل قلبي، إذ لا بد لنا من أن تكون رجلاً.. فلنبداً من القمة! أترى هذه الكاسكيت؟

وأخرج قبعة جيدة وإن كانت عادية ورخيصة الثمن، وقال:

- اسمح لي أن ألبسك هذه لقياسها.

فأزاحها رسكولنكوف في غضب وهو يقول: «دع هذا إلى ما بعد!».

- أرجوك يا عزيزي روديا أن تسمح بقياسها الآن خوف الإبطاء عن إعادتها إذا لم تكن صالحة لك، ولا يمكنني أن أنام دون أن أعرف هل هي توافقك أم لا.. لأنني اشتريتها بحسب الظن لا بالمقاس.

وصاح متهلاً بعد أن وضع القبعة على رأسه:

- هذا حسن جدًا! إنها في مقاسك! إن غطاء الرأس الحسن أول شيء في الملابس، وهو أول ما تقع عليه الأنظار، ويدل على قدر صاحبه، فصيقي تولسي تاكوف مضطر إلى خلع قبعته التي تشبه آنية الفطائر حين يذهب إلى الأماكن العامة، بينما يحتفظ الآخرون بقبعاتهم على رؤوسهم، وقد يحسب الناس أنه يفعل ذلك مبالغة في التأدب، وما هو إلا الخجل من عش الطير الذي يضعه على رأسه! انظري يا نستاسيا وقارني بين لباسي الرأس هذين! هذه القبعة من طراز بلمرستون (وذهب عند ذلك عند ركن الغرفة فأتى بقبعة رسكولنكوف العتيقة المهلهلة التي أطلق عليها هذا الاسم لسبب غير معلوم) وهذه الجوهرة! أي ثمن تقدر لها يا روديا؟

فلما لم يرد رسكولنكوف اتجه نحو نستاسيا وسألها:

- وأنت يا نستاسيا أي ثمن تظنين أنني دفعت فيها؟

فأجابت نستاسيا:

- أظن أنها لا تساوي أكثر من عشرين كوبك!

فصاح متغيظاً:

- عشرين كوبك! إنك لبلهاء! هذه لا يمكن أن تشتري اليوم بأقل من ثمانين.. وذلك لأنها ليست جديدة كل الجدة، وقد اشتريتها على شرط أنها إذا صارت قديمة في السنة القادمة أمكن إبدالها بأخرى مجاناً.. والآن لننظر إلى السروال، وإني به لفخور..

قال رازوميهين ذلك، وعرض لناظري رسكولنكوف سروالاً خفيفاً صيفياً من صوف رمادي قائلاً:

- إنه لسروال محترم، لا لطخ فيه ولا ثقوب، وإن كان قديماً بعض الشيء.. وهذا صدار يناسبه وعلى آخر طراز، وقدمه نوع من الفضيلة فيه، فإنه يكون أكثر نعومة وليناً. وفي رأيي يا روديا أن خير ما يعملهُ المرء هو أن يساير فصول السنة.. فإنك تقتصد في مالك إذا كنت لا تطلب الخضر في غير أوانها، فلا تطلب الأسبرج مثلاً في فصل الشتاء إذ يكون باهظ الثمن، وهذا هو الشأن في الثياب.. فنحن في الصيف، ولذلك اشتريت ثياباً صيفية، وستحتاج في الخريف إلى ثياب أثقل من هذه الثياب. فعليك أن تستغنى عنها عندئذ، لا سيما أنها ستبلى قبل ذلك الوقت. أما الثمن فما رأيك في روبلين وخمسة وعشرين كوبك؟ ثم تذكر الشرط الذي يجعل لك الحق إذا بليت هذه الملابس في هذا العام أن تستبدل بها غيرها في العام القادم بغير ثمن! وهذه هي طريقة محل فايديف، فإذا اشتريت منه شيئاً مرة فإنك لن تحتاج إلى شيء طوال حياتك؛ لأنك لن تذهب إليه مرة أخرى. أما الحذاء فإن الناظر إليه يقول إنه قديم، ولكنه يتحمل شهرين؛ لأنه من صنع الخارج، فإن سكرتير السفارة الإنجليزية كان في حاجة إلى المال فباعه في

الأسبوع الماضي، ولم يتعلله إلا ستة أيام فقط، أما الثمن فروبل ونصف..
ألم أكن موفقاً؟

فقلت نستاسيا: «ولكن لعله لا يناسبه..».

- لا يناسبه؟ انظري..

وأخرج حذاء رسكولنكوف العتيق الممزق، وكان مغطى بطبقة من
الوحد الجامد..

- إنني لم أذهب صفر اليدين، فقد أخذت القياس على هذا الحذاء
المخيف. لقد بذلت كل جهدي، أما بالنسبة للثياب الداخلية فإن صاحبة
المسكن دبرت هذا الأمر. فهناك أولاً ثلاثة قمصان مرقعة، ولكن لها
صدرًا على الطراز الحديث.. ولننظر الآن: ثمانون كوبك للقبعة، وروبلان
 وخمسة وعشرون كوبك للثياب، مجموعها ثلاثة روبل وخمسة كوبك..
وللحذاء روبل ونصف- لأنه حذاء جيد جدًا- وللقمصان خمسة روبل-
 فقد اشتريت جملة- فالمجموع تسعة روبل وأربعون كوبك، فيبقى لك
خمسة وأربعون كوبك من العملة الصغيرة، ها هي ذي.. وثيابك الآن
 كاملة يا روديا، ولا حاجة بك إلى معطف جديد فإن القديم ينفع، وله طراز
 خاص به. وهي حسنة تجدها في الثياب التي تشتري من محل شارمر. أما
 الجوارب وغيرها من أشياء فأتركها لك. ولديك خمسة وعشرون روبل،
 ولا تفكر في مسألة الإيجار وسداده، فإن صاحبة الدار تأتمنك على كل
 شيء.. والآن أيها الأخ اسمح لي في أن أبدل ثيابك الداخلية فإني أعتقد أن
 المرض سينطرح عنك مع القميص القديم..

وصاح رسكولنكوف مدافعًا بعد أن أصغى في استياء إلى مداعبات

رازوميهين عن شرائه الثياب: «بل دعني، لا أريد إبدالها!».

وألح رازوميهين قائلاً: «هيا يا صديقي! ولا تجعل تعبي وسيري في البحث عن كل ذلك يضيع عبثاً! وأنت يا نستاسيا لا تخجلي بل ساعديني!».

وشرع يبدل ملابس رسكولنكوف بالرغم من مقاومته، وارتدى رسكولنكوف أخيراً على الوسادة ولم يقل شيئاً مدة دقيقتين.. وكان يقول في نفسه: «سيمضي زمن طويل قبل الخلاص من هؤلاء!».

ثم سأل بعد حين وهو ينظر إلى الحائط: «من أين لك النقود التي اشتريت بها كل هذه الأشياء؟».

- النقود! إنها من مالك! ألم ترسل أمك نقوداً وصلتكَ عن طريق رسول فاهروشين؟ هل نسيت هذا أيضاً؟

فأجاب رسكولنكوف بعد أن صمت طويلاً: «تذكرت الآن..».

فنظر إليه رازوميهين وهو عابس قلق، وفي هذه اللحظة فتح الباب ودخل رجل ضخيم طويل القامة بدا لرسكولنكوف أنه اعتاد رؤيته، فصاح رازوميهين مبهتجاً: «لقد جاء زوسيموف!».

(٤)

كان زوسيموف رجلاً طويل القامة ضخماً ذا وجه ممتلئ باهت اللون حليقاً، وذا شعر ممشط أشقر اللون، وهو يضع منظاراً على عينيه ويحلي إحدى أصابعه الغليظة بخاتم كبير من الذهب، وهو في نحو السابعة والعشرين من عمره. وكان يرتدي معطفاً صيفياً خفيفاً واسعاً أنيقاً، وسروالاً صيفياً فاتح اللون، وكانت كل ثيابه حسنة المنظر أنيقة أما ثيابه الداخلية فكانت خالية من كل عيب. وكانت سلسلة ساعته ضخمة، وحركاته بطيئة فيها شيء من عدم الاهتمام، إلا أنه كان يتعمد أن يجعلها تبدو كأنها خالية من التكلف والتزمت، ويحاول أن يخفي مظهر الاعتداد بالنفس، وإن كان ذلك يأبى إلا الظهور في كل لفتة، وكان معارفه لا يأنسون إليه وإن كانوا يشهدون بأنه قدير في عمله..

وصاح رازوميهين: «لقد ذهبت مرتين إلى منزلك أيها الصديق، وإنك لترى أنه عاد إلى صوابه».

قال زوسيموف موجهاً الكلام إلى رسكولنكوف، وهو يراقبه في اهتمام وقد جلس على طرف المقعد في جلسة مريحة بقدر المستطاع: «أرى هذا! أرى هذا! كيف تشعر الآن؟».

قال رازوميهين: «إنه لا يزال متضيقاً، وعندما أردنا تغيير ثيابه الداخلية كاد يبكي».

- هذا طبيعي، وفي استطاعتك تأجيل هذا العمل ما دام لا يرغب فيه. إن نبضه طبيعي جداً، ولكن ألا تزال تشعر بالصداع؟

فقال رسكولنكوف في تأكيد وغضب: «إنني في صحة جيدة! إنني في صحة جيدة جداً».

وجلس على المقعد ينظر إليهما بعينين براقيتين، ثم عاد فانطرح مرة أخرى على الوسادة ووجه نظره إلى الحائط، وكان زوسيموف يراقبه مراقبة دقيقة، ثم قال في تراخ:

- حسناً! إن صحته لا بأس بها! هل أكل شيئاً؟

فوصف له ما أكله، وسئل عما يجب أن يأكله فقال: «أي شيء.. حساء.. شاي.. لا تعطوه من عيش الغراب أو الخيار أو اللحم... لكن لا حاجة لذكر هذا (وتبادل مع رازوميهين النظرات) ولا حاجة للدواء أو ما ماثله، وسأمر غداً.. بل ربما اليوم.. ولكن لنضع هذا..».

فقال رازوميهين: «سأخذه مساء الغد للتنزه في حديقة يوسوبوف، وبعد ذلك نذهب إلى القصر البللوري».

- أظن أنه من الخير أن يترك هادئاً في الغد.. ولكن ربما أفادته التنزه

القصيرة.. وسنرى ذلك فيما بعد.

وقال رازوميهين لزوسيموف: «آه، لقد نسيت! يؤسفني أنني دعوت جماعة لتدفئة المنزل الجديد كما يقولون، وهو على بُعد خطوة من هنا! ألا يستطيع أن يأتي معنا ويرقد على المقعد؟ وأما أنت فإنك آت.. لا تنس أنك وعدت بالمجيء».

- سأحضر، ولكنني سأكون متأخرًا.. وماذا أعددت للضيوف؟

- لا شيء غير الشاي والفودكا وسمك الرنجة وفطيرة محشوة باللحم، إنهم جميعًا أصدقاء.

- ومن هم؟

- كلهم من الجيران، وهم أصدقاء حديثون إلا عمي الكهل، وهو أيضًا حديث إذ إنه لم يحضر إلى بطرسبرج إلا بالأمس لعمل من الأعمال، ونحن لا نتلاقى إلا كل خمس سنوات.

- ما عمله؟

- إنه رجل قضى كل حياته الراكدة رئيسًا للبريد في أحد المراكز، وهو الآن يتقاضى معاشًا ويبلغ من العمر خمسًا وستين سنة. هذا كل ما أقوله عنه، وإني أحبه كثيرًا! وسيحضر أيضًا بورثيري سيمينوفتش رئيس التحقيقات، وهو رجل قانوني ويجب أن تعرفه..

- هل هو من أقربائك أيضًا؟

- قرابة بعيدة جدًا! لماذا تقطب جيبك؟ لأنكما تخاصتما مرة لا تريد

المجيء من أجله؟

- إني لا أهتم له..

- إن هذا خير ما تفعله، وسيكون بين الحضور طلبة وأستاذ وموظف وموسيقي وضابط وزاميتوف..

فسأله زوسيموف قائلاً: «أرجوك أن تخبرني أية علاقة بينك وبينه (مشيراً إلى رسكولنكوف) وبين أمثال زاميتوف».

- يا لطبقة السادة! المبادئ! إنك مسير بالمبادئ كالآلة فلا تجرؤ على أن تلتفت بمجرد إرادتك! أما أنا فإذا استظرفت شخصاً فإني أصحابه.. هذا هو مبدأي الذي أسير عليه، وزاميتوف رجل ظريف.

- ولو أنه يتناول الرشوة!

فصاح رازوميهين في غضب غير طبيعي:

- فليكن! ولماذا أهتم لذلك؟ وماذا يعنيني إذا كان يستولى على الرشى؟ إني لا أقول سوى إنه رجل ظريف من هذا الجانب، ولكن إذا كنا ننظر إلى الناس من جميع الجوانب فلن يكون الصالح منهم إلا عدداً قليلاً! فها أنذا لا أساوي بصلة بالمعيار الدقيق، ولو أضفت أنت إليّ..

- هذا تقدير قليل، إنك عندي تساوي بصلتين!

- أما أنت فلا تساوي في رأيي أكثر من واحدة! كفى مزاحاً! إن زاميتوف لم يزل صبيّاً أستطيع أن أشد شعره. ويجب أن نجتذبه بدلاً من أن ننفره. وإنك لا تصلح الشخص بأن تبعثه على النفور، لا سيما إذا كان صبيّاً، فإن الواجب عند ذلك أن يضاعف الحذر! تبّاً لكم يا دعاة التقدم ذوي العقول المغلقة الذين لا تفهمون شيئاً! تسيئون إلى أنفسكم من حيث

لا تشعرون كلما حقرتم إنساناً... ولكن اعلم- إذا كنت تحب أن تعلم- أن بيني وبين ذلك الفتى مسألة تشترك فيها.

- أية مسألة؟

- إنها خاصة بنقاش نريد إنقاذه من ورطة، على أنه لم يبق ما نخشاه الآن فالمسألة واضحة كل الوضوح، وكل ما هنالك هو تعجيل الأمور.

- أي نقاش هذا؟

- ألم أخبرك؟ إنك لم تسمع سوى البداية عن مقتل العجوز! ولقد اشتبه في نقاش...

- نعم سمعت عن حادث القتل... وقد اهتمت له بعض الشيء... بسبب ما قرأت عنه في الصحف...

وقالت نستاسيا مخاطبة رسكولنكوف وهي واقفة تصغى إلى الحديث على مقربة من الباب: «نعم، إنهم قتلوا ليزا فتنا أيضاً!».

فتمتم رسكولنكوف في صوت خافت لا يكاد يسمع: «ليزا فتنا!».

- ليزا فتنا التي تباع الثياب القديمة! ألا تعرفها؟ إنها كانت تأتي هنا، وقد أصلحت لك قميصاً!

فأدار رسكولنكوف وجهه نحو الحائط كعادته، واختار على ورق الحائط الأصفر القدر رسم زهرة مشوهة بيضاء، فيها خطوط صغيرة سمراء، وأخذ يحدق فيها فيحصى أوراقها، ويعد الخطوط السمراء فيها. وقد شعر بضعف وتخدر في ذراعيه وساقيه، كأن هذه الأعضاء بترت منه. ولكنه لزم مكانه دون حراك، وظل يحدق في الزهرة في عناد.

قال زوسيموف مقاطعاً ثرثرة نستاسيا في استياء ظاهر: «وماذا كان من أمر هذا النقاش؟».

فتنهدت نستاسيا وسكتت.

وأجاب رازوميهين في حرارة: «لقد اتهموه بأنه القاتل!».

- إذن هنالك أدلة للاتهام؟

- أدلة؟ إنها أدلة ليست من الدلالة في شيء، وهذا ما نعمل على إثباته. فهي لا تختلف في شيء عن الأدلة التي قام عليها اتهام كوخ وبسترياكوف في مبدأ الأمر! إنهم يفعلون ذلك في غباوة مثيرة! إن بسترياكوف قد يكون من ضيوف الليلة! ولهذه المناسبة يا روديا.. لقد سمعت شيئاً عن هذه الحادثة، فهي حدثت قبل مرضك في اليوم السابق لليوم الذي ذهبت فيه للقسم وأغمى عليك فيه..

فنظر زوسيموف متطلعاً إلى رسكولنكوف، فلم يتحرك هذا، وقال زوسيموف: «إنني لأعجب من أمرك يا رازوميهين.. فما أكثر حركتك وثرثرتك!».

فضرب رازوميهين المنضدة بقبضته وصاح قائلاً: «قد أكون، ولكننا سنصل إلى إطلاق سراحه! أتعلم ما الذي يضايقني من أمرهم؟ ليس ذلك لأنهم يخطئون، فالخطأ لا عيب فيه وقد يؤدي إلى الحقيقة، ولكن ما يغضبني هو أنهم يصرون على خطئهم ويظنون أنهم لا يخطئون! إنني أحترم بورثيري ولكن... أتعلم مثلاً ما الذي جعلهم في أشد الحيرة والارتباك؟ إن الباب كان مغلقاً، فلما حضر البواب وجده مفتوحاً.. وخلصوا من ذلك إلى أن كوخ وبسترياكوف هما بغير شك القاتلان.. هذا هو منطقهم!».

- لا تتضايق لهذا الأمر، فكل ما أصاب المتهمين أنهما حجزا، وذلك إجراء لا بد منه. وأذكر أنني قابلت كوخ مرة، وأعرف أنه يشتري الأشياء المرهونة التي انقضت أجلها، أليس كذلك؟

- نعم! إنه لمحتال. وهو يشتري الصكوك أيضًا ويتخذ هذا العمل مهنة. فلندعه وشأنه، ألا تعرف ما يغضبني؟ إنهم يسرون على النظم العتيقة المتحجرة المؤلمة التي تدخل الضيق إلى النفس، وهذا الحادث قد يدفعهم إلى إدخال نظم حديثة. فاستعراض العوامل النفسانية قد يؤدي بهم إلى السير على أثر المجرم الحقيقي، ولكنهم يقولون: «لدينا وقائع...» على أن الوقائع ليست كل شيء، فإن نصف العمل يقوم على تفسيرها واستخدامها.

- وهل تستطيع تفسير الوقائع أنت؟

- على كل حال يستحيل على المرء أن يعقد لسانه عندما يكون الشعور في نفسه قويًا بأنه قد يساعد إذا... ولكن هل تعرف دقائق هذه القضية؟

- إنني لا أزال أنتظر قصة النقاش..

- نعم! إليك القصة: في صباح اليوم الثالث بعد ارتكاب جريمة القتل، بينما كانوا يحققون مع كوخ والآخر بالرغم من وضوح كل خطوة من خطواتهما بما لا يدع مجالاً للشك فيهما، ظهرت فجأة واقعة غير متوقعة.. فإن قرويًا اسمه دوشكين صاحب حانة مواجهة للبيت تقدم للشرطة بعلبة حلي فيها قرطان من ذهب. وروى القصة الآتية:

«لقد حضر لديّ بعد الساعة الثامنة بقليل - ولاحظ هذا التوافق- نقاش جوّال اسمه نيقولاوي كان قد جاء إلى محلي في النهار أيضًا، وطلب أن أقرضه روبلين، وقدم العلبة وبها القرطان. ولما سألته من أين جاء بهما

أجاب أنه وجدتهما في الطريق، ولم أسأله بعد ذلك شيئاً.

ومضى دوشكين في قصته قائلاً: «فأعطيته ورقة واحدة- أي روبلاً- وقلت في نفسي إنني إذا لم أعطه النقود فإنه سيأخذها من غيري، والأمر واحد لأنه سينفقها في الشراب، فضلاً عن أنني رأيت من الخير أن تكون الحلية عندي، فإذا أعلن عنها أو سمعت إشاعات تتصل بها فسأحملها إلى الشرطة».

ومن المؤكد أن هذا القول هراء وكذب، فإني أعرف هذا الرجل وهو مراب يشتري المسروقات، ما كان ليخدع نيقولاوي ويأخذ منه حلية تساوي ثلاثين روبل لقاء روبل واحد لكي يسلمها إلى الشرطة، وما قال هذا القول إلا خوفاً.. ولكن لنرجع إلى قصة دوشكين فإنه قال:

«إني أعرف العامل نيقولاوي دمنتييف منذ كان صغيراً، فهو من مقاطعة زرايسك مثلي وكلانا من ريازان، وهو لا يدمن الخمر، ولكنه يقبل عليها أحياناً. وكنت أعرف أنه يعمل في دهان هذا البيت مع ديمتري وهو من قريننا أيضاً، فما حصل على ورقة الروبل حتى أبدلها بنقد صغير وشرب زجاجتين، ثم أخذ بقية المبلغ وانصرف. ولكنني لم أر ديمتري معه عندئذ. وفي اليوم التالي بلغني أن إليونا إيفانوفا وأختها ليزا قتلتا ببلطة، وكنت أعرفهما فداخلني الشك في أمر القرطين لأنني أعلم أن العجوز كانت تقرض الناس في مقابل رهون. فقصدت في الحال إلى المنزل وأخذت أقوم بتحريات دقيقة دون أن أخبر أحداً. وسألت أولاً عن نيقولاوي فأجاب ديمتري قائلاً: «نيقولاوي كان يمرح كأنه في يوم عرس، وعاد في الفجر سكران ثم خرج بعد عشر دقائق». ولم يره ديمتري بعدها فذهب إلى العمل

وحده، وكان عملهما في السلم نفسه الذي يؤدي إلى مسكن القتل في الطابق الثاني».

قال دوشكين: «فلما سمعت هذا لم أقل لأحد شيئاً، بل وقفت على كل ما استطعت الوقوف عليه وعدت إلى داري تساورني الشكوك. وفي الساعة الثامنة من الصباح، وهو اليوم الثالث للحادث، حضر نيقولاي إلى الحانة. ولم يكن في سكر شديد، بل كان يستطيع أن يفهم ما يقال له، فجلس ساكناً لا يتكلم على مائدة الشراب. ولم يكن عندي إلا رجل غريب ورجل آخر نائم والخدامان، فسألته: «هل رأيت ديمتري؟» قال: «لا!» فقلت: «أين قضيت الليلة؟» قال: «في حي بسكي مع آل كولوفيسكي» فسألته: «أين وجدت القرطين؟» فقال في لهجة غريبة بعض الشيء وقد حول عني عينيه: «في الطريق» فسألته: «ألا تعلم بما حدث في ذاك المساء وفي الساعة نفسها وفي السلم نفسه؟»، قال: «لم أسمع شيئاً!».

وكان يستمع إلى قصتي وعيناه تكادان تخرجان من رأسه، وقد استحال لونه إلى لون الشمع.. وقصصت عليه ما حدث فتناول قبعته ووقف يريد الانصراف. وأردت أن أحتجزه، فقلت له: «انتظر قليلاً، ألا تريد أن تشرب زجاجة؟». وأشرت إلى الصبي بأن يحرس الباب، وخرجت من خلف مائدة الشراب. فمرق من الباب جاريًا حتى اختفى في منعطف الشارع، ولم أره من ذاك الوقت، وحينئذ انتهت شكوكي إلى اليقين، وصار من البين أن الجريمة من عمله..

فصاح زوسيموف: «هذا طبيعي!».

- انتظر حتى أتم القصة: قام البحث عن نيقولاي في كل مكان واعتقل دوشكين وفتشت داره، واعتقل ديمتري أيضًا، وفتشت دور آل كولوفيسكي.. وأخيرًا ألقى القبض على نيقولاي في حانة في أطراف المدينة... وكان قد ذهب إليها بعد أن نزع صليبه الفضي من عنقه وبادله بزجاجة صغيرة من الكونياك. وبعد بضع دقائق رآته الخادمة من خلال ثقب في الزريبة، وهو في حظيرة مجاورة وقد عقد حزامه في القضيبي ووقف على جذع يحاول أن يشنق نفسه، فصرخت المرأة وتجمع الناس يسألونه عما يريد بنفسه، فقال: «خذوني إلى مركز الشرطة وسأعترف بكل شيء». فساروا به إلى المركز يحرسه جمع منهم وأخذوا يسألونه عن هذا وذاك.. سألوه عن عمره فأجاب: «اثنان وعشرون سنة»، وما مائل ذلك. ثم سئل: «هل رأيت أحدًا في السلم وأنت تعمل مع ديمتري في الساعة المذكورة؟» فأجاب أنه رأى بغير شك أناسًا يصعدون وينزلون ولكنه لم يتبين أحدًا منهم، فسئل: «ألم تسمع أية ضجة أو حركة غير عادية؟».

فأجاب أنه لم يسمع شيئًا غير عادي.

فقليل له: «ألم تسمع يا نيقولاي أن في اليوم ذاته قتلت عجوز وأختها وسلبتا؟».

فأجاب: «لم أعلم بهذا قط، بل علمت بعد يومين من وقوع الحادثة من أفناسي بافلوفتش، وكان ذلك أول أمس».

فسئل: «أين وجدت القرطين؟».

فأجاب: «وجدتهما على الرصيف».

فقليل له: «لماذا لم تعد إلى عملك في اليوم التالي مع ديمتري؟».

فأجاب: «لأنني كنت أسكر».

فسئل: «وأيّن كنت تسكر؟».

فأجاب: «في مكان كذا وكذا».

ف قيل له: «لماذا هربت من دوشكين؟».

فأجاب: «لأنه انتابني خوف شديد».

فسئل: «مم خفت؟».

فأجاب: «خفت أن أتهم».

فسئل: «لماذا تخاف إذا كنت تشعر أنك لم ترتكب إثماً؟».

فأجاب: «قد لا تصدقني يا زوسيموف.. ولكن هذا السؤال ألقى حرفياً في هذه الألفاظ.. وهذا أمر لا شك فيه، فقد استوثقت منه وسمعت هذه الألفاظ بعينها تردد عليّ.. فماذا تقول في ذلك؟».

ف قيل له: «ولكن هنالك أدلة على كل حال».

فأجاب: «إني لا أتكلم عن الأدلة بل أتكلم عن هذا السؤال الذي يتجهون به إلى المتهم يسألونه عما يحس في نفسه».

وهكذا ضغطوا وضغطوا حتى اعترف الفتى قائلاً: «لم أجد القرطين في الطريق بل في الشقة التي كنت أعمل فيها أنا وديمتري».

فسئل: «وكيف حدث ذلك؟».

فقال: «كنا نعمل معاً طول اليوم إلى الساعة الثامنة مساءً، وبينما نحن نتأهب للانصراف أخذ ديمتري فرشته ودهن وجهي بالطلاء وجرى،

فجريت خلفه على السلم وأنا أصبح بأعلى صوتي.. وفي نهاية السلم تصادمت بالبواب ومعه بعض الرجال، ولا أذكر عددهم.. فشتمني البواب، وشتمني البواب الآخر، وخرجت امرأة البواب وشتمتنا.. وأقبل عند ذلك رجل مع امرأة داخليين فشتمتنا لأنني أنا وديمتري اعترضنا طريقه، وقد أدركت ديمتري فأمسكت بشعره وأوقعته على الأرض، وأخذت أضربه.. ولم نكن نفعل ذلك في غضب، بل كنا نضحك ونلعب... ثم جرى ديمتري في الشارع، وحاولت أن أدركه فلم أستطع، وعدت إلى الغرفة التي نعمل فيها كي أربط الأدوات وأنتظر عودة ديمتري. وبينما أنا في انتظاره عثرت على اللعبة في أحد الأركان على مقربة من الباب، وكانت ملفوفة في ورق، فأزلت الورق وفتحت مشابك اللعبة وإذا القرطان في اللعبة...».

فسأل رسكولنكوف فجأة وقد نظر إلى رازوميهين نظرة قلق واضطراب وهو ينهض في بطاء جالسًا على المقعد مستندًا إلى يده: «على مقربة من الباب؟ ملقاة خلف الباب؟».

وقام رازوميهين أيضًا من مقعده وهو يقول: «نعم!... لماذا؟.. ما الخبر؟ ماذا في ذلك؟».

فقال رسكولنكوف في ضعف: «لا شيء!»، وحول وجهه للحائط. وساد السكون بضع دقائق، فقال رازوميهين بعد حين وهو ينظر إلى زوسيموف متسائلًا: «أظن أنه قام من حلم..».

فهز زوسيموف رأسه قليلًا ثم قال: «استمر!.. وماذا كان بعد ذلك؟». فمضى يقول: «ماذا كان بعد ذلك؟ إنه ما كاد يرى القرطين حتى نسي ديمتري وكل شيء، وتناول قبعته وجرى إلى دوشكين كما عرفنا ليأخذ منه

الروبل، وقد كذب حين قال إنه وجدتهما في الطريق وانصرف إلى شرابه، وهو لا يزال يكرر قصته القديمة عن جريمة القتل قائلاً: لا أعرف شيئاً عنها ولم أسمع عنها إلا أول من أمس!».

وقد قيل له: «لماذا لم تقصد الشرطة عندئذ؟».

فقال: «كنت خائفاً!».

فسئل: «ولماذا شرعت في الانتحار شتقاً؟».

فأجاب: «من القلق».

– أي قلق؟

– أن أتهم بالجريمة!

«هذه هي القصة، فهل تستطيع أن تعرف ما الذي استنتجوه من هذا؟».

فقال زوسيموف: «ليس الأمر قائماً على فروض، فإن هنالك دليلاً، بل أمراً واقعاً.. فهل تريد أن يطلق سراح نقاشك؟».

فقال رازوميخين: «إنهم يتهمون النقاش بجريمة القتل في مثل هذه السهولة وليس لديهم ظل من شك..».

فقال الطبيب: «إنك مخطئ في ظنك، فتحمسك يدفعك للمبالغة.. ولكن ما الذي تراه في أمر القرطين؟ أظن أنك توافقني على أنهما أخذا من صندوق العجوز في اليوم نفسه، والساعة ذاتها، وانتقلا إلى يد نيقولاي بطريقة ما.. ولهذا الأمر قيمته في مثل هذه القضية الخطيرة».

فصاح رازوميخين: «ماذا أتى بالقرطين إلى هناك؟ كيف جاء هناك؟ إنك طبيب ومن واجبك دراسة الناس، وأمامك الفرصة أكثر من غيرك

لدراسة طبائعهم، فكيف لا ترى أخلاق الرجل المتهم في هذه القصة بأكملها؟ ألا ترى للنظرة الأولى أن الإجابة التي أدلى بها عند التحقيق هي الصدق الخالص، وأن القرطين وصلاً إلى يديه كما قال تمامًا، أي إنه عثر على العلبة فأخذها؟».

- الصدق الخالص؟ ولكن ألم يعترف بأنه كذب في بادئ الأمر؟

- أصغ إلي! أصغ إليّ جيداً! إن البواب، وكوخ، وبسترياكوف وزوجة البواب الأول، والمرأة الجالسة في كوخ البواب، والرجل كريكوف الذي نزل من مركبة في تلك اللحظة ودخل من الباب وعلى ذراعه سيدة، كل هؤلاء - وعددهم جميعاً ثمانية أو عشرة شهود - اتفقوا على أن نيقولاي أوقع ديمتري على الأرض، وكان جاثماً فوقه يضربه بينما كان ديمتري يجذبه من شعره ويضربه أيضاً، وكانا أمام المدخل يسدانه بجسديهما، وكان الجميع يشتمونهما بينما كانا - على وصف الشهود - يتلاعبان بالأطفال ويتعاركان ويضحكان ويأتیان بحركات مضحكة. ثم طارد أحدهما الآخر وهما يجريان في الشارع كالأطفال. وكانت الجثتان ما تزالان عند ذلك دافئتين كما تعلم، دافئتين حين وجدتا! فإذا كان نيقولاي وحده، أو كانا معاً قد اقترفا جريمة القتل وفتحا الصناديق، أو على الأقل اشتركا في السرقة، فاسمح لي أن أسألك سؤالاً واحداً: أتنفق حالتهما العقلية من ضحك وصراخ وتلاحم عند المدخل مع البلطة وسفك الدماء والدهاء الشيطاني والسرقة؟ إنهما يكونان قد أزهما روحين منذ خمس دقائق أو عشر، لأن الجثتين كانتا ما تزالان دافئتين، ثم تركا الشقة مفتوحة - وهما يعلمان أن الناس ستدخل إليها - وألقيا بغنيمتهما، ثم أخذتا يلعبان بالأطفال ويضحكان حتى لفتا الأنظار، وهنالك نحو عشرة من الشهود

يقسمون على ذلك!

- هذا غريب جدًا، ومستحيل، ولكن...

- لا أيها الصديق، ليس هنالك موضع لكلمة «لكن»!. وإذا كان القرطان اللذان وجدا في يدي نيقولا في الساعة واليوم الذي تمت فيه الجريمة مما يقوم دليلًا خطيرًا على جريمته - مع أن التفسير الذي أدلى به معقول ولا يجعل هذا الدليل خطيرًا ضده - فإنه لمن الواجب أن ندخل في اعتبارنا الوقائع التي تثبت براءته، لا سيما أنهما مما لا ينكر. ولكن هل تظن أن نظامنا الجنائي يمكنهم من قبول هذه الوقائع - التي لا تقوم إلا على الاستحالة النفسانية - التي تقضي نهائيًا وبما لا يدع مجالًا للشك على الدليل المادي الذي يقضي باتهامه؟ كلا.. إنهم لا يقبلونها، ولن يقبلوها؛ لأنهم وجدوا علبة الحلبي، ولأن الرجل حاول أن يشنق نفسه.. ولأنه لا يفعل ذلك إلا لشعوره بجرمه.. هذه هي المسألة، وهذا ما يغضني..

- أرى عليك علائم الغيظ حقًا! انتظر قليلًا! نسيت أن أسألك: هل هناك دليل على أن العلبة كانت في حيازة المرأة العجوز؟

قال رازومييهين في تردد ظاهر وهو مقطب الجبين: «أثبت ذلك كوخ الذي عرف العلبة وذكر اسم صاحبها، وأثبت هذا بما لا يدع مجالًا للشك في أنها ملكه».

- هذا أمر سيئ.. سؤال آخر: ألم ير أحد نيقولا عندما كان كوخ وبسترياكوف يصعدان السلم أولاً؟ وهل يوجد دليل على ذلك؟

فأجاب رازومييهين في شيء من الحزن: «من المصادفات السيئة أن كوخ وبسترياكوف لم يلاحظا النقاشين وهما يصعدان السلم، ولو

أن شهادتهما بذلك لا تقدم ولا تؤخر.. وقد قالوا إنها وجدنا باب الشقة مفتوحًا. وأكبر الظن أن العاملين كانا يعملان فيها، ولكنهما لم يلتفتا إليها ولا يتذكران هل كان بها عمال!«.

- إذن فالدليل الوحيد للدفاع عنهما هو أنهما كانا يتضاربان ويضحكان! هذا فرض قوي، ولكن... كيف تفسر أنت الوقائع؟

- كيف أفسرها؟ وأي تأويل يوضحها؟

- إن الأمر واضح، أو على الأقل إن الاتجاه الذي يجب أن نتجه نحوه لتفسير الأمور واضح، وعلبة الحلبي تشير إليه. فالقاتل الحقيقي هو الذي أسقط القرطين، وكان موجودًا في الشقة. وقد أقفل الباب عندما كان كوخ وصاحبه يطرقان بابها. ولكن كوخ كان غيبًا إذ لم يبق واقفًا عند الباب، فتمكن القاتل من الإفلات وجرى نازلاً بعده، إذ لم يكن أمامه وسيلة أخرى للنجاة. ثم اختبأ من كوخ وبسترياكوف والبواب بأن عرج إلى الشقة التي خرج منها نيقولاوي وديم تري وظل بها إلى أن صعد البواب ومصاحبه وانتظر حتى لم يعد يسمعونهم، ونزل في هدوء في اللحظة التي وصل فيها نيقولاوي وديم تري إلى الشارع. ومن المحتمل أن يكون قد وقع بصر أحد عليه، ولكنه لم يسترع التفات أحد، فإن أناسًا كثيرين يدخلون إلى الدار ويخرجون منها، ولا بد أن القرطين سقطا من جيبه في غفلة منه وهو واقف خلف الباب، إذ كان مشغول الفكر بأمور أخرى، وعلبة الحلبي برهان قاطع على وجوده هناك. هذا هو تفسير الأمور.

- أرى مهارة كبيرة في هذا! لا يا صديقي! إنها مهارة أكثر مما يجب!

- ولكن لماذا؟ لماذا؟

- إن الحوادث سلسلة مجبوكة كأنها مسرحية..
فصاح رازوميهين: «هكذا!..» وفي هذه اللحظة فتح الباب وظهر
شخص لا يعرفه أحد من الحاضرين جميعاً.

(٥)

كان القادم رجلاً جاوز سن الشباب، ضخم الجسم جامد الحركة يلوح على ملامحه الحذر والشراسة، وقد ظل واقفاً بالباب ينظر حوله نظرة الازدراء والدهشة السافرة، وكأنه يحدث نفسه: «إلى أي مكان أتيت؟» وأخذ يفحص غرفة رسكولنكوف المنخفضة الضيقة كأنها غرفة في سفينة، وكان مظهره ينم عن ريبة مع تصنع الخوف والتضايق.. وأخيراً حذق بالنظرة نفسها في رسكولنكوف، وكان قد خلع ثيابه وأبقى شعره أشعث أغبر، وهو راقد على المقعد القذر يثبت نظرتَه في القادم..

ثم أدار القادم نظرتَه في بطاء إلى رازوميهين، ومظهره الرث وشعر وجهه الذي لم يحلقه، وكان هذا ينظر إليه نظرة تحد وسؤال.. وساد السكون بضع دقائق، وأخيراً حدث بعض التحول في المنظر، إذ شعر القادم من بعض علامات لا تخفى أنه لن ينال شيئاً ممن كانوا في هذه الغرفة

الضيقة بمحاولة إرهابهم، فخفف بعض الشيء من كبريائه، وتكلم في أدب لا يخلو من الشدة، موجهاً الخطاب إلى زوسيموف وهو يؤكد كل مقطع من كلامه قائلاً: «أريد أن أرى روديون رومانوفتش الطالب أو الذي كان طالباً.. هل هو هنا؟».

وهمّ زوسيموف بالرد، غير أن رازوميهين سبقه إليه قائلاً: «إنه الراقِد على المقعد، فماذا تريد؟».

وكان السؤال المألوف: «ماذا تريد؟» قد خسف الأرض تحت قدمي الرجل المتعاطف، وكاد يستدير للرد على رازوميهين، ولكنه تغلب على نفسه وظل مواجهاً زوسيموف.

فتمتم زوسيموف وهو يشير برأسه نحو الفراش: «هذا هو رسكولنكوف!».

ثم أخذ يتشأب ويفتح فمه على سعته، ثم مد يده إلى جيب صدره في بطة، وأخرج ساعة ذهبية من كيس تحفظ فيه، وفتحها ونظر إليها ثم أعادها إلى مكانها في بطة وكسل.

أما رسكولنكوف فكان طوال هذا الوقت راقداً على ظهره لا يتكلم، ينظر نظرة ثابتة في غير فهم، وأشاح بوجهه عن الزهرة المرسومة على ورق الحائط، فبدأ هذا الوجه شاحباً عليه أثر العذاب الشديد، كأنه كان يقاسي منذ وقت قريب آلام جراح مؤلمة، أو كأنه خارج من آلة التعذيب.. على أن دخول القادم استرعى اهتمامه شيئاً فشيئاً، حتى أثار في نفسه استغراباً، ثم ريبة، ثم ذعراً.. ولما أشار إليه زوسيموف قائلاً: هذا هو رسكولنكوف، نهض جالساً على المقعد وبادر قائلاً في صوت المتحدي، وإن كان صوتاً

ضعيفاً متقطعاً: «نعم... أنا رسكولنكوف! فماذا تريد؟».

فتفرس فيه الزائر وأعلن في عظمة: «وأنا بيوتر بتروفتش لوجين، وأظن أنك لا تجهل اسمي».

ولكن رسكولنكوف كان ينتظر شيئاً غير هذا، فنظر إليه في صمت وقلة اهتمام ولم يجبه بكلمة واحدة، وكأنه سمع اسم بيوتر بتروفتش للمرة الأولى.

وسأل بيوتر بتروفتش متضايقاً بعض الشيء: «كيف! أيمكن ألا تكون وصلتك أنباء عني حتى الآن؟».

وكان رد رسكولنكوف عليه أن ألقى بنفسه على الوسادة في تأن، ووضع يديه خلف رأسه وأخذ يتأمل في السقف.. فبدت نظرة استياء على لوجين، وظل زوسيموف ورازوميهين يرمقانه بنظرة كلها فضول، فارتبك وقال في ارتباك: «لقد ظننت وقدرت أن خطاباً أرسل بالبريد على الأقل منذ عشرة أيام، إن لم يكن خمسة عشر يوماً...».

وقاطعه رازوميهين فجأة قائلاً: «كلمة واحدة.. لماذا تقف الباب؟ إذا كان لديك ما تقوله فاجلس، فإنك تزحم نستاسيا.. أتستطيع أن تمر من هذه الفرجة الضيقة؟».

وأبعد رازوميهين كرسيه قليلاً عن المنضدة، تاركاً مسافة قليلة بينها وبين ركبتيه، وبقي في جلسة غير مريحة حتى ينفذ الزائر، وقد اختار اللحظة التي يستحيل فيها على الزائر أن يرفض، فمر في الطريق الضيق وهو يسرع ويتعثر، فلما وصل إلى الكرسي جلس عليه وهو ينظر في ريبة إلى رازوميهين..

وقال رازوميهين: «لا تخش عليه! فإن روديا كان مريضًا منذ خمسة أيام، وظل ثلاثة أيام لا يعي شيئًا، ولكنه الآن يستعيد صحته وأخذ يشتهي الطعام، وهذا طبيبه كان يعودُه الآن، وإني صديق لروديا وكنت طالبًا مثله، وأنا الآن أمرضه. فلا تلتفت إلينا، وامض فيما جئت له...».

وقال بيوتر بتروفتش: «شكرًا لك!». ثم سأل زوسيموف: «ولكن ألا يقلق المريض وجودي وحديثي إليه؟».

فتمتم زوسيموف: «لا! بل ربما كنت موضع تسلية له...» وتثاءب مرة ثانية.

قال رازوميهين: «لقد عاد إليه صوابه لمدة طويلة منذ الصباح!». وكان يتكلم في غير كلفة، بدت لبيوتر بتروفتش كأنها طيبة طبيعية، وبدأ يشعر نحوه بالارتياح، لا سيما أن هذا الشخص الرث الثياب المندفع قدم نفسه على أنه طالب.

وابتدأ لوجين يقول: «إن «ماما»...».

وفجأة تنحنح رازوميهين في صوت عال، فنظر لوجين إليه مستفهمًا فقال: «لا شيء! أرجوك أن تستمر...».

فهز بيوتر بتروفتش كتفيه وقال: «إن «ماما» بدأت تخط لك رسالة حين كنت مقيمًا في تلك الجهة، وقد تعمدت ألا أزورك لبضعة أيام بعد وصولي إلى هنا كي أكون واثقًا كل الثقة من وقوفك على كل الأنباء! ولكن مما يبعث في نفسي دهشة عظيمة...».

فصاح رسكولنكوف فجأة متهيجًا وقد نفذ صبره: «إني أعلم! إذن أنت الخاطب؟ إني أعلم وكفى!».

ولم يبق ظل من شك في استياء بيوتر بتروفتش هذه المرة، ولكنه بقي ساكنًا وهو يبذل جهدًا عنيفًا ليعرف ما وراء كل هذا، وساد السكوت لحظة..

وكان رسكولنكوف قد استدار نحو الزائر قليلًا وهو يرد عليه، فإذا هو يلتفت إليه ويحدق فيه، كأنه لم ينظر إليه من قبل، أو كأنه تبين فيه شيئًا جديدًا استرعى اهتمامه. وقام من رقدته على الوسادة مستشرقًا إليه، وكان في مظهر بيوتر بتروفتش حقًا ما يجعله جديرًا بتسميته بالخاطب، كما قال له رسكولنكوف بغير تجمل في القول، فلا ريب في أن بيوتر بتروفتش انتهز فرصة وجوده بضعة أيام في العاصمة ليجدد ثيابه، ويجمل من نفسه انتظارًا لقدوم خطيبته، وهو عمل بريء لا لوم عليه، بل إن شعوره الظاهر بالتحسن الكبير في منظره كان مما يغتفر لمن كان مثله مقبلًا على زواج.. فكانت كل ثيابه جديدة كأنها جاءت لساعتها من عند الحائك، وكانت لا عيب فيها إلا أنها ظاهرة الأناقة بادية الجدة، وكذلك كانت قبعته الأنيقة المستديرة لا يعاب عليها غير هذا، وكان يمسكها في يده في تكلف مبالغًا في التوقر والتزمت، وكان قفازاه الجميلان الأصفران من صنع لوفان يحكيان نفس القصة عند النظرة الأولى، وهو لا يلبسهما بل يحملهما في يده للمظهر وحده. وكانت ثيابه ذات ألوان زاهية كثياب الشبان، فسترته صيفية بديعة مصفرة اللون، وسرواله خفيف زاهر اللون، وصداره مثله نسجًا ولونًا، ورباط رقبته من أرق الحرير به خطوط حمراء. وكان خير ما في هذه الثياب أنها كانت ملائمة لبيوتر بتروفتش. إذ كان وجهه نضرا يكاد يكون جميلاً، يخفي حقيقة سنه، فكانت لا تلوح عليه أعوامه الخمسة والأربعون. وكان له شاربان أسودان مقصوصان يزينا وجهه، ومن دونهما ذقن حليق ناعم،

وشعره لا يكاد يستبين فيه الشعر الأبيض وقد جعلته يد المزين. ومع ذلك لم يكن عليه مظهر السخف الذي يصاحب تجعد الشعر ويجعل صاحبه أشبه شيء بالألماني في يوم زواجه، فإذا كان هنالك ما هو كرهه في سحنته فإن ذلك كان نتيجة لأسباب أخرى..

وبقي رسكولنكوف حيناً يتأمل في وجه لوجين بلا احتفال، ثم ابتسم ابتسامة حقد، ووضع رأسه على الوسادة، ونظر إلى السقف كما كان يفعل من قبل. أما لوجين فإنه تمالك نفسه واعتزم ألا يهتم لمسلكه الغريب. وحمل نفسه على أن يقطع الصمت قائلاً: «إنني لشديد الأسف إذ أجدك على هذه الحالة، ولو كنت أعلم أنك مريض لبادرت إلى زيارتك قبل هذا. ولعلك تعلم شدة وطأة الأعمال، وما تتطلبه مني فوق ذلك قضية خطيرة في مجلس الشيوخ، وغير ذلك من مشاغل أخرى قد لا تخفى عليك. وإني أنتظر من ساعة لأخرى وصول والدتك وأختك...».

فتحرك رسكولنكوف وكأنه أراد أن يقول شيئاً، وبدأ على وجهه بعض التأثر، فسكت بيوتر بتروفتش منتظراً، ولكنه لم يتكلم، فمضى في حديثه قائلاً: «نعم! من ساعة لأخرى... وقد وجدت لهما مسكناً!».

فسأله رسكولنكوف في صوت خاف: «أين؟».

— غير بعيد من هنا! دار باكلييف.

فقاطع رازوميهين قائلاً: «في شارع فوزكرينسكي، هنالك طبقتان من غرف مفروشة، يؤجرها تاجر اسمه يوشين.. كنت هنالك!».

فقال لوجين: «نعم! غرف!».

- مكان فظيع قدر كربه الرائحة، وهو فوق ذلك سيئ السمعة، وقد حدثت فيه حوادث قبيحة، ونزلاؤه قوم عجيبيون، وقد ذهبت إليه مرة في أمر شائن، على أن الإيجار فيه رخيص.

فأجاب بيوتر بتروفتش وقد شعر بوخزة:

- لم يكن في استطاعتي أن أعلم الشيء الكثير عن هذه الدار؛ لأنني غريب عن مدينة بطرسبرج. على أن الغرفتين في غاية النظافة. وستكون الإقامة فيهما لمدة قصيرة. فقد استأجرت شقة أخرى لتكون سكننا الدائم في المستقبل، وهي تعد لنا الآن!

وكان يتجه بالكلام إلى رسكولنكوف.. «بل إنني الآن مقيم بغرفة ضيقة مفروشة لدى مدام ليكسل، على بعد خطوات من هنا، مع شاب من أصدقائي اسمه أندريه سميونوفتش ليزياتنكوف، وهو الذي دلني على دار باكلييف..».

- ليزياتنكوف..؟

قال رسكولنكوف هذا الاسم في ببطء كأنه يذكره بأمر..

فقال لوجيه: «أندريه سميونوفتش ليزياتنكوف موظف بالحكومة، هل تعرفه؟».

فأجاب رسكولنكوف: «نعم! لا!».

- معذرة.. فقد ظننت من سؤالك أنك تعرفه، وقد كنت وصيًا عليه حينًا. وهو شاب ظريف له آراء حديثة حرة. ويسرني دائمًا الاجتماع بالشبان؛ لأن الإنسان يستفيد منهم كل جديد!

والتفت بيوتر بتروفتش إلى سامعيه والأمل يحدوه.. فسأله رازوميهين:
«ماذا تعني؟».

فأجاب بيوتر بتروفتش مغتبطاً بالسؤال: «أقصد المسائل الجدية الخطيرة، فقد كنت متغيياً عن مدينة بطرسبرج منذ عشر سنوات جد فيها كثير من الإصلاحات والأفكار، وكانت هذه تتطرق إلينا في الإقليم، ولكن يجب على المرء إذا شاء أن يعرفها حق المعرفة أن يعيش في مدينة بطرسبرج نفسها. ورأيي أنك لا تقف على كل ذلك ولا تدركه إلا بملاحظة الأجيال الحديثة، وإني لأعترف بأنني مغتبط...».

- بماذا؟

- إن سؤالك متشعب النواحي، وقد أكون مخطئاً، ولكن يخيل إليّ أنني أجد هذه الأجيال الناشئة أكثر وضوحاً في آرائها وأدق نقداً وأبصر بالحياة العملية..

فقال زوسيموف في غير اكتراث: «هذا حقيقي!».

فصاح رازوميهين في عنف: «هذا غير صحيح! إنهم ليسوا عمليين، فإن روح العمل لا توجد، ومن الصعب وجودها.. فما هي بمنحة تسقط من السماء، ولقد ظللنا مائتي سنة بعيدين عن الحياة العملية، ولكنني أسلم لك بأن الآراء تختمر الآن، وأن الرغبة في الخير موجودة وإن كانت لا تزال في دور الطفولة، وقد تجد الأمانة بالرغم من حشود اللصوص. لكنك على كل حال لن تجد الخبرة بالحياة العملية، وإن وجدتتها فهي طلاء كاذب...».

فأجاب بيوتر بتروفتش وعليه علائم الارتياح لهذا الجدل: «إني أوافقك على قولك، فقد يندفع بعض الناس ويرتكبون الأخطاء.. ولكن يجب أن

يكون الإنسان رقيقاً في حكمه، فإن الأخطاء دليل على التحمس للقضية، وعلى أن الحياة قد خرجت عن سراطها السوي وعدم مناسبة البيئة. وإذا لم نكن قد عملنا إلا القليل فإن الوقت كان قصيراً. على أي لا أتكلم عن الوسائل. ورأيي الشخصي، إذا أحببت أن تعرف هذا الرأي، أننا قد حققنا بعض الأمور. فقد نشرت آراء جديدة نافعة ومؤلفات قيمة، بدلاً من أحلام المؤلفين القدماء الخياليين. وقد بدأ الأدب يكون أكثر نضجاً، واقتلعت جذور معتقدات قديمة وكشف عن سخفها.. وفي عبارة قصيرة أننا قطعنا علاقتنا مع الماضي بلا رجعة. وذلك في رأيي عمل عظيم!..

فقال رسكولنكوف فجأة: «لقد حفظ هذا الكلام ليكرره!».

ولم يسمع بيوتر بتروفتش هذه العبارة فقال: «ماذا؟».. ولكنه لم يتلق ردًا.

وبادر زوسيموف قائلاً: «كل هذا حق...».

واستمر بيوتر بتروفتش في حديثه قائلاً، وهو ينظر إلى زوسيموف نظرة العطف: «أليس كذلك؟» ثم وجه الكلام لرازوميهين وفي حديثه نبرة الانتصار والتعاضم: «فلا بد أن تقر (وكان على وشك أن يقول: «أيها الشاب») أن هناك رقيقاً، أو تقدماً كما يقولون اليوم، وهو ماثل فيما نراه من العلوم والحقائق الاقتصادية».

- هذا أمر معروف...

واستمر بيوتر بتروفتش في سرعة لا حاجة إليها:

- لا! ليس أمراً معروفاً! إنهم إذا قالوا لي: «أحب جارك» مثلاً، فماذا تكون النتيجة؟ النتيجة أنني أمزق معطفي نصفين فأعطي أحدهما لجاري

ويكون كل منا نصف عار.. والمثل الروسي يقول: «إن الذي يطارد عدة أرانب يعود بلا أرنب».. لكن العلم يقول: «أحب نفسك، وابدأ بنفسك؛ لأن كل شيء في العالم قائم على النفع الشخصي». فإذا أنت أحببت نفسك وحدها عالجت أمورك على خير وجه، واحتفظت بمعطفك سليماً.. والحقيقة الاقتصادية تضيف إلى ذلك أنه كلما كان المجموع يحتوي على مؤسسات فردية منظمة، أو بعبارة أخرى: على معاطف كاملة، كانت الأسس التي يقوم عليها قوية، وكان النظام العام متيناً. فإذا أنا عملت لنفسي وحدها فإنما أعمل للناس جميعاً، وأشار في أن يكون نصيب كل فرد أكثر من قطعة من معطف، لا بفضل إحسان شخص إلى شخص بل بفضل التقدم العام. والفكرة بسيطة في ذاتها، ولكننا لم نصل إليها إلا بعد وقت طويل، إذ إنها كانت مقنعة وراء زخارف المثل العليا والأوهام العاطفية، ومع ذلك فإن إدراكها لا يحتاج إلا إلى قليل من الذكاء..

فقاطع رازوميهين في خشونة: «معذرة، فما أنا إلا رجل له حظ قليل من الذكاء، فدعنا من هذه الأمور، فإني ما ابتدأت هذه المناقشة إلا لغرض في نفسي، ولكنني سئمت الخوض في مثل هذه الأحاديث التي قضيت ثلاث سنوات ألهو بها.. وهذه العبارات المبتذلة المعادة التي أصبحت والله أخجل للناس حين يخوضون فيها على هذا النحو. إنك تتعجل في أن تظهر معارفك، ولا ألومك على ذلك، فقد يلتمس لك العذر فيه.. وما أردت إلا أن أعرف أي رجل أنت، فلقد اتصل كثيرون ممن لا خلاق لهم بقضية التقدم منذ حين، ومسخوا كل ما يتناولون ليوائهم أغراضهم، حتى تردت هذه القضية في حمأة مسنونة، فكفى ما قيل!».

فشعر السيد لوجين بالإهانة، وقال في عظمة بالغة: «معذرة يا سيدي! هل تعني بلا تجمل أني من هؤلاء؟».

فصاح رازوميهين منهياً الحديث: «سيدي العزيز... إنني لا أعني شيئاً، وهذا يكفي!».. ثم التفت فجأة إلى زوسيموف ليستأنفا حديثهما السابق.

ف رأى بيوتر بتروفتش أن من الحكمة قبول هذا التصريح، وعزم على أن ينصرف بعد دقيقة أو دقيقتين، ووجه القول إلى رسكولنكوف قائلاً:

- أني على ثقة بأن تعارفنا قد يزداد توثقاً عند شفائك، لما بيننا من الروابط التي تعرفها، وإنني لأرجو لك الشفاء في القريب العاجل..

فلم يهتم رسكولنكوف حتى بإدارة رأسه إليه، وهم لوجين بالقيام من مقعده..

وكان زوسيموف يقول بلهجة التوكيد: «لا بد أن أحد مدينيها قد قتلها...».

فأجاب رازوميهين: «لا ريب في ذلك.. إن بورفيري لم يطلعني على رأيه، ولكنه يحقق مع كل من لهم رهون عندها».

فسأل رسكولنكوف في صوت عال: «يحقق؟».

- نعم! لماذا تسأل؟..

- لا شيء!

فسأل زوسيموف: «وكيف عرفهم؟».

- عرف بعض الأسماء من كوخ، وكانت أسماء البعض مكتوبة على الأشياء المرهونة، وتقدم البعض من تلقاء نفسه.

- إن ذلك القاتل وغد ماكر محنك! ألا ما أجرأه وما أثبتة جنائنا!

قال رازوميهين: «إنكم جميعًا تقولون ذلك، وهذا ما يضل بكم عن تتبع أثره. وما أراه كما تصفونه، فلا أراه ماكرًا ولا محنًا، بل لعلها أول جريمة اقترفها.. ولو كانت الجريمة كما تقولون محكمة التدبير، وكان المجرم حقًا خبيرًا، لتعذر تعليل جوانب من الجريمة.. ولكننا لو تصورناه مجرمًا غديرًا لتبين لنا أن المصادفة وحدها هي التي أنقذته، والمصادفة قد تنتهي إلى ما ليس في الحساب.. بل لعله لم يتوقع أن يجد شيئًا من العقبات أمامه! فانظر كيف قام بعمله.. لقد استولى على حليّ تبلغ قيمتها عشرة روبلات أو عشرين فملاً بها جيوبه، ونقب في الصندوق بين الخرق البالية، على حين كان في الدرج الأول للدولاب صندوق صغير به خمسة عشر ألف روبل، فضلاً عن أوراق مالية أخرى.. فهو قد عرف كيف يقتل، ولكنه لم يعرف كيف يسرق! إنها جريمته الأولى! أوكد لك أنها أول جريمة له، وقد طار صوابه ولم ينقذه التدبير بل المصادفة المحضة..».

وكان بيوتر بتروفتش لا يزال واقفاً ويده قبعته والقفازان، وقد أراد أن يلقي بعبارات رصينة قبل الانصراف، وكان من البين أنه أراد أن يحدث في سامعيه تأثيرًا حسنًا.. وتغلب عليه حب الظهور على الحكمة فقال موجهاً الكلام إلى زوسيموف: «أظن أنك تشير إلى حادث قتل المرابية العجوز..».

فأجاب: «نعم! أسمعت به؟».

- أجل!

- أتعرف دقائقه؟

- لا أزعـم ذلك، ولكن المسأـلة تهمني من جهتها العامة.. فلست أريد أن أتحدث عن ازدياد الجرائم في الطبقة السفلى في السنوات الخمس الأخيرة، ولا عن أمر السرقات والحرائق التي تنتشر في البلاد، فإن الأمر الذي يبعث في أكبر الدهشة، هو أن الجرائم تزداد زيادة كبرى في الطبقات العليا.. فتسمع أحياناً أن طالباً سطا على البريد في الطريق العام.. وأنهم كشفوا أمر جماعة من ذوي المكانة تعمل على تزوير الأوراق المالية.. وأنه ألقى القبض في موسكو أخيراً على عصابة بأسرها تزيف أوراق اليانصيب وبين زعمائها مدرس للتاريخ العام.. ثم نسمع أن سكرتير إحدى سفاراتنا قتل لأسباب مالية غامضة.. وها هي ذي حادثة العجوز المرابية التي لا يبعد أن يكون قاتلها أحد مدينيها- أي رجل من طبقة عالية، فإن الفلاحين لا يرهنون الحلي- فكيف تفسر مثل هذا الفساد الذي أصاب الطبقة المتحضرة في مجتمعنا؟

فقال زوسيموف: «هنالك تغييرات اقتصادية عدة».

وقال رازوميهين: «كيف نفسرها؟ إنها قد تفسر بما فينا من نقص متأصل في خبرتنا بالحياة العملية».

فقال لوجين: «ماذا تقصد بهذا؟».

فأجاب: «ما هو الجواب الذي أجاب به مدرس التاريخ في موسكو حين سئل عن السبب في تزويره أوراق اليانصيب؟ أجاب أن جميع الناس يصلون إلى الثراء عن طريق أو آخر، فأردت أن أسرع لكي أكون ثرياً! إنني لا أتذكر كلماته بذاتها، ولكن مجمل معناها أنه يرغب في الحصول على المال من غير جهد وبغير انتظار أو عمل. لقد اعتدنا أن نجد ما نطلبه معداً

لنا، فتمشي على عكازات، ويمضغ لنا طعامنا، فإذا دقت الساعة ظهر كل فرد على حقيقته»(*) .

- ولكن أين الأخلاق؟ وأين... أين ما تسميه المبادئ؟

وتدخل رسكولنكوف فجأة في الحديث قائلاً: «لماذا تهتم لهذا الأمر؟ مع أنها توافق رأيك» .

- توافق رأيي؟

- نعم.. فإنك لو مضيت في رأيك الذي كنت تنادي به إلى غايته المحتومة، لوجدت أن قتل الناس مباح...
فصاح لوجين: «عجباً!» .

وقال زوسيموف: «كلا! هذا ليس صحيحاً!» .

أما رسكولنكوف فظل راقداً وشفته العليا ترتعش وهو يتنفس في صعوبة ووجهه شاحب كالموتى .

قال لوجين في كبرياء: «إن لكل شيء حداً، والآراء الاقتصادية لا تخرض على القتل، فما علينا إلا أن نقول...» .

على أن رسكولنكوف قاطعه فجأة في صوت متهدج من سورة الغضب، وكأنه أحس سروراً في توجيه الإهانة إليه فقال: «ألم يكن حقاً أنك قلت لخطيتك- بعد ساعة من قبولها إياك زوجاً- أن أكبر ما يسرك... أنها متسولة... لأنه من الخير انتشال الزوجة من الفاقة كي يكون للمرء سلطان عليها وتستطيع تعييرها بما لك عليها من جميل؟» .

(*) الإشارة هنا إلى تحرير الفلاحين الروس من ربطة القن في عام ١٨٦١ .

فصاح لوجين في غضب وقلق وقد احمر وجهه خجلاً:

- ما أعجب أن يمسح قلبي مثل هذا المسخ! معذرة.. ولكن اسمح لي أن أؤكد لك أن الأنباء التي وصلتك- أو دعني أقول نقلت إليك- ليس لها أقل أساس من الحقيقة. وإني لأتبين من الذي وجه إليّ هذا السهم... إنه بالاختصار... والدتك... وقد بدا لي من أشياء أخرى أنها- مع ما لها من صفات جليلة- تذهب إلى المبالغة والخيال في تفكيرها.. وقد كنت أبعد الناس عن أن أتصور أنها تسيء فهم الأشياء وتشوهها على هذه الصورة الغريبة. وبعد.. وبعد..

فرفع رسكولنكوف رأسه عن الوسادة، ونظر إليه بعينين براقيتين وصاح قائلاً: «استمع إلى كلمة! استمع إليّ..».

فوقف لوجين منتظراً ووجهه ينم على التحدي والاستياء، ثم سأل: «ماذا يا سيدي؟» وساد السكون بضع ثوان..

- إذا لفظت كلمة واحدة تمس والدتي.. فإنني أفذف بك من أعلى السلم..

فصاح رازوميهين: «ماذا جرى يا رسكولنكوف؟!».

وامتقع وجه لوجين وعض شفتيه وهو يقول: «أإلى هذا تصل الأمور؟». ثم بدأ يتكلم وهو يبذل أكبر الجهد ليمسك نفسه، وإن كان صدره ليضيق بأنفاسه، وقال: «اسمح لي يا سيدي أن أقول لك إنني تبينت من اللحظة الأولى كراهيتك لي، ولذلك بقيت هنا لكي أثبت مما بدا لي.. وإني أغفر أموراً كثيرة لرجل مريض وقريب. ولكنك.. بعد الآن..».

فصاح رسكولنكوف: «لست مريضاً!».

- هذا أقل لعذرك..

- فلتذهب إلى الجحيم!

فتأهب لوجين للانصراف دون أن يتم حديثه مارًا بين المنضدة والكرسي، فوقف له رازومييهين في هذه المرة كي يفسح له الطريق، ولكنه لم يلتفت إلى أحد حتى أنه لم يلق تحية إلى زوسيموف، وهو منذ حين يومئ إليه بأن يمسك عن الرجل المريض. وغادر الغرفة وقد رفع قبعته إلى مستوى كتفيه، كي يتجنب تشوهاها حين انحنى وخرج من الباب، وكان في انحناء ظهره نفسها ما ينبئ بمقدار شعوره بالإهانة التي لحقته.

وقال رازومييهين وهو يهز رأسه في حيرة: «كيف تفعل هذا؟ كيف تأتي هذا؟».

وصاح رسكولنكوف متهيجًا: «اتركوني! اتركوني جميعًا، ألا تكفون عن تعذيبي؟ إني لا أخافكم ولا أخشى أحدًا! لا أخشى أحدًا الآن! ابتعدوا عني! أريد أن أكون وحيدًا! وحيدًا! وحيدًا!».

فقال زوسيموف وهو يومئ لرازومييهين: «هيا بنا!».

- ولكن أتركه في هذه الحالة؟

فقال زوسيموف في إصرار: «هيا بنا!»، وخرج..

ففكر رازومييهين لحظة ثم جرى ليدركه..

وقال زوسيموف وهو في السلم: «قد تصير الأمور إلى أسوأ من هذا إذا لم نطعه! يجب ألا يثار غضبه!».

- ماذا به؟

- لو باغته أمر سار لزال عنه المرض! لقد تحسن في مبدأ الأمر.. وإنك لتعلم أن هنالك شيئاً في رأسه، وفكرة ثابتة متسلطة عليه، وهذا ما يقلقني..
- ربما كان متأثراً بسبب هذا السيد بيوتر بتروفتش.. ويظهر مما قيل إنه سيقترن بأخته، وأنه قد تسلم رسالة بهذا المعنى قبل مرضه..

- نعم.. لعنة الله على الرجل! فلعل مجيئه قد أضر بالمريض إضراراً بليغاً! أما لاحظت أنه لا يكثرث لشيء ولا يجب عن شيء إلا مسألة واحدة يهتم لها ويثور... أعني مسألة القتل؟!

وقال رازوميهين موافقاً: «نعم! نعم! لاحظت ذلك جيداً، فهو إذا سمع حديثها، انقلب مهتماً قلقاً. فقد صدمته في مكتب الشرطة في يوم مرضه وأغمى عليه عندئذ!».

- حدثني هذا المساء في هذا المسألة بإسهاب، وسأخبرك بعدئذ بأشياء أخرى! فإن حالته لتهمني كثيراً، وسأعود بعد نصف ساعة لعيادته. ومع ذلك فلن يحدث عنده احتقان.

- شكرًا لك.. أما أنا فسأنتظر عند پشنكا، وسأراقبه عن طريق نستاسيا.
أما رسكولنكوف فبعد أن بقي وحيداً ظل ينظر إلى نستاسيا في ضجر وضيق، ولكنها لم تبادر بالخروج وسألته:
- ألا تحب أن تشرب شيئاً؟

فقال: «بعد قليل. فإني أريد أن أنام، فاتركيني..
واستدار في عنف إلى الحائط، فتركته نستاسيا وانصرفت..

(٦)

ما كادت نستاسيا تغادر الغرفة حتى قفز رسكولنكوف وأزليج الباب، وفك الرباط عن الثياب التي اشتراها رازوميهين وأخذ يلبسها. ومن العجيب أنه شعر بالهدوء الكامل، ولم يبق فيه أي أثر لغيوبة الحمى. وذهب عنه الفزع الذي كان يساوره في الأيام الأخيرة، فكانت بداية فترة من هدوء فجائي غريب، وكانت حركاته واضحة محكمة تنم عن عزيمة ثابتة وهو يتمتم لنفسه: «اليوم! اليوم!». .. وكان على علم بأنه لا يزال ضعيفاً، ولكنه استمد قوة وثقة بالنفس مما كان في أعماقه من تركيز روحي شديد، على أنه مع ذلك كان يرجو ألا يسقط في الطريق.

وأتى ارتداء ثيابه الجديدة، ونظر إلى النقود التي كانت على المنضدة، ففكر لحظة ثم وضعها في جيبه - وكانت خمسة وعشرين روبل - ثم أخذ

الدراهم التي بقيت من الروبلات العشرة التي اشترى رازوميهين منها الثياب. ثم فتح مزلاج الباب في هدوء، وتسلسل من السلم، وألقى نظرة على باب المطبخ المفتوح، وكانت نستاسيا واقفة وظهرها نحوه تنفخ في النار تحت إناء الشاي، فلم تسمع شيئاً، وكان لا يخطر لها أنه قادر على الخروج، وبعد لحظة وصل إلى الشارع.

وكانت الساعة تقارب الثامنة وقتئذ والشمس تميل إلى الغروب، على أن الحرارة بقيت شديدة الوطأة كما كانت من قبل، واستنشق في لهفة هواء المدينة بروائح الكريهة وغباره، وشعر في رأسه بشيء من الدوار، غير أن نوعاً من النشاط الوحشي بدا فجأة في عينيه المتوقدتين، وارتسم على وجهه الشاحب المصفر. ولم يكن يدري أين هو ذاهب، ولا فكر في ذلك، بل كان كل ما يشغل فكره أنه لا بد أن ينتهي في ذلك اليوم من كل شيء... دفعة واحدة، وفي الحال.. وأنه لن يعود إلى مسكنه بغير أن يفرغ من ذلك، فما كان له أن يمضي في حياته على هذا النحو. ولكن لم يكن يدري كيف ينتهي وبأية طريقة.. بل إنه كان لا يريد التفكير في ذلك! لقد أطرح التفكير لأن التفكير يعكر صفوه، وكان كل ما يشغل فكره ويغمر حسه إنما هو ضرورة تغيير كل شيء بطريقة ما، مهما تكن هذه الطريقة. ولقد كرر هذا الرأي في عزيمة يائسة، وثقة بالنفس لا تتزعزع...

وسار بحكم العادة في طريق نزهته القديم، متجهاً نحو سوق التبغ، فرأى في طريقه شاباً أسود الشعر واقفاً أمام حانوت صغير، يدير بيده آلة صندوق موسيقي تخرج منها ألحان أنشودة مؤثرة، بينما كانت تتغنى بالأنشودة فتاة في الخامسة عشرة من عمرها، واقفة على رصيف الشارع

أمامه، وكانت ترتدي ثوبًا من القطن ورداء وقبعة بادية البلى. وكانت الفتاة تغني في صوت قوي حسن الوقع على السمع، وإن كان أجش متقطعًا من كثرة الغناء في الشوارع، وكانت تطمع من وراء غنائها أن يجود عليها صاحب الحانوت بقطعة خسيصة من النقود. فانضم رسكولنكوف إلى اثنين أو ثلاثة وقفوا يستمعون، ثم أخرج قطعة ذات خمسة كويكات ووضعها في يد الفتاة، فانقطعت فجأة عن الغناء عند نغمة مؤثرة مرتفعة والتفتت إلى الرجل الذي كان معها وصاحت به: «هيا بنا!.. وانتقل الاثنان إلى حانوت آخر.

فاتجه رسكولنكوف إلى رجل في منتصف العمر كان يتسكع إلى جانبه وقال له: «أتحب موسيقى الطرق؟».

فنظر إليه الرجل في دهشة وتعجب، وكانت هيئته لا توائم بحال موضوع الحديث، فمضى الفتى قائلاً: «إنني أحب الغناء يصاحب العزف على مثل هذه الآلة، لا سيما في ليالي الخريف المظلمة الباردة الممطرة- ويجب أن تكون ممطرة- حيث تبدو وجوه المارة مخضرة شاحبة معتلة.. وأفضل من ذلك أن يتساقط الثلج مستقيمًا- أتعلم ماذا أعني؟- بينما نور المصابيح يلمع من خلال ذلك...».

فغمغم الرجل الغريب قائلاً: «لا أعلم.. فمعدرة».. وقد دعر من السؤال، ومن منظر رسكولنكوف الغريب، وانتقل إلى الجانب الآخر من الشارع. وواصل رسكولنكوف السير حتى بلغ ناصية سوق التبغ، حيث رأى التاجر وزوجته من قبل يتحدثان إلى ليزا فتا. ولم يكونا هناك في تلك اللحظة، ولكنه عرف المكان فوقف فيه، واتجه إلى شاب يرتدي قميصًا

أحمر كان يقف متسكعًا عند مدخل حانوت بائع دقيق، فقال له:

- ألا يوجد هنا بائع متجول يتجرف في هذه الجهة مع زوجته؟

فأجاب الشاب على سؤاله وهو ينظر إليه في عدم مبالاة: «هنا صنوف شتى من الباعة الجوالين!».

- ما اسمه؟

- إن اسمه هو ما أطلقه عليه أبواه عند تعميده!

- يلوح لي أنك من أهل زاريسك. فمن أية ولاية أنت؟

فحملق الغلام في رسكولنكوف مرة أخرى وقال: «إنها ليست ولاية يا صاحب السعادة، بل إقليم.. وأنا أقيم بالمنزل ولا أعرف شيئًا من ذلك، لكن أخي يعرف. فسامحني يا صاحب السعادة..»

- أليست حانة تلك التي في الطبقة العليا؟

- بلى، هناك مطعم وبه بلياردو، وستجد فيه أميرات أيضًا.. ها! ها!

فعبر رسكولنكوف الساحة ورأى في الجانب الآخر جموعًا من الفلاحين، فاختلط بأكثرها تجمعاً وجعل ينظر في وجوههم. وشعر برغبة لا يمكن تعليلها في التحدث معهم، ولكنهم لم يعيروه اهتمامًا، وكانوا جميعًا يتصايحون في جماعات، فوقف لحظة يفكر ثم اتجه نحو اليمين قاصدًا «ف...».

وكان كثيرًا ما عبر الشارع الصغير الذي ينخرج من السوق نحو شارع سادوفي، وقد اعتاد منذ حين أن يتجول في تلك الأنحاء كلما شعر بكآبة؛ كي تزداد به الكآبة.

كان يسير دون أن يفكر في شيء. وكان في تلك الجهة بناء كبير تشغله حانات ومطاعم، تتوافد عليها نساء يدخلن ويخرجن منها وهن عاريات الرؤوس وفي ثياب البيت. وكانت جماعات منهن تقف متفرقة على الرصيف، لا سيما عند أبواب بعض أماكن اللهو في الطبقات السفلى من البناء. وكنت تسمع عندئذ من أحد هذه الأماكن ضجة الأصوات والعزف على القيثارة وصيحات المرح تتطاير إلى الشارع. وقد تجمع عدد من النساء عند بابه، وجلس بعضهن على السلالم، والبعض على قارعة الطريق، ووقف البعض منهن يتحدثن. وسار على مقربة منهن في الطريق جندي مخمور يدخلن سيجارة وهو يلعن، ولعله كان يحاول أن يذهب إلى مكان ثم نسي أين هو.. وكان شحاذ يتشاحن مع زميل له، ورجل سكير راقداً في الطريق تحت تأثير الخمر.. وانضم رسكولنكوف إلى جماعة النساء اللاتي كن يتحدثن في أصوات جشاء، وكن جميعاً في ثياب من القطن، وأحذية من جلد الماعز، وهن عاريات الرؤوس، وبعضهن يناهز الأربعين من العمر والبعض لا يكاد يبلغ السابعة عشرة، وكانت عيون أكثرهن مكتحلة..

وشعر بانجذاب غريب نحو الغناء والضجة والصخب في الملهى الذي في أسفل البناء... وكان ينبعث من هناك صوت أحد الراقصين وهو يدق بقدمه على نغمات القيثارة، بينما كان صوت عال يغني لحناً مفرحاً، فظل يصغي في اهتمام وحزن، وهو فيما يشبه الحلم، ثم انحنى عند المدخل وأخذ يطل منه في فضول، بينما كان الصوت الحاد يغني: أيها الجندي الجميل.. إياك أن تضربني بلا سبب..

وكان رسكولنكوف يشعر برغبة كبيرة في سماع كل عبارة من النشيد،
كأن كل شيء يتوقف على ذلك..

وتساءل في نفسه: «أأدخل؟ إنهم يضحكون من السكر.. أأسكر؟».
وسألته امرأة: «ألا تدخل؟».. وكان في صوتها حلاوة، أو هو أقل
خشونة من أصوات زميلاتهما، وكانت صغيرة السن وغير قبيحة، وهي
الوحيدة في ذلك بينهن..

وقال وقد وقف وأخذ ينظر إليها: «إنها جميلة..».
فابتسمت مسرورة لهذا الإطراء وقالت: «أنت كذلك جميل المنظر
جداً..».

غير أن امرأة أخرى قالت في صوت خشن عميق: «ولكنه مع ذلك
نحيل! أأنت خارج من المستشفى؟».

وتدخل فلاح أخذ منه الشراب، وكان يرتدي سترة واسعة وهو يتسم
ابتسامة خبيثة وقال: «كأنهن جميعاً بنات قُواد وإن كانت أنوفهن فطساء!
انظر إلى ظرفهن!».

- فلتدخل إذن ما دمت قد جئت!

- سأدخل يا حبيبي!

ومرق نازلاً السلم إلى الملهى، وتحرك رسكولنكوف للذهاب..
فصاحت الفتاة خلفه: «أصغ إليّ يا سيدي!».

- ماذا؟

فترددت ثم قالت: «إن أكون مسرورة لو أمضيت معك ساعة يا سيدي، ولكني الآن أشعر بالحياء منك! فتفضل عليّ بستة كوبكات ثمنًا لشراب أيها الشاب الجميل...».

فأعطا رسكولنكوف أول قطعة نقود أمسك بها وهي خمسة عشر كوبك. فقالت: «إنك لسيد كريم!».

فسألها: «ما اسمك؟».

فأجابت: «يمكنك أن تسأل عن دفليد».

فقالت إحدى النساء وهي تومئ برأسها نحو دفليد: «لقد جاوزت الحد! لا أعرف كيف تستطيعين الشحاذة هكذا، ولو كنت في مكانك لذبت خجلًا!».

فنظر رسكولنكوف في فضول نحو المرأة التي تكلمت، فإذا هي في نحو الثلاثين من عمرها، وعلى وجهها آثار من الجدري والجراح وشفتها العليا متورمة، وكانت تبدي نقدها في هدوء وجد..

وقال رسكولنكوف في نفسه: «أين كان ذلك؟ أين قرأت عن رجل محكوم عليه بالموت ولم يبق له قبل الموت غير ساعة، فيقول أو يفكر في نفسه أنه لو قدر عليه أن يعيش فوق صخرة عالية، في جانب جرف ضيق منها لا يجد فيه متسعًا إلا لقدميه، ويحيط به بحر لجي دائم الظلمة دائم العزلة نائر الزوابع، وأن يبقى واقفًا هنالك على سطح لا يزيد على ذراع طول حياته، أو مدة ألف عام، وإلى الأبد، لآثر أن يعيش كذلك على أن يموت في ساعته.. فهو لا يريد غير أن يعيش! يعيش! يعيش الحياة مهما تكن... ما أصدق هذا! رباه! ما أصدق! إن الإنسان لسافل!».. ثم أضاف

بعد لحظة: «وإنه لسافل من يسميه سافلاً!».

ثم انتقل إلى شارع آخر: «هذا هو القصر البللوري! لقد حدثني رازوميخين اليوم عن القصر البللوري.. ولكن ويلي، ماذا أريد؟ أي نعم، الصحف.. فقد قال زوسيموف أنه قرأها في الصحف! أليدك الصحف؟».. سأل هذا السؤال وهو يدخل مطعمًا مترامي الأطراف وتام النظافة، فيه غرف عدة تكاد تكون خالية. وكان شخصان أو ثلاثة يشربون الشاي، وفي غرفة أخرى كان أربعة رجال يشربون الشمبانيا، وخيل إلى رسكولنكوف أنه رأى زاميتوف بينهم، غير أنه لم يكن واثقًا من ذلك لبعدهم عنه، وقال في نفسه: «وماذا يكون لو أن الأمر كذلك؟».

وسأله الخادم: «أتريد شراب الفودكا؟».

فأجاب: «هات شيئًا من الشاي وآتني بالصحف، وأريد الصحف القديمة التي ظهرت في الأيام الخمسة الأخيرة وسأجزل لك العطاء!».

- نعم يا سيدي.. هاك صحف اليوم! ألا تريد كأسًا من الفودكا؟

ثم جيء بالصحف القديمة والشاي، فأخذ رسكولنكوف يبحث فيها ويقرأ...

- تبًا لهذا! هذه هي الأخبار: حادث في سلم.. رجل تقتله الخمر.. حريق في بسكي.. حريق في حي بطرسبرج.. حريق آخر.. هذا هو!..

ووجد أخيرًا ما كان يبحث عنه، وأخذ يقرأ والسطور تلعب أمام عينيه، ومع ذلك ظل يقرأ الأنباء المختلفة إلى النهاية. وأخذ يبحث في لهفة عن الأنباء المكملة في صحف الأيام التالية، وكانت يده ترتجفان من أثر التلهف العصبي وهو يقلب الصحف، وفجأة جلس شخص على منضدة

بالقرب منه، فنظر فإذا هو زاميتوف رئيس الكتبة... زاميتوف كعادته، متحليًا بخواتمه وسلسلة ساعته، وشعره الأسود الممشط المجعد والمعطر بالدهون، وصداره الأنيق وسترته الطويلة القديمة وقميصه غير النظيف.. وكان مرحًا، أو كان على الأقل يبتسم في سرور ورضا، وكان وجهه الأسمر قد احمر تحت تأثير الشمبانيا..

- كيف؟! أنت هنا؟!

قال هذا في دهشة كأنما كان يعرفه طوال حياته، ومضى قائلاً: «لقد أخبرني رازوميهين بالأمس فقط أنك كنت فاقد الرشد.. ما أعجب هذا! هل تعرف أنني ذهبت إلى منزلك لزيارتك؟».

وكان رسكولنكوف قد شعر باقترابه، فوضع الصحف جانبًا والتفت إليه وعلى شفثيه ابتسامة ساخرة تنم عن غضب ونفاد صبر وأجاب: «أعلم أنك جئت هناك، فقد بلغني ذلك، وأنت بحثت عن جوربي! وإنك لتعلم أن رازوميهين تعلق قلبه بك. وهو يقول إنك ذهبت معه لدار لويز إيفانوفنا، وهي المرأة التي حاولت أن تحميها. وقد غمرت بعينك للضابط المتفجر غضبًا فلم يفهم، ألا تذكر؟ لست أدري كيف لم يفهمك.. لقد كان الأمر واضحًا كل الوضوح.. أليس كذلك؟».

- إنه لرجل مندفع!

- الرجل المتفجر؟

- لا، بل أقصد صديقك رازوميهين..

- إن حياتك لهنيئة أيها السيد زاميتوف.. فإنك لتدخل جميع أماكن اللهو بلا أجر! منذا الذي كان يصب في فيك الشمبانيا الآن؟

- لقد كنا نشرب كأسًا معًا.. فلماذا تتحدث عن صب الخمر في فمي؟
فضحك رسكولنكوف قائلاً: «إن هذا على سبيل الأجر! إنك لتستفيد
بكل شيء!».. ثم ضرب زاميتوف على كتفه وقال: «لا بأس عليك يا ولدي
العزيز.. فإني لا أتكلم غاضبًا، بل هو حديث أخوي على سبيل المزاح،
مثل ذلك العامل الذي تعرفه في قضية العجوز.. إذ كان يجالده صاحبه
ديمتري».

- كيف علمت ذلك؟

- لعلني أعلم من ذلك أكثر مما تعلم..

- إنك لشخص غريب.. ولا شك عندي في أنك لا تزال مريضًا..
وكان من الواجب ألا تخرج من مسكنك..

- هل يظهر عليّ أنني شخص غريب؟

- نعم! ماذا تعمل؟ هل تقرأ الصحف؟

- نعم!

- في الصحف شيء كثير عن الحرائق..

- لا! لست أقرأ عن الحرائق..

ثم نظر إلى زاميتوف نظرة غامضة، وقد تقلصت شفتاه في ابتسامة
ساخرة، واستمر وهو يغمز بعينه: «كلا لا أهتم بالحرائق! ولكن أعترف
الآن أيها الشاب العزيز بأنك متطلع أكبر التطلع لتعرف ما أقرأ..».

- كلا مطلقًا! ولكن أليس لي أن أسأل سؤالًا؟ لماذا تصر على..

- اسمع! إنك رجل مثقف متعلم.. أليس كذلك؟

فأجاب زاميتوف في شيء من الفخر: «كنت في الفرقة السادسة بالمدرسة الثانوية!».

- الفرقة السادسة! يا صديقي الطريف، إنك تضع الخواتم في أصابعك والسلسلة في صدرك! إنك لرجل موسر! إنك شاب ظريف حقاً..

ثم ضحك رسكولنكوف ضحكة قصيرة عصبية في وجه زاميتوف، فارتد هذا عنه وبدت عليه علائم أقرب إلى الدهشة منها إلى الاستياء.

وأخذ زاميتوف يكرر في جد: «ما أغربك! لا أستطيع إلا أن أعتقد أنك تهذي تحت وطأة الحمى!».

- أنا أهذي أيها الشاب الطريف؟ وأنت تراني عجيباً.. أليس كذلك؟

- نعم.. عجيباً!

- ألا أخبرك بما أقرأ، وعم أبحث؟ انظر أي عدد من الصحف طلبت إليهم أن يحملوا إلي! ألا يبعث هذا على الريبة؟

- حسناً.. ما هو؟

- إنك تفتح أذنك؟

- ماذا تعني بفتح أذني؟

- سأفسر ذلك فيما بعد، ولكنني الآن أعلن لك أيها العزيز.. وخيراً من ذلك أعترف!.. لا، ليس هذا صحيحاً.. بل إنني أقرر وأنت تسجل!.. أقرر أنني كنت أقرأ وأهتم وأبحث..

ثم أغمض عينيه قليلاً وصمت برهة ثم قال: «وجئت خاصة لأتبع أنباء مقتل المرامية العجوز!».. ونطق بهذه العبارة في صوت خافت يكاد

يكون همساً، واقترّب بوجهه حتى كاد يلمس وجه زاميتوف، فنظر هذا إليه نظرة ثابتة لا يتحرك ولا ينأى بوجهه.. وكان كلما تذكر ذلك فيما بعد بدا له أن أغرب ما حدث عندئذ أن السكوت ساد بينهما نحو دقيقة، كان كل منهما في أثنائها يحدق في الآخر..

ثم صاح زاميتوف وهو في حيرة ونفاد صبر: «وماذا عليّ إن كنت تقرأ عن هذا؟ ليس هذا من شأني.. وماذا في ذلك؟».

وأتم رسكولنكوف حديثه همساً من غير أن يعير ملاحظة زاميتوف أي اهتمام: «إنها نفس العجوز التي كنت تتكلم عنها في مركز الشرطة! هل تذكر؟ حين أغمى عليّ... هل تفهم الآن؟».

فسأل زاميتوف وقد كاد يرتاع: «ماذا تعني؟ ماذا أفهم؟».

فتغيرت ملامح رسكولنكوف بغتة، بعد أن كان جاداً ثابت الوجه، وعاد إلى ضحكه العصبي يغرق فيه كأنه غير قادر على ضبط نفسه، ثم خطرت له فجأة في شعور واضح تلك اللحظة التي وقف فيها وراء الباب والبلطة في يده، وهو قابض على المزلاج بيده الأخرى، عندما كانوا يشدون الباب ويجذبونه وهم يسبون، إذ شعر برغبة فجائية في أن يصيح بهم ويلعنهم، ويخرج لسانه ويسخر منهم، ويضحك، ويضحك، ويضحك..

قال زاميتوف: «إنك إما مجنون وإما..».

ولكنه سكت عن إتمام كلامه، وكأن فكرة جديدة طرأت في ذهنه فأذهلته..

- وإما.. وإما ماذا؟ ماذا؟ أخبرني..

قال زاميتوف: «لا شيء! كل هذا كلام فارغ!».

وسكت الاثنان.. وعاد رسكولنكوف بعد نوبة الضحك التي بغتته فانقلب مفكرًا، واستولى عليه الحزن فوضع مرفقيه على المنضدة، وأسد رأسه بيده وكأنه نسي زاميتوف كل النسيان، واستمر هذا السكوت حينًا من الزمن..

ثم قال زاميتوف: «إنك لم تشرب الشاي، وقد كاد يبرد...».

- ماذا...؟ الشاي؟ نعم، نعم..

ورشف رسكولنكوف منه رشفة، ووضع في فمه قطعة من الخبز، ثم ألقى نظرة على زاميتوف وكأنه عاد إلى نفسه، وعادت إلى وجهه الابتسامة الساخرة، وأخذ يشرب الشاي..

قال زاميتوف: «لقد كثرت الجرائم في هذه الأيام، فقد قرأت منذ حين في صحف موسكو أنهم ألقوا القبض في تلك المدينة على عصابة من المزييفين يؤلفون جمعية منظمة تزيف أوراق النقد...».

فأجاب رسكولنكوف في هدوء: «هذه أنباء قديمة قرأتها من شهر...».

ثم قال مبتسمًا: «وأنت تعد هؤلاء من المجرمين...؟».

- بلا ريب.

- هؤلاء...؟ إنهم أطفال صغار، بل بلهاء، وليسوا مجرمين.. تصور خمسين يجتمعون لمثل هذا الغرض! أية فكرة! إن ثلاثة أكثر مما ينبغي لهذا الغرض، ويجب أن يكون كل منهم واثقًا في زميله أكثر من ثقته بنفسه.. يكفي أن يتحدث أحدهم تحت تأثير الخمر فإذا كل عملهم ينهار!

إنهم لبلهاء! لقد كانوا يتفقون مع أناس غير موثوق بهم لاستبدال الأوراق من المصارف، فكيف يعهدون بمثل هذا العمل إلى أجنبي غريب عنهم؟ فلنفرض أن هؤلاء البلهاء ينجحون ويربح كل منهم مليوناً، فماذا يكون شأنهم بقية حياتهم؟ يبقى كل منهم تحت رحمة الآخرين طوال حياته! لخير للإنسان أن يشنق نفسه.. ولم يكونوا يعرفون كيف يستبدلون أوراق العملة.. فإن الرجل الذي استبدلها أخذ خمسة آلاف روبل ويده ترتجف، وقد عد الأربعة الآلاف الأولى ولم يعد الألف الخامسة.. فقد كان على عجل كي يضع النقود في جيبه ويسرع بالفرار.. ولم يكن عجباً أنه أثار بذلك الشكوك.. وتحطم كل شيء بسبب غبي أبله! هل هذا ممكن؟

فقال زاميتوف: «أما ارتجاف يده فهو ممكن! نعم هذا ممكن! بل من المؤكد أنه ممكن! فكثيراً ما لا يطيق الإنسان بعض الأمور!».

- ألا تطيق مثل هذا؟

- أظطيقه أنت؟ أما أنا فلا! أمن أجل مائة روبل أقحم نفسي في مثل هذا المأزق الفظيع؟ كيف يدخل المرء بأوراق مزيفة إلى مصرف من صميم عمله الكشف عن الأوراق المزيفة؟.. إني لن أجد الجرأة على مثل هذا العمل.. أفتستطيعه أنت؟

وشعر رسكولنكوف مرة أخرى بدافع قوي إلى أن يخرج لسانه، وقد انتابته رعشة سرت في فقرات ظهره، وأخذ يقول:

- لو كنت في مكان هذا الرجل لسلكت مسلكاً آخر.. هذه هي الطريقة التي كنت أبدل بها الأوراق: كنت أعد الألف الأولى أربع مرات من أولها إلى آخرها، ثم أعيد عدها من حيث فرغت منها، وأفحص كل ورقة منها.

ثم أنتقل إلى الألف الثانية وأعدها إلى النصف، وأخرج منها ورقة من فئة الخمسين روبل، وأنظر إليها في الضوء وأقلبها، ثم أعود فأنظر إليها في الضوء مرة أخرى لأرى هل هي سليمة، وأقول: «أخشى أن تكون هذه الورقة مزيفة.. فإن قريباً لي أضاع خمسة وعشرين روبلاً منذ أيام بسبب ورقة مزيفة».. وأروي قصته بأكملها. وبعد أن أبتدىء في عد الألف الثالثة أقول: «معدرة، فإنه يخيل إليّ أنني أخطأت في الورقة السابعة من الألف الثانية».. فأترك الألف الثالثة وأعود إلى الألف الثانية، وهكذا حتى أنتهي منها. فإذا انتهيت أخذت ورقة من الربطة الخامسة وأخرى من الثانية لأفحصهما في الضوء، مع اصطناع الشك، وأقول للصراف: «أبدلهما لي».. وأكون قد ضايقته حتى لا يكون له هم إلا التخلص مني.. وبعد أن أفرغ من ذلك أسير نحو الباب وأفتحه، ولكنني أعود معتذراً وأطلب منه أيضاً لأمر من الأمور.. هذه هي الطريقة التي كنت أسلكها!

فقال زاميتوف ضاحكاً:

- إنك لتقول أموراً فظيعة، ولكنها لا تزيد على أقوال.. فإذا وصلت للأفعال فلا بد أنك ترتكب خطأ. إنني أعتقد أن الرجل - مهما كان متمرنًا وجريئًا - فإنه لن يثق بنفسه مثل هذه الثقة، فما بالك بنا أنا وأنت؟ ولنضرب لذلك مثلاً أقرب إلينا، تلك المرأة التي قتلت في جينّا.. فإن القاتل كان فيما يلوح رجلاً مستيئساً خاطر بكل شيء في وضح النهار ولم ينج إلا بمعجزة، على أن يديه ارتجفتا أيضاً ولم ينجح في سرقة المكان، أو هو لم يقو على ذلك، وهذا واضح من...

فظهرت على رسكولنكوف علائم الاستياء، وصاح وهو يهزأ من

زاميتوف: «واضح...؟ فلماذا إذن لا تقبض عليه؟».

- لا تخف! فسنلقي القبض عليه!

- من؟ أنت؟ أظن أنك تستطيع القبض عليه؟ إن ذلك لأمر صعب المنال! إن أهم وسيلة للاستدلال عندكم هي: هل الرجل ينفق نقودًا أو لا ينفق؟ فهذا شخص لا يملك شيئًا، ثم إذا هو يسرف في الإنفاق.. فهو إذن الرجل المنشود! إن طفلًا يستطيع أن يغرر بكم! فأجاب زاميتوف:

- إنهم دائمًا يفعلون ذلك حقًا! يقتلون في جراءة ويعرضون حياتهم للهلاك، ثم يذهبون إلى الحانة حيث ينم عليهم إسرافهم. فلا تحسبهم حذرين مثلك، فلست أظنك تذهب إلى الحانة..

فاهتزت أهداب رسكولنكوف وركز نظره في زاميتوف وسأل في غضب: «يلوح لي أن ذلك الحديث يسرك، وأنتك تود أن تعرف ما كنت أعمله في هذه الحالة أيضًا؟».

فأجاب زاميتوف في جد وقوة: «إني لأود ذلك...».

وكان في مظهره وكلماته من الجد أكثر مما ينبغي في حديث عابر..

فسأل الآخر: «أتود ذلك كثيرًا؟».

أجاب: «كثيرًا...».

فاقترب رسكولنكوف بوجهه من وجه زاميتوف وجعل يحدق فيه ويتكلم في صوت منخفض، حتى سرت في صاحبه رعشة وهو يستمع إليه فقال:

- لا بأس إذن، هكذا كنت أفعل! كنت آخذ النقود والحلي فإذا ما خرجت من الدار قصدت إلى وجهة أخرى، إلى مكان خال مسور لا تكاد ترى فيه أحداً، كأن يكون حديقة خضراوات أو ما ماثل ذلك، وأكون قد بحثت من قبل عن حجر زنته أربعون أو ستون رطلاً ملقى في أحد الأركان منذ بني المنزل فأرفعه، ومن المؤكد أن تكون تحته حفرة فأضع الحلي والنقود في تلك الحفرة، وأعيد الحجر إلى مكانه حتى يصير كما كان، ثم أضغطه بقدمي، وانصرف، فلا أمس تلك الأشياء مدة سنة أو سنتين أو ثلاث سنوات. وليبحث من شاء أن يبحث عنها فلن يجد لها أثراً..

فقال زاميتوف في لهجة جافة: «إنك لمجنون».

ولم يدر لماذا كان هو كذلك يتكلم همساً، وابتعد رسكولنكوف فنظر هذا إليه بعينين براقيتين، واشتد امتقاع وجهه وارتعشت شفته العليا ارتعاشاً شديداً، واقترب من زاميتوف منحنيًا وكانت شفته تتحركان دون أن يتكلم، وظل هكذا نحو نصف دقيقة.. وكان يدرك ما يفعله، ولكنه كان لا يستطيع أن يملك نفسه، وكانت الكلمة الفظيعة ترقص على شفثيه - كما كان قفل الباب يرقص في ذاك اليوم - وتوشك أن تنطلق بعد لحظة.. ما كانت سوى لحظة ثم يلفظها مصرحاً بالحقيقة!

ونطق فجأة - ثم ما لبث أن تنبه إلى ما فعله - قال: «وماذا يكون لو أنني قاتل المرأة العجوز وليزافتا؟».

فنظر إليه زاميتوف مرتاعاً وقد امتقع لونه حتى صار أبيض كغطاء المائدة، وكانت على وجهه ابتسامة متقلصة وقال في صوت خافت: «أيمكن هذا؟».

ونظر إليه رسكولنكوف في حلق وقال: «عليك أن تقر بأنك كنت تعتقد هذا.. نعم! أليس كذلك؟».

فأجاب زاميتوف في الحال: «لم يخامرني شيء من ذلك، وأنا في هذه اللحظة أبعد مما كنت عن ذلك الظن».

- لقد وقعت أيها الشاب الظريف.. إذن فقد خامرك هذا الظن ما دمت الآن أبعد عنه مما كنت..

فقال زاميتوف وقد بدا عليه الارتباك: «مطلقاً! أفكنت تخيفني لتصل بي إلى هذه الغاية؟».

- فأنت لا تعتقد ذلك؟ إذن فماذا قلت من وراء ظهري حين غادرت المكتب؟ ولماذا استجوبني الضابط المتفجر بعد أن أغمى عليّ؟

ثم أمسك رسكولنكوف بقبعته وصاح منادياً الخادم: «كم الحساب؟».

فأجاب الرجل: «ثلاثون كوبك يا سيدي».

- هاك عشرين كوبك ثمن الفودكا... ما أكثر النقود التي معي!

قال ذلك وهو يلوح بأوراق ونقود في وجه زاميتوف، وكانت يده ترتجف.. ثم مضى قائلاً: «ها هي ذي خمسة وعشرون روبل، بعضها أحمر اللون والبعض أزرق، فمن أين لي هذا كله؟ ومن أين جئت بهذه الثياب الجديدة؟ وإنك لتعلم أنني لم يكن معي درهم واحد.. ما من شك في أنك استجوبت صاحبة المنزل عني؟ ومع ذلك فحسبي هذا! لقد تكلمنا بما فيه الكفاية، وإلى الملتقى!».

وانصرف رسكولنكوف وهو يرتجف من أثر انفعال عصبي شديد،

فيه شيء يشبه نشوة عارمة. ومع ذلك فقد كان حزينًا مرهقًا، وكان وجهه متقلصًا كأنما هو في أعقاب نوبة عصبية، وكان تعبه يزداد في سرعة إذ كانت كل صدمة أن انفعال عصبي يثير نشاطه ويضاعفه حينًا، ثم لا تلبث قواه أن تخور إذا ما زال الدافع المثير..

أما زاميتوف فقد ظل جالسًا في مكانه مدة طويلة وهو غارق في التفكير، فقد أحدث رسكولنكوف بغير قصد ثورة في ذهنه بدلت آراءه في مسألة معينة، فاستقر فيها على قرار قاطع ثم قال في نفسه: «ألا ما أشد غباوة إيليا بتروفتش!».

وما كاد رسكولنكوف يفتح باب المطعم المفضي إلى الشارع حتى وجد نفسه أمام رازوميهين وهو يصعد السلم، ولم يرَ كل منهما الآخر فكادا يصطدمان.. ثم وقفا متقابلين لحظة يتأمل كل منهما صاحبه، وقد بدت على وجه رازوميهين علامات الدهشة الشديدة، ثم استولى عليه الغضب.. وكان غضبًا حقيقيًا يلمع نائرًا في عينيه، وصاح بأعلى صوته:

- أنت إذن هنا؟.. وقد فررت من فراشك وتركتني أبحث عنك تحت المقعد وأصعد إلى سطح الدار، وكدت أضرب نستاسيا من أجلك وأنت هنا! فما معنى هذا يا روديا؟ قل لي كل الحقيقة! اعترف! أسمع أنت؟

فأجاب رسكولنكوف في هدوء: «معناه أنني سئمتكم جميعًا حتى كدت أموت من الضيق، وأريد أن أكون وحيدًا».

- وحيدًا؟.. وأنت لا تقوى على الحركة، وهذا وجهك ممتقع كالثوب الأبيض، وتقلقف أنفاسك؟ أيها الغبي! ماذا جاء بك إلى القصر البللوري؟ خبرني سريعًا..

- دعني وشأني!

قال رسكولنكوف هذا وحاول أن ينسل منه، فلم يستطع رازوميهين صبراً وأمسكه بقوة من كتفيه وقال:

- أدعك وشأنك؟ أتجرؤ أن تقول لي دعني وشأني؟.. هل أخبرك؟..
أتدري ما أنا صانع بك الساعة؟ سأحملك وأحزمك وأجعلك تحت ذراعي
كالربطة، وأعود بك إلى مسكنك فأغلقه عليك!
فقال رسكولنكوف في تودة كأنه هادئ:

- أصغ إليّ يا رازوميهين! ألا ترى أنني لا أريد أن تحسن إليّ؟ وأية
لذة تجد في إغداق الخيرات على رجل يلعنها ويشعر بأنها في الحق عبء
عليه؟ لماذا بحثت عني وجئت إليّ في مبدأ مرضي؟.. فلعلي كنت أشتهي
أن أموت.. ألم أقل لك اليوم صراحة إنك تعذبني وتضايقني؟ فهل تجد لذة
في تعذيب الناس؟ ثق أن كل هذا مما يعوق شفائي لأنه لا ينفعك يزعجني!
لقد رأيت كيف تركني زوسيموف منذ قليل كيلا يضايقني، فأناشدك الله
أن تتركني أيضاً.. أي حق لك عليّ حتى تحجر عليّ قسراً؟ ألا ترى أنني
الآن أملك قواي الذهنية؟ فكيف أحملك على ألا تضطهدني بشفتك؟ قد
أكون جاحداً أو وضيعاً، فدعني وشأني! دعني بالله كما أنا.. دعنا كما أنا..
كما أنا!

وكان قد ابتدأ هذا الكلام هادئاً يستمتع بما في عباراته من سموم قبل
أن ينطق بها، ولكنه عندما فرغ من كلامه كان في سورة يلهث كما فعل من
قبل عندما كان يخاطب لوجين..

فوقف رازوميهين يفكر لحظة، ثم رفع يده عن كتفيه وقال في رقة وهو غائب في فكره: «فلتذهب إذن إلى الجحيم!».

ولكنه ما كاد يرى رسكولنكوف يتحرك حتى صاح به:

- قف! أصغ إليّ.. دعني أقول لكم جميعاً إنكم طغمة من الأغبياء المتظاهرين الثرثارين.. فإذا حل بكم هم بسيط رقدتم عليه كما ترقد الدجاجة على بيضها، وأنتم - حتى في هذا - مقلدون، فلا أثر فيكم للحياة المستقلة! إنما أنتم دمي رخوة تجري في عروقكم مياه الشقاء لا الدماء! إني لا أثق بأحد منكم، فإن هم أحدكم أن يبعد عن شبه الإنسان!

ورأى رسكولنكوف يهتم بالتحرك فاشتد به الغضب وصاح به:

- أقول لك قف واستمع آخر قولِي! إنك تعلم أن لديّ جماعة من الأصحاب دعوتهم إلى منزلي الجديد اليوم، ولعلهم هناك في هذه الساعة، وقد تركت عمي هناك. ولولا أنك غبي... فإذا لم تكن أحقق غيباً... إذا لم تكن من عامة الحمقى... أحقق أصيلاً... أقول إذا كنت حقاً أصيلاً غير دعي مقلد - وإني لأقر لك بالذكاء يا روديا، وإن كنت أحقق - فإذا لم تكن أحقق فلا تتخلف عن الحضور إليّ في هذا المساء، بدلاً من أن تبلى حذاءك بالسير في الشوارع.. فلتأت ما دمت قد خرجت من مسكنك وساعدك مقعداً مريحاً أجيء به من صاحبة البيت.. وستشرب فنجاناً من الشاي وتجعد صعبة... وسيكون زوسيموف هناك! فهلا جئت؟

- لا!

فصاح رازوميهين وقد عيل صبره:

- أرى أنك لا تدري ما تقول ولا تعرف شيئاً! لقد عرفت نفسي، فطالما خاصمت الناس ثم عدت إليهم فيما بعد سريعاً! فالإنسان لا يلبث أن يعود إلى نفسه فيندم على خصامه ويعاود من خصمهم. فلتذكر منزل بوتشينكوف في الطابق الثالث..

قال رسكولنكوف: «أعتقد أيها السيد رازوميهين أنك قد تبيح لمن شاء أن يضربك مدفوعاً إلى ذلك بحب الخير خالصاً».

- يضربني أنا؟ لأجدعن أنف كل من تحدثه نفسه بمثل هذا! تذكر منزل بوتشينكوف رقم ٤٧، الشقة التي يستأجرها بابوشكين..

فقال رسكولنكوف: «لن أحضر يا رازوميهين». ثم استدار وسار في طريقه.

وصاح رازوميهين وراءه: «أراهن على أنك ستحضر! وسأرفض معرفتك إذا لم تفعل! قف.. هل زاميتوف هنا؟».

- نعم!

- هل رأيته؟

- نعم!

- وحادثته؟

- نعم!

- في أي موضوع؟ خيبة الله عليك! لم لا تخبرني إذن؟ تذكر منزل بوتشينكوف رقم ٤٧، شقة بابوشكين!

وسار رسكولنكوف نحو شارع سادوفي ثم اختفى فيه، وظل رازوميهين واقفاً لحظة يفكر ويتبعه بنظره، ثم أشار بيده إشارة، وهم بالدخول إلى المطعم. ولكنه وقف في منتصف السلم وقال في صوت يكاد يكون مسموعاً: «يا للعة! لقد تكلم بتعقل.. ولكن... أي غبي أنا! أما ينطق المجانين بالقول السيد؟ إن هذا ما يخشاه زوسيموف..».

وضرب جبهته بأصبعه واستمر قائلاً؟ «وإذا كان يريد... ولكن كيف أتركه يسير وحيداً وهو في حالته تلك؟ قد ينتحر غرقاً... أي خطأ ارتكبته!... لا أستطيع...».

ونزل مسرعاً لكي يدرك رسكولنكوف فلم يجد له أثراً، فعاد إلى مطعم القصر البللوري وهو يبرطم غضباً ليسأل زاميتوف.

واتجه رسكولنكوف إلى جسر «ن...»، ثم وقف في منتصفه وأسند مرفقيه إلى سور الجسر، وحدق النظر في الفضاء. وقد شعر منذ فارق رازوميهين بضعف شديد، حتى كاد لا يستطيع الوصول إلى هذا المكان. وود لو استطاع الجلوس أو الرقاد في أي مكان في الشارع. وانحنى على الماء يشاهد انعكاس الضوء الوردي للشمس الغاربة على المنازل التي أخذ يخيم عليها الظلام شيئاً فشيئاً. وعلى مسافة بعيدة بدأ ضوء آخر أشعة للشمس، منعكساً على لوح نافذة، على الشاطئ الأيسر في أعلى منزل، كأنه وهج النار. وانبسط أمامه مياه القناة المعتمة، وإذا الماء يسترعى انتباهه. ثم أخذت دوائر حمراء تدور أمام عينيه، فإذا الدور والمارة وأرصفت الشاطئ والعربات تدور وترقص من حوله... ولكنه شعر فجأة بهزة عنيفة بسبب حادث فظيع رهيب لعله أنقذه من الإغماء. فقد شعر بأن شخصاً

وقف إلى يمينه، رفع عينيه، فرأى امرأة طويلة القامة على رأسها منديل، مستطيلة الوجه شاحبة اللون محمرة العينين غائرتهما، فنظرت إلى وجهه ولكنها لم تميزه إذ كانت لا ترى شيئاً ولا تميز أحداً، وفجأة أسندت يدها اليمنى إلى السور ورفعت رجلها اليمنى ثم اليسرى، وألقت بنفسها إلى القناة.. فانفرج الماء القذر وابتلع فريسته في لحظة، ثم طفت المرأة الغارقة على سطح الماء يحملها التيار في ببطء، ورأسها وقدمها في الماء، بينما انتفخت ثيابها فوقها..

وصاحت عشرات من الأصوات: امرأة تغرق... امرأة تغرق!
فجرى الناس واحتشدوا على الشاطئين، ووقف جمع كبير من المشاهدين فوق الجسر حول رسكولنكوف ومن خلفه..
وصرخت امرأة قريبة منه باكياً: «رباه! إنها أفروسينيا! أنقذوها.. أيها الشجعان.. أخرجوها!».

وصاحت أصوات من الجمع: «هل من قارب؟ هل من قارب؟».
لكن لم تكن هنالك حاجة إلى قارب، إذ جرى شرطي ونزل الدرجات النازلة إلى القناة، وخلع معطفه الثقيل وحذاه، ورمى بنفسه إلى الماء. وكان من السهل الوصول إليها، إذ كانت طافية على بعد خطوات من الدرجات. فأمسك ثيابها بيده اليمنى، وأمسك باليسرى عصا طويلة مدها إليه زميل. وجذبت المرأة بعد قليل، ثم أرقدت على الرصيف الصخري الذي يحف بالشط. فلم تلبث أن استفاقت ورفعت رأسها، ثم جلست وهي تعطس وتسعل وتمسح أثوابها المبللة بيديها في بلادة دون أن تقول شيئاً..
وقالت المرأة الباكية: «لقد شربت الخمر حتى فقدت الوعي! فقدت

الوعي! وقد حاولت من قبل أن تشنق نفسها فقطعنا الجبل، وقد تركتها منذ قليل في حراسة ابنتي الصغيرة وخرجت مسرعة لأشتري شيئاً، فإذا هي تلقي بنفسها إلى المهالك.. وهي جارة لنا يا سيدي تقطن قريباً منا في الدار الثانية هناك...».

وأخذ الجمع يتفرق، وكان رجلاً الشرطة مشغولين بالمرأة. وذكر أحد الناس وجوب إخطار مركز الشرطة... وكان رسكولنكوف يرقب كل هذا وقد استولى عليه شعور غريب من الفتور والجمود. ثم أحس ضيقاً شديداً وأخذ يتمتم لنفسه: «الماء؟ لا... فإن هذا كرهه! ولا خير فيه ولا فائدة من الانتظار! لقد ذكر أحدهم مكتب الشرطة.. ولم لا يكون زاميتوف هناك؟ إنه مفتوح إلى نحو الساعة العاشرة!».

وأدار ظهره لحاجز الجسر، والتفت حوله، وقال في حزم: «فليكن إذن!».

وغادر الجسر متجهاً نحو مكتب الشرطة وهو يحس في قلبه فراغاً ووحشة، لا يريد تفكيراً ولا يبالي شيئاً، بل إنه لم يعد يحس انقباضاً. ولم يبق به أثر من ذلك النشاط الذي حركه عندما خرج من المنزل لينتهي من كل شيء.. بل حل محله فتور وجمود شامل.

وقال في نفسه وهو يسير على مهل فوق ضفة القناة: «لا جرم أن في هذا مُخلَصاً مما أنا فيه، ومهما يكن من الأمر فإنني سوف أنتهي لأنني أريد... ولكن أهو حل للموقف حقاً؟ وماذا يهم؟ سيكون لي متر مربع من الأرض! ويا لها من نهاية! أهذه هي النهاية حقاً؟ أحقاً أعترف لهم؟ ألا ما أشد تعبي! أما من مكان أجلس فيه أو أرقد؟ إن ما يخجلني في هذا الأمر

هو سخافته، ولكن فيم اهتمامي بهذا أيضًا؟ ما هذه الأفكار السخيفة التي تتوارد على رأسي؟».

وكان الطريق إلى مكتب الشرطة يمتد به حتى يبلغ المنعطف الثاني إلى شماله، فيصير على بعد خطوات منه. ولكنه عندما بلغ المنعطف الأول وقف يفكر لحظة، ثم انثنى إلى شارع جانبي، وقطع شارعين في غير طريقه، ولا ندري أكان ذلك عن غير قصد أم أراد بذلك أن يتمهل هنيهة فيجد فسحة من الوقت.

وسار مطرقًا إلى الأرض حينًا، ثم خيل إليه أن أحدًا يهمس في أذنه، فرفع رأسه فرأى أنه واقف أمام باب المنزل المعهود، ولم يكن قد مرّ به أو اقترب منه منذ ذاك المساء. فإذا فكرة عابرة لا يعرف كنهها تدفعه وتسيره. فدخل المنزل مارًا من الباب الكبير ثم اتجه نحو المدخل إلى يمينه، وصعد السلم الذي كان يعرفه حق المعرفة، وقصد نحو الطبقة الرابعة، وكان السلم الضيق ذو الدرج المرتفع مظلمًا، وكان يقف عند المتسع في نهاية الدرج عند كل طبقة، ويطل حوله متطلعًا..

ففي الطبقة الأولى رأى إطار النافذة قد خلع فقال في نفسه: «لم يكن الأمر كذلك عندئذ!». ورأى شقة الطابق الثاني التي كان يعمل فيها نيكولاي وديمتري فقال: «إنها مقفلة والباب حديث الطلاء فهي إذن معروضة للإيجار!». ثم صعد إلى الطابق الثالث فالرابع وقال لنفسه: «هنا!». وقد أخذته الحيرة إذ وجد باب الشقة مفتوحًا على سعته وفيها رجال يسمع أصواتهم على غير توقع، وبعد تردد قصير قطع الدرجات الأخيرة، ودخل إلى الشقة فإذا بها عمال يرمونها. وكأنه عجب لذلك،

ولعله كان يحسب أنه يجد كل شيء كما تركه، بل لعله كان يحسب أنه يجد الجشتين في مكانهما على الأرض. ولكنه لم يجد سوى حوائط عارية ومسكنًا بلا أثاث. فبدا له هذا الأمر غريبًا، وسار إلى النافذة وجلس على حافتها.

وكان يشغل بالشقة عاملان شابان، أحدهما أصغر من الآخر بكثير. وهما يكسوان الحوائط بورق أبيض جديد عليه رسوم زهرة الليلق، بدلًا من الورق الأصفر القديم القذر. ولأمر ما شعر رسكولنكوف بضيق شديد لهذا ونظر إلى الورق الجديد في مقت، كأنه آسف على ذلك التغيير. وكان من البين أن العاملين تأخرا عن موعد انصرافهما فأخذا يلفان الورق في عجلة، ويستعدان للرواح، ولم يلتفتا إلى دخول رسكولنكوف إذ كانا يتحادثان. فشبك رسكولنكوف ذراعيه وجعل يستمع إلى حديثهما.

قال الأكبر من العاملين للأصغر: «لقد جاءت إليّ في الصباح الباكر وهي متأنقة فقلت لها: «ما الذي دعاك إلى التجميل والدوران حولي؟» فقالت: «إنني أريد ياتيت فاسليتش أن أسرك بما استطعت...» وكانت مزدانة حقًا كأنها كتاب للأزياء...».

قال الأصغر: «وما هو كتاب الأزياء؟»، ويظهر أنه كان يعتبر الأكبر من العلماء الراسخين..

قال الآخر: «كتاب الأزياء مؤلف من صور ملونة يأتي كل يوم سبت بالبريد من الخارج إلى الحائكين هنا، ليعرفوا كيف يصنعون ملابس الناس من رجال ونساء. فللرجال عادة معاطف من الفرو، أما النساء فلهن ثياب لا يمكنك تصورها...».

فصاح الصغير في حماسة: «حقًا لا تخلو مدينة بطرسبرج من كل شيء نطلبه، إلا الأم والأب!». .

فقال العامل الكبير في صوت قاطع: «نعم، إنك لتجد فيها كل شيء عداهما!». .

وقام رسكولنكوف ذاهبًا إلى الغرفة الأخرى التي كان فيها الفراش والصندوق ذو الأدراج. فظهرت له الغرفة صغيرة جدًا بغير الأثاث. وكان ورق الحائط ما يزال على حاله، وأثر الصندوق الذي به الأيقونات واضحًا على الورق في ركن الغرفة. وبعد أن ألقى عليها نظرة عاد إلى النافذة، وعندئذ نظر إليه العامل الكبير بجانب عينه وسأله فجأة: «ماذا تريد؟». .

ولكن رسكولنكوف لم يجبه وسار في الممر المفضي إلى الباب الخارجي، وأخذ يدق الجرس. فإذا هو الجرس نفسه بصوته الأجنس. فدقه ثلاث مرات وبقي يستمع ويفكر. وبدأ يستولى عليه ذلك الشعور الفظيع المؤلم الذي كان يشعر به عندئذ، فارتجف عند كل دقة، وكان يجد في هذه الرعدة شعور لذة متزايدة.. .

وخرج إليه العامل وصاح به قائلاً: «ماذا تريد؟ من أنت؟». .

فعاد رسكولنكوف إلى الداخل ثانية.. .

- أريد استئجار شقة.. وقد جئت لمعاينة هذه الشقة!

- إن الناس لا يعاينون المساكن بالليل.. ويجب أن تأتي في صحبة البواب.

وتابع رسكولنكوف السؤال: «لقد غسلت أرض الشقة فهل عزمتم

على طلائها؟ وهل زال الدم عنها؟».

- أي دم؟

- إن المرأة العجوز وأختها قتلتا هنا، وتكونت بركة من دمائهما هناك!

فصاح العامل قلقًا: «ولكن من أنت؟».

- من أنا؟..

- نعم.. من أنت؟

- هل تريد أن تعلم؟ تعال معي إلى مكتب الشرطة فتعلم..

ونظر العاملان إليه وقد عرتهما الدهشة..

وقال العامل الكبير: «حان الوقت لانصرافنا، بل لقد تأخرنا! هيا بنا يا إليوشكا، يجب أن نقفل الباب».

وقال رسكولنكوف في غير اكتراث: «هيا بنا!.. وسار أمامهما ثم نزل السلم. ولما وصل إلى مدخل البناء صاح مناديًا:

- أيها البواب!

وكان بعض الناس واقفين على مقربة من المدخل يقبلون أبصارهم في المارة، ومنهم البوابان وامرأة ريفية ورجل يرتدي سترة طويلة وآخرون، فقصد إليهم رسكولنكوف، فسأله أحد البوابين: «ماذا تريد؟».

- أذهبت إلى مكتب الشرطة؟

- كنت هناك منذ قليل، فماذا تريد؟

- أهو مفتوح؟

- بالطبع!

- وهل المساعد هناك؟

- كان هناك حينًا. فماذا تريد؟

فلم يجب رسكولنكوف، بل وقف إلى جانبهم وهو غارق في أفكاره، فتقدم العامل الكبير وقال: «إنه جاء لرؤية الشقة...».

- أية شقة؟

- الشقة التي نعمل فيها. وسألنا لماذا غسلتم الدم.. ثم قال إن حادث قتل وقع هنا وأنه جاء ليستأجر المكان.. وأخذ يدق الجرس حتى كاد يتلفه. وطلب منا أن نصحبه إلى مكتب الشرطة لكي نعلم كل شيء.. وبقي معنا لا يريد انصرافاً.

فنظر إليه البواب وهو مقطب الجبين وفي حيرة من أمره وصاح به: «من أنت؟».. وأودع في صيخته ما استطاع من قوة وتأثير..

فأجاب فاتراً في صوت الحالم دون أن يلتفت إلى السائل وهو يحدق في الشارع المظلم وقال:

- أنا روديون رومانوفتش رسكولنكوف، طالب سابقاً وأقيم بمنزل شيل على مقربة من هنا شقة رقم ١٤، وسل عني البواب فهو يعرفني.

- لماذا جئت إلى الشقة؟

- لأراها!

- ماذا ترى فيها؟

فتدخل الرجل ذو السترة الطويلة فجأة قائلاً: «خذه إلى مكتب

الشرطة...».

فصوب إليه رسكولنكوف نظرة من فوق كتفه وقال في غير اكتراث:
«هيا بنا!».

قال الرجل وقد ازداد ثقة: «نعم، يجب الذهاب به. لماذا يتحدث عن
تلك المسألة؟ وماذا يجثم في عقله؟».

فتمتم العامل: «إنه لا تبدو عليه آثار الخمر، ولكن الله يعلم ما أمره!».
فعاد البواب إلى الصباح وقد أخذ يغضب حقاً: «ولكن ماذا تريد؟
لماذا جئت تضايقنا؟».

فقال رسكولنكوف في سخرية: «إنك تخشى الذهاب إلى مكتب
الشرطة!».

– لماذا أخشاه؟ إنك تضايقنا!

فصرخت المرأة الريفية: «هذا رجل شرير!».

وصاح البواب الآخر، وهو فلاح ضخم يلبس قميصاً مفتوحاً مشدوداً
بحزام علقت فيه جملة مفاتيح: «لماذا تضيع الوقت في التحدث إليه؟ هيا!
إنه بلا ريب من الأشرار! هيا!».

وأمسك برسكولنكوف من كتفه وقذف به إلى الشارع، فكاد يسقط
لولا أنه استرد توازنه، ونظر إلى المشاهدين في صمت، ثم انصرف..

وقال العامل: «إنه رجل غريب الأطوار!».

قالت المرأة: «لقد كثر الغريبو الأطوار في هذه الأيام!».

وقال الرجل ذو السترة الطويلة: «على كل حال كان يجب الذهاب به

إلى مكتب الشرطة».

فقال البواب الضخم: «من الخير الابتعاد عنه! إنه شرير! وهذا ما يتمناه. ولئن أخذته إلى هناك مرة فلن نفرغ من أمره... لقد عرفنا الكثير من أمثاله!».

وقال رسكولنكوف في نفسه: «لست أدري أأذهب هناك أو لا أذهب؟».. وكان واقفًا في وسط الساحة عند مفترق الطرق وهو ينظر حوله، كأنه ينتظر من أحد الناس كلمة تهديه إلى رأي حاسم. ولكنه لم يسمع صوتًا، بل كان كل شيء صامتًا ميتًا كالحجارة التي يمشي عليها.. ميتًا بالنسبة إليه، وإليه وحده!.. ثم رأى فجأة في غبش الظلمة الهابط على الغسق جمعًا من الناس على نحو مائتي ذراع منه، وأصوات حديث وصراخ، ثم رأى بين الجمع عربة... ثم سطع نور في وسط الطريق، فماذا هنالك؟ واتجه إلى اليمين قاصدًا هذا الجمع، كأنه يتعلق بكل ما يعترض سبيله. وابتسم في برود عندما عرف ذلك في نفسه، لأنه كان قد عقد العزم على الذهاب إلى مكتب الشرطة يريد أن ينفض ما عنده ويفرغ منه..

(٧)

كانت مركبة أنيقة واقفة في منتصف الشارع شد إليها جوادان شيطان
لونهما رمادي ولكنها خالية، وقد نزل الحوذي من مقعده ووقف إلى جانب
المركبة وهو يمسك الخيل بلجمها. واحتشد جمع كبير من الناس حولها،
ووقف أمامها رجال الشرطة، وكان في يد أحدهم مصباح يلقي ضوءه على
شيء قريب من العجلات. وكان كل من في الجمع يتحدث أو يصيح أو
يتعجب، والحوذي حائر يكرر القول: «ما أنكده من حظ! رباه! ما أنكده
من حظ!».

واخترق رسكولنكوف هذا الجمع بقدر طاقته، حتى استطاع أن يرى
سبب هذا الاضطراب والاهتمام. فرأى رجلاً على الأرض داسته المركبة،
وهو صريع كأنه فاقد الحس. وكان مخضباً بالدماء في ثياب رثة، ولكنه
لم يكن عاملاً.. وكانت الدماء تتدفق من رأسه ووجهه، وقد تحطم وجهه
وتشوه وخفيت معالمه، فلم يكن من شك في أن إصابته كانت بليغة..

وكان الحوذي يولول قائلاً: «رباه، رحماك ربي! ماذا كنت أستطيع أن أفعل أكثر مما فعلت؟ فلو أنني كنت أسوق في سرعة، أو لو أنني لم أصح به.. ولكنني كنت أسير في هدوء غير متعجل.. يشهد كل الناس أنني كنت أسير كما يسير غيري. ولكن ما الحيلة والسكران لا يكون في سيره مستقيماً كما هو معلوم؟ وقد رأيته يترنح ويكاد يسقط فصحت به مرة ثانية وثالثة، ثم أوقفت الخيل.. ولكنه وقع تحت أقدامها نصّاً، فهو إما فعل ذلك عامداً، أو كان لا يعي من الشراب... ولما كان الجوادان صغيرين يفزعان سريعاً فقد جفلا، وصدرت منه صرخة زادت هما فزعاً.. وهذا ما حدث!».

فصاح واحد أو اثنان من الجمع: «لقد صدق، وهذا ما كان حقاً!».

وأعلن صوت آخر: «حقاً.. لقد صاح به ثلاث مرات!».

وصاح ثالث: «لقد سمعناه جميعاً يصيح ثلاث مرات».

ولم يكن الحوذي شديد الارتباك أو الخوف، ومن البين أن المركبة كانت لأحد الأغنياء أرباب المكاينة. وكان أغلب الظن أنه كان ينتظرها في مكان ما، ولذلك كان رجال الشرطة يتعجلون كي لا يفسدوا عليه شأنه، وكان كل ما عليهم أن ينقلوا المصاب إلى مكتب الشرطة ثم إلى المستشفى، ولكن لم يكن أحد يعرف اسمه..

وفي هذه الأثناء تمكن رسكولنكوف من اختراق الجموع حتى اقترب منه فانحنى عليه، وكان المصباح يضيء وجه الرجل التعس فعرفه، وصاح وقد اندفع إلى الأمام قائلاً: «إني أعرفه.. إني أعرفه؟ فهو مرملادوف الموظف بالحكومة، وهو يقيم على مقربة من هذه الجهة في ملك كوزيرل. أحضروا الطبيب حالاً وإني متعهد بالدفع!».

وأخرج من جيبه نقودًا وأراها للشرطي، وكان في اضطراب شديد.. وفرح رجال الشرطة إذ وجدوا من يعرف الرجل، وأعطاهم رسكولنكوف اسم نفسه وعنوانه، ورجاهم أن ينقلوا مرملادوف الصريع إلى داره وهو متلهف كأن ذلك الرجل أبوه.. وكان يقول: «إن داره قريبة من هنا، بعد ثلاثة منازل.. وهي في مبنى يملكه كويزل الثري الألماني، ولا بد أنه كان ذاهبًا إلى داره بعد أن سكر. وإني أعرفه حق المعرفة، فهو رجل سكير، وله زوجة وأطفال وفتاة. وحمله إلى المستشفى يستغرق وقتًا، فاحملوه إلى منزله. ولا شك في أننا نجد في ذلك المبنى طبيبًا، وسأقوم بدفع النفقات.. سأقوم بدفعها... وسيكون في داره على الأقل من يعنى به ويبادر إلى إسعافه، أما إذا أخذتموه إلى المستشفى فإنه يموت قبل أن يصل إليها».

وعمد إلى وضع شيء خلسة في يد الشرطي، ولكن الأمر كان واضحًا مستقيمًا ووجه الحق فيه ظاهر، فلا ريب في أن المعونة في داره تكون أقرب. وحمل المصاب وتطوع بعض الناس للمساعدة في ذلك.

وكان منزل كويزل على نحو ثلاثين خطوة، وسار رسكولنكوف من الخلف وهو يحمل رأس مرملادوف ويشير إلى الطريق.

وكان يتمتم: «من هنا! من هنا! يجب أن نصعد به السلم ورأسه إلى الأمام.. استديروا.. سأقوم بدفع النفقات وأكافئكم!».

وكانت كاترينا إيفانوفنا كعادتها حين تجد فترة بلا عمل، تمشي ذهابًا وجيئة في غرفتها الصغيرة بين الموقد والنافذة، وذراعاها مشبكتان فوق صدرها، وهي تخاطب نفسها وتسعل. وقد بدأت منذ حين تتجه بأحاديثها

إلى أكبر بناتها بولنكا التي تبلغ من العمر عشر سنوات. وكانت الابنة لا تفهم كثيرًا مما يقال لها. ولكنها عرفت حق المعرفة أن أمها في حاجة إليها. وكانت تنظر إلى أمها بعينين واسعتين يبرق منهما الذكاء، وتبذل كل جهد لكي تظهر بمظهر من يفهم.

وكانت بولنكا في تلك اللحظة تخلع ثياب أخيها الصغير لتعده للنوم، فقد كان طول نهاره مريضًا وكان الغلام ينتظر منها أن تخلع عنه قميصه كيما يُغسل في الليل. وقد جلس ساكنًا على كرسي وعليه سمة الجذ، يمد ساقيه إلى الأمام، ويضم كعبيه ويفرق أصابع قدميه. وكان يستمع إلى خطاب أمه إلى أخته، وشفته مطبقتان وهو يبرق عينيه ساكنًا في مكانه، كما ينبغي للأطفال المهذبين حين تخلع ثيابهم استعدادًا للنوم. أما الأخت الصغرى فكانت واقفة إلى جانب الحاجز انتظارًا لدورها. وكان الباب المؤدي إلى السلم مفتوحًا ليحمي الأسرة ولو قليلًا من سحب دخان التبغ التي تنفذ إليها من الغرفة المجاورة، فتدفع المرأة المسكينة المسلوطة إلى السعال الطويل الشديد. وبدا كأن كاترينا إيفانوفنا زادت نحوًا في ذلك الأسبوع، وازداد احمرار البقعة على خدها..

وكانت تقول وهي تذرع أرض الغرفة:

- لا يمكن أن تدري أي أو تتصورى يا بولنكا كيف كانت حياتنا المرحية البراقة في ظل أبي، ولا كيف جنى هذا الرجل السكير عليّ وسبب لي الشقاء، وسيجركم معه إلى الشقاء جميعًا.. كان والدي في مرتبة قائد مدني، ولم يكن بينه وبين حاكم الإقليم غير درجة واحدة. وقد اعتاد جميع الناس أن يقولوا له: «إننا ننظر إليك يا إيفان ميكاليتش على أنك حاكمنا».

وحينما كنت... وحينما كنت... (وقطع السعال حديثها) آه! أية حياة لعينة! (صاحت بهذا وقد بصقت وضغطت على صدرها) حينما كنت في الحفلة الراقصة الأخيرة التي أقامها القائد الكبير رأطني الأمير بزيملني، وهي التي باركتني عندما تزوجت من أبيك يا بولنكا، فسألت عندما وقعت عينها عليّ: «أليست هي الفتاة الظريفة التي رقصت بالशल في يوم توزيع الجوائز؟». (يجب أن ترتقي هذا الفتق! خذي إبرة وارتيه كما علمتك، أو فافعلي ذلك في الغد.. أخ! أخ! أخ! غداً.. أخ... لتلا يصير أوسع مما هو الآن).. وكان الأمير تشيجولسكي من رجال البلاط وقد جاء من بطرسبرج، فرقص معي رقصة المازوركا. وأراد أن يأتي في اليوم التالي ليعرض عليّ الزواج فشكرته بعبارات رقيقة، وأخبرته أنني وهبت قلبي لسواه منذ زمن مديد. وكان الشخص الذي أحببته هو والدك يا بوليا. وقد غضب أبي لذلك غضباً شديداً... هل أعددت الماء؟ أعطيني القميص والجورب يا ليدا!

ثم التفتت إلى الطفلة الصغيرة قائلة:

- ليدا! يجب أن تنامي أنت أيضاً هذه الليلة بلا قميص، جربي ذلك وأعطيني جوربك أيضاً لأغسله في الوقت ذاته... أين ذلك الشرير السكير؟ فقد جعل قميصه قذراً كالممسحة ومزقه خرقاً... إنني أريد أن أغسل الثياب كلها مرة واحدة؛ حتى لا أواصل العمل ليلتين متواليتين.. رباه!.. أخ! أخ! أخ! أخ.. هذا السعال أيضاً! ما هذا؟

هكذا صاحت حين رأت جمعاً من الناس على العتبة ورجالاً يدخلون غرفتها وهم يحملون شيئاً: «ما هذا؟ رحماك يا ربي!».

وحمل مرملادوف إلى الغرفة غائباً عن وعيه غارقاً في دمائه.. وسأل

رجل الشرطة وهو ينظر حوله: «أين نضعه؟».

وقال رسكولنكوف مشيراً إليه: «على المقعد الكبير هناك! مددوه على المقعد الكبير! ضعوا رأسه هكذا!».

وصاح شخص من الواقفين على السلم: «داسته مركبة في الشارع وهو سكران!».

أما كاترينا إيفانوفنا فظلت واقفة شاحبة اللون تلتف أنفاسها، وقد ذعر الأطفال، وصرخت ليدا الصغيرة وجرت پولنكا فتعلقت بها وهي ترتجف. وبعد أن أضجع مرملا دوف على المقعد اتجه رسكولنكوف نحو كاترينا إيفانوفنا، وأخذ يتحدث إليها في سرعة قائلاً: «أستحلفك بالله أن تهدئي من روعك ولا تنزعجي! إنه كان يعبر الشارع فصدته مركبة.. فلا تنزعجي، وسيشفى! وقد أمرت بإحضاره هنا! وأنت تعرفيني! أما تتذكرين أنني حضرت هنا مرة؟ سيبراً وسأقوم بدفع النفقات!».

فصاحت كاترينا إيفانوفنا في يأس وقد هجمت على زوجها: لقد فعلها هذه المرة..».

ولم يلبث رسكولنكوف أن لاحظ أن هذه المرأة ليست من اللواتي يسارع إليهن الإغماء، فإنها بادرت إلى وسادة فوضعتها تحت رأس الرجل التعس وهو أمر لم يفكر فيه غيرها.. ثم أخذت تخلع ثيابه وتفحصه وقد احتفظت بقواها العقلية ناسية نفسها، تعض على شفتيها المرتعشتين وتكتم الصيحات التي كادت تنبعث من صدرها.

وفي هذه الأثناء حمل رسكولنكوف أحد الناس على الذهاب لإحضار طبيب يقيم بمنزل مجاور، وظل يطمئن كاترينا إيفانوفنا قائلاً: «لقد أرسلت

أحد الناس لإحضار الطبيب فلا تقلقي وسأدفع أجره، أليس عندك ماء؟ عليّ بمنشفة وجه أو مائدة أو أي شيء في أسرع وقت! صدقيني إنه أصيب ولكنه لم يقتل... وسنرى ما يقول الطبيب!».

فأسرعت كاترينا إيفانوفنا نحو النافذة، وهناك في ركن الغرفة على كرسي مكسور كان إناء كبير من الفخار ممتلئ بالماء كانت المرأة قد أعدته لغسل ثياب أولادها وزوجها في تلك الليلة.. وكانت هي التي تغسل الثياب بنفسها مرتين في الأسبوع على الأقل إن لم يكن أكثر، فقد بلغت الأسرة من الضيق أن لم يبق لديها ثياب لإبدالها. وكانت كاترينا إيفانوفنا لا تحتمل القذارة، فكانت لذلك تؤثر أن ترهق نفسها في الليل وتعمل فوق طاقتها، إذا نام من في البيت جميعاً؛ كي تنشر الثياب المبللة حتى الصباح فتجف. وأمسكت الإناء إجابة لطلب رسكولنكوف، إلا أنها ناءت بحمله وكادت تقع به. ووجد رسكولنكوف منشفة فغمسها في الماء وأخذ يمسح وجه مرملادوف المغطى بالدم. وظلت كاترينا واقفة على مقربة منه وهي تلهث وتضغط على صدرها بيديها. وما كان أحوجها هي نفسها إلى الإسعاف! وبدأ رسكولنكوف يشعر أنه قد يكون أخطأ في نقل الجريح إلى مسكنه، وبدأت كذلك على الشرطي حيرة..

وصاحت كاترينا إيفانوفنا: «اذهبي يا پوليا سريعاً إلى سونيا، فإذا لم تجدوها بالمنزل فاتركي لها النبأ أن أباهما داسته مركبة، ولا بد من حضورها عند أول عودتها.. أسرعي يا پوليا.. خذي هذا الشال غطاء لك!».

وصاح الغلام من المقعد الذي يجلس عليه: «أسرعني بقدر ما تستطيعين».

ثم عاد إلى سكوته وجموده يبرق عينيه ويمد ساقيه ويفرق أصابع قدميه...

وفي هذه الأثناء كانت الغرفة قد غصت بالناس، حتى لو رميت إبرة لما وصلت إلى الأرض... وانصرف رجال الشرطة عدا واحداً منهم، حاول أن يخرج الناس الذين كانوا يتواردون من قبل السلم، على حين تدفق من الغرف الداخلية من دار مدام لبيثيشل كل من كان فيها من السكان أو جلهم، فتزاحموا عند الباب ثم طغوا على الغرفة نفسها. فاستشاطت كاترينا إيفانوفا غضباً وصرخت قائلة للجمع المحتشد:

- يجب على الأقل أن تتركوه يموت في سلام! أهذا منظر تحملقون فيه؟.. وتدخلون السجائر! (وأخذت تسعل سعالاً متصلاً) إنكم لتكادون تحتفظون بالقبعات على رؤوسكم! بل إنني أرى أحدكم يلبسها.. فابتعدوا! ولا أقل من أن تخشعوا أمام الموتى!

ثم منعها من الكلام سعال شديد. ولكن تقريعها لم يذهب سدى، فقد كانوا بغير شك يرهبون جانب كاترينا إيفانوفا، فأخذوا ينسلون من الباب واحداً بعد آخر، وهم يحسون شعوراً غريباً خفياً يشبه الارتياح وهو شعور يتدسس إلى النفوس جميعاً عند النوازل المفاجئة، ولا تخلو منه قلوب أقرب المقربين حين يصاب أعز الناس عليهم، وإن كانوا في الوقت ذاته يحسون عليه عطفاً شديداً ورحمة خالصة..

ومع ذلك فقد سمعت من وراء الباب أصوات تشير بنقل الجريح إلى المستشفى، قائلة إن ذلك الاضطراب ما كان ينبغي أن يقحم على الدار.. فصاحت كاترينا إيفانوفا: «ألا ينبغي لشخص أن يموت؟».

واندفعت تفتح الباب لتصب حنقها على الجمع، فإذا هي وجهًا لوجه أمام مدام ليشيشل وقد سمعت بالحادث فجاءت لتدبر الأمور.. وكانت امرأة ألمانية حادة الطبع متهورة، فصاحت وهي تصفق بيديها قائلة: «ما شاء الله! زوجك يسكر وتدوسه مركبة.. فلتذهبي به إلى المستشفى.. إني صاحبة المنزل هنا!».

فأجابتها كاترين إيفانوفنا بأنفة: «إني أطلب منك أن تفكري فيما تقولين يا أماليا لدفيجوفنا (وكانت تخاطب صاحبة المنزل دائمًا بهذه اللهجة كي تعلم منزلتها منها) اسمعي يا أماليا لدفيجوفنا!».

فقالت صاحبة الدار في رطانة ألمانية: «لقد حذرتك مرارًا من ندائي باسم أماليا لدفيجوفنا، فإن اسمي أماليا إيفانوفنا».

فأجابتها كاترينا:

- لست أقول أماليا إيفانوفنا، بل أماليا لدفيجوفنا.. فلست أنا من متملكيك الأدياء من أمثال ليزياتنكوف، الذي يضحك الآن من وراء الباب.. (وقد سُمع حقًا ضحك من خلف الباب وصوت يصيح: «إنهما تشبكان!»).. سأدعوك دائمًا أماليا لدفيجوفنا. ولو أنني لا أفهم لماذا تكرهين هذا الاسم.. إنك ترين بنفسك ما قد حل بسميون زهاروفتش فهو يحتضر. وأرجو منك أن تغلقي الباب سريعًا ولا تسمح لي لأحد بالدخول حتى يموت الرجل في سلام، وإلا فإني أحذرك بأن الحاكم العام سيبليغ عن فعالك غدًا. والأمير يعرفني منذ الصغر، ويعرف سميون زهاروفتش حق المعرفة، وقد طالما أظهر له دلائل العطف. والناس جميعًا يعلمون أن لسميون زهاروفتش أصدقاء كثيرين من أصحاب الجاه يدافعون عنه، وإن

كان قد هجرهم فإنما فعل ذلك إبقاء على كرامته لعلمه بما فيه من ضعف. ثم اعلمي أن هناك من يساعدنا في هذه الساعة (مشيرة إلى رسكولنكوف) هذا الشاب الكريم ذو الثراء والجاه، وكان سيميون زهاروفتش يعرفه منذ طفولته، فثقي بذلك يا أماليا لدفيحوقنا..

قالت كل هذا في سرعة شديدة متزايدة، غير أن السعال قطع سيل بيانها فجأة، وفي هذه اللحظة تنبه الرجل المحتضر وتأوه، فأسمرت الزوجة إليه. وفتح الرجل المصاب عينيه وصدق النظر في رسكولنكوف الذي كان منحنيًا فوقه، ولكنه لم يعرفه ولم يفهم شيئًا مما حوله.. وكان يتنفس في صعوبة تنفسًا عميقًا بطيئًا، والدم يسيل من جانبي فمه، وعلى جبينه قطرات كبيرة من العرق. ولما لم يعرف رسكولنكوف أخذ يحيل بصره فيما حوله قلقًا. وكانت كاترينا إيفانوفنا تنظر إليه بوجه حزين عابس، والدموع تتساقط من عينيها، ثم صاحت يائسة:

— يا الله.. إن صدره قد تحطم! والدماء تنبعث منه! يجب أن تخلع ثيابه..

ثم صاحت به: «تحول قليلاً إذا استطعت يا سميون زهاروفتش..». فعرفها مرملا دوف، ونطق في صوت غليظ مكتوم: «قسييس!». وسارت كاترينا إيفانوفنا نحو النافذة وأسندت جنبها إلى إطار النافذة وصاحت في يأس: «ما أتعس هذه الحياة!». ثم قال الرجل المحتضر مرة أخرى بعد لحظة سكوت: «قسييس!». فصاحت كاترينا إيفانوفنا: «لقد ذهبوا لإحضاره!».

فسكت وأخذ يبحث عنها بنظرة حزينة فيها وجل، فعادت إلى جانب
وسادته فهدأ قليلاً لمدة قصيرة.

وما لبث أن وقفت عيناه عند ابنته الصغيرة ليدا، وكانت أثيرة لديه،
فرآها واقفة ترتعد في أحد أركان الحجرة كأنها في نوبة، وعيناها تحدقان
فيه في دهشة، فنطق: «آه..!» وأشار نحوها في قلق كأنه أراد أن يقول شيئاً..
فصاحت كاترينا إيفانوفنا: «ماذا؟».

فتمتم قائلاً: «حافية! حافية!» مشيراً بنظرته القلقة إلى قدمي الطفلة
العاريتين.

فصاحت كاترينا إيفانوفنا في غضب: «اسكت، إنك لتعلم السبب في
حفاها..».

وصاح رسكولنكوف في ارتياح: «الحمد لله.. هذا هو الطبيب!».
ودخل الطبيب، وهو رجل ألماني كبير قصير القامة دقيق، ونظر حوله
مسترياً، ثم قصد إلى المريض وجس نبضه وفحص رأسه في عناية ثم
ساعدته كاترينا إيفانوفنا على حل أضرار القميص الملطخ بالدم، فكشف
عن صدره وكان مثخنًا بالجراح ومحطماً، إذ كسر عدد من ضلوعه على
الجانب الأيمن، وكان على الجانب الأيسر فوق موضع القلب أثر رض
مخيف أسود اللون في صفرة، أحدثته ضربة عنيفة من حافر الجواد.
وتقطب جبين الطبيب. وأخبره الشرطي أنه تعلق في العجلة ودار معها نحو
ثلاثين خطوة على الطريق..

فهمس الطبيب في أذن رسكولنكوف: «من عجيب الأمور أن يسترد
صوابه..».

وسأله هذا: «ما رأيك فيه؟».

فأجاب الطبيب: «إنه سيموت في الحال!».

فسأله الفتى: «أليس هناك أمل؟».

فقال: «ليس هناك ظل من أمل... إنه في النزع الأخير. إني أستطيع أن أوقف الدم، ولكن لا فائدة من ذلك فإنه سيموت بعد خمس دقائق أو عشر...».

- إذن.. فلنحاول أن نأخذ منه دمًا..

- إذا أردت.. ولكني أنصحك بأن لا فائدة من هذا العمل.

وفي هذه اللحظة سمع وقع أقدام أخرى، وفسح الجمع الواقف في الممر، وظهر عند مدخل الغرفة قس قصير القامة مسن أشيب ومعه الزيت المقدس، وكان أحد رجال الشرطة قد ذهب إليه وقت الحادث، فلما رآه الطبيب فسح له مكانًا مسرعًا وتبادلا النظرات، ورجا روسكولنكوف الطبيب أن ينتظر قليلًا، فرفع الطبيب كتفيه وأذعن لطلبه..

وارتد الجميع إلى الوراء وانتهى الاعتراف سريعًا، وأغلب الظن أن الرجل المحتضر لم يفهم إلا قليلًا، ولم يكن ينطق إلا بأصوات متقطعة غير واضحة. أما كاترينا إيفانوفا فإنها أمسكت بابتها ليدا وأنزلت الغلام عن كرسيه وركعت في ركن الغرفة في جوار الموقد، وجعلت الطفلين يركعان أمامها.. وكانت الطفلة لا تزال ترتعش، أما الغلام فركع على ركبتيه الصغيرتين العاريتين، وكان يرفع يده في فترات منتظمة ليرسم علامة الصليب في دقة، ثم يسجد حتى تمس جبهته الأرض كأنه يشعر في ذلك بارتياح.

وكانت كاترينا إيفانوفنا تعض شفتيها لكي تحبس دموعها وهي تصلي أيضاً، وتجذب بين حين وآخر قميص الغلام لتسويه، كما أنها غطت كتفي الطفلة العاريتين بمنديل جاءت به من الصندوق بغير أن تقوم من ركعتها أو تقطع صلاتها. وفي هذه الأثناء كان الباب المؤدي إلى الغرف الداخلية قد فتح في فضول، وازدحم النظارة في الممر من سكان الشقق الأخرى، وتكاثر عددهم شيئاً بعد شيء ولكنهم لم يتخطوا عتبة الباب، ولم يكن يضيء هذا المنظر غير بقايا شمعة واحدة.

وفي هذه اللحظة شقت بولنكا لنفسها طريقاً بين الجموع الواقفة بالباب، وهي تلهث من شدة الجري، وأخرجت منديلها وهي تبحث عن أمها، فلما بصرت بها ذهبت إليها وقالت: «إنها آتية، فقد قابلتها في الشارع..» فأمرتها أمها أن تركع إلى جانبها.

واخترقت صفوف الجمهور فتاة صغيرة السن في سكون وحياء، وكان لظهورها المفاجئ في تلك الحجرة وسط الفاقة والثياب البالية والأحزان والموت تأثير غريب. وكانت هي كذلك رثة الثياب، فملابسها من أرخص الأنواع وإن كانت مزينة بأشياء رخيصة من نوع خاص لا يخطئ المرء في الغرض المخجل منها. وقد وقفت سونيا عند الباب تنظر حولها في حيرة تكاد لا تدرك شيئاً، وقد نسيت ثوبها القديم الحريري المبهرج الذي لا يليق بمثل ذلك الموقف، وكان له ذيل مضحك طويل وبدن واسع فضفاض يسد المدخل، وكان حذاؤها فاقع اللون ومعها مظلة لا حاجة إليها في الليل، وكانت قبعتها صغيرة مستديرة مضحكة يزينها ريش قرمزي اللون، وهي منحرفة في تأنق متبذل إلى جنب رأسها، وكان يبدو من تحتها وجه أصفر صغير نحيل يلوح عليه الرعب، وفم مفتوح وعينان ثابتتان من الخوف..

وكانت سونيا في الثامنة عشرة من عمرها، نحيلة الجسم ضئيلة شقراء الشعر عليها مسحة من ملاحه، ولها عينان زرقاوان حلوتان، فاتجهت ببصرها إلى الفراش والقس، وكانت لا تكاد تتنفس من البهر لإسراعها في السير، ثم ترامت إلى سمعها همسات وكلمات من الجمع، فأحنت رأسها ودخلت الغرفة وإن بقيت قريبة من الباب..

وفرغ القس من رسومه الدينية، فذهبت كاترينا إيفانوفنا إلى زوجها وتهياً القس للانصراف، إلا أنه أراد أن يقول بعض عبارات النصح والتعزية لكاترينا إيفانوفنا فقاطعته في جفاء وحدة مشيرة إلى الأطفال قائلة: «وهؤلاء ما مصيرهم؟».

فابتدأ القس يقول: «إن الله شفيق، فثقي برحمته فهو المغيث الأعلى».

فقالت المرأة: «إنه رحيم، ولكن ليس بنا!».

فأجاب القس وهو يهز رأسه: «إن هذا القول خطيئة أيتها السيدة!».

فقالت مشيرة إلى زوجها: «أليس هذا خطيئة؟».

فقال القس: «ربما رضي الذين سببوا هذا الحادث بغير قصد أن يدفعوا إليك تعويضاً لفقد هذا المعين».

فصاحت كاترينا إيفانوفنا في غضب وهي تحرك يدها: «إنك لا تفهمني.. لماذا يدفعون لي تعويضاً؟ سكير ألقى بنفسه تحت أقدام الخيل.. وأي معين؟ إنه كان لا يحمل إلينا سوى الشقاء! كان يبدد كل شيء في الشراب.. هذا السكير كان يسرق منا ليشرب، وقضى على حياتهم وعلى حياتي من أجل الخمر، ومن الخير أن يموت فإنه يخفف عبئه عنا..».

فقال القس: «يجب على الإنسان أن يعفو في ساعة الموت، ففي مثل ذلك القول خطيئة يا سيدتي.. في هذه المشاعر خطيئة كبيرة!».

وكانت كاترينا إيفانوفنا منصرفة إلى الرجل المحتضر، تسقيه ماء وتمسح العرق والدم عن جبينه، وتسوي وسادته، وهي بين حين وحين تلتفت إلى القس في لحظات تحدثه.. على أن عباراته الأخيرة أثارت غضبها الشديد فاتجهت إليه في عنف وقالت: «إن كل ما تقوله يا أبت لا يزيد على ألفاظ خاوية! أتقول أعفو؟ لو أن المركبة لم تدسه لأنى إلى منزله وهو سكران وقميصه الممزق قدر لكي يستغرق في النوم كالكتلة من الخشب، وكنت أقضي الليلة في غسل ثيابه وثياب الأطفال حتى مطلع الفجر، ثم أعمل على تجفيفها إلى جانب النافذة، فإذا ما طلع النهار أقبلت على الخياطة والرتق.. هكذا أقضي ليالي! فما الفائدة من الكلام عن العفو؟ لقد طالما عفوت عنه بالأفعال لا الأقوال!».

ثم منعها سعال شديد من الاسترسال في الكلام، ورفعت منديلها إلى فمها ثم أرته للقس، ووضعت يدها على صدرها الموجوع.. وكان المنديل مغطى بالدم، فأحنى القس رأسه ولم يقل شيئاً.

كان مرملادوف في النزاع الأخير، ولم يرفع عينيه عن وجه زوجته التي انحنت عليه مرة أخرى، وكان يحاول أن يقول لها شيئاً، إذ حرك شفثيه في مشقة، ونطق بصوت غير مبين، وفهمت كاترينا إيفانوفنا أنه يريد أن يسألها الصفح، فصاحت به في صوت قاطع:

- لا تتكلم! لا حاجة إلى ذلك! إني أعرف ما تريد أن تقوله!

فسكت المصاب، على أن عينيه جالتا في تلك اللحظة نحو الباب

وبصرتا بسونيا واقفة عنده، ولم يكن إلى ذلك الحين قد لاحظ وجودها لأنها كانت محجوبة عنه في ركن من الغرفة، فنطق في صوت غليظ لاهث وعليه علامات القلق، وقد استدارت عيناه في خوف نحو الباب حيث كانت تقف ابنته وقال: «من هذه؟ من هذه؟».

فصاحت كاترينا إيفانوفنا: «ارقدا! ارقدا!».

غير أنه تحامل على نفسه واستطاع أن ينهض على مرفقه، وبقي محدقاً في ابنته بعينين ثابتتين مرتعبتين كأنه لم يعرفها، إذ إنه لم يرها قط من قبل في مثل هذا الزي، وكأنه رآها فجأة محطمة خجلة من حقارتها وزيها المتبذل تنتظر في خضوع دورها لوداع أبيها المحتضر، فارتسمت على وجهه علائم الألم العميق وقال: «سونيا ابنتي! سامحيني!».

قال ذلك وحاول أن يمد يده نحوها، ولكنه فقد توازنه فسقط من المقعد إلى الأرض على وجهه، فرفعوه في الحال ووضعوه على المقعد، ولكنه كان يموت.. وجرت إليه سونيا، وخرجت منها صرخة خافتة، وعانقته وبقيت ساكنة حيث هي حتى فارق الحياة وهو بين ذراعيها..

وصاحت كاترينا إيفانوفنا وهي تنظر إلى جثة زوجها: «لقد بلغ مراده! ولكن ماذا أصنع الآن؟ كيف أدفنه؟ وكيف أطعمهم؟».

فذهب رسكولنكوف إليها وقال لها: «يا كاترينا إيفانوفنا، إن زوجك قصّر عليّ في الأسبوع الماضي تاريخ حياته وظروفه.. وثقي إنه ذكرك في إجلال عميق، وقد علمت منه في تلك الليلة نفسها مقدار حبه لكم جميعاً، وحبه وإجلاله لك خاصة يا كاترينا إيفانوفنا، على ما كان فيه من ضعف يؤسف له، ومن تلك الليلة صرنا أصدقاء. فاسمحي الآن أن أعمل شيئاً...

وأسدّد ديناً لصديقي العزيز، وإليك عشرون روبل أظن أنها تساعدك على قضاء أمر... وإني بعدئذ... باختصار... سأعود ثانية. ومن المؤكد أنني سأعود إليك، وقد يكون ذلك غداً... أستودعك الله!».

وخرج من الغرفة مسرعاً، واخترق الجمع الواقف على السلم. وكان في الجمع نيكوديم فومتش الذي أسرع إلى المنزل حين سمع بالحادث ليشرّف بنفسه على ما يجب اتخاذه في مثل هذا الظرف، وكانا لم ير أحدهما الآخر مذ تلاقيا في مكتب الشرطة، ولكن نيكوديم فومتش عرفه منذ وقعت عينه عليه فسأله: «أنت هنا؟».

فأجاب رسكولنكوف: «إنه مات.. وجاء طبيب وقس وتم كل شيء على ما يرضى. فأرجوك ألا تزعج الأرملة المسكينة فإنها مصدورة، وواسها إذا استطعت فإني أعرفك رجلاً شقيقاً!».

وابتسم في سخرية وهو ينظر في وجه الرجل..

ورأى فومتش في نور المصباح بعض بقع جديدة من الدم على صدر رسكولنكوف فقال: «أنت ملوث بالدم...».

فأجاب رسكولنكوف بنغمة خاصة: «نعم.. إني مغطى بالدم!».

ثم ابتسم وهز رأسه، ونزل السلم.

نزل في ببطء وتؤدة وهو محموم، وإن كان لا يشعر بوطأة الحمى فقد أحس بشعور جارف من حياة وقوة تدب فيه، ويمكن تشبيه هذا الشعور بما يتتاب رجلاً محكوماً عليه بالإعدام صدر عفو عنه.. وبينما هو في منتصف السلم أدركه القس في طريقه إلى داره، فأوسع له رسكولنكوف الطريق وبادله التحية في صمت، وما كاد يصل إلى آخر الدرج حتى سمع وقع أقدام

خلفه، فإذا بولنكا تجري وراءه تناديه قائلة: «انتظر! انتظر!».

فاستدار، وكانت في آخر الدرج على درجة واحدة أعلى منه، وكان نور ضئيل ينبعث من فناء البيت، فاستطاع رسكولنكوف أن يتبين وجه الطفلة النحيل الصغير الجميل القسمات، تنظر إليه في ابتسامة براءة وقد جرت خلفه برسالة كان من البين أنها مسرورة بأدائها.

وقالت في سرعة وفي صوت لاهث: «أخبرني ما اسمك.. وأين تسكن؟».

فوضع يديه كليهما على كتفيها ونظر إليها فيما يشبه السعادة، فقد شعر لرؤيتها بسرور عظيم لم يكن يدري سببه وسألها:

- من أرسلك؟

فأجابت في ابتسامة أكثر وداً «أرسلتني أختي سونيا..».

- لقد وقع في نفسي أن أختك سونيا أرسلتك..

- وأرسلتني أمي كذلك، فإنها عندما سمعت أختي سونيا ترسلني إليك قالت: نعم، أسرع يا بولنكا..

- أتحيين أختك سونيا؟

فأجابت الطفلة في حماسة وقد اتسعت ابتسامتها: «أحبها أكثر من أي إنسان..».

- أظنين أنك سوف تحييني؟

وبدلاً من أن تحبيه أدنت الطفلة منه وجهها ومدت شفيتها المليئتين في براءة لتقبله، ثم ضمته في قوة بذراعين نحيلتين كأنهما عودان، وأسندت

رأسها إلى كتفه وأخذت تبكي في صمت..

ورفعت بعد لحظة وجهها المبلل بالدموع، وجعلت تمسحه بيدها قائلة: «مسكين أبي!».. ثم أضافت وقد اتخذت لهجة الرزانة التي يحاول الأطفال اتخاذها حين يقلدون من هم أكبر منهم سنًا: «لم يبق لنا إلا الكوارث...».

- أكان أبوك يحبك؟

فأجابت بالرزانة عينها، ومن غير أن تبتسم كما يفعل كبار السن: «كان يحب ليدا أكثر منا.. وكان يحبها كثيرًا لأنها صغيرة ومريضة. وكان دائمًا يقدم لها الهدايا، ولكنه علمنا القراءة، وعلمني فوق ذلك قواعد اللغة والكتاب المقدس - قالت ذلك بشيء من الفخر - ولكن والدتي لم تقل عن ذلك شيئًا، وإن كنا نعلم ووالدي يعلم كذلك، أنها كانت مسرورة من ذلك. وتريد أُمِّي أن تعلمني الفرنسية، فقد حان الوقت لتعليمي».

- وهل تعلمتم الصلاة؟

- طبعًا، ومنذ زمن طويل.. وأنا أتلو صلواتي لنفسِي؛ لأنني كبرت.. أما كوليا وليدا فيتلوانها مع والدتي. فهم يتلون الدعاء للعدراء أولاً، ثم يدعون الله ليغفر لسونيا أختي ويباركها، ثم يتلون دعاء «اللهم اغفر لأبي الثاني وبارك عليه» لأن أبانا الأكبر مات، وكان هذا أبانا الآخر.. وكنا ندعو للأول أيضًا..

- يا بولنكا.. إن اسمي روديون، فإذا صليت فادعي الله لي أحيانًا وقولي في صلاتك: «اللهم اغفر لعبدك روديون»، ولا تزيدي على ذلك.. وقالت الطفلة في حماسة: «سأصلي من أجلك بقية حياتي»، وابتسمت

مرة أخرى وهجمت عليه وضمته بين ذراعيها..

وأعطائها رسكولنكوف اسمه وعنوانه، ووعد بأن يعود في الغد؛ وتركته الطفلة وقد سحرت به. وكانت الساعة قد تجاوزت العاشرة حين وصل إلى الشارع، وبعد خمس دقائق وصل إلى الجسر.. في نفس المكان الذي شاهد فيه المرأة تلقي بنفسها إلى الماء... فقال لنفسه في ثبات وزهو: «كفى! تبًا للخيالات والأوهام والمخاوف! إنما الحياة حقيقة! ألم أكن من الأحياء منذ قليل؟ إن حياتي لم تنته بموت العجوز.. فلتتمتع تلك العجوز بملكوت السماوات.. ألا حسبك هذا، ودعيني أيتها السيدة في سلام! وهيا إلى حكم العقل والنور... والإرادة والقوة... وسوف نرى! سوف نجرب أنفسنا!».

قال هذا في تحد كأنه يتحدى قوة خفية من قوى الظلام، ومضى قائلاً:

- عجبًا لنفسي.. كيف رضيت بأن أستسلم وأقضى حياتي في جحر ضيق بين جدران أربعة؟... إني لا أزال شديد الضعف في هذه الساعة، ولكنني أعتقد أن المرض قد فارقتني، وكنت أعرف أنه سيزول إذا ما خرجت! وإني لأذكر بهذه المناسبة أن دار بوتشنيكوف على خطوتين مني، فلأذهب إلى رازوميهين.. بل لأذهب إليه ولو كان بعيداً كي يريح رهانه ويرضى عن نفسه.. ولا بأس في هذا فإن ما يحتاج إليه المرء هو القوة! القوة، وبغيرها لا ينال شيئاً! والقوة تكسب القوة! وهذا ما لا يفقهونه..

قال هذا في ثقة وأنفة وهو يعبر الجسر يجر رجليه، وكانت الثقة والعزة تزددان به حتى لكأنه كلما مرت عليه دقيقة تحول إلى رجل آخر! فما الذي أحدث هذه الثورة فيه؟ لقد خفي السبب عنه.. وكان كالغريق إذ يتعلق

بقشة، فبدا له فجأة أنه يستطيع أن يعيش، وأن الحياة لا تزال أمامه، وأنها لم تنته بموت العجوز. ولعله كان متسرعًا في استخلاص النتائج، ولكنه كان يفعل ذلك عن غير وعي..

وطرأت عليه فكرة.. «لقد طلبت إلى الفتاة أن تذكرني في صلواتها.. وهذا نافع على كل حال في ساعة ضيق!».. وضحك من نفسه لاندفاعه الذي يشبه اندفاع الطفولة، وكان على خير حال..

واهتدى إلى منزل رازوميهين في سهولة، إذ كان الساكن الجديد معروفًا في المنزل، وما لبث أن دله البواب عليه، ولم يقطع نصف السلم في صعوده حتى سمع الضجة وصخب الحديث من جمع كبير، وكان الباب مفتوحًا على مصراعيه، فبلغت سمعه الصيحات و المحاورات والمناقشات.. وكانت حجرة رازوميهين متسعة، وكان عدد المجتمعين بها خمسة عشر شخصًا، ووقف رسكولنكوف عند الباب حيث كان خادمان لصاحبة المنزل منهمكين وراء حاجز في إعداد الشاي في إناءين كبيرين، ويجهزان زجاجات الخمر والصحاف وأطباق الفطائر والأطعمة الخفيفة التي أتوا بها من مطبخ صاحبة الدار، فأرسل رسكولنكوف في طلب رازوميهين فجري هذا إليه مبتهجًا، وكان يبدو عليه من أول نظرة أنه شرب كثيرًا إذ كان يبدو عليه أثر الخمر مع ما كان معروفًا عنه من مقاومته للسكر..

وأسرع رسكولنكوف يقول: «لقد جئت الآن لأخبرك أنك قد ربحت الرهان. وهل يستطيع الإنسان أن يعرف ما يخبئه له الغيب؟ ولكني لا أستطيع الدخول، فأني من الضعف بحيث أخشى أن أخرج إلى الأرض في لحظة.. فاسعد مساء، ولتمر عليّ في الغد».

- دعني أستصحبك إلى المنزل ما دمت بهذه الحالة من الضعف..
- وماذا تفعل بضيوفك؟.. من هذا الشخص ذو الشعر المجعد الذي
أطل الآن؟

- هذا؟ لا أعلم.. قد يكون أحد أصدقاء عمي، وربما جاء دون أن
يدعى! سيبقى عمي معهم، وهو رجل عظيم لا يقدر بثمان، ومما يؤسف
له أنك لا تستطيع لقاءه الآن، وفضلاً عن ذلك فلعنة الله على الضيوف
جميعاً، فإنهم لن يلاحظوا غيابي.. وأنا في حاجة إلى الهواء الطلق، ولقد
جئت في الوقت الملائم، فلو تأخرت دقيقتين لكنا الآن نتضارب.. فهم
يفوهون بسخافات وتفاهات لا يمكن أن تتصور أن الإنسان قادر على
الجهر بمثلها.. ولكن لماذا لا تتصور؟ ألا نقول نحن مثلها؟ فليقولوا ما
يشاءون من سخافات... لأنهم بذلك يعرفون طريق العدول عنها. انتظر
لحظة فسأجيء بزوسيموف!

وهجم زوسيموف على رسكولنكوف في شيء يشبه النهم، ويظهر أنه
كان يهتم لحالته اهتماماً خاصاً، وقد لمعت أساريره حين شاهده.
وقال بعد أن فحصه على عجل: «يجب أن تذهب إلى فراشك في
الحال، وهاك برشامة بها مسحوق أعددتها لك منذ زمن.. فهل لك أن
تتناولها؟».

فأجاب رسكولنكوف: «أتناول اثنتين إن أردت...».

وأخذ الدواء مسرعاً.

وقال زوسيموف لرازوميهين: «تحسن صناعاً في مرافقته إلى المنزل،
وسنرى كيف تكون صحته غداً. أما اليوم فلا أرى بها بأساً، وألمح تغييراً

كبيراً طراً عليه بعد ظهر اليوم! إن المرء ليتعلم دائماً!..

ولما خرجا إلى الشارع قال رازوميهين مازحاً:

- هل تعلم ما الذي قاله لي زوسيموف في أذني ونحن خارجان؟ لن أقول لك كل ما قاله أيها الصديق؛ لأنني أعتقد أنهم أغبياء. لقد سألتني أن آخذ في الثرثرة معك طول الطريق، وأن أحملك على الثرثرة معي، ثم أنقل إليه ما تقول؛ لأنه يعتقد أنك مجنون، أو أنك على وشك أن تجن... فهل تتصور ذلك؟ إن عقلك أولاً أرجح منه ثلاث مرات، وإذا لم تكن مجنوناً كما يظن فإنك لن تهتم برأيه السخيف فيك.. ثم إن هذا الرجل الذي يشبه القطعة الضخمة من اللحم البقري - وإن كان مختصاً في الجراحة - قد تعلق أخيراً بالأمراض العقلية، وقد وصل إلى هذه النتيجة بعد أن علم بحديثك مع زاميتوف.

- هل أخبرك زاميتوف بما حدث كله؟

- نعم، وقد أحسن التعبير. والآن قد فهمت كل شيء كما فهمه زاميتوف، ولست أحب أن أطيل عليك يا روديا، فالحق أنني ثمل وكل ما أقوله هراء. الحقيقة أن هذه الفكرة... هل تفهم؟ هذه الفكرة نشأت في رؤوسهم.. هل تفهم؟ ولكن أحداً لم يجرؤ على التصريح بها لسخافتها الواضحة، ولا سيما بعد أن قبضوا على العامل النقاش، فقد زالت هذه الفكرة منذ ذلك الحين وتبخرت، ولست أفهم كيف بلغ بهم الغباء مثل هذا المبلغ.. ولقد اعتديت على زاميتوف بالضرب في ذاك الوقت، ولكن أرجوك أن تكتم هذا الأمر وتجعله سراً بيننا، ولا تظهر أمامه أنك تعرفه فهو رجل شديد التأثير.. وكان هذا الحادث عند لويز إيفانوفنا، على أن المسألة

اتضح الآن، وقد كان إيليا بتروفتش هو السبب في هذا الاتجاه، متتهزاً
فرصة إغمائك في مكتب الشرطة.. ولكنه الآن يحس من نفسه بالخجل،
وإنني أعلم أن...

وكان رسكولنكوف يصغي إلى رازوميهين في اهتمام بالغ، وكان
رازوميهين ثملاً يتدفق في حديثه غير متحفظ..

وقال رسكولنكوف: «ما أغمى عليّ عند ذلك إلا من الهواء الفاسد
ورائحة الطلاء!».

فقال رازوميهين:

- إن الأمر لا يحتاج إلى تفسير. لم يكن الطلاء وحده هو السبب،
بل إن الحمى كانت تفعل فعلها فيك منذ شهر ويشهد زوسيموف بذلك!
ولكنك لا تتصور إلى أي حد تحطم زاميتوف، فهو يقول: «إنني لا أساوي
خنصره»- يقصد خنصرك- فهو رجل يشعر أحياناً بعواطف طيبة، ولكن
الدرس الذي ألقينّه عليه اليوم في حانة القصر البللوري كان درساً بديعاً!
فقد أخفّته في مبدأ الأمر حتى كاد يغمي عليه، وكدت تبعث فيه الاعتقاد في
صحة ذاك الهراء الفظيع، ثم عدت فجأة فأخرجت له لسانك قائلاً ما معناه:
«والآن ما رأيك في هذا؟».. لقد كان درسك كاملاً!

وقد تحطم زاميتوف وتبخر! أقسم لقد كنت أستاذاً في مسلكك، وهذا
ما يستحقونه.. ومما آسف له أنني لم أكن موجوداً وقد كان زاميتوف كبير
الأمل في أن يراك الليلة، وكذلك بورثيري فهو يريد أن يتعرف إليك!...

- وهو أيضاً؟ ولكن لماذا يعدونني مجنوناً؟

- لم أقصد أن أحداً يعدك مجنوناً حقاً! وإذا كنت قد قلت ذلك فإنني

قد غالبت في القول يا صديقي... فكل ما هنالك إنك استرعت انتباهه لأن ذلك الموضوع وحده يستولى على اهتمامك. أما الآن فقد وضح سبب اهتمامك به بعد معرفة كل الظروف.. فإن هذا الأمر ضايقك وأثر فيك عند مرضك... لقد أخذ مني الشراب يا صديقي، ولكن لعنة الله عليه فإن لديه فكرة خاصة.. وأكرر لك أن فكرة الأمراض العقلية طاحت بعقله... ولكن لا تهتم بذلك!

وسكت الاثنان مدة نصف دقيقة، ثم ابتدأ رسكولنكوف:

- أصغ إليّ يا رازوميهين. إنني أريد أن أصارحك أنني كنت الآن إلى جانب فراش رجل مات وكان موظفًا... وقد أعطيتهم كل نقودي... وقد قبلتني صبية كانت تفعل ذلك ولو كنت قاتلاً... والواقع أنني رأيت هنالك فتاة أخرى.. في قبعتها ريشة حمراء كاللهب... ولكن لماذا أتكلم هذا الهراء؟.. إنني ضعيف جدًا... فاسندني... لقد اقتربنا من السلم.. فسأله رازوميهين قلقًا: «ماذا جرى لك؟».

- إن برأسي دوارًا، لكن ليست هذه هي المسألة! إنني حزين جدًا! حزين جدًا! كأنني امرأة... حقيقة! انظر ما هذا؟ انظر! انظر!
- ماذا تعني؟

- ألا ترى نورًا في غرفتي؟ انظر! نورًا منبعثًا من أسفل الباب.
وكانا في أول السلم المؤدي إلى غرفته، أمام باب غرفة صاحبة المسكن، وكانا في الواقع يستطيعان رؤية النور في غرفة رسكولنكوف.
وقال رازوميهين: «أمر غريب! ربما كانت نستاسيا...».

فأجاب: «إنها لا تأتي إلى غرفتي في مثل هذا الوقت، ولا بد أنها أوت
إلى فراشها منذ مدة طويلة... ولكنني لا أهتم... وداعًا!».

- ماذا تعني؟ سأصعد معك وسندخل الغرفة معًا!

- نعم! نعم! إني أعلم أننا سنصعد معًا، ولكنني أريد أن أصفحك هنا
وأقول لك وداعًا! مد يدك! وداعًا.

- ماذا بك يا روديا؟

- لا شيء... هيا بنا... وستكون شاهدًا.

وأخذوا يصعدان السلم. ودار بخلد رازوميهين أن زوسيموف ربما كان
على صواب، وتمتم لنفسه قائلاً: «ربما كان حديثي سببًا في اضطرابه».

ووصلوا إلى باب الغرفة فسمعا أصواتًا فيها..

وهجم رسكولنكوف، وفتح الباب إلى آخره، ووقف على عتبة
مأخوذًا..

كانت أمه وأخته جالستين على المقعد تنتظرانه منذ ساعة ونصف
ساعة، فلماذا لم يتوقع ذلك ولم يفكر فيه؟ لقد أنبئ برحيلهما وأنهما في
الطريق إليه، ولا بد من وصولهما في القريب العاجل، وقد ذكر هذا الأمر
أمامه اليوم مرارًا! لقد أمضتا هذا الوقت الطويل وهما تمطران نستاسيا
بالأسئلة، وكانت لا تزال واقفة أمامهما، ولا بد من أنها تمكنت من أن
تروي كل شيء عنه في هذا الزمن. وقد تملكهما القلق الشديد حين سمعتا
أنه فر وهو مريض لا يعي شيئًا. وكانتا تتساءلان: «يا الله! ماذا جرى له؟»..
وأخذتا في البكاء، وأمضتا هذا الزمن في عذاب أليم.

فلما دخل رسكولنكوف قوبل بصيحة الابتهاج والفرح، وأقبلتا هاجمتين عليه.. ولكنه وقف بلا حراك كالमित، ونزل به إحساس لا يطاق شله كما لو كان صاعقة، فلم يمد ذراعيه لمعانقتهما، أما أمه وأخته فاحتضنتاه بين أذرعهما المفتوحة وقبلتاه وهما تضحكان وتبكيان. وأما هو فخطا خطوة واحدة، وارتجف ثم خر إلى الأرض مغشياً عليه..

وكان قلق وصياح وأنات.. وجرى إليه رازوميهين وكان واقفاً لدى الباب، وحمله على ذراعيه القويتين ووضعته على الأريكة.. ثم قال للأم والأخت:

- لا شيء! لا شيء! إنه إغماء بسيط! فقد قال الطبيب قبل لحظة إنه أحسن حالاً حتى ليكاد يكون في تمام صحته! عليّ بماء! لقد أخذ يستفيق ويزول عنه كل شيء!

وأمسك رازوميهين بذراع دنيا حتى كاد يخلعه، وحملها على الانحناء لترى أنه قد زال عنه الإغماء. فنظرت الأم والأخت إلى رازوميهين نظرة تنم عن الشكر والاعتراف بفضله. إذ ساقته العناية الإلهية إليهما، وكانتا قد علمتا من أحاديث نستاسيا ما بذله من عناية بروديا أثناء مرضه هذا «الشاب النشيط» كما نعتته پولكيريا ألكسندروفنا رسكولنكوف في ذاك المساء وهي تتحدث إلى ابنتها دنيا..

القسم الثالث

(١)

قام رسكولنكوف من رقدته وجلس على المقعد، وأشار بيده في ضعف إلى رازوميهين؛ كي يقطع سيل العبارات المتحمسة المضطربة التي أراد بها طمأنة أمه وأخته، وأمسك بيدي الاثنتين وظل مدة دقيقة أو دقيقتين ينتقل بنظره من الواحدة إلى الأخرى بغير أن يتكلم.. وقد ذعرت أمه لما بدا على محياه من تغير يدل على خوالج نفسية شديدة الألم، كما يدل في الوقت ذاته على شيء ثابت وأمر في نفسه يكاد يكون جنوناً، فأخذت بولكيريا ألكسندروفنا في البكاء.

أما أفدوتيا رومانوفنا فكانت ممتعة اللون ترتعش يدها في يد أخيها، وقال الأخ في صوت متقطع وهو يشير إلى رازوميهين:

- اذهب.. اذهب معه... وأستودعكما الله إلى الغد... ففي الغد متسع لكل شيء... هل وصلتما منذ وقت طويل؟

فأجابت پولكيريا ألكسندروثنا:

- في هذا المساء يا روديا... فقد تأخر القطار كثيرًا. ولكن لن يحملني
سبب على تركك الآن يا روديا... سأمضي الليل إلى جانبك.

فقال مع إشارة تدل على الضيق: «لا تعذبيني...».

فصاح رازومييهين:

- سأبقى معه ولن أتركه لحظة، فلست أبالي بالضيوف وليغضبوا كما
يشاءون! فقد وكلت لعمي العناية بهم.

فبدأت پولكيريا ألكسندروثنا تقول وهي تشد على يد رازومييهين: «لا
أعرف كيف أشكرك...».

وقاطعها رسكولنكوف مرة ثانية في غضب قائلاً:

- لا أحتمل أكثر من هذا! لا أحتمل أكثر من هذا!

ومضى قائلاً في غضب: «حسبكما! لا تعذباني! اذهبا الآن! لا أحتمل
هذا...».

فهمست دنيا في خوف:

- هيا بنا يا أماه! هيا بنا يا أماه! لنخرج ولو لحظة من الغرفة، فمن
الواضح أننا نضايقه...

فقالت پولكيريا ألكسندروثنا باكية: «هلا أنعم ناظري فيه بعد ثلاث
سنوات؟...».

فأوقفهما قائلاً:

- لحظة واحدة! إنكما تقاطعاني طول الوقت فتضطرب أفكاري.. هل رأيتما لوجين؟

فقالت الأم: «لا يا روديا! ولكننا أخبرناه بوصولنا».

ثم أضافت في شيء من التردد: «وقد علمنا أن بيوتر بتروفتش تفضل بالمجيء لرؤيتك اليوم».

فقال: «نعم، لقد تفضل بذلك... ولقد هددت لوجين يا دنيا بأني سألقي به إلى أسفل السلم، وطلبت منه أن يذهب إلى الجحيم!».

فقالت پولكيريا ألكسندروثنا في ذعر: «أهذا ممكن يا روديا؟ إنك لا تريد أن تقول...».

ولكنها وقفت عن إتمام حديثها وهي تنظر إلى دنيا.

أما أفدوتيا رومانووثنا فإنها بقيت تنظر إلى أخيها في اهتمام، منتظرة ما يصدر عنه.

وقد علمت هي وأمها بأمر هذه المشاحنة من نستاسيا بقدر ما استطاعت هذه أن تفهم وتنقل، وكانتا في حيرة أليمة وانتظار..

وتابع رسكولنكوف حديثه في جهد:

- إنني لا أريد هذا الزواج يا دنيا، ولذلك يجب عليك في أول فرصة غداً أن ترفضى لوجين حتى لا أسمع باسمه من بعد!

فصاحت پولكيريا ألكسندروثنا: «رباه!».

وقالت أفدوتيا رومانووثنا في حماسة: «فكر يا أخي قليلاً فيما تقول»

ثم تمالكت نفسها وأضافت في رقة: «لعلك الآن غير قادر على الحديث

فإنك متعب».

فقال: «إنك تظنين أنني أتحدث تحت وطأة الحمى.. لا، بل إنك تتزوجين لوجين من أجلي، ولست أقبل هذه التضحية، فاكتبي إليه رسالة في الغد تعلنينه فيها برفضك.. وسأقرأها في صباح الغد ويتهي الأمر..».

فصاحت الفتاة مستاءة: «لا أستطيع أن أفعل هذا.. بأي حق؟».

وتدخلت الأم في حسرة قائلة: «أنت أيضًا مندفعة يا دنيا.. فلتتركي هذا الأمر للغد... ألا ترين؟.. فلنخرج الآن! من الخير أن نخرج الآن!».

فصاح رازوميهين تحت وطأة السكر: «إنه يهذي.. وإلا فإنه لم يكن يجروء على ذلك... وسيذهب هذا الهراء غدًا... ولكنه اليوم قام فعلاً بطرده... هذا صحيح.. وقد غضب لوجين أيضًا، وألقى هنا خطبًا وأراد أن يظهر علمه.. ولكنه خرج خافض الرأس..».

فصاحت پولكيريا ألكسندروفنا: «إذن فقد كان هذا صحيحًا؟!».

وقالت دنيا في عطف: «إلى الغد يا أخي... هيا بنا يا أماه! الوداع يا روديا!».

فعاد أخوها وقد جمع قواه قائلاً: «اسمعي يا أختاه.. لست تحت وطأة الحمى.. إن هذا الزواج معرة... ولا بأس من أن أكون أنا وغدًا، أما أنت فلا! حسبنا وغد واحد.. على أنني مهما كنت وغدًا فإنني لا أعترف بك أختًا.. إذا... فإما أنا.. وإما لوجين... اذهبي..».

فاحمر وجه رازوميهين وصاح: «أما إنك قد خرجت عن رشذك أيها الطاغية!».

ولم يجب رسكولنكوف، ولعله لم يكن في حال يسمح له بالجواب، إذ خارت قواه فرقد على المقعد وأدار وجهه نحو الحائط. وألقت أفدوتيا رومانوفنا نظرة تطلع نحو رازوميهين، وكانت عيناه السوداوان تلمعان، فسرت فيه رعشة من وقع نظرتها. وتسمرت پولكيريا إيفانوفنا في مكانها لا تحير..

وهمست لرازوميهين في يأس: «إني لا أستطيع أن أحمل نفسي على تركه.. سأبقى حيث يتهيأ لي.. ولتذهب أنت مع دنيا!».

وأجاب رازوميهين في همسة مثلها وقد نفد صبره: «إنك تفسدين كل شيء.. فلنخرج من الغرفة على الأقل.. أنيري لنا الطريق يا نستاسيا».

ثم أضاف في صوت خافت عندما صاروا في السلم: «أقسم لك أنه كاد اليوم يضرنا، أنا والطبيب! هل تسمعين؟ الطبيب نفسه! وقد خضع له لكي لا يضايقه، فتركه وبقيت في الدور الذي تحته لأحرسه.. ولكنه ارتدى ثيابه بعد قليل وفر مني، وسيفعل مثل ذلك الآن في ظلام الليل لو ضايقته، وربما ألحق بنفسه أذى!».

– ماذا تقول؟

– ثم إن أفدوتيا رومانوفنا لا يمكن أن تترك في ذاك المسكن وحيدة! فكري قليلاً في أي منزل حللتما! إن بيوتر بتروفتش لنذل! ألم يكن يستطيع أن يجد مسكناً أصلح من هذا؟... ولكن اعلمي أنني أكثرت بعض الإكثار من الشراب، وهذا ما دفعني... إلى نعتي بهذا الوصف! فلا تهتما لكلامي! فقالت پولكيريا ألكسندروفنا في إصرار: «إذن سأذهب لصاحبة هذا المسكن وأتوسل إليها أن تجد لي وابنتي مكاناً عندها، فإني لا أستطيع تركه

في هذه الحالة! لا أستطيع!».

وكان هذا الحديث وهم وقوف عند عتبة السلم أمام باب صاحبة المسكن، وكانت نستاسيا تقف على الدرجة الثانية تنير لهم الطريق، وكان رازومييهين في أقصى حالات التحمس، وقد كان منذ نصف ساعة- وهو عائد مع رسكولنكوف إلى مسكنه- يحس في نفسه أنه كثير الثثرة، ولكنه كان مالكا لوعيه شاعرا بأمره لم يخمره كل ما شرب وإن كان واقرا. ولكنه كان وهو يتحدث إلى المرأتين في أقصى حدود النشوة، كأن كل الخمر التي شربها قد تدفقت إلى رأسه في قوة مضاعفة.. وكان واقفاً يمسك بيدي المرأتين يحاول أن يقنعهما ويسوق لهما الأسباب في وضوح معجب، وكان يقرن كل كلمة بالضغط الشديد على أصابعهما بقبضة كأنها من حديد ليؤكد لهما.. وكان يلتهم أفدوتيا رومانوفنا بنظره دون حياء، وكانت أحيانا تسحبان يديهما من قبضته الكبيرة ذات العظام الغليظة.. ولكنه لم يلحظ ذلك، بل كان يعود فيجذبهما إليه بقوة شديدة، ولو أنهما طلبتا إليه أن يلقي بنفسه من أعلى السلم لفعل ذلك طاعة لهما دون تفكير أو تردد..

وقد شعرت بولكيريا ألكسندروفنا أن الشاب الذي يحدثها غريب الأطوار، وأنه يؤلمها بالضغط على يدها، ولكنها أغمضت عينيها عن غرابة أطواره لشدة قلقها على روديا، بل لقد وجدته مبعوث العناية الربانية.. أما أفدوتيا رومانوفنا فإنها- وإن كانت تشاطر أمها القلق على روديا- لم تستطع أن تغمض عينيها على مسلكه، فكانت كلما وقع نظرها على بريق عينية عرتها الدهشة واستولى عليها ما يشبه الذعر وإن كانت بطبعها غير هيابة، ولكن ثقتها كانت مطلقة في صديق أخيها الغريب الأطوار، بعدما

سمعت من وصف نستاسيا له، فحال ذلك وحده دون فرارها منه دُعرًا، وحمل أمها على أن تحذو حذوها، بل لقد تحقق لديها أن الفرار قد بات مستحيلًا. ولكن لم تمض عشر دقائق حتى عاودها الاطمئنان، فمن خصائص رازوميهين أن يظهر طباعه على حقيقتها بعد قليل، مهما كانت حالته، فيرى الناس سريعًا من هو بين الرجال..

وصاح قائلًا: «يجب ألا تذهبي لصاحبة المسكن فهذا هراء! إنك إذا بقيت هنا تثيرين غضبه الشديد، ولو أنك أمه.. ويعلم الله وحده عندئذ ماذا يحدث.. فأصغي إليّ لأخبرك بما سأفعله! تبقى نستاسيا معه الآن، وأصحبكما إلى مسكنكما إذ لا يمكن أن تسيرا وحدكما في الشوارع. إن بطرسبرج مدينة لعينة من هذه الجهة. ولكن لندع هذا! ثم أعود جريًا إلى هنا، وأعدكما بشرفي أنني بعد ربع ساعة آتيكما بأبناء عن حالته، وعما إذا كان نائمًا، وغير ذلك... ثم اسمع! سأذهب بعدئذ في طرفة عين إلى مسكني، فيه جمع من الأصدقاء كلهم سكارى، وبينهم زوسيموف الطبيب الذي يعالجه- وهو لم يسكر وإن كان بينهم، فهو لا يسكر مطلقًا!- وسأجره إلى روديا، ثم إلى مسكنكما، فيأتيكما تقريران في مدى ساعة.. أحدهما تقرير من الطبيب! أتفهمان؟.. من الطبيب نفسه! وهذا أمر يختلف كل الاختلاف عما أقرره أنا.. وإذا كانت حالته سيئة فيأتي أقسم لك بأني سأتي بكما إلى هنا، أما إذا كانت حالته حسنة فتأويان إلى فراشكما.. وسأقضي أنا الليل هنا في الممر فلا يسمعي، وسأطلب إلى زوسيموف أن يبيت لدى صاحبة المسكن ليكون قريبًا منه! من أنفع له، أنت أم الطبيب؟ إذن هيا بنا الآن إلى مسكنكما، أما المبيت لدى صاحبة المنزل فلا ينبغي التفكير فيه.. إنه مستطاع بالنسبة إليّ، ولكنه مستحيل بالنسبة إليك. ولن تقبلك؛ لأنها..

لأنها حمقاء... وقد تأخذها الغيرة عليّ من أفدوتيا رومانوفنا، ومنك أيضًا إذا أردت الحقيقة.. لا شك أنها ستغار من أفدوتيا رومانوفنا، فهي امرأة لا يمكن الحكم على تصرفاتها بحال من الأحوال.. ولكن ما أشد حمقي أنا الآخر.. هذا لا يهم.. تعالي معي.. هل تثقين بي؟ قل لي.. هل تثقين بي أو لا تثقين؟»..

فقالت أفدوتيا رومانوفنا: «هيا بنا يا أماه! فمن المؤكد أنه سينفذ ما وعده، ولقد أنقذ روديا من قبل.. وإذا رضي الطبيب بقضاء الليلة هنا فماذا نؤمل خيرًا من ذلك؟».

فصاح رازوميهين في نشوة: «أنت... أنت... تفهميني لأنك ملاك! هيا بنا! وأنت يا نستاسيا! أسرعي إلى غرفته ومعك النور، واجلسي عنده وسأحضر بعد ربع ساعة».

لم تقتنع بولكيريا ألكسندروفنا كل الاقتناع، ولكنها لم تقاوم أكثر من ذلك. ومدّ رازوميهين ذراعًا لكل منهما ونزل بهما السلم، وكانت الأم لا تزال قلقة من جهة أخرى، فقد يكون كفؤًا طيب القلب، ولكن أيقدر على تنفيذ وعده وهو في هذه الحالة..؟

وأخذ رازوميهين يقطع الطريق بخطوات العمالقة دون أن يلاحظ أن السيدتين تجدان صعوبة في مسيرته.. وفجأة قطع سلسلة أفكاره السيدة رسكولنكوف، وكأنه قرأ ما يدور بخلدها..

- آه.. فهمت الآن.. إنك تظنني في حالة مضطربة.. ولكن أي خطأ أريد أن أقول.. إني شربت كالمعتوه، ولكن ليس هذا هو لب الأمر.. فلم أسكر من الخمر، بل صعدت الخمر إلى رأسي من رؤيتكما.. لا تهتما

بحدِيثي... فَإِنِي لَا أَقُول إِلَّا هَرَاءَ، وَلَسْتُ جَدِيرًا بِكَمَا! لَسْتُ جَدِيرًا بِكَمَا
قِطْعًا! فَإِذَا مَا أَبْلَغْتَكُمَا إِلَى مَسْكَنِكُمَا عَمَدَتِ إِلَى دَلَوَيْنِ مِنَ الْمَاءِ فَصَبَبْتُهُمَا
عَلَى رَأْسِي عِنْدَ الْبَالُوْعَةِ فَأَعُوْدُ إِلَى صَوَابِي... لَوْ تَعَرَّفَانِ إِلَى أَحَدٍ حِدٍ
أَحْبَبَكُمَا أَنْتُمَا الْاِثْنَيْنِ! لَا تَضْحَكَا وَلَا تَغْضَبَا! قَدْ تَغْضَبَانِ مِنْ أَيِّ إِنْسَانٍ،
وَلَكِنْ لَا تَغْضَبَا مِنِّي! إِنِّي صَدِيقُهُ، فَأَنَا صَدِيقُكُمَا أَيْضًا، إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَكُونَ...
كَانَ لَدَيَّ شَعُورٌ سَابِقٌ.. فَقَدْ وَقَعَ فِي قَلْبِي مَرَّةً فِي السَّنَةِ الْمَاضِيَةِ... لَسْتُ
أَزْعَمُ أَنَّهُ شَعُورٌ سَابِقٌ، إِذْ كُنَّا كُنَّا سَقَطْتُمَا الْآنَ مِنَ السَّمَاءِ، وَأَغْلَبَ ظَنِّي
أَنِّي لَنْ أَذُوقَ نَوْمًا طَوَالَ اللَّيْلَةِ... لَقَدْ كَانَ زَوْسِيمُوفُ يَخْشَى عَلَيْهِ مِنْذُ حِينٍ
قَصِيرٍ أَنْ يَفْقِدَ عَقْلَهُ... وَهَذَا هُوَ السَّبَبُ فِي أَنَّهُ لَا يَجِبُ إِهَاجَتُهُ.

فَصَاحَتِ الْأُمُّ: «مَاذَا تَقُولُ؟».

وَذَعَرَتْ أَفْدُوتِيَا رُومَانُوفْنَا وَسَأَلَتْ: «هَلْ قَالَ الطَّبِيبُ هَذَا الْقَوْلَ
حَقًّا؟».

فَأَجَابَ: «نَعَمْ! وَلَكِنْ الْأَمْرُ لَيْسَ كَذَلِكَ! فَقَدْ أَعْطَاهُ مَسْحُوقًا رَأَيْتُهُ
يُعْطِيهِ إِيَّاهُ عَلَى سَبِيلِ الدَّوَاءِ. وَلَكِنْ مَجِئْتُكُمَا إِلَى دَارِهِ... كَانَ مِنَ الْخَيْرِ أَنْ
تَجِئَا غَدًا... وَحَسَنًا فَعَلْنَا بِتَرْكِهِ وَحْدَهُ. وَبَعْدَ سَاعَةٍ سَيَخْبِرُكُمَا زَوْسِيمُوفُ
نَفْسَهُ بِكُلِّ شَيْءٍ، فَهُوَ مَالِكٌ لِكُلِّ حَوَاسِهِ، وَأَمَّا أَنَا فَسَوْفَ أَمْلِكُ وَعَيِّي بَعْدَ
قَلِيلٍ... أَنَا... مَا الَّذِي دَفَعَنِي إِلَى الْإِكْثَارِ مِنَ الشَّرَابِ؟ لِأَنَّهُمْ دَفَعُونِي إِلَى
الْجِدَالِ.. لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ.. مَعَ أَنِّي أَقْسَمْتُ أَلَّا أَجَادِلَ أَحَدًا، وَلَكِنْهُمْ كَانُوا
يَفْوَهِونَ بَآرَاءَ تَافَهَةٍ حَتَّى كَدْتُ أَضَارِبُهُمْ.. وَلَقَدْ تَرَكْتُ عَمِي لِيَشْرَفَ
عَلَيْهِمْ! هَلْ تَصَدِّقَانِ أَنَّهُمْ يَصْرُونَ عَلَى أَلَّا وَجُودَ لِإِرَادَةِ الْفَرْدِ، وَأَنَّهُمْ
لِيَحْبُونَ أَلَّا يَكُونُوا أَنْفُسَهُمْ بَلْ أَنْ يَكُونُوا أَبْعَدَ النَّاسِ عَنْ شَخْصِيَّتِهِمْ؟..

هذا ما يزعمون أنه أعلى درجات الرقي.. ولو أن الهراء الذي يتحدثون به كان من عندهم لالتمست لهم العذر فيه، ولكنهم...».

وقاطعته پولكيريا ألكسندروفثنا في حياء قائلة: «أصغ إليّ..».

ولكن مقاطعتها لم تزد النار إلا وقوداً.. فصاح رازومييهين في صوت أعلى من ذي قبل:

- ماذا تظنين؟ هل تظنين أنني أحمل عليهم لأنهم يتكلمون هراء؟ كلا، مطلقاً! فإني أحب منهم مثل هذا الهراء، فهذه هي الميزة الوحيدة التي منحت للإنسان فوق كل الخليفة... فمن الخطأ نصل إلى الصواب، وأنا إنسان لأنني أخطئ.. ولن نصل إلى الحقيقة إلا بعد أن نخطئ أربع عشرة مرة، بل من الراجح أننا لا نصل إلى الحق إلا بعد مائة وأربع عشرة مرة من الخطأ.. وهذا أمر جميل في نوعه، ولكن ما الرأي إذا كنا لا نستطيع أن نرتكب هذه الأخطاء لحسابنا نحن؟ لا مانع من أن تلقى القول جزافاً على أن يكون ذلك قولك أنت، فإذا فعلت ذلك قبلتك من أجله.. فإن الخطأ بطريقة المرء الخاصة أفضل كثيراً من الصواب المنقول عن غيره، فأنت في الحالة الأولى إنسان، أما في الثانية فإنك حاكية مقلدة، والمقلد قد ينطق بالحق ولكنه يشل عقله ويعطل حياته؛ وهنالك أمثلة على ذلك.. وماذا نفعل نحن الآن، في العلوم والتقدم والفكر والاختراع والحرية والأحكام والتجارب.. في كل شيء، في كل شيء، في كل شيء؟ لا نزال في الفصل الإعدادي من المدرسة.. لقد فضلنا أن نعيش على آراء الآخرين، وألفنا ذلك!

ثم صاح رازومييهين وقد ضغط على يدي السيدتين وهزهما: «ألست

على صواب؟ ألسـت على صواب؟».

فـقالت بـولـكـيرـيا أـلكـسـنـدروثـنا المـسـكـينـة: «رباه.. لا أعلم!».

وأضـافـت أفـدوتـيا رومانوفـنا في جـد: «نعم، نعم.. وإن كنت لا أنفق معك في جميع المسائل».. ثم خرجت منها صرخة، إذ بلغ ضغط يد رازوميهين على يدها مبلغًا عظيمًا..

فصاح رازوميهين مبتهجًا:

- نعم؟ أنت تقولين نعم؟ إنك.. منبع الطيبة والطهر والعقل و... والكمال! أعطيني يدك! أعطيني! وأنت أيضًا أعطيني يدك! فإني أريد أن أقبل يديكما هنا في الحال.. وأنا راعع على ركبتني..

وركع على الرصيف، وكان الطريق لحسن الحظ في هذه اللحظة خاليًا من الناس..

وصاحت بولكيريا ألكسندروثنا وهي في ارتباك كبير: «دع هذا، أرجوك! ماذا تفعل؟».

وقالت دنيا وهي تضحك وإن كانت مرتبكة أيضًا: «انهض! انهض!».

- لن أفعل حتى تعطيني يديكما لأقبلهما! حسبي هذا! فلا نهض! ولنستمر في طريقنا.. إني رجل أحقق سيئ الحظ غير جدير بكما، مخمور.. وإني لشديد الخجل منكما.. لست جديرًا بأن أحبكما، ولكن الركوع أمامكما لإبداء الولاء هو واجب كل إنسان ليس بالحيوان الأعجم! وهذا أنا قد أبديت ولائي... هذا هو مسكنكما.. لقد كان روديون على حق في طرد بيوتر بتروفتش، فكيف جرؤ على أن يسكنكما في هذا المكان؟

إنها لفضيحة.. هل تعلمان نوع الناس الذين يسكنون هذه الدار؟ وأنت خطيئته؟ وأنت خطيئته؟ نعم؟ إذن فلتعلمي أن خاطبك وغدا!

وابتدأت پولكيريا ألكسندروفنا تقول: «معدرة يا سيد رازوميهين، إنك نسيت...».

فأسرع رازوميهين بالاعتذار قائلاً: «نعم! نعم! لك الحق.. فأني نسيت نفسي، وإني لخجل من ذلك.. ولكن.. ولكن لا تغضبي مني للكلام على هذه الصورة.. فأني أتكلم مخلصاً؛ لأنني.. هذا أمر حقير! والواقع أن ذلك لم يكن لأنني.. على كل حال لن أقول لماذا! لا أجروا!.. ولكننا رأينا جميعاً عند دخوله أن هذا الرجل ليس منا، ولم يكن ذلك لأنه صفف شعره عند الحلاق وجعده، ولا لأنه كان على عجل لإبراز ذكائه، ولكن لأنه جاسوس ومغامر ومستغل وسخيف، وهذا واضح.. أتظنينه ذكياً؟ إنه لغبي. غبي! هل تظنينه جديراً بك؟ هل تريان يا سيدتي؟».

ووقف فجأة في السلم المؤدي لمسكنهما.

- إن الذين في مسكني كلهم سكارى، ولكنهم جميعاً مع ذلك مخلصون شرفاء.. ومهما يقولوا من سخافات أشارك فيها بنصيبي، فإننا نصل بحديثنا آخر الأمر إلى الحقيقة؛ لأننا في الطريق السوي.. بينما بيوتر بتروفتش.. ليس في هذا الطريق السوي.. لقد كنت أشتهمم بشتى الشتائم منذ هنيهة، ولكنني مع ذلك أحترمهم جميعاً.. وإذا كنت لا أحترم زاميتوف فأني أحبه؛ لأنه كالكلب الصغير.. وأما هذا الثور الضخم زوسيموف فأني أحبه؛ لأنه رجل أمين يعرف عمله! ولكن كفى! لقد قلت كل شيء، وقد صفحتما عما قلت.. أغفرتما لي ما قلت؟ حسناً! هيا بنا! إني أعرف

هذا الممر.. وقد جئته من قبل، وهنا في الغرفة رقم ٣ حدثت فضيحة.. أين تسكنان؟ أي رقم؟ ثمانية؟ اقفلا على أنفسكما الباب طول الليل، ولا تسمحا لأحد بالدخول.. وسأحمل إليكما أخباره بعد ربع ساعة، ثم آتيكما بزوسيموف بعد نصف ساعة! وستريان أني سأفعل! وداعًا! سأذهب جريًا الآن!

وسألت پولكيريا ألكسندروفنا ابتتها في قلق ومضايقة: «رباه! ماذا عسى أن يحدث يا دنيا؟».

فأجابت دنيا وهي تخلع قبعتها ومعطفها: «لا تقلقي يا أماه، فقد ساق الله لنا هذا السيد لمساعدتنا، ولو أنه أتى إلينا من صحبة اجتمعوا على خمر.. وأؤكد لك أنه يمكن الاعتماد عليه، وقد فعل كل ذلك من أجل أخي...».

- آه يا دنيا! الله يعلم هل يعود.. كيف رضيت بمغادرة روديا؟ وما أبعد.. ما أبعد.. ما أبعد حقيقة هذا الاجتماع من الخيال الذي كنت أصوره لنفسني! لشد ما كان عابسًا حتى لكان لقاءنا لم يسره.. وانحدرت من عينيها الدموع..

فقالت دنيا: «لا، ليس الأمر كذلك يا أماه! إنك لم تبصري أنك كنت تبكين طول الوقت، فقد أذهله ذلك المرض الخطير. وهذا هو السبب!..»
- هذا المرض! ماذا يحدث بعد؟ ماذا يحدث بعد؟ ألم تري كيف كان يتحدث إليك يا دنيا؟

قالت الأم ذلك وهي تنظر في حياء نحو ابتتها تحاول أن تقرأ أفكارها،

وهي مرتاحة لدفاع دنيا عن أخيها، ففي ذلك ما يدل على أنها غفرت له خطأه نحوها. ثم أضافت: «إني على ثقة من أنه سيكون أحسن تقديرًا للأمور في الغد...»، تريد بهذا القول أن تتعرف مشاعر ابنتها..

وأجابت أفدوتيا رومانوفنا إجابة قاطعة: «إني على ثقة من أنه سيقول في الغد في هذا الموضوع ما قاله اليوم!».

ووقف الخوض في هذا الحديث عند هذا الحد، فقد كانت بولكيريا ألكسندروفنا تخشى أن تكثر الخوض فيه، وذهبت دنيا إلى أمها وقبلتها، وضمت الأم ابنتها في حرارة دون أن تقول شيئًا، ثم جلست وهي تنتظر عودة رازوميهين في قلق وتراقب ابنتها في توجس.. وكانت دنيا تسير في الغرفة ذهابًا وجيئة وقد شبكت ذراعيها غارقة في أفكارها، وكان السير ذهابًا وجيئة من عاداتها حتى تفكر، وكانت الأم تخشى دائمًا أن تقطع تفكير ابنتها في مثل هذه الأوقات..

ومما لا ريب فيه أن العاطفة التي نشبت فجأة لدى رازوميهين وهو مخمور كانت مضحكة، ولكننا إذا صرفنا النظر عن شذوذ طريقته لم يتعذر علينا أن نلتمس له العذر في هيامه بالفتاة، فإن من رآها في تلك اللحظة وهي مفكرة حزينة تسير في الغرفة وقد شبكت ذراعيها ظهر له عذر الفتى واضحًا..

فقد كانت أفدوتيا رومانوفنا بادية الحسن فارعة متناسبة القامة، فيها قوة واعتماد على النفس.. وكانت هذه الصفة بارزة في حركاتها، وإن كانت لا تنقص شيئًا من رقتها ونعومة حركاتها. وكان وجهها يشبه وجه أخيها، ولكنها كانت جديرة بوصف الجمال حقًا، وكان شعرها بني اللون، إلا أنه

أزهر من شعر أخيها، وكانت عيناها تميلان إلى السواد، فيهما لمعة الأنفة ولكنهما كانتا أحياناً تفيضان رقة تجل عن الوصف. وكان لونهما حائلاً ولكن ذلك لم يكن عن مرض، إذ كان وجهها يلمع نضارة وصحة، أما فمها فكان أقرب إلى الصغر، وكانت الشفة السفلى حمراء مزهرة تبرز قليلاً، إلا أنه أكسب وجهها طابعاً خاصاً وتعبيراً يكاد ينطوي على شيء من الكبرياء. وكان هذا الوجه يوحى الجد والتفكير أكثر من إبحائه المرح، ولكن ما كان أجدره بالابتسامة، وما أكثر ملاءمته لضحك الشباب الخالي من الهموم! فكان من الطبيعي لمن كان مثل رازومييهين عملاقاً صريحاً بسيطاً مندفعاً شريفاً، ولم يكن في كامل حواسه من تأثير الخمر، أن يحس أنه لم ير أحداً من قبل مثلها حسناً، وأن يفقد عقله هياماً بها.. وقد ساقه القدر فوقعت عينه عليها لأول مرة وقد تأثرت بحبها لأخيها وفرحها بلاقائه، ثم رآها وشفقتها السفلى ترتعش غضباً للكلمات المهينة القاسية الظالمة التي فاه بها أخوها، فلم يستطع المقاومة.

على أنه لم يعد الحقيقة حين نطق في ثرثرة السكر وهو على السلم، فقال إن پرسكوفيا بقلوثنا صاحبة مسكن رسكولنكوف الغربية الأطوار لا بد أن تغار عليه من پولكيريا ألكسندروفنا ومن أفدوتيا رومانوفنا، فقد كانت پولكيريا ألكسندروفنا في الثالثة والأربعين من عمرها، وكان وجهها لا يزال يحتفظ بآثار جمالها السالف، بل لقد كانت تبدو أصغر سناً مما هي في الحقيقة، وهذا ما يحدث عادة للنساء اللاتي يحتفظن بهدوء خاطر ورقة القلب وحرارته الصافية الخالصة حتى يبلغن الشيخوخة. بل نستطيع أن نقول إن الاحتفاظ بهذا الهدوء هو الوسيلة الوحيدة للاحتفال بالجمال

في الشيخوخة، ولقد بدأ شعرها وخطه الشيب وخف عما كان، وظهرت منذ زمن تجاعيد صغيرة حول عينيها، وغازت وجنتها من الهموم والأحزان، ولكن وجهها كان لا يزال عليه مسحة من الجمال، فهي صورة من دنيا بعد أن يمر عليها عشرون عامًا، وإن كانت الشفة البارزة من خصائص الفتاة. وكانت بولكيريا ألكسندروفنا جياشة العاطفة وإن لم تكن شديدة التأثير، فيها حياء ولين جانب، ولكنها لم تكن مفرطة في ذلك، فقد تقبل الكثير من الأمور، وقد تتساهل حتى لقد تفضي بما يخالف آراءها، ولكنها كانت تقف عند حاجز من أمانتها وصيانتها وعقيدتها فلا يستطيع شيء أن يحملها على تعديه.

ولم تمض إلا عشرون دقيقة على رحيل رازوميهين حتى قرع الباب مرتين في هدوء وسرعة معًا.. لقد عاد!

وعندما فتح الباب أسرع الفتى يقول: «لن أدخل فليس لديّ الوقت لذلك.. إنه ينام نومًا هادئًا عميقًا، وأسأل الله أن ينام عشر ساعات.. وقد تركت نستاسيا إلى جانبه وأمرتها ألا تتركه حتى أعود، وسأذهب لآتي بزوسيموف ليدي رأيه لكما ثم تأويان إلى فراشكما، فإني أرى أنكما متعبتان حتى لا تكادان تقويان على عمل...».

وجرى في الممر لينزل السلم..

فقالت بولكيريا ألكسندروفنا وقد سرت غاية السرور: «ما أبرع هذا الشاب وما أخلصه...».

وقالت أفدوتيا رومانوفنا في شيء من الحماسة وقد استأنفت السير ذهابًا وجيئة:

- يظهر أنه شخص عظيم..

وبعد مضي نحو ساعة سمع وقع أقدام بالمر ثم طرق على الباب، وفي هذه اللحظة كانت المرأتان تنتظران في ثقة أن يفى رازومييهين بوعده. وقد كان ما توقعته، فقد عاد إليهما في صحبة زوسيموف. ولم يجد في ذلك مشقة، إذ إن الطبيب بادر إلى الاستجابة، وترك الوليمة ليذهب إلى رسكولنكوف. ولكنه لم يتقدم نحو السيدتين إلا بعد تردد واسترابة؛ لأنه كان قليل الوثوق بكلام رازومييهين وهو في مثل حالته. على أنه ما لبث أن رضيت نفسه، حين رأهما تتلقيان أقواله كما يتلقى العابد الوحي الذي يهبط عليه، ويمضي معهما عشر دقائق كاملة، استطاع فيها أن يقنع پولكيريا ألكسندروفنا ويطمئنها، وأظهر في حديثه اهتمامًا عظيمًا بصحة المريض مع الرزانة والتحفظ، شأن طبيب في السابعة والعشرين من عمره دُعي لاستشارة خطيرة، ولم يحد عن الموضوع قيد شعرة، ولم يحاول الخوض في أمور شخصية. وقد لاحظ منذ دخوله جمال أفدوتيا رومانوفنا الرائع، إلا أنه حاول ألا يعيرها أقل التفات، بل كان يخاطب پولكيريا ألكسندروفنا وحدها..

وكان يشعر في نفسه بارتياح باطن لكل هذا، وقد صرح أن حالة المريض تسير سيرًا يبعث على الرضا الكبير، وفي رأيه أن أحد أسباب مرضه هو سوء أحواله المادية في الأشهر الأخيرة، وأن الأسباب الأخرى ناشئة من بواعث معنوية، فهو - على تفسيره - نتيجة مؤثرات مادية ومعنوية، من قلق ومخاوف ومتاعب، ومن بعض آراء تعصف به وغير ذلك. ولاحظ زوسيموف خلصة أن أفدوتيا رومانوفنا كانت تصغي إلى الحديث في اهتمام

كبير، فانطلق يسهب فيه.. وسأله بولكيريا ألكسندروفنا في قلق وحياء عما إذا كان لم يلاحظ على ابنها شيئاً من أعراض الجنون، فأجاب في ابتسامة هادئة صريحة أنه قد بولغ في تأويل قوله، فإن رسكولنكوف إنما يضمم فكرة ثابتة تشبه أعراض الجنون عند ذوي الفكرة الثابتة. وأبدى زوسيموف أنه في ذلك الوقت يوجه اهتمامه لدراسة هذا الفرع الطبي الممتع، على أنه يجب ألا ينسى أن المريض ظل إلى اليوم فاقد الصواب، وأن حضور أسرته لا بد أن يكون له تأثير حسن في إبلاله من المرض، إذ إن ذلك يشغل باله ويصرفه عن القلق، ولكنه اشترط في حديثه شرطاً، ولفت الأنظار إليه، وذلك أن يتجنب الهزات الجديدة. ثم نهض واستأذن في الانصراف بانحناء ودي مهيب، بينما كانت عبارات الشكر والاعتراف بالجميل والدعاء تنهال عليه، ومدت إليه أفدوتيا رومانوفنا يدها في غير تكلف، وخرج وهو راض كل الرضى عن زيارته، وإن كان أكثر رضاء عن نفسه..

واختتم رازوميهين الحديث بقوله وهو يسير خارجاً وراء زوسيموف: «ستحدث غداً.. أما الآن فاذهبا إلى الفراش، وسأتي إليكما بأخباره بقدر ما أستطيع التبكير في الصباح».

وما إن وصلا إلى الشارع حتى قال زوسيموف وهو يلحق شفثيه بلسانه: «إن أفدوتيا رومانوفنا لفتانة بلا ريب..».

فصاح رازوميهين وقد انقض على الطبيب وأمسكه من رقبته: «فتانة؟ أتقول فتانة؟..» ثم دفعه بشدة إلى الحائط صائحاً وهو ممسك بطوق قميصه: «إذا جرؤت مرة أخرى.. أفاهم أنت؟ أفاهم أنت؟ أسمع ما أقول؟».

فقال زوسيموف محاولاً التخلص منه: «دعني أيتها الشيطان
المخمور...»، فلما تخلص منه أطل النظر إليه ثم اندفع فجأة يقهقه بأعلى
صوته.

فقال رازوميهين وعلى وجهه غمامة تلهف وتفكير: «لا ريب أنني
حمار، ولكنك حمار أيضًا..».

- لا يا صديقي، فإني لا أحلم بالسخافات..

ثم سارا في صمت حتى صارا على مقربة من منزل رسكولنكوف،
وكان الفتى بادى القلق حتى قطع الصمت قائلاً:

- أصغ إلي.. إنك من خيرة الناس، ولكن من بين نقائصك أنك
مولع بالفساد، بل أنت قذر في ذلك.. ففي هذا المجال تبدو وغداً خائراً
ضعيف الأعصاب لا تزيد على كتلة من الأهواء، وقد استولى عليك السمن
والكسل فصرت لا تحب أن تحرم نفسك شيئاً، وهذا ما أسمىه قذارة.. لأنه
يؤدي إلى القذارة.. وقد ركنت إلى الترف، حتى أنني لا أستطيع أن أفهم
كيف بقيت طبيباً ممتازاً ومخلصاً.. أتريد وأنت طبيب أن تنام على فراش
من الريش ثم تقوم في الليل لإسعاف المرضى؟ لن تمضي ثلاث سنوات
أو أربع حتى تعدل عن قيامك لهم... ولكن لعنة الله على كل ذلك! فليس
هذا ما أقصد، إنما أريد أن أقول إنك ستنام الليلة عند صاحبة المسكن، وقد
وجدت صعوبة في إقناعها بذلك. أما أنا فسأنام في المطبخ، وستتاح لك
الفرصة للتعرف إليها.. وليست كما تظن، فإن لن تجد عندها أثراً من.....
- إنني لم أفكر في شيء من ذلك..

- هناك تجد التواضع يا صديقي والصمت والحياء والفضيلة النافرة..
ولكنها مع ذلك تتنهد وهي تذوب كالشمع ذوبًا! أنقذني منها بحق الشيطان!
إنها لجاذبة... وسأرد إليك الجميل وأعمل كل ما يرضيك!

فضحك زوسيموف من أعماق قلبه وقال: «من السهل أن ألحظ أنك
متيم! ولكن ماذا تريدني أن أفعل؟».

- أوكد لك أنك لن تجد صعوبة كبيرة.. حادثها أي حديث فارغ
مادمت تجلس إلى جانبها وتتكلم! ثم إنك طبيب، فحاول أن تشفيها من
مرض من الأمراض.. وأقسم أنك لن تندم. إن لديها بيانو، وأنت تعلم أنني
أعزف قليلًا، وقد غنيت لها أنشودة روسية خالصة وهي أغنية «إني أذرف
الدموع السخينة، فهي تحب النوع الشجي من الغناء، وقد كانت تلك أول
بدايتنا! أما أنت فاستاذ ماهر في العزف على البيانو تجيده مثل روبنشتين!
وإني واثق أنك لن تندم!

- ولكن هل وعدتها بشيء؟ هل وقعت شيئًا؟ أو لعلك تعهدت
بزواجها؟

- لا! لا! لا! لم أفعل قط شيئًا من ذلك! ثم إنها ليست من هذا القبيل...
ولقد حاول تشيباروف هذا...

- إذن فاهجرها!

- ولكنني لا أستطيع هجرها على هذه الصورة..

- لم لا؟

- لا أستطيع! هذا كل شيء! في المسألة عنصر من الجاذبية يا صديقي.

- إذن لماذا سحرتها بحبك؟

- إني لم أسحرها؟ بل قد تكون هي التي سحرتني لحماقتي، ولكنها لن تبالي أهو أنا أم غيري، ما دام إنسان يجلس إلى جانبها ويتنهد... لا يمكنني أن أوضح الموقف أيها الأخ.. انظر إليّ! إنك ماهر في الحساب وتزاوله الآن.. فابتدئ بتعليمها قواعد التكامل والتفاضل، وأقسم أنني لا أمزح بل أقول لك جاداً إن هذا وذاك سيان لديها.. فهي ستسرح الطرف فيك وتتنهد سنة كاملة! لقد تحدثت إليها من مدة يومين كاملين عن مجلس الشيوخ الروسي! إذ هي لا تهتم إلا بأن تسمع حديثاً ما، فكانت تتنهد وتتصب عرقاً! ويجب ألا تتحدث إليها عن الحب فهي خجول، وقد يبلغ بها الحياء حد الصرع.. وكل ما عليك أن تظهر لها أنك لا تستطيع فراقها، فهذا حسبها! أما المسكن فالراحة فيه بالغة، تشعر فيه بأنك في دارك، فلك أن تقرأ أو تجلس أو ترقد أو تكتب.. ويمكنك أن تجرؤ على قبلة لو كنت لبقاً..

- لكن ما الذي يحملني على هذا كله؟

- إذن فقد أخفقت في إفهامك! أنت ترى أن كلا منكما للآخر، وكثيراً ما كنت أذكرك وأنا عندها، ولا بد أن ينتهي الأمر إلى ذلك. فما الداعي لأن يكون آجلاً ما يمكن أن تبلغه عاجلاً؟ وإنه لمما يساعد عليه أنك تحب الفراش الوثير من الريش يا صديقي.. وليس ذلك فحسب، بل هنا جاذبية الوصول إلى نهاية العالم، إلى المرسى، إلى الميناء الهادئة، إلى سرّة الأرض، إلى السمكات الثلاث التي يقوم عليها العالم، إلى خلاصة الكعك وفطائر السمك الشهية، ومشارب الشاي في المساء، والتنهيدات الناعمة،

والأغطية الدافئة، والأفران الساخنة للنوم عليها، فتشعر بهدوء الموت وأنت حي، وتنعم بمزايا الحاليتين! لعنة الله على الحديث أيها الصديق! ففيم نتكلم؟.. لقد حان وقت النوم، فأصغ إلي! إني أستيقظ أحياناً في الليل، فإذا استيقظت فسأذهب لأرى روديون، وإن كنت أظن أن ليس به شيء، فلا تقلق نفسك، وإذا آنست في نفسك ميلاً لرؤيته فاقصده مرة، فإذا لاحظت أي شيء غير عادي كهذيان أو حمى، فأيقظني في الحال، ولكنني لا أظن هذا يحدث...

(٢)

استيقظ رازومييهين في صباح اليوم التالي بعد الساعة السابعة، حزينًا مشغول البال بأمور شتى لم يكن يتوقعها، ولم يكن يتصور من قبل أنه استيقظ على حالة مثلها. وقد تذكر كل صغيرة وكبيرة من الليلة السابقة وشعر بأنه حيال تجربة جديدة وقعت له ولم يسبق لها عنده مثيل. وأدرك في الوقت ذاته أن الحلم الذي ألهب خياله لا يمكن تحقيقه بحال من الأحوال حتى لقد خجل منه فلم يطل التفكير فيه، وصرف ذهنه إلى سواه من هموم الحياة، وإلى المصاعب التي ورثها عن ذلك اليوم اللعين..

ولعل أفزع ذكرى من اليوم السابق هي المظهر الذي ظهر فيه خسيسًا حقيرًا، لم تقف دناءته عند حد السكر بل دفعته إلى استغلال موقف الفتاة لكي يطعن في خاطبها لما شعر به من غيرة سخيفة. فهو لا يعرف شيئًا عما بينهما من علاقات وروابط، ولا يكاد يعرف شيئًا عن الرجل نفسه، فبأي حق أباح لنفسه أن ينتقده بهذه الطريقة التي تنم عن تسرع وشطط؟ ومن طلب إليه إبداء رأيه؟ وماذا اعتراه حتى ذهب به الظن إلى أن فتاة كاملة،

مثل أفدوتيا رومانوفنا تتزوج من رجل حقير طمعاً في ماله؟ إذن فلا بد أن للرجل مزايا! ثم حديث المسكن! كيف كان يتسنى للخاطب أن يعرف حقيقة ذلك المسكن؟ ومع ذلك فهو يؤثث شقة لسكناهما! يا لحقارة ما أتاه! فكيف يعتذر من ذلك بالسكر؟.. إنه لو اعتذر لكان العذر أقبح من الذنب! لقد قيل إن الخمر تكشف الحقيقة، وقد كشفت الخمر عن حقيقة نفسه وما ينطوي عليه قلبه الوضيع من غيرة وإسفاف! وهل من اللائق به - وهو رازوميهين - أن يطوع لنفسه مثل هذا الحلم؟ فمن هو إلى جانب هذه الفتاة.. سكير ليلة الأمس الثرثار المعربد؟ أكان من الممكن له أن يتخيل مثل هذه المقارنة السخيفة الوقحة؟..

واحمر وجه رازوميهين احمراراً شديداً عندما عادت إليه ذكرى هذه الفكرة، وذكرى ما قاله ليلة أمس وهو في السلم عن صاحبة المسكن وأنها بغير شك تغار عليه من أفدوتيا رومانوفنا.. كانت هذه الذكرى مما لا يمكن احتمالها، فضرب بقبضته على موقد الطهو ضربة قوية ألمت يده وأطارت قالباً من الطوب منه..

وتمتم لنفسه بعد دقيقة.. وهو يشعر بالخزي: «لا جرم إن هذه السيئات المخجلة لا يمكن محوها أو إصلاحها... فلا جدوى إذن من التفكير فيها، فلأذهب إليهما في صمت... ولأقم بواجبي.. في صمت أيضاً.. لا أسأل الصفح.. ولا أقول شيئاً، فلا شك في أنني قد خسرت كل شيء...».

ومع ذلك فإنه حين ارتدى ثيابه فحصها بعناية أكثر من عادته، ولم تكن له غير بذلة واحدة ولو كان له سواها لما ارتداها. وقال في نفسه: «لو كان لي غيرها لتعمدت ألا ألبسها...».

ومع ذلك فإنه لم يرض أن يظهر في هيئة المستهتر القذر، قائلاً في نفسه إنه ليس من حقه أن يجرح إحساس الآخرين، لا سيما وهما في حاجة إلى مساعدته وقد طلبتا منه زيارتهما. وعلى ذلك نظف ثيابه بالفرشاة في عناية، أما قميصه فكان دائماً نظيفاً، وكان يعني بنظافته عناية خاصة. واحتفل في ذلك الصباح بنظافة جسمه، وطلب من نستاسيا أن تحضر له شيئاً من الصابون، فغسل شعره ورقبته، وبالع في تنظيف يديه وتردد حيناً بين حلق ذقنه الخشنة أو تركها. وكان يعرف أن لدى پراسكوفيا بقلوئنا أموالاً جيدة للحلاقة من مخلفات زوجها المتوفى السيد زارنتزين، ولكنه حزم رأيه في غضب وآثر ألا يحلق قائلاً: «فلتركها كما هي! ماذا يكون لو ظننت أنني خلقت عمداً لكي... لا أشك في أنهما ستظنان ذلك! لن أفعل هذا أبداً».

وقال في نفسه: «إن شرّ ما في الأمر أنني متبدل قذر، أتأدب بآداب المواخير وأدعي أن لي بعض صفات الرجل الشريف.. فما في ذلك مفخرة لي، فإن الواجب على كل إنسان أن يكون شريفاً! وأشرف مني! فلقد ارتكبت خطايا صغيرة لا أزال أذكرها.. لا أقول إنها تبلغ الخيانة، ومع ذلك فكثيراً ما كانت الأفكار أسوأ من الأفعال! فكيف أضع نفسي بعد ذلك في مستوى أفدوتيا رومانوفنا؟.. ألا لعنة الله على ذلك! سأعتمد إلى أن أكون متبدلاً قذراً سافلاً ولن أبالي شيئاً!».

وبينما هو يحدث نفسه بهذا دخل عليه زوسيموف بعد أن قضى الليل في غرفة الزوار عند پراسكوفيا بقلوئنا، وكان يريد الذهاب إلى داره، ولهذا كان على عجل لرؤية المريض قبل ذلك، فأخبره رازوميهين بأنه نائم كالقار، فأوصاه زوسيموف بألا يوقظه أحد. ووعد بزيارته مرة ثانية في

نحو الساعة الحادية عشرة.

وقال الطبيب: «سأزوره إذا كان يلازم مسكنه! لعنة الله على ذلك! إذا كان الطبيب لا يسيطر على مرضاه فكيف يشفيهم؟ هل تعلم ما إذا كان سيذهب إليهما أم أنهما ستأتیان إليه؟».

وأدرك رازوميهين المقصود من السؤال فأجاب: «أظن أنهما ستحضران إليه، وسيبحثون معًا بلا ريب أمور الأسرة، ولن أكون معهم حينئذ... أما أنت فلك حق أكبر مني في البقاء معهم بصفتك طبيبًا!».

- ولكني لست قسًا ألتقى الاعترافات! سأحضر ثم أذهب، فإن لديّ أعمالًا كثيرة غير العناية بشئونهم!

فقاطعه رازوميهين مقطبًا جبينه: «شيء واحد يقلقني، وهو أنني أفضيت إليه بكلام فارغ كثير في سكري وأنا أصحبه إلى مسكنه.. ومما ذكرته له.. أنك تخشى عليه من الجنون..».

فقال زوسيموف: «وهل قلت هذا للسيدتين أيضًا؟».

فقال: «أعلم أنني كنت في ذلك غيبًا! فاضربني إذا شئت! لكن أكنت تعتقد فيه هذا الرأي حقًا؟».

- إنه كلام فارغ، فكيف أعتقد فيه؟ إنك وصفته في أول مرة ذهبت بي إليه بأنه مصاب بفكرة جنونية ثابتة.. وقد زدت أنت النار اشتعالًا بالأمس بقصتك عن النقاش، وظننته حديثًا ممتعًا في حين أنه قد يكون مجنونًا في هذه المسألة بالذات! ويا ليتني كنت أعلم عندئذ ما حدث له في مركز الشرطة، فلعل أحد الأوغاد أهانه بالشك فيه.. لقد وددت لو لم يكن حديث الأمس! إن المصابين بفكرة جنونية ثابتة يقيمون جبالًا من الأكوام الصغيرة، ويعتقدون أن أوهامهم

إن هي إلا حقائق ثابتة.. وقد كانت قصة زاميتوف - على ما أذكر - هي التي كشفت لذهني عن أكثر السر! وإني لأعرف حالة مريض بشدة الإحساس في الأربعين من عمره ذبح غلامًا في الثامنة لأنه لم يحتمل الفكاهات التي كان ذلك الغلام يرددها كل يوم على المائدة! فما بالنا بصاحبنا هذا، وهو في أسماه البالية، وضابط الشرطة يجبه بوقاحة، والحمى والشك يجتمعان على رجل يكاد يطير صوابه من مرض أعصابه، فضلًا عن زهوه الكبير المفرط! فلا عجب إذا بدأ مرضه من هذه النقطة! ولكن دعنا من كل هذا! إن زاميتوف شاب ظريف، ولكن... كان يجب ألا يقص كل هذه القصة في الليلة الماضية... إنه ثرثار كبير!

- ولكنه لم يتحدث إلا معي ومعك!

- ومع بورفيري أيضًا..

- وماذا يترتب على ذلك؟

- بهذه المناسبة.. هل لك بعض التأثير على الأم والأخت؟ قل لهما أن يكونا اليوم أكثر احتراसा ومصانعة له.

فأجاب رازوميهين مترددًا: «أظنهما تكونان اليوم على ما ترضى».

فقال الطبيب: «لست أدري ما يحمله على كراهية لوجين.. إنه رجل ثري، ولا يبدو عليها أنها تكرهه.. ثم إنهم على ما أعتقد معدمون لا يملكون شيئًا!».

فصاح رازوميهين متضايقًا: «وما شأنك بهذا؟ ومن أدراني بأنهم لا يملكون شيئًا؟.. فلتسألهم أنت لتعلم الحقيقة!».

- إنك تبدو أحياناً كالحمار! ولم تزل خمر الأمس تصدع رأسك..
أستودعك الله! وأرجو أن تشكر صديقتك پرسكوفيا بفلوفنا نيابة عني
على حسن ضيافتها، فقد أغلقت الباب عليها ولم ترد عليّ تحية الصباح
من خلاله.. مع أنها استيقظت في الساعة السابعة ورأيت إناء الشاي يحمل
إلى غرفتها من المطبخ، ولم تتفضل فتسمح لي بمقابلتها!

وصل رازوميهين إلى مسكن السيدتين في منزل بكاليف عند تمام
الساعة التاسعة. وكانتا تنتظرانه في قلق، وقد استيقظتا في الساعة السابعة
أو قبل ذلك، فدخل عابس الوجه وانحنى متثاقلاً، ولم يلبث أن حنق على
نفسه لذلك، إذ إنه لم يدخل في حسابه مسلك مضيفته، فقد هجمت عليه
بولكيريا ألكسندروفنا وأمسكت بيديه الاثنتين وكأنها تريد تقبيلهما. ونظر
في حياء إلى أفدوتيا رومانوفنا، فإذا محياها المستعلى قد ارتسمت عليه
علامات الاعتراف بالجميل والود والاحترام، بدلاً مما كان ينتظره إذ كان
يحسب أنهما ستقابلانه بنظرات لا تستطيعان إخفاء ما فيها من السخرية
والاحتقار، فكان من أثر ذلك أن استولى عليه من الاضطراب أكثر مما كان
يحدث له لو قيل بالإهانة، ومن حسن الحظ أن كان لديه موضوع الحديث
فابتدأ فيه مبادراً.

ولما علمت بولكيريا ألكسندروفنا أن الأمور تسير سيراً حسناً، وأن
روديا لا يزال نائماً أبدت ارتياحها، ثم أعربت عن رغبتها في محادثته في
أمر ترى من الضروري جداً أن تحدثه فيه ابتداء. ثم أتبعته ذلك بالسؤال
عن الإفطار، ودعته إليه. وقالت إنهما انتظرتا مجيئه ليتناوله معهما. ودقت
أفدوتيا رومانوفنا الجرس، فجاء خادم قذر رث الثياب، فطلبت منه إحضار
الشاي. وجيء به في آخر الأمر، ولكن في غير نظام أو نظافة.. فبدا عليهما

الخبجل، فأخذ رازومييهين يحمل حملة شديدة على المسكن وسوئه، ثم تذكر لوجين فسكت مرتبكًا، ولكن أنقذه من حرج موقفه سيل الأسئلة الذي كان ينصب عليه من پولكيريا ألكسندروفنا.. وقضى ثلاثة أرباع الساعة وهو يتكلم وأسئلتهما تقاطعه، فوصف لهما أهم الوقائع التي عرفها عن حياة رسكولنكوف في السنة الماضية، مختتمًا بوصف مرضه الأخير تفصيلًا. وقد أهمل بطبيعة الحال ذكر ما لا يحسن ذكره، ومن ذلك واقعة مكتب الشرطة وما كان لها من نتائج. وأصغت الممرأتان إليه في اهتمام زائد، ولما انتهى من حديثه وظن أنه أرضى السامعتين، وجد أنهما ما تزالان تنتظران كأنه لم يبدأ الحديث بعد!

وقالت پولكيريا ألكسندروفنا في سرعة: «خبرني ماذا تظن... معذرة فإني إلى الآن لا أعرف اسمك».

- ديمتري بروكوفتش!

- أحب أن أعرف يا ديمتري بروكوفتش.. كيف ينظر ولدي إلى الأشياء.. على وجه عام.. أعني ما هي الأشياء التي يحبها والتي يكرهها؟ وهل كان دائمًا كما هو الآن سريعًا إلى الغضب؟ خبرني إذا استطعت ما هي آماله أو- إذا شئت- أحلامه؟ وأي المؤثرات تحيط به وتؤثر فيه، وبالاختصار أحب..

وقالت دنيا: «كيف تريد أن يجيب على كل هذا في الحال يا أماء؟».

فقالت الأم: «رباه! لم أكن أنتظر أن أراه على هذه الصورة يا ديمتري بروكوفتش...».

فأجاب رازومييهين:

- هذا طبيعي! أنا ليست لي أم، ولكن عمي يأتي كل سنة، وهو في كل مرة لا يكاد يعرفني، ولا يكاد يميز صورتني، مع أنه رجل ذكي.. لقد بُعد عنك ولدك مدة ثلاث سنوات، ولهذا أثر كبير. فماذا أقول لك؟ إنني عرفت روديون منذ سنة ونصف سنة، وهو كثير التفكير، يميل إلى الكآبة، معتد بنفسه متكبر. ومن عهد قريب- وربما كان ذلك منذ زمن بعيد- صار كثير الشكوك، تتسلط عليه الأوهام. وهو في طبيعته طيب القلب كريم، ولكنه لا يحب إظهار مشاعره، وقد يأتي عملاً قاسياً كي يخفي ما في قلبه من شعور فياض.. وقد لا يكون متعصباً، ولكنه مع ذلك يكون بارد الشعور جامد الإحساس، حتى ليقال إن له طبيعتين تظهر إحداهما بعد الأخرى، وأحياناً يميل إلى الصمت، فيزعم أنه كثير المشاغل، وأن العوائق تعوقه عن مشاغله، ومع هذا فإنه يبقى في فراشه ولا يعمل شيئاً، وهو لا يجنح إلى السخرية، لا لأنه خال من روح الفكاهة، بل لأنه لا يحب أن يضيع وقته فيما هو تافه. وهو لا يصغي أبداً لما يقال له، ولا يهتم للموضوع الذي يشغل بال الحاضرين في الساعة التي هم فيها. وهو عظيم الثقة برأيه وكفايته، ولعله على صواب في ذلك.. وماذا أقول بعد ذلك؟ أظن أن قدومكما سيكون له أحسن التأثير في صحته..

- أسأل الله أن يحقق ظنك..

هكذا صاحت پولكيريا ألكسندروفنا وقد انزعجت كثيراً لهذه التصريحات عن صفات ابنها روديا..

وأخيراً اجتراً رازوميهين على النظر في شيء من الشجاعة إلى أفدوتيا رومانوفنا، وكان في أثناء الحديث كثيراً ما يسترق النظر إليها ثم يسرع

فيحول نظره عنها.. أما هي فكانت تجلس أحياناً أمام المائدة وتصغي إليه في اهتمام، وتنهض أحياناً لتسير كعادتها ذاهبة وجائية مكتوفة الساعدين مطبقة الشفتين، ثم تلقي أحياناً سؤالاً بغير أن تقف، وكان من دأبها كذلك ألا تصغي لما يقال. وكانت ترتدي ثوباً من قماش خفيف قاتم وتضع حول رقبتها وشاحاً أبيض صغيراً. ولاحظ رازومييهين منذ رآها ما يدل على فقر مدقع، ولو أن أفدوتيا رومانوفنا كانت مرتدية ثياب ملكة لشعر بأنه لا يخشى جانبها أصلاً! أما وهي في ثيابها الحقيبة والتعاسة تخيم من حولها، فقد امتلأ قلبه رهبة منها وصار يحاذر في كل كلمة ينطق بها، وكل إشارة تبدو منه نحوها، وكان ذلك يشق على رجل مثله كان منذ حين يتهم نفسه ويعنفها على ما فرط منها..

وقالت أفدوتيا رومانوفنا مبتسمة: «إنك سردت لنا دقائق مهمة عن صفات أخي في غير تحيز، ولقد سررت لذلك. فقد كنت أظن أنك تخلص له دون أن تبين عيوبه». ثم أضافت بعد تفكير: «أظنك على حق حين ترى أنه في حاجة إلى عناية امرأة».

- إنني لم أقل ذلك، ولكنك قد تكونين على صواب، على أن...
فسألت: «على أن.. ماذا؟».

فصرح رازومييهين في حزم: «إنه لا يحب أحداً.. بل لعله لن يحب!..».
فقالت: «هل تعني أنه غير قادر على الحب؟».

فأجاب: «هل تعلمين يا أفدوتيا رومانوفنا أنك تشبهين أخاك شبيهاً كبيراً.. بل تشبهينه في كل شيء؟».

وعجب الشاب من نفسه إذ نطق بهذه العبارة، ثم لم يلبث أن تذكر ما

أبداه من رأي في أخيها منذ قليل، فاحمر وجهه احمرارًا شديدًا، واستولى عليه الارتباك.. ولم تمالك أفدوتيا رومانوفنا نفسها من الضحك حين نظرت إليه..

وقالت بولكيريا ألكسندروفنا في بعض الاستياء:

- ربما كان كلاكما مخطئًا في الحكم على روديا... لست أتكلم عن صعوباتنا الحاضرة يا دنيا، فإن ما كتبه بيوتر بتروفتش في هذه الرسالة، وما نظنه نحن- أنا وأنت- قد لا يكون صحيحًا. ولكنك لا تتصور يا ديمتري بروكوفتش إلى أي حد هو متقلب ذو أهواء، وقد كنت لا أستطيع تقدير ما قد يصدر عنه من أفعال، حتى وهو في الخامسة عشرة من عمره، وإني واثقة أنه قد يأتي الآن أعمالًا لا يخطر ببال غيره أن يقوم بها... هل تعرف مثلاً أنه أغضبني، وسبب لي نوبة كادت تقضي عليّ منذ سنة ونصف سنة، حين أصر على الاقتران بتلك الفتاة- ما اسمها- ابنة صاحبة مسكنه؟

وسألته أفدوتيا رومانوفنا: «أعرفت هذه القصة؟».

واستمرت الأم في لهفة: «هل تظن أن دموعي، وتوسلاتي، ومرضي واحتمال موتي حزنًا، وفقرنا، هل تظن أن ذلك كان يحمله على التريث في الأمر؟ لا! إنه كان لا يقيم وزنًا للمصاعب، ومضى في سبيله هادئًا.. ولكن ذلك لا يدل على أنه لا يحبنا!».

فأجاب رازوميهين في احتراس: «إنه لم يحدثني قط في هذا الموضوع، إلا أنني سمعت شيئًا عنه من پرسكوفيا بقلوفنا نفسها، مع أنها ليست ثرثارة. وما سمعته كان حقًا غريبًا...».

وسألت السيدتان معًا: «وماذا سمعت؟».

- لا شيء مما له قيمة! فقصارى ما علمت أن هذا الزواج الذي لم يحل دونه إلا موت الفتاة، لم يكن عن رضا من پرسكوفيا بقلوفنا. ويقال أيضًا إن الفتاة لم تكن قط جميلة، بل لقد قيل إنها كانت قبيحة، ومريضة.. وغريبة الأطوار.. ولكن يظهر أنه رأى فيها بعض صفات حسنة.. ولست أشك في وجود بعض هذه الصفات، وإلا عجزنا عن تفسير الأمر. فإنها لم تكن ذات مال، ولم يكن ليفكر في مالها لو كانت غنية. على أنه من الصعب الحكم في مثل هذه الأمور..

فقالت أفدوتيا رومانوفنا في إيجاز: «لا ريب عندي أن ملامحها كانت جميلة...».

وقالت الأم: «ليغفر الله لي شدة سروري لموتها، وإن كنت لا أدري أيهما كان ينكب بهذا الزواج أكثر من الآخر.. أكانت هي التي تشقيه أم كان هو الذي يشقيها؟».

وبهذا اختتمت پولكيريا ألكسندروفنا ذلك الحديث، وأخذت تسأله في حذر عما حدث في اليوم السابق مع لوجين، وكانت تتردد وتلقي النظرات متلاحقة نحو دنيا. وكانت الفتاة ظاهرة الضيق من هذا، فإن ذلك الحادث سبب لها قلقاً بل غمًا. وشرع رازوميهين يفصل في وصف ما كان مرة ثانية، ولكنه كان عند ذلك يضيف إلى الوصف آراءه هو. فلام رسكولنكوف صراحة لأنه أهان بيوتر بتروفتش عامدًا، ولم يحاول انتحال العذر له أو التعلل بمرضه.

وأضاف قائلًا: «لا بد أنه وضع هذه الخطة قبل مرضه».

ووافقه پولكيريا ألكسندروفنا في وجوم قائلة: «وأنا أظن ذلك

أيضاً!»، غير أنها دهشت كثيراً عندما سمعت رازوميهين يتكلم في حذر ويذكر بيوتر بتروفتش في شيء من التوقير؛ وكذلك لم يخف هذا عن أفدوتيا رومانوفنا..

ولم تستطع پولكيريا ألكسندروفنا إلا أن تسأل: «إذن فهذا رأيك في بيوتر بتروفتش؟».

فأجاب رازوميهين في ثبات وحماسة: «من المستحيل أن يكون لي رأي غير هذا الرأي فيمن سوف يكون زوجاً لابنتك.. لا أقول ذلك مجاملة جوفاء.. بل أقوله لأن أفدوتيا رومانوفنا تفضلت بقبول هذا الرجل بمحض اختيارها.. وإذا كنت قد تكلمت عنه في الليلة الماضية في عنف، فما ذلك إلا لأنني كنت مخموراً غائباً عن الرشاد.. فاقد العقل! نعم! كنت فاقد العقل مجنوناً.. وإني لأشعر اليوم بالخزي مما كان مني».

ثم احمر وجهه احمراراً شديداً وسكت، واحمر وجه أفدوتيا رومانوفنا ولكنها لازمت الصمت، فلم تفه بكلمة منذ بدأ الحديث عن لوجين.

وكانت پولكيريا ألكسندروفنا، بغير تأييد ابنتها، بادية الارتباك. ثم تكلمت مترددة وهي تنظر من لحظة لأخرى إلى دنيا، معلنة أن هنالك مسألة تقلقها إقلاقاً شديداً.. وقالت: «إنك ترى يا ديمتري بروكوفتش.. وأظن أنه لا بأس في أن أحادث ديمتري بروكوفتش بصراحة تامة يا دنيا؟».

فأجابت أفدوتيا رومانوفنا: «بغير شك يا أماه!».

وبدأت الأم حديثها في سرعة، وكأن سماح ابنتها بالكلام عن متاعبها أزاح عبئاً ثقيلاً عن عقلها، فقالت: «المسألة هي هذه: إننا تسلمنا اليوم في الصباح الباكر رسالة من بيوتر بتروفتش ردّاً على رسالتنا التي نعلنه فيها

بوصولنا، وقد تعلم أنه وعدنا بأنه يستقبلنا بالمحطة، ولكنه لم يحضر.. بل أرسل إلينا خادماً ليأتي بنا إلى هذا المسكن ويدلنا على الطريق، وقال إن سيده سيزورنا في هذا الصباح. على أنه في هذا الصباح أرسل إلينا هذه الرسالة، والأوفق أن تتلوها بنفسك فإن بها مسألة تبعث في نفسي أعظم القلق.. وستتضح لك هذه المسألة لأول نظرة إلى الخطاب، فقل لي رأيك فيها صريحاً يا ديمتري بروكوفتش! إنك أعلم من غيرك بأخلاق روديا، ولا نجد خيراً منك نستشير! ولا بد أن أخبرك أن دنيا قد بتت في الأمر بغير تردد، غير أنني لا أدري ما أفعل.. وإني منتظرة رأيك».

ففض رازوميهين الرسالة، وهي بتاريخ الليلة السابقة، وقرأ ما يأتي:

«عزيزتي السيدة پولكيريا ألكسندروفنا

لي الشرف في إخبارك أنه عاقتني عن مقابلتكما بمحطة السكك الحديدية عوائق غير منتظرة، فأرسلت شخصاً موثقاً به لهذا الغرض. وسأحرم أيضاً من شرف مقابلتكما في صباح الغد، لانشغالي بعمل في مجلس الشيوخ لا يمكن تأجيله، ثم لكي لا أكون دخليلاً على دائرة الأسرة، حين تقابلين ابنك أو تقابل أفدوتيا رومانوفنا أحاها. وسيكون لي الشرف بزيارتكما وتقديم تحياتي إليكما بمسكنكما، في موعد غايته مساء الغد في الساعة الثامنة مساء.. وإني لأجرؤ بهذه الرسالة على إبداء رغبتني الشديدة، بل طلبي الملح، في ألا يكون روديون رومانوفتش حاضراً في وقت زيارتي؛ لأنه أهانني أكبر الإهانة بما لم يسبق له مثيل، وذلك حين زرته بالأمس لأعوده في مرضه. ثم إنني أرغب كذلك في أن أحصل منك شخصياً على تفسير مفصل لا أحب أن أتجاوز عنه في مسألة أريد أن أعرف رأيك فيها.

ولي الشرف في أن أبلغك مقدّمًا أنني إذا لقيت روديون رومانوفتش عندك بالرغم من طلبي هذا، فإنني سأضطر إلى الخروج تَوًّا ويكون اللوم واقعًا عليك. وإنني أكتب هذا على فرض أن روديون رومانوفتش، الذي كان يبدو مريضًا جدًّا عند زيارتي له، قد استرد صحته فجأة بعد نحو ساعتين من هذه الزيارة حتى أنه استطاع الخروج من المنزل، فلعله يجد نفسه قادرًا على زيارتكما. وقد ثبت لديّ هذا الظن بشهادة عين. إذ رأيته في منزل رجل سكير دهمته عربة ثم مات. وقد نفح ابنة الرجل بخمسة وعشرين روبل زاعمًا أنها نفقات الجنازة.. وهي فتاة سيئة السيرة. وقد دهشت لذلك كثيرًا، إذ أعلم ما تحملته أنت في سبيل تدبير هذا المبلغ. وإنني إذ أتقدم بتحتيتي الخاصة لابتك الكريمة أفدوتيا رومانوفنا أرجو أن تقبلي خالص التحية والإجلال.

من خادمك المطيع

ب. لوجين»

وسألت پولكيريا ألكسندروفنا والدمع يحول في عينها: «ماذا أفعل الآن يا ديمتري بروكوفتش؟ كيف أستطيع أن أطلب من روديا ألا يحضر؟ لقد أصر بالأمس على رفض بيوتر بتروفتش، وأنت ترى هذا يطلب إلينا الآن ألا نقابل روديا! ولست أشك في أن ولدي سيأتي عامدًا إذا علم بذلك.. فماذا يكون لو حدث هذا؟».

فأسرع رازوميهين قائلاً بهدوء: «اعملي بقرار أفدوتيا رومانوفنا...».

فقالت الأم: «رباه! إنها تقول...- ويعلم الله لماذا ترى هذا الرأي، فإنها لا تفسر غرضها!- إنها ترى من الأوفق، بل من الضروري الحتم، أن

يحضر روديا هنا في الساعة الثامنة، وأنه يجب أن يقابل لوجين... ولم أكن أرغب في إطلاعه على هذه الرسالة، بل كنت أود أن أعمل على منعه من الحضور بحيلة ما معتمدة على مساعدتك... لأنه سريع الغضب... ثم إنني لا أفهم ماذا يقصد بيوتر بذكر ذلك الرجل السكير الذي مات، ولا ما يقصد بذكر ابنته، وكيف يعطي ولدي هذه الابنة النقود... التي...».

فقال أفدوتيا رومانوفنا: «التي كلفتك تضحية كبيرة يا أماه!».

فقال رازوميهين مفكرًا:

- إنه لم يكن بالأمس في حالته الطبيعية، ولو أنكما تعلمان ما أتاه في مطعم بالأمس لزاد عجبكما، ولو أن ما أتاه كان ذا معنى... على أنه مع ذلك قال شيئًا عن رجل متوفى وعن فتاة عندما كنا ذاهبين بالأمس إلى منزله، ولكنني لم أفهم كلمة واحدة مما قال... وأنا نفسي كنت بالأمس..

فقال الفتاة:

- خير لنا أن نذهب إليه يا أماه، فهناك لن نلبث أن نتبين ماذا يجب أن نفعله؟ لقد تأخرنا، فإن الساعة تجاوزت العاشرة!

قالت أفدوتيا رومانوفنا ذلك وهي تنظر في ساعة ذهبية فاخرة محلاة بنقوش ومعلقة حول رقبتها بسلسلة رفيعة من صنع البندقية، فكانت تبدو ناشزة غير متسقة مع سائر ثيابها.. فقال رازوميهين في نفسه: «لا بد أن تكون هذه هدية من خاطبها!».

وصاحت بولكيريا ألكسندروفنا في لهفة: «هيا بنا يا دنيا! هيا بنا! فقد يظن أننا لا نزال غاضبتين منذ الأمس ولذلك تأخرنا! رحماك يا ربي!».

وكانت تقول هذا القول وهي تضع قبعتها على رأسها ووشاحها على كتفها مسرعة، وكانت دنيا تلبس أشياءها كذلك.. ولاحظ رازوميهين أن قفازها لم يكن رثًا فقط، بل كانت به ثقب. ولكن هذا الفقر الواضح أسبغ على السيدتين وقارًا خاصًا، وذلك شأن الناس الذين يعرفون كيف يرتدون الثياب..

ونظر رازوميهين نحو دنيا في إجلال، وأحس زهوًا في أن يصاحبها في السير، وقال في نفسه: إن الملكة السجينة لا تقل جلالًا وعزة إذا هي قعدت ترفو جواربها.. بل إن جلال الملك لا بد يظهر في كل قيراط من شخصها، ولعلها تكون في حالتها تلك أبهى جلالًا مما لو طلعت على حفل باذخ في وسط حاشيتها..

وصاحت پولكيريا ألكسناندروفا: «رباه! ما كنت أظن أنني أتوجس خوفًا من رؤية ابني!». ثم قالت وهي تنظر إلى رازوميهين في حياء: «إنني خائفة يا ديمتري بروكوفتش!».

فقالت دنيا وهي تقبل والدتها: «لا تخافي يا أماه! بل من الخير أن تثقي به».

فصاحت المرأة المسكينة: «إنني أثق به، ولكني لم أنم هذه الليلة»، وخرجوا إلى الشارع.

ومضت قائلة: «أتعلمين يا دنيا أنني حين أغفيت قليلًا في هذا الصباح رأيت في أحلامي مارفا بتروفتنا.. في ثياب بيضاء.. وقد جاءت إليّ وتناولت يدي، ولنها كانت تهز رأسها في جفاء كأنها تلومني.. أيكون هذا بشير خير؟ رباه! ألا تعلم يا ديمتري بروكوفتش أن مارفا بتروفتنا ماتت؟».

فقال: «كلا، لم أعلم بذلك.. من هي مارثا بتروفتنا؟».

فأجابت: «إنها ماتت فجأة. لكن تصور...».

فقاطعتها دنيا: «دعي هذا الحديث إلى وقت آخر يا أمه! إنه لا يعرف مارثا بتروفتنا التي تتحدثين عنها!».

فقالت الأم: «ألا تعلم ذلك؟.. حسبت أنك تعلم كل شيء عنا! أرجوك المغفرة يا ديمتري بروكوفتش، فإني لا أدري فيم أفكر في هذه الأيام! لقد وجدت كأن الله ذا الرحمة بعثك إلينا، ولذلك اعتقدت أنك واقف على كل شئوننا، وأراك كأنك واحد منا، فلا تغضب عليّ لهذا القول.. رباه! ماذا أصاب يدك اليمنى؟ أجرحت؟».

فأجاب رازوميهين وقد سر مما سمع: «نعم، جرحتها...».

فقالت: «إنني كثيرًا ما أنطق بما في نفسي غير متحفظة فتعنفني دنيا! رباه! ما أفضع الجحر الذي يسكنه ولدي.. أرجو أن نجده مستيقظًا. لست أدري كيف تزعم هذه المرأة صاحبة البيت أن ذلك الجحر غرفة؟ أما قلت إن ولدي لا يحب إظهار مشاعره؟ فهل تظن أنني أثقل عليه.. بضعفي؟ ألا تشير عليّ يا ديمتري بروكوفتش كيف أصنع معه؟ فأنت ترى ما أنا فيه من حيرة شديدة...».

فقال: «لا تلحي عليه في السؤال عن شيء إذا وجدته قد عبس، ولا تكثري من السؤال عن صحته فهو لا يحب ذلك».

- آه يا ديمتري بروكوفتش! ما أشد حال من تكون أمًا! هذه هي السلاالم.. إنها سلاالم فظيعة..

فقالـت دنيا وهي تداعب والدتها: «إن وجهك شاحب يا أماء، فلا تضطربي أيتها العزيزة!» ثم أضافت وقد لمعت عينهاها: «يجب أن يكون سعيدًا لرؤيتك، فلماذا تعذبين نفسك هكذا؟».

فقال رازوميهين: «انتظروا حتى أرى هل استيقظ!».

وتقدمهما، وتبعته السيدتان في بـطء، فلما صاروا أمام باب صاحبة المسكن في الطابق الرابع لاحظوا أن الباب مفتوح قليلًا، وأن عينين سوداوين حادتين تراقبانهم في الظلام من ورائه، وما كادت العينون تتلاقى حتى أغلق الباب في عنف، فكادت پولكيريا ألكساندروفنا تصرخ فزعًا..

(٣)

صاح زوسيموف في مرح إذ رأى السيدتين داخلتين: «إنه معافى حقًا!».

وكان قد حضر منذ عشر دقائق وجلس على المقعد الكبير كما جلس في الليلة الماضية، أما رسكولنكوف فإنه كان مرتديًا ثيابه ويجلس في الجهة الأخرى، تام النظافة ممشط الشعر، وذلك ما لم يفعله منذ زمن بعيد.. وازدحمت بهم الغرفة، ومع هذا تمكنت نستاسيا من الدخول وراءهم، وبقيت لتصغي إلى حديثهم. وكان رسكولنكوف قد أوشك أن يسترد صحته حقًا، إذا قيس بما كان عليه في اليوم السابق، على أنه كان لا يزال شاحب اللون هامدًا كثيرًا، كأنما هو جريح أو يبرح به ألم جسماني. كان جبينه مقطبًا وشفته مضمومتين وعيناه محمرتين من أثر الحمى؛ لا يتكلم إلا قليلًا، فإذا تكلم تردد كأنه يؤدي واجبًا. وكان القلق باديًا في حركاته، فلو كان على ذراعه رباط أو حول أصبعه ضمادة لخیل إلى من يراه أنه مصاب بكسر في ذراعه أو ورم في يده.

وقد أضاء وجهه الممتقع العابس لحظة حين دخلت أمه وأخته، ولكن ذلك لم يزل عنه علائم الألم العميق، وإن أزال عبوسه وكآبته، ثم لم يلبث ضوء وجهه أن خبا وبقيت نظرة الألم ماثلة. وكان زوسيموف يرقب المريض ويتفرس في وجهه بحاسة الطبيب الناشئ الذي يبدأ تجاربه، فلاحظ أن الذي بدا على ملامحه لم يكن سرورًا لرؤية أمه وأخته، بل مظهرًا آخر أقرب إلى أن يكون عزمًا بغيضًا على أن يتحمل عذاب ساعة أو ساعتين لا مفر منه.. ثم لاحظ الطبيب فيما بعد أن كل كلمة من الحديث التالي كانت تمس منه جرحًا خفيًا وتؤلّمه، وعجب في الوقت ذاته من قوة المريض على ضبط نفسه وإخفاء مشاعره، وهو الذي كان في اليوم السابق كالمجنون الذي تسيطر عليه فكرة واحدة ويثور لأقل كلمة..

وقال رسكولنكوف وهو يقبل والدته وأخته قبله ترحيب علت لها حمرة السرور على خد والدته: «نعم! أشعر أنني الآن أكاد أكون معافي، ولا أقول هذا القول كما قلته البارحة».. قال ذلك مخاطبًا رازوميهين وضاعطًا يده في ود..

وبدا ارتياح عظيم على زوسيموف لقدوم السيدتين، إذ إنه لم يستطع أن يمضي مع مريضه في الحديث مدة الدقائق العشر التي قضاها عنده، وقال: «إنني لأعجب حقًا من تحسن صحته اليوم، وإذا استمر هذا التحسن ثلاثة أيام أو أربعة، فإن صحته تعود إلى ما كانت عليه منذ شهر أو شهرين، بل ثلاثة أشهر.. لأن المرض حل به منذ حين طويل.. ولتعترف الآن أنك ربما كنت السبب في هذا المرض».

قال الطبيب ذلك وتكلف الابتسام، وهو لا يزال خائفًا من تهيج

مريضه..

فأجاب رسكولنكوف بفتور: «ربما...».

واستمر زوسيموف يتكلم في تحمس قائلاً: «يجب أن أقول أيضًا إن إبلالك من المرض يتوقف عليك وحدك.. ولما كان من المستطاع الآن أن أتحدث إليك فأني أحب أن أشدد عليك في وجوب تجنب الأسباب الأصلية والأساسية كما يقولون، وهي التي أدت إلى تفاقم حالتك، فإذا استطعت ذلك شفيت، وإلا ازداد الداء سوءًا.. وإني لأجهل هذه الأسباب الأساسية، ولكنك أنت تعرفها بلا شك، فإنك لرجل فطن، ولا بد أن تعرف ما في نفسك.. ويخيل إليّ أن ابتداء متاعبك كان في الوقت الذي تركت فيه الجامعة، فلا ينبغي لك أن تبقى عاطلاً. وأغلب ظني أن العمل والسعي إلى غاية منشودة لن يلبثا أن يعودا عليك بالنفع».

فأجاب رسكولنكوف: «نعم! نعم! صدقت كل الصدق! وسأعود إلى الجامعة سريعًا، ثم ينتظم كل شيء!..».

وكان زوسيموف وهو ينطق بهذه النصيحة السديدة يقصد التأثير في السيدتين، ولكنه شعر بشيء من الارتباك حين نظر إلى مريضه فوجد على وجهه علامات السخرية الصريحة، غير أنها لم تلبث إلا لحظة. ثم بدأت پولكيريا ألكسندروفنا تشكر زوسيموف، ولا سيما لزيارته في الليلة الماضية.

فسأل رسكولنكوف قلقًا: «ماذا؟ هل زاركما أثناء الليل؟ فأنتما إذن لم تناما بعد السفر؟».

فقالت الأم: «لم نسهر يا روديا إلا للساعة الثانية، فمن عادتنا أنا ودنيا ألا نأوي إلى الفراش قبل هذه الساعة».

فقال رسكولنكوف وقد قطب جبينه بغتة وأحنى رأسه: «وأنا أيضًا لا أدري كيف أشكره»، ثم التفت نحو زوسيموف قائلاً: «فإنه إذا صرفنا النظر عن الأجر - ومعذرة إذا أشرت إلى هذا - فإني حقًا لا أدري ماذا فعلت حتى صرت أستحق هذه العناية الخاصة منك.. حقًا إني لا أفهم ذلك.. و.. إن هذا ليثقل عليَّ حقًا لأنني لا أفهمه! أقول ذلك صراحة!».

فقال زوسيموف متظاهرًا بالضحك: «لا تقلق نفسك، ولتحسب أنك أول مريض أعالجه. وهذا يزيل وجه العجب؛ لأننا معاشر الأطباء في مبدأ أمرنا نحب مرضانا كما نحب أولادنا، ويكاد هذا الحب ينقلب عند البعض عشقًا. ولا جرم أنني لا أعالج كثيرًا من المرضى».

فقال رسكولنكوف مشيرًا إلى رازوميهين: «وأما هذا فإني لم أذكر عنه شيئًا! مع أنه لم يلق مني غير الإهانة والتعب!».

فصاح رازوميهين: «أي هراء هذا! يظهر أنك اليوم عاطفي..».

ولو كان رازوميهين أكثر انتباهًا لرأى ألا أثر فيه للعاطفة، بل لقد كان الأمر على غير ما ذهب إليه ظنه. وأما أفدوتيا رومانوفنا فقد لاحظت حالة أخيها، وكانت تراقبه في عناية وقلق.

وتابع رسكولنكوف حديثه، وكأنه يعيد درسًا حفظه، فقال: «أما أنت يا أماء فإني لا أجزؤ على التحدث معك. ففي هذا اليوم استطعت أن أدرك قليلًا مقدار ما قاسيته من ألم، عندما كنت تنتظرين عودتي في الليلة الماضية».

وبعد أن قال هذا القول مد يده لأخته فجأة، وابتسم من غير أن يفوه بكلمة.. غير أن الابتسامة في هذه المرة صدرت عن شعور حقيقي خالص. فأسرعت دنيا فأمسكت بيده وضغطت عليها في حرارة وهي متهللة شاكرة. وكانت هذه أول لفظة منه إليها منذ مشاكتهما في اليوم السابق. وقد تلاًلاً وجهه بولكيريا ألكساندروفا سروراً حين شاهدت هذا الدليل الصامت على عودة الوفاق بينهما، وغمغم رازومييهين لنفسه مدفوعاً بميله للمبالغة وقد تحرك بشدة في مقعده: «هذا ما أحبه فيه: هذه الحركات القلبية..».

وكانت الأم تقول في نفسها: «ما أحسن طريقته في إظهارها! وما أكرم غرائزه! وما أبسط الطريقة التي أنهى بها سوء التفاهم بينه وبين أخته، وما أرقها! فلم يزد على أن يمد يده هكذا ببساطة وينظر إليها تلك النظرة.. وما أحلى عينيه وما أجمل وجهه... بل إنه لأبهى منظرًا من دنيا نفسها! ولكن رباه! أي ثوب هذا الذي يرتديه وما أقبح ثيابه.. إن فاسيا الساعي بمحل أفاناس إيثانوفتش أحسن منه ملبسًا! إنني لأكاد أهجم عليه فأضمه وأبكي على صدره، ولكنني أخشى... رباه ما أغرب حاله.. إنه يتكلم كلامًا رقيقًا، ولكنني أخاف.. لماذا؟ مم أخاف؟».

وبدأت الأم فجأة تجيب على ما وجهه إليها ابنها من حديث فقالت:
- أواه يا روديا! إنك لا تصدق ما كنا فيه أمس من تعاسة أنا ودنيا.. ولكن كل شيء مضى وانقضى، وها نحن أولاء سعداء، فلا بأس عليّ إذا أفضيت إليك بما عندي. فصور لنفسك كيف خرجنا من المحطة نسرع إلى هنا نرجو أن نراك تفتح لنا ذراعيك، فإذا تلك المرأة.. ها هي ذي هنا! صباح الخير يا نستاسيا.. فإذا هي تخبرنا أنك كنت راقداً تحت وطأة الحمى الشديدة، وأنت

في هذيانك فررت من الطبيب، وأنهم يبحثون عنك في الشوارع. لا يمكنك أن تتصور الشعور الذي غمرنا عند ذلك. لم أستطع إلا أن أفكر في النهاية المحزنة التي لقيها الملازم پوتانشيكوف - صديق أبيك، ولا يمكن أن تتذكره يا روديا - فقد فر هو أيضًا وهو تحت وطأة الحمى وسقط في بئر في فناء المنزل، ولم يخرجوه إلا في اليوم التالي.. وقد بالغنا في الأمر وكنا على وشك البحث عن بيوتر بتروفتش لنسأله أن يساعدنا؛ لأننا كنا وحيدتين.. بلا عون..

قالت ذلك في لهجة الأسى، ثم توقفت إذ تذكرت أنه قد يكون من الخطر الكلام عن بيوتر بتروفتش، بالرغم من أن السعادة كانت ترفرف على الجميع..

فغمغم رسكولنكوف قائلاً: «نعم! نعم! كل هذا مكدر!...».

قال ذلك وهو شارد الفكر ومن غير اهتمام، حتى إن دنيا نظرت إليه في حيرة، ثم استمر في الحديث باذلاً جهداً كي يتذكر، فقال: «أردت أن أقول:.. أي نعم يا والدتي!.. وأنت أيضًا يا دنيا، أرجو ألا يخطر ببالكما أنني لم أكن أنوي المجيء لزيارتكما اليوم، وأني كنت أنتظر مجيئكما أولاً».

فصاحت پولكيريا ألكسندروفنا وقد دهشت: «ما الذي تقوله يا روديا؟».

وقالت دنيا في نفسها مندهشة: «إنه يجب على كلامنا كأنه يؤدي واجباً، وهو يظهر الرضا ويطلب منا المغفرة كأنه يقوم برسم ديني أو يعيد درساً!..».

واستمر قائلاً: «لقد استيقظت في هذه الساعة وأردت الذهاب إليكما، ولكنني تأخرت بسبب ثيابي، فقد نسيت أن أسألها أمس - أي نستاسيا - أن

تغسل الدم منها... فلم أرتد ثيابي إلا منذ قليل».

فسألت پولكيريا ألكسندروفنا في فزع: «دم! أي دم؟».

فأجاب: «لا شيء.. لا تقلقي! بينما كنت أجوب الشوارع أمس في شبه ذهول رأيت رجلاً داسته مركبة... وهو كاتب...».

فقاطعه رازوميهين قائلاً: «ذهول؟ ومع ذلك تتذكر كل شيء!..».

فأجاب رسكولنكوف في حذر: «هذا حق! إنني أتذكر كل شيء حتى أدق الدقائق، ومع ذلك لا أستطيع الآن تفسير سبب ما قلته، ولماذا فعلت هذا، ولماذا قصدت ذلك المكان!».

فقال زوسيموف: «هذه ظاهرة معروفة! فإن الأعمال قد تتم أحياناً في حذق ودهاء عجيب، على حين يكون أداؤها مختلفاً منبعثاً من بواعث مرضية شتى، ويكون ذلك أشبه شيء بالحلم».

فقال رسكولنكوف في نفسه: «لعله من المفيد حقاً أن يظنني محبوباً!».

فقالت دنيا وهي تنظر في قلق إلى زوسيموف: «ولكن الناس يتصرفون على هذا الأسلوب وهم في صحة كاملة».

فأجاب زوسيموف: «في ملاحظتك جانب من الصواب، بمعنى أنه يحدث كثيراً لنا جميعاً أن نكون كالمجانين، مع فرق بسيط وهو أن المصابين في عقولهم يكونون أكثر جنوناً، إذ لا بد أن نرسم خطأ فاصلاً بين الحاليتين. وفي الحق أنه لا يكاد يوجد شخص خال من شذوذ، فلا تكاد تجد فرداً ليس به لوثة بين مئات، بل مئات الألوف...».

وكان لكلمة «الجنون»- التي نطق بها زوسيموف في غير عناية وهو

يتحدث عن موضوعه المفضل - وقع سيئ لدى الجميع ..

وجلس رسكولنكوف وكأنه غير ملتفت للحديث، بل كان غارقاً في الأفكار وقد ارتسمت على شفتيه الممتعتين ابتسامة غريبة.

فقال رازوميهين في سرعة: «حسنًا، لكن ما شأن ذلك الرجل الذي دهمته المركبة؟ فإني قطعت عليك حديثه...».

فقال رسكولنكوف كأنه تنبه فجأة: «ماذا؟ نعم! لقد تلوثت بالدم عندما اشتركت في حمله إلى مسكنه.. وبهذه المناسبة يا أماه أقول لك إنني ارتكبت حماقة لا تغتفر، ولا بد أنني كنت فاقداً صوابي، فإني أعطيت زوجة الرجل كل النقود التي أرسلتها إليّ لكي تعد الجنازة، فقد صارت أرملة، وهي مسلولة ومسكينة... لها ثلاثة أطفال يموتون جوعاً... وليس عندها شيء في الدار... وللرجل ابنة أخرى... ولو أنك رأيتهم لأعطيتهم المال بنفسك... ولو أنني أعترف أنني لم أكن محقاً فيما فعلت، لا سيما بعد أن علمت شدة حاجتك أنت. ويجب على المرء لكي يساعد غيره أن يكون له الحق في المساعدة». ثم تكلم بالفرنسية ما معناه: «على الكلاب أن يقبعوا إذا لم يقنعوا!». وسأل أخته: «أليس هذا صحيحاً يا دنيا؟».

فأجابت دنيا في ثبات: «لا، ليس هذا صحيحاً!».

فتمتم وهو ينظر إليها بما يشبه الكراهية ويبتسم في سخرية: «أنت الأخرى لك مثل عليا! كان يجب أن أضع هذا موضع الاعتبار... إن هذا مما يستحق الثناء، وإنه لخير لك... فإنك تتخذين لنفسك حدًا إذا وصلت إليه أحسست حرجًا، فلا تخطين خطوة بعده... فإذا جاوزت هذا الحد فإنك تصبحين أكثر إمعانًا في الحرج والتعاسة». ثم أضاف غاضبًا متضايقًا

من تركه العنان لأفكاره: «كل هذا الكلام لا معنى له!». ثم اختتم حديثه اختتامًا فجائيًا مقتضبًا: «لم أرد بهذا إلا أن أسألك المغفرة يا أماه!».

فأجابت الأم راضية: «كفى يا روديا! إني واثقة بأنك لا تفعل إلا ما هو خير».

فأجاب في ابتسامة متكلفة: «لا تبلغ بك الثقة إلى أبعد مما ينبغي...». ثم ساد السكون هنيهة، وكان التقبض يخيم على الجو، وشعر كل من هناك بما في الكلام والصمت والوفاق والغفران من تصنع وتكلف..

وكان رسكولنكوف يفكر وهو يسترق النظر إلى أمه وأخته ويقول في نفسه: «كأنني بهما تخافان مني». وكانت پولكيريا ألكسندروفنا تزداد في الحق رهبة كلما طال الصمت..

ومر خاطر برأسه: «عجبًا! كيف كنت أشعر بحب كبير لهما وهما بعيدتان؟».

وقطعت پولكيريا ألكسندروفنا السكوت قائلة فجأة: «أتعلم يا روديا أن مارفا بتروفا ماتت؟».

- من هي مارفا بتروفا؟

- رباه! مارفا بتروفا سفدريجايلوف.. لقد كتبت إليك عنها كثيرًا..

وقال مترددًا وكأنه استيقظ من نوم: «نعم!... أتذكر... أقدم ماتت؟... حقًا؟... ما سبب وفاتها؟».

- تصور أنها ماتت فجأة!

قالت پولكيريا ألكسندروفنا ذلك في سرعة وقد شجعها اهتمام ابنها:

«ماتت في نفس اليوم الذي أرسلت إليك فيه الرسالة. وهل تصدق أن ذاك الرجل الفظيع كان على ما يظهر سبب موتها؟ إذ يقال إنه ضربها ضرباً شديداً...».

فالتفت رسكولنكوف إلى أخته وسألته: «هل كانت علاقتهما سيئة؟».

- لا! لم يكن في علاقتهما شائبة. بل لقد كان معها دائماً صبوراً مؤدباً. والحقيقة أنه ظل يخضع لها، بل كان يخضع أكثر مما يجب في بعض الحالات طوال السنوات السبع من حياتهما الزوجية. ثم يظهر أنه فقد الصبر بغتة..

- إذن لم يكن على ما ظننت من الفظاعة إذا كان قد ملك نفسه سبع سنوات! أرى كأنك تلتمسين له الأعذار يا دنيا!

فأجابت دنيا وهي تكاد ترتجف وقد قطبت جبينها: «لا! لا! إنه رجل فظيع! ولا أتصور إنساناً أفظع منه». ثم غاصت في الأفكار..

وأتمت بولكيريا ألكسندروفنا حديثها في سرعة: «كان ذلك في الصباح، ثم بعد ذلك توّأ أمرت بشد الخيل إلى المركبة تقصد الذهاب إلى المدينة على إثر الغداء، كعادتها في مثل هذه الظروف... ويقولون إنها أفرطت في الأكل».

فقال رسكولنكوف: «بعد الضرب؟».

فأجابت: «هذه كانت عاداتها! وما كادت تفرغ من الغداء حتى ذهبت إلى الحمام حتى لا تتأخر في الخروج. وكانت تعالج من مرض بالحمامات. وهنالك عين ماء باردة تنزل للاستحمام فيها كل يوم بغير انقطاع.. فلم تكد تنزل إلى الماء حتى أصيبت بنوبة».

فلاحظ زوسيموف قائلاً: «لا غرابة في ذلك!».

وقال رسكولنكوف: «أضربها زوجها في عنف؟».

فقالت دنيا: «وما دخل هذا؟».

قال رسكولنكوف متهيجاً وكأنه يتكلم بالرغم منه: «لست أدري يا أماه ما يحملك على أن تقصي هذه القصص السخيفة...».

فانطلقت پولكيريا ألكسندروفنا قائلة: «لأنني يا عزيزي لا أجد ما أتحدث فيه...».

فقال في ابتسامة مرة: «عجباً! أتخافون مني جميعاً؟».

فأجابت دنيا وهي تتجه إلى أخيها في قسوة: «هذا حق بلا شك، وقد رسمت أُمي علامة الصليب في وجل وهي تصعد السلم...».

فتقلص وجه الشاب من الانفعال، كأنه تحت تأثير نوبة..

وقالت پولكيريا ألكسندروفنا مرتبكة: «ماذا تقولين يا دنيا؟ أرجوك ألا تغضب يا روديا!.. لماذا قلت هذا القول يا دنيا؟ ألا تعلم يا ولدي أنني كنت في القطار في طريقي إليك أحلم كيف نتقابل ونتحدث في كل شيء؟.. وكنت سعيدة حتى إنني لم أشعر بطول السفر! ولكن ماذا أقول؟ إنني سعيدة الآن.. إنك مخطئة يا دنيا!... إنني سعيدة الآن، لمجرد رؤيتك يا روديا!».

فتمتم مرتبكاً وهو لا ينظر إليها، وإن ضغط على يدها: «كفى يا أماه، فسيكون لدينا متسع من الوقت للكلام بحرية في كل شيء!».

وما كاد يلفظ هذه الكلمات حتى بدا عليه الاضطراب فجأة وامتنع وجهه، فقد شعر مرة أخرى بذلك الشعور المخيف الذي عرفه أخيراً،

وأحس بردًا مميتًا يسري في روحه.. واتضح له مرة أخرى أنه كذب كذبًا فظيعةً، ولن يستطيع أن يجهر صريحًا بكل ما في نفسه، ولن يستطيع بعد ذلك أن يتحدث مع أحد عن شيء. وكان الألم الذي بعثته هذه الفكرة عنيفًا كاد ينسيه نفسه حينًا، فقام من مقعده وسار نحو الباب دون أن ينظر إلى أحد..

فصاح رازوميهين وقد أمسكه من ذراعه: «ماذا بك؟..».

فجلس ثانية، وأخذ ينظر حوله في صمت.. وكان كل من هناك ينظرون إليه في ذهول. ثم صاح بغتة وعلى غير انتظار: «مالي أراكم واجمين؟ قولوا شيئًا! ما الفائدة من الجلوس هكذا؟ لتتحدث! أنجتمع معًا ونجلس صامتين!.. قولوا أي شيء!».

فقالت بولكيريا ألكسندروفنا وهي ترسم علامة الصليب: «حمدًا لله! خشيت أن يكون ما حل به بالأمس قد عاد إليه مرة أخرى!».

وسألته أفدوتيا رومانوفنا في قلق: «ماذا بك يا روديا؟».

فأجاب: «لا شيء! تذكرت أمرًا!» وضحك فجأة..

فتمتم زوسيموف ناهضًا من مقعده: «إذا كنت تذكرت أمرًا فهذا حسن!.. لقد ابتدأت أظن.. لقد حان وقت ذهابي.. وقد أعود ثانية.. إذا استطعت..». ثم انحنى للحاضرين وغادر الغرفة.

فقالت بولكيريا ألكسندروفنا: «ما أطيب هذا الرجل!».

فأخذ رسكولنكوف يتكلم فجأة في سرعة مدهشة ونشاط لم يظهر حتى تلك اللحظة: «نعم! طيب وعظيم ومثقف وذكي! لا أذكر أين قابلته

قبل مرضي.. ولكنني أظن أنني قابلته في مكان ما.. وهنا رجل طيب آخر..»،
قال ذلك وأومأ إلى رازوميهين، ثم سأل أخته: «هل يعجبك يا دنيا؟»، ولأمر
ما ضحك فجأة..

فأجابت دنيا: «كثيرًا جدًّا!».

فاحتج رازوميهين قائلاً: «إنك لحيوان!». وقد احمر وجهه ارتباكًا،
ونفض من مقعده، وابتمت بولكيريا ألكسندروفنا ابتسامة خفيفة،
وضحك رسكولنكوف في صوت عال..

- إلى أين؟

- يجب أن أذهب!

- لا حاجة بك إلى الانصراف.. فلتبق هنا، ألأن زوسيموف انصرف
تنصرف أنت؟ لا تذهب.. كم الساعة الآن؟ هل بلغت الثانية عشرة؟ ما
أجمل ساعتك هذه يا دنيا! لماذا عدتم للسكوت؟ فأنا الذي أتكلم وحدي..
فأجابت دنيا: «هذه هدية من مارفا بتروفنا».

وقالت بولكيريا ألكسندروفنا: «إنها تساوي مبلغًا كبيرًا».

- إنها كبيرة، فلا تكاد تشبه ساعات السيدات!

قالت دنيا: «إنني أحب هذا النوع».

وقال رازوميهين في نفسه: «إذن فليست هدية من خاطبها!» وسرّ لغير
ما سبب ظاهر.

وقال رسكولنكوف: «ظننتها هدية من لوجين».

فقالت الأم: «لا! إنه لم يقدم لدنيا شيئًا للآن..».

فقال: «ألا تذكرين يا أماء أنني أحببت وأردت الزواج؟» قال هذا فجأة وهو ينظر إلى والدته وقد بدا عليه الارتباك من تغير الموضوع فجأة ومن طريقة الحديث..

فأجابت الأم: «نعم يا عزيزي!».

وتبادلت پولكيريا ألكسندروفنا النظرات مع دنيا ورازوميهين..

ومضى رسكولنكوف قائلاً: «نعم! ماذا أقول عنها؟ يظهر أنني لا أذكر عنها الشيء الكثير! كانت فتاة سقيمة!»، قال ذلك وهو ينظر إلى الأرض وكأنه في حلم.. «فتاة معتلة دائماً، إلا أنها مولعة بالإحسان إلى الفقراء وتفكر دائماً في دخول الدير.. وأذكر أنها أجهشت بالبكاء ذات يوم وهي تحدثني في ذلك. نعم. نعم.. أذكر ذلك.. أذكره كله. إنها كانت فتاة ضئيلة قبيحة.. ولا أستطيع حقاً أن أعرف ما الذي جذبني إليها، فقد يكون ذلك لأنها كانت مريضة دائماً.. ولو أنها كانت عرجاء أو حدباء لتعلقت بها أكثر من ذلك..»، ثم ابتسم في تفكيره واستمر.. «كان هذا الحب نوعاً من هوس الربيع..».

فلاحظت دنيا في حماسة: «كلا! كان أكبر من أن يكون هوس الربيع..».

ونظر رسكولنكوف إلى أخته نظرة اهتمام، ولكنه بدا كأنه لم يسمع ولم يفهم ما قالته، ثم نهض وهو لا يزال سابحاً في أفكاره، وذهب إلى والدته فقبلها وعاد إلى مكانه وجلس..

فسألته پولكيريا ألكسندروفنا وقد أخذها التأثر: «ألا تزال تحبها إلى الآن؟».

فقال: «أحبها إلى الآن؟ نعم.. تسألين عنها؟ لا.. لقد أصبح كل شيء كأنه في عالم آخر.. ومن زمن مديد بعيد.. بل إن كل ما يحدث هنا الآن يبدو لي كأنما هو بعيد جدًا..».

ثم نظر إليهم في اهتمام قائلاً: «أراكم الآن.. وكأني أنظر إليكم من بُعد ألف ميل.. ولكن ليت شعري ماذا يحملنا على هذا الحديث؟ وما الفائدة من السؤال عن هذا؟».. قال هذا في ضيق وهو يقرض أظافره، وعاد إلى سكوت الحالم مرة أخرى..

- ما أفضع هذا المسكن يا روديا، لكأنه قبر!

قالت پولكيريا ألكسندروثنا ذلك لكي تقضي على هذا السكوت المؤلم: «إني على ثقة من أن هذه الغرفة نصف السبب فيما تشعر به من نزعة نحو الحزن».

فأجاب في غير اهتمام: «هذه الغرفة؟ نعم! كان لها أثر كبير... لقد خطر هذا ببالي من قبل... لو أنك تعلمين يا أماء أية فكرة عجيبة تعبرين عنها!.. قال هذا وهو يضحك ضحكة غريبة..

ولو ظل الأمر قليلاً على هذا النحو لأصبح وجود هذه الأم وهذه الأخت معه بعد غياب ثلاث سنوات مما يزيد على قوة احتماله، وكان مما يزيده حنقاً أنهما كانتا تتحدثان إليه في غير كلفة، على حين أغلقت أمامهما أبواب الأحاديث، على أنه كانت لديه مسألة عاجلة عزم منذ استيقظ على حلها بأية طريقة في ذلك اليوم. وقد سر إذ ذكرها ورأى فيها وسيلة الخلاص من الموقف المحرج.

فابتدأ يقول جاداً في جفاء: «أصني لما أقول يا دنيا. إني بلا ريب

أعتذر إليك عما حدث بالأمس، ولكنني أرى من واجبي أن أكرر لك القول
وآلا أراجع في المسألة الأساسية.. فيما أنا وإما لوجين! قد أكون وغداً،
ولكن يجب ألا تكوني أنت كذلك. ففي أحدى الكفاية.. ففي اللحظة التي
تقترنين فيها بلوجين لا أعدك أختاً لي».

فصاحت پولكيريا ألكسندروفنا في أسي: «روديا! روديا! إنك عدت
إلى ما كنت فيه أمس! لماذا تسمي نفسك وغداً؟ لا أحتمل هذا الذي قلت
مثله بالأمس».

فأجابت دنيا في ثبات ولهجة لا تقل عن لهجة أخيها جفاء: «يا أخي،
في كل هذا خطأ من جانبك، فقد فكرت في الأمر ليلاً ووقفت على مصدر
الخطأ! كل هذا لأنه يخيل إليك على ما يظهر أنني أضحي بنفسي لغيري،
ومن أجل غيري، ولكن الأمر ليس كذلك! فأنا إنما أتزوج رغبة مني في
الزواج نظراً لصعوبة حياتي. وإنه ليسعدني بطبيعة الحال إذا استطعت أن
أكون ذات فائدة لأسرتي، ولكن هذا لم يكن الدافع الأكبر للزواج».

فقال رسكولنكوف في نفسه وهو يقرض أظافره في غيظ: «إنها
تكذب! يا لها من متكبرة! إنها لا تريد أن تعترف بأنها تفعل ذلك على سبيل
الإحسان! إنها الغطرسة! هذه هي النفوس الوضيعة! حبها أقرب شبهاً
بالكراهية.. أواه! ما أشد مقتني لهم جميعاً!».

واستمرت دنيا تقول: «والحق أنني أتزوج من بيتر بتروفتش مختارة
أخف الضررين.. وإني عازمة على أن أقوم بأمانة بكل ما ينتظره مني، فأنا لا
أخدعه... أراك تبتسم!».. واحمر وجهها وبرقت عيناها غضباً.

فسأل بابتسامة ساخرة: «كل ما ينتظره؟».

فقلت: «إلى حد محدود.. لقد تبين لي من أول الأمر من سلوك بيوتر بتروفتش وطريقته عندما خطبني حقيقة ما يريده مني.. قد يكون مبالغاً في تقدير نفسه، غير أنني أو مل منه أن يقدرني أيضاً. لماذا عدت إلى الضحك؟».

فقال: «ولماذا احمر وجهك مرة أخرى؟ إنك تكذبين يا أختاه، وتكذبين عمداً.. لا يدفعك إلى ذلك سوى عناد النساء والإصرار على مكابرتي! فلا يمكن أن يقع لوجين من نفسك موقع الرضا! ولقد رأيته وسمعته! فأنت تبيعين نفسك من أجل المال، وإذن فأنت تقترفين خزيًا! وإني لمسرور على الأقل إذ أرى وجهك يحمر خجلًا من ذلك..».

فصاحت الفتاة وقد خرجت عن سكينتها: «ليس هذا صحيحًا! ولست أكذب! فما كنت لأتزوج لو لم أكن واثقة بأنه يجلني ويقدرني كثيرًا، وما كنت لأتزوج لو لم أكن واثقة كل الثقة من أنني أستطيع إكرامه، ومن حسن الحظ أنني أستطيع أن أجد دليلًا مقنعًا منذ اليوم.. ليس هذا الزواج خزيًا كما تقول؛ وإذا فرضنا أنك على صواب في رأيك وأني حقًا مقدمة على اقتراف خزي، أليس من القسوة أن تخاطبني بهذه اللهجة؟ لماذا تطالبني بالبطولة وأنت قد لا تجدها في نفسك؟ هذا هو الظلم! وهذا هو الاستبداد!... ولئن أسأت أنا إلى أحد فإلى نفسي! إني لا أرتكب جريمة قتل!.. لماذا امتنع لونك؟ روديا! أيها العزيز! ماذا بك؟».

وصاحت بولكيريا ألكسندروفنا: «يا الله! إنه سيغمي عليه، وأنت السبب...».

فقال: «لا! لا! لا شيء! إن بي دوارًا ولم يغم عليّ. إن فكرة الإغماء مستولية على رؤوسكم! نعم! ما هو برهانك المقنع الذي تزعمين أنك

تجدينه منذ اليوم على أنك تستطيعين إجلاله وعلى أنه.. يقدر كـ كما تقولين؟ أظنك قلت ذلك اليوم، أليس كذلك؟».

فـ قالت دنيا: «أطلعني أخي على رسالة بيوتر بـتروفتش يا أمـاه!».

فـناولته بـولـكـيرـيا أـلـكـسـنـدروفتـنا الرـسـالـة وـيـدهـا تـرتـجـف، فـأخـذـها فـي اهتمـام كـبـير وـلـكـنـه قـبـل أن يفتـحـها نـظـر فـجـأة إـلى دنـيا فـي شـيء مـن الدـهـشـة وـقال فـي بـطـء كـأن فـكـرة جـديـدة طـرأت عـلـيـه: «هـذا غـريـب! لـمـاذا أثـير كـل هـذه الضـجـة؟ لـم كـل هـذا؟ تـزوجـي بـمـن تـريـدين!».

قال هـذا الكـلام كـأنـه يـقـولـه لـنـفـسـه فـي صـوت عـال، وـظـل يـنـظـر إـلى الرـسـالـة حـيـنًا، وأخـذ يـقـرأـها فـي بـطـء وعـنـايـة، وقـرأـها مـرتـين، وـظـهـرت عـلى بـولـكـيرـيا أـلـكـسـنـدروفتـنا عـلائـم القـلق، وـانـتـظـر الجـمـيـع أن يـحـدث أـمر خـطـير..

ومـضى حـين قـصـير فـي صـمت وـهو يـعـيد الرـسـالـة إـلى أمـه، ثم قال مـن غـير أن يوجـه كـلامـه إـلى أـحـد بالذات: «إن ما يـدـهـشـني مـنـه أنـه رـجـل أـعـمال ومـحـام مـتـحـذلق فـي حـديـثـه حقًا! وـلـكـنـه يـكـتب كـالـجـهـال!».

فـأخـدث هـذه الكـلمات دـهـشـة عـامـة، لـمـخـالـفـتـها لـما تـوقـعـوه كـل المـخـالـفـة..

وقال رازوميهين فجأة: «ولكنهم جميعًا يكتبون هكذا!».

فقال: «هل قرأت الرسالة؟».

فأجاب: «نعم!».

وابتدأت بـولـكـيرـيا أـلـكـسـنـدروفتـنا تـقـول مـرتـبـكة: «لـقد أـرـيـناها لـه يا رـودـيا... وـاسـتـشـرنـاه فـي شـأنـها».

تدخل رازوميهاين قائلاً: «تلك هي لغة المحاكم! إن الوثائق القانونية تكتب هكذا اليوم...».

فقال رسكولنكوف: «قانونية؟ نعم، إنها لغة القانون والأعمال.. لا هي كتابة الجاهل ولا هي كتابة المتأدبين.. إنها لغة الأعمال!».

فقال أفدوتيا رومانوفنا وقد استاءت بعض الشيء من لهجة أخيها: «إن بيوتر بتروفتش لا يخفي أنه تعلم تعليماً ضئيلاً، ويفتخر بأنه شق طريقه بنفسه».

فقال الأخ: «إذا كان يفخر بذلك فله الحق، ولا أنكره عليه. ويظهر أنك غضبت يا أختاه من نقدي التافه لهذه الرسالة، إذ تظنين أنني أتكلم في مسائل تافهة لإثارة غضبك، ولكنني أبعد الناس من هذا. فقد خطرت لي عند النظر في أسلوبه ملاحظة عابرة، وإن كانت ذات صلة بما نحن فيه، فهناك عبارة «يكون اللوم واقعاً عليك» وهي واضحة كل الوضوح. وهناك تهديده بخروجه في الحال إذا وجدني حاضراً، فهذا التهديد بالخروج في الحال معناه التهديد بأنه سيترككما إذا لم تخضعا له، وهو يعني بهذا التهديد أنك إن لم تطيعيه فإنه يترككما بعد أن جاء بكما إلى مدينة بطرسبرج. فما رأيك؟ ألا تثير هذه الكلمات غضبك إذا خطها لوجين كما لو كتبها هذا (وأشار إلى رازوميهاين) أو زوسيموف أو أحدنا؟».

فقال دنيا في حماسة: «لا! إنني أرى بوضوح أنه عبر عن أفكاره ببساطة، وقد لا تكون لديه مهارة في الكتابة.. فنقدك في غاية الصواب، وما كنت أتوقع...».

فقال الأخ: «إن الرسالة في أسلوب قانوني، وقد تبدو أعنف مما

أراد، ولكن يجب أن أكشف لك عنه قليلاً.. ففي الرسالة عبارة أعدها عيياً في شخصي، بل هي عيب دنيء. فقد أعطيت نقودي في الليلة الماضية للأرملة، وهي امرأة مصابة بالسل محطمة بالمصائب، لا «بحجة الإنفاق على الجنازة»، بل لهذا القصد حقاً.. ولم أسلم المبلغ لابنة الرجل المتوفي، «الفتاة السيئة السمعة»، كما يقول في خطابه، فإني ما رأيته إلا ليلة أمس لأول مرة في حياتي، بل سلمته للأرملة.. وإني لأرى في قوله رغبة المتعجل في أن يحط من شأني ويشير بيننا شقاً. وهو يعيد قوله هذا مرة أخرى بأسلوبه القانوني. ويفصح عن غرضه في وضوح تام وفي حمية ظاهرة تعدت حدودها؛ إنه رجل ذكي، ولكن التصرف المعقول لا يكفي فيه الذكاء.. من كل هذا تتبين حقيقة الرجل.. لا أظن أنه يشعر نحوك بتقدير كبير، أقول لك هذا ولا أقصد به سوى تحذيرك لأنني أتمنى لك السعادة مخلصاً!..

ولم تجب دنيا، فقد عقدت العزم على أمر، ولم تكن تنتظر غير المساء. وكانت پولكيريا ألكسندروفنا تزداد قلقاً لللهجة الجديدة التي جرى بها الحديث فجأة، فصار يشبه حديث الأعمال، وقالت: «فما هو قرارك إذن يا روديا؟».

فقال: «أي قرار؟».

فقالت الأم: «لقد عرفت ما كتبه بيوتر بترفش، فهو لا يريد أن تكون معنا في هذه الليلة وأنه سينصرف إذا جئت.. فهل تأني؟».

فأجاب في جفاء: «ليس من شأني أن أتخذ قراراً في هذا، بل عليك أنت أولاً أن تفعلي إذا لم تجدي في قوله إهانة. ثم على دنيا ثانية أن تقطع

برأيها إذا لم تجد في قوله إهانة. أما أنا فإني منفذ ما تريانه خيرًا!».
فأجابت پولكيريا ألكسندروفنا فورًا: «إن دنيا قد بتت في الأمر، وأنا
أقرأها كل الإقرار على رأيها!».
وقالت دنيا: «قررت يا روديا أن أسألك، بل ألح عليك، ألا تتخلف عن
هذه المقابلة، فهل تحضر؟».
فقال: «نعم! نعم!».
واستمرت في قولها تخاطب رازوميهين: «وأسألك أنت أيضًا أن
تكون معنا في الساعة الثامنة، إني أدعوه أيضًا يا أماه!».
فقالت پولكيريا ألكسندروفنا: «أنت على صواب، وهذا أحسن..
فما دمت قد قررت ذلك فليكن. وأنا أفضل هذا، فإني لا أحب الخداع
والإخفاء. فمن الخير أن تعرف الحقيقة كاملة. وليغضب بيوتر بتروفتش
إذا شاء!».

(٤)

في هذه اللحظة فتح الباب في هدوء، ودخلت الغرفة فتاة وأخذت تنظر حولها في خجل، فاتجهت إليها الأنظار في دهشة وتطلع. ولم يعرفها رسكولنكوف لأول وهلة، وكانت سونيا سميونوفنا مرملا دوف.. وقد رآها لأول مرة بالأمس، ولكن في ظرف، وفي محيط، وفي ثياب أخرى، فكانت صورتها الأولى تختلف كل الاختلاف عن الصورة التي وقعت عينه في تلك اللحظة عليها.. فكانت أمامه فتاة صغيرة تكاد تكون صبية، في ثياب محتشمة يدل مظهرها على الفاقة، وكانت في مسلكها تنم عن رقة وتواضع، في وجهها نظرة الصراحة مع شيء من الخوف. وقد ارتدت ثوباً بسيطاً قصيراً، وقبعة من طراز قديم، ولكنها كانت لا تزال تحمل مظلة الأمس في يدها. فلما رأت الغرفة ممتلئة بالناس على غير انتظار، ظهر عليها ارتباك يغلبه الحياء كما يحدث للأطفال، وهمت بالتراجع والانصراف.

وقال رسكولنكوف وقد أخذته الدهشة وظهر عليه الاضطراب: «آه... أنت؟». وتذكر في الحال أن أمه وأخته سمعتا من رسالة لوجين عن وفاة «سيئة السمعة» وكان منذ هنيهة يحتاج على هذه الوشاية ويصرح بأنه رأى الفتاة لأول مرة في الليلة السابقة، فها هي ذي تدخل إلى غرفته فجأة... وتذكر كذلك أنه لم يبد أي اعتراض على ما جاء بالرسالة عن أنها سيئة السمعة... ومرت هذه الأفكار بفكره سريعة عابرة، على أنه حين أمعن النظر فيها رأى عليها من علائم المسكنة والمذلة ما أثار في قلبه الشفقة عليها. وحين رآها تهم بالانصراف شعر بوخزة في قلبه، فنظر إليها نظرة أمسكتها عن الذهاب وقال في سرعة:

- إنني لم أكن أتوقع حضورك، أرجوك أن تجلسي، إنك آتية من عند كاترينا إيفانوفا بلا ريب! اسمحي لي! لا تجلسي هناك، بل هنا!

وكان رازوميخين جالسًا عند دخول سونيا بالقرب من الباب على أحد الكراسي الثلاثة بالغرفة، فوقف ليفسح لها مكانًا للمرور. وقد أشار رسكولنكوف في بادئ الأمر إلى المكان الذي كان جالسًا عليه زوسيموف. ولكنه عاد فشعر أن المقعد قد يدل على صلة سابقة بينهما؛ لأنه كان فراشه الذي ينام عليه، فأشار إلى كرسي رازوميخين.

وقال لصديقه وقد أشار إلى مكان الطبيب: «وأما أنت فتجلس هنا».

فجلست سونيا وهي تكاد ترتجف من الخوف، ونظرت إلى السيدتين في حياء. ومن الواضح أنها كانت لا تكاد تتصور أنه يحق لها أن تجلس معهما، وتملكتها تلك الفكرة وأخذتها رهبة، فنهضت ثانية في سرعة وهي في ارتباك شديد. وخاطبت رسكولنكوف قائلة في تلعثم:

- أنا.. أنا إنما جئت للحظة واحدة، فمعدرة إذا كنت قد أزعجتكم!
إن كاترينا إيفانوفنا أرسلتني إذ لم تجد أحدًا سواي، وقد طلبت مني أن
أرجوك في الحضور صباح الغد لصلاة الجنازة التي تقام في كنيسة سانت
متروفيهن. وبعدئذ تأتي عندنا.. أي عندها.. لتشرفها.. طلبت مني أن
أرجوك..

وزاد تلعثمها فانقطعت عن الكلام.

فأجاب رسكولنكوف وقد نهض أيضًا: «سأحاول! من المؤكد! يكاد
يكون مؤكدًا!».

وتلعثم هو أيضًا ولم يستطع إتمام عبارته، ثم قال فجأة: «اجلسي فأني
أريد أن أتحدث إليك. قد يكون عندك ما يدعو إلى العجلة، ولكن أرجو أن
تمنحيني من وقتك دقيقتين».

وقدم لها الكرسي فجلست مرة أخرى، ثم عادت فنظرت إلى
السيدتين في خجل نظرة سريعة فيها خوف، ثم خفضت ناظرها.. فاحمر
وجه رسكولنكوف الشاحب، وعثرته رجفة ولمعت عيناه وقال في صوت
ثابت وإصرار:

- هذه يا والدتي سونيا سميونوفتش مرملادوف، ابنة السيد مرملادوف
السيء الحظ الذي ديس أمس أمام عيني، وكنت أروي لك أمره..

فنظرت بولكيريا ألكسندروفنا إلى سونيا وسبلت عينيها، وبالرغم
من ارتباكها عندما نظر إليها روديا نظرة تحد وتعجل، فإنها لم تأب على
نفسها هذه الترضية، أما دنيا فإنها كانت تمنع النظر إليها في جد واهتمام
وتفحصها في حيرة.. وأما سونيا فإنها حين سمعت اسمها وهي تُعرَّف

حاولت أن ترفع عينيها، ولكنها زادت اضطراباً..

وأسرع رسكولنكوف فقال: «أردت أن أسألك كيف سارت الأمور بالأمس.. ألم تجدوا مضايقة من رجال الشرطة مثلاً؟».

- لا، لم يحدث شيء.. فإن سبب الوفاة ظاهر.. لم يضايقنا أحد.. إلا أن السكان غاضبون.

- لماذا؟

- لبقاء الجثة طويلاً بالمنزل! والجو حار كما ترى، ولذلك سننقلها اليوم إلى كنيسة المدفن حيث تبقى إلى الصباح. وقد اعترضت كاترينا إيفانوفنا على ذلك في بادئ الأمر، ولكنها اقتنعت بعد ألا مفر من ذلك.

- إذن اليوم!

- إنها ترجوك أن تشرفنا غداً بالحضور إلى الكنيسة للصلاة، ثم تحضر بعدئذ الغداء الجنائزي.

- ماذا؟ أعزمت على إعداد وليمة لهذه المناسبة؟

- نعم.. شيء بسيط.. وقد طلبت مني أن أشكرك شكراً جزيلاً على مساعدتنا أمس، إذ لولاك لما كان لدينا شيء للجنائزة.

وأخذ فمها وذقتها يرتعشان فجأة، لكنها ملكت نفسها وأطرقت مرة أخرى..

وكان رسكولنكوف في أثناء الحديث يفحصها بعناية، فإذا وجهها نحيل شاحب اللون، وصغير غير متناسب، حاد الملامح. ولها أنف وذقن دقيقان حادان، فلا يمكن أن تعد جميلة. غير أن عينيها الزرقاوين كانتا

صافيتين، فإذا أضاءتا فاضتا رقة وبسطة تستهويان القلوب قسرًا. وكان لوجهها ولجسمها عامة ميزة خاصة بها، ذلك أنها كانت تبدو - بالرغم من ثمان عشرة سنة - كأنها فتاة صغيرة تكاد تكون طفلة، وكانت في بعض حركاتها تبدو طفلة غريبة..

وسألها رسكولنكوف وهو يصبر على استمرار الحديث: «وهل استطاعت كاترينا إيفانوفنا تدبير أمورها بمبلغ زهيد كهذا؟ وهل تنوي مع ذلك إطعام المعزين؟».

فأجابت: «سيكون التابوت عاديًا بلا ريب، وستراعى البساطة في كل شيء، فلا تكون النفقات كثيرة. وقد دبرت أنا وكاترينا إيفانوفنا النفقات حتى يبقى ما يكفي.. وقد أصرت كاترينا إيفانوفنا على هذا الأمر إصرارًا شديدًا لا يمكن معه لأحد أن يخالفها... ففي ذلك عزاء لها كما ترى».

- إني فاهم! إني فاهم.. بلا ريب.. لماذا تنظرين إلى غرفتي هذه النظرة؟ لقد قالت أُمِّي الآن إنها كالقبر..

فأجابت سونيا فجأة في همس عال سريع: «لقد أعطيتنا كل شيء بالأمس».. ثم أطرقت، واختلجت شفتاها وذقنها، وقد تأثرت مما يبدو على غرفة رسكولنكوف من دلائل الفاقة. وخرجت منها هذه الكلمات عفواً من تلقاء نفسها، ثم ساد السكون. وبرقت عينا دنيا، ونظرت بولكيريا ألكسندروفنا نفسها إلى سونيا في رقة.

ونَهَضَت الأم قائلة: «إننا سنتناول العشاء معًا بلا ريب يا روديا! فيها بنا يا دنيا! أما أنت يا روديا فيحسن أن تخرج للنزهة ثم تستريح وترقد قليلًا قبل أن تأتي إلينا.. أخشى أن نكون أتعبنك».

فأجاب سريعاً وقد نهض أيضاً: «نعم! نعم! سأتي عندكما! ولكن لدي أمر يجب أن أعنى به!».

فقال رازوميهين وهو ينظر إلى رسكولنكوف نظرة استغراب: «لكن من المؤكد أنك ستتعشى معهم.. ماذا تقصد؟».

فقال: «نعم! نعم! سأحضر بلا ريب، وأرجو أن تنتظر هنيهة! أحتاجين إليه الآن يا أماه؟ أم أنني أحرمكما منه؟».

فقالت: «لا! وأرجو أن يتفضل ديمتري بروكوفتش فيتناول العشاء معنا».

وقالت دنيا: «أرجو أن تحضر».. فانحنى رازوميهين وقد تألق وجهه، ومرت لحظة شعر فيها كل من الحاضرين بارتباك..

فقالت الأم: «الوداع يا روديا! إلى أن نتلاقى، فأني أكره كلمة الوداع. الوداع يا نستاسيا.. سأتحاشى ذكر هذه الكلمة مرة أخرى».

وأرادت پولكيريا ألكسندروفنا أن تحيي سونيا، ولكنها لم تدر ماذا تصنع، فأسرعت بمغادرة الغرفة..

ويظهر أن أفدوتيا إيفانوفا كانت تنتظر دورها، وحين نهضت أمها انحنى لسونيا في أدب، فارتبكت الفتاة وانحنى في سرعة وخوف، وبدأ على وجهها شعور الألم، كأن أدب أفدوتيا رومانوفا أثر فيها تأثيراً موجعاً شديداً..

ونادى رسكولنكوف في ممر السلم: «وداعاً يا دنيا! هاتي يدك!».

فقالت دنيا في ود وقد استدارت نحوه في حركة ارتباك: «ولكني

سلمت عليك، فهل نسيت؟».

- فليكن، هاتي يدك ثانية...

وضغط على أصابعها الرقيقة في حرارة، فابتسمت دنيا واحمر وجهها
وسحبت يدها وسارت سعيدة..

وقال الشاب عند عودته لسونيا: «هذا ما ينبغي أن يكون!».. ونظر إليها
في صفاء: «رحم الله الموتى، وعلى الأحياء أن يعيشوا! هذا صحيح! أليس
كذلك؟».

ونظرت سونيا في دهشة إلى تألق وجه رسكولنكوف فجأة، وظل
بضع لحظات ينظر إليها في سكون، فقد مرت بذهنه القصة التي رواها
مرملادوف بأكملها..

وقالت پولكيريا ألكسندروفنا عندما صارت في الطريق: «بحق الله
يا دنيا! إنني أشعر بارتياح لخروجي الآن، وأشعر أنني أكثر هدوءًا، فهل كنت
أتصور أمس في القطار أنني... أن ذلك يسرني؟».

فقالت دنيا: «أقول لك مرة ثانية يا أماه إن مرضه لا يزال شديدًا! ألا
ترين هذا؟ لعل قلقه من أجلنا قد أمضه، فيجب أن نتجمل بالصبر ونغفر
كثيرًا وكثيرًا».

وقاطعتها پولكيريا ألكسندروفنا في حماسة وغيره: «ولكنك أنت لم
تتجمل بالصبر... أتعلمين يا دنيا أنني كنت أنظر إليكما فإذا أنت صورة

صادقة منه؟ ولم يكن تشابهكما في الوجه بقدر تشابهكما في النفس، فأنتما تميلان للحزن والصمت والغضب السريع، وأنتما تجمعان بين الكبرياء وكرم النفس... ومن المؤكد أنه لا يتصف بالأنانية يا دنيا، أليس كذلك؟ وإني كلما أفكر فيما أتوقع هذه الليلة يضطرب قلبي».

فأجابت دنيا: «لا تقلقي يا أماء! فما قدر يكون!».

فأجابت الأم: «فكري يا دنيا في أي موقف نحن الآن! وماذا يكون لو عدل بيوتر بتروفتش عن الزواج!».. وفاهت پولكيريا ألكسندروفنا بهذا القول من غير حذر..

فأجابتها دنيا في حدة واحتقار: «إننا في هذه الحالة لا نخسر كثيرًا...». فتحولت پولكيريا ألكسندروفنا في سرعة قائلة: «لقد أحسنا في الرحيل عنه، فقد كان على عجل في أن يقوم بأمر ما، ومن الخير أن يخرج لاستنشاق الهواء.. فغرفته خائقة.. وأين نجد الهواء هنا؟ إن الشوارع نفسها كالغرف المغلقة.. رباه، أية مدينة هذه!.. حاذري، فإنهم يكادون يحطمونك بشيء يحملونه.. إنه بيانو، أليس كذلك؟.. أي زحام هذا! إني خائفة أيضًا من تلك الفتاة!».

- من هذه الفتاة يا أماء؟

- تلك الفتاة سونيا سميونوفنا التي كانت هناك الآن!

- لماذا؟

- شعرت بإحساس خفي يا دنيا.. قد تصدقينه أو لا تصدقينه! إنها منذ دخلت شعرت بأنها السبب الحقيقي في هذا الاضطراب..

فصاحت دنيا متضايقه: «لا شيء من هذا! هذا كلام فارغ! ما أكثر إحساساتك الخفية يا أمه! فقد قابلها في الليلة السابقة أول مرة ولم يكدها يعرفها عند دخولها».

فقالت الأم: «سترين!.. إنها تقلقني، ولكن سترين! سترين! لقد كان خوفي منها شديداً.. وكانت تنظر إليّ.. لقد كدت لا أستطيع الجلوس ساكنة حين قدمها إلينا.. ألا تذكرين؟ لقد كان أمراً غريباً أن يكتب عنها بيوتر بتروفتش ما كتب ثم أجد مع ذلك أنه يقدمها إلينا.. وإليك! فلا بد أنه يقدرها كثيراً!».

فقالت دنيا: «إن الناس يكتبون الكثير، وقد خاض الناس في الحديث عنا، وفي الكتابة عنا كذلك! هل نسيت؟ إني واثقة من أنها فتاة طيبة وكل ما قيل هراء!».

— أرجو الله أن يكون ذلك!

وقطعت دنيا الحديث فجأة صائحة: «إن بيوتر بتروفتش مغتاب حقير!».

وتضاءلت بولكيريا ألكسندروفنا ولم تستأنف الحديث..

وقال رسكولنكوف وقد سحب رازوميهين نحو النافذة: «سأخبرك بما أريد منك».

فقالت سونيا وهي تهم بالانصراف: «سأخبر كاترينا إيفانوفنا بأنك

ستحضر».

فقال: «لحظة واحدة يا سونيا سمينوفنا، فليس لدينا أسرار ولسنا في حرج من بقاءك معنا، وأنا أريد أن أحدث إليك بكلمة أو كلمتين».

واتجه فجأة نحو رازوميهين وقال: «أصغ إليّ! هل تعرف.. ما اسمه؟.. بورفيري بتروفتش؟».

فأجاب رازوميهين وقد اهتم للأمر: «كيف لا أعرفه؟ إنه أحد أقاربي! لماذا؟».

- أليس هو القائم بالتحقيق في تلك القضية... أقصد قضية القتل؟ لقد كنت بالأمس تتحدث عنها..

فسأل رازوميهين وقد فتح عينيه على سعتهما: «نعم، فماذا تريد؟».

فقال رسكولنكوف: «إنه يحقق مع أصحاب الرهون.. وقد كان لي رهن عندها كذلك، وإن كان لا يستحق الذكر.. خاتم صغير لأختي أعطتني إياه حين سافرت إلى مدينة بطرسبرج، وساعة أبي الفضية، والكل لا يساوي أكثر من خمسة روبلات أو ستة، غير أن لها قيمة عندي.. فماذا أصنع الآن؟ إنني لا أريد أن أفقد هذه الأشياء، ولا سيما الساعة.. وقد كنت أرتعد الآن خشية أن تطلب أُمِّي رؤيتها عند ذكر ساعة دنيا.. ولم يبق من مخلفات والدي غير هذه الساعة، فإذا ضاعت مرضت والدتي بسببها.. وإنك لتعرف النساء! فأخبرني ماذا أصنع؟ إنني أعلم أن من الواجب إخبار الشرطة! لكن أليس من الخير أن أقصد إلى بوفيري بتروفتش غدًا؟ فما رأيك؟ إذ ربما يستطيع تسوية الأمر سريعًا، فقد تسألني والدتي عن الساعة قبل العشاء...».

فصاح رازوميهين وقد ظهر عليه تهيج كبير: «من المؤكد ألا نذهب لمكتب الشرطة... ومن المؤكد أن نذهب لبورثيري، وإني لسعيد لذلك، فلنذهب في الحال فإنه على قيد خطوات من هنا، ومن المؤكد أننا نجده!». -

حسنًا، هيا بنا!

- وسيكون سعيدًا جدًا للتعرف بك، فقد حادثته في شأنك في ظروف شتى، وكنت أحدثه عنك بالأمس، فهيا بنا! إنك إذن تعرف المرأة العجوز؟ يظهر أن كل شيء يسير في خير طريق... نعم... يا صوفيا إيفانوفنا..

فقال رسكولنكوف يصحح الاسم: «صوفيا سميونوفنا.. هذا صديقي رازوميهين يا صوفيا سميونوفنا.. وهو رجل طيب القلب».

فقالت سونيا وقد زاد ارتباكها ولم ترفع عينها نحو رازوميهين: «إذا كان عليكم أن تخرجا...».

فقال رسكولنكوف: «هيا بنا! وسأمر عليك اليوم يا صوفيا سميونوفنا! فأخبريني أين تقيمين؟».

لم يكن الشاب مرتبًا بقدر ما كان متعجلًا وهو يتحاشى النظر إليها، فأعطته العنوان واحمر وجهها وهي تفعل ذلك، ثم خرج الجميع..

وسأله رازوميهين وهو يتبعه في السلم: «ألا تقفل بابك بالمفتاح؟».

فأجاب رسكولنكوف: «أبدًا، فقد عزمت على شراء قفل منذ سنتين ولم أفعل! إن الذين لا يحتاجون إلى قفل هم السعداء!.. قال ذلك مخاطبًا سونيا وهو يضحك، ثم وقفوا عند الباب الخارجي..

- أذهبين إلى اليمين يا صوفيا سميونوفنا؟ وبهذه المناسبة، كيف

عرفت منزلي؟

وقد أضاف هذا السؤال كأنه عدل إلى قول يختلف كل الاختلاف عما كان يريد أولاً. وحاول أن ينظر إلى عينيها الصافيتين الناعمتين، ولكن هذا لم يكن ميسورًا..

وقالت: «إنك أعطيت عنوانك أمس لپولنكا!».

فقال: «پولنكا؟ نعم پولنكا، البنت الصغيرة، أهي أختك؟ هل أعطيتها عنواني؟».

- أنسيت ذلك؟

- لا! بل أذكره!

- قد سمعت والدي يتكلم عنك.. غير أنني لم أكن أعرف اسمك، ولا هو أيضًا. فلما حضرت الآن- وكنت قد عرفت اسمك- سألت: هل السيد رسكولنكوف يقيم هنا؟.. وما كنت أعرف أنك مثلنا تسكن في غرفة واحدة! أستودعك الله! سأخبر كاترينا إيفانوفنا..

وشعرت بسرور عظيم إذ استطاعت الإفلات أخيرًا، فسارت مطرقة مسرعة كي تغيب عن الأنظار في أقرب وقت، وقطعت الخطوات العشرين إلى ناصية الشارع من الجهة اليمنى، ووجدت نفسها آخر الأمر وحيدة. وسارت بعد ذلك مسرعة، لا تنظر إلى أحد ولا تعنى بشيء، بل تفكر وتتذكر وتقف عند كل كلمة وكل صغيرة.. فهي لم تشعر قط من قبل بمثل هذا الشعور الذي خامرها. وتذكرت فجأة أن رسكولنكوف يعتزم زيارتها في هذا اليوم، وقد يكون ذلك في الصباح عينه، بل قد يكون بعد قليل!

وظلت تتمتم بقلب كسير، وهي كالطفل الخائف: «أرجو ألا تكون زيارته في هذا اليوم! أرجو ألا يكون اليوم! رحمة! سيأتي عندي.. في تلك الغرفة.. إنه سيرى! رباه!..»

وكانت غارقة في أفكارها، فلم تلاحظ شخصًا يرقبها ويقتفي أثرها منذ خروجها من المنزل، وفي نفس اللحظة التي وقفت فيها مع رسكولنكوف ورازوميهين إذ كانوا يتحدثون على رصيف الشارع. فقد مرّ ذلك الرجل الأجنبي بالقرب منهم، وكانت سونيا تقول عندئذ: «سألت: هل السيد رسكولنكوف يسكن هنا؟» فسمع الرجل هذه العبارة، وارتجف وألقى نظرة سريعة على الثلاثة، ولا سيما على رسكولنكوف، وكانت الفتاة تخاطبه، ثم حول نظره إلى المنزل ليتذكره.. حدث كل ذلك في لحظة وهو مار لا يظهر اهتمامًا. ثم سار الرجل بعد ذلك في ببطء كأنه ينتظر أحدًا، والواقع أنه كان ينتظر سونيا؛ فلما رآهم يتفرقون ورآها تسير نحو منزلها قال في نفسه: «منزلها؟ أين؟ لقد رأيت هذا الوجه في أحد الأمكنة! ويجب أن أعرف حقيقة الأمر...».

ولما وصل إلى منحني الشارع سار إلى الرصيف المقابل، والتفت فرأى الفتاة متجهة في نفس الاتجاه الذي يسير فيه، ولكنها لم تلاحظ شيئًا، وعرجت مع الشارع، فتبعها وهو على الرصيف الآخر. وبعد نحو خمسين خطوة تحول إلى الرصيف الذي تسير عليه، وسار خلفها على بعد ذراعين أو ثلاثة. وكان هذا الرجل في نحو الخمسين من عمره، يكاد يكون طويل القامة، وهو ضخم الجثة، كتفاه عريضتان ومرتفعتان، ويبدو عليه انحناء قليل. وكان يرتدي ثيابًا أنيقة تدل على أنه ذو مقام، ويده عصا

جميلة يضرب بها الرصيف في كل خطوة. وكان قفازه نظيفًا جدًا، أما وجهه فعريض رائق، وعظم خديه مرتفع، وفي لونه نضرة لا ترى كثيرًا في أهل بطرسبرج. وكان شعره الأشقر لا يزال غزيرًا، وإن خطه الشيب في مواضع، وله لحية كثة مربعة أزهر لونًا من شعر رأسه، وعيناه الزرقاوان لهما نظرة جامدة مفكرة. وكانت شفثاه حمراوين. فهو رجل محتفظ بشكله يبدو أصغر من سنه كثيرًا.

وحين بلغت سونيا ضفة القناة، لم يكن يسير على الرصيف غيرهما.. وقد لاحظ ما هي فيه من الاستغراق في الأحلام والتأمل. فلما بلغت باب المنزل الذي تسكن فيه تبعها وقد ظهر عليه شيء من الدهشة. فلما اجتازت إلى فناء الدار، انحرفت نحو اليمين في جهة السلم الموصل إلى مسكنها. فتمتم السيد المجهول مبدئًا عجبه وصعد السلم خلفها، وحينئذ لاحظت الفتاة لأول مرة وجوده. ووصلت إلى الطبقة الثالثة، وسارت في الممر، ودقت الجرس رقم ٩، وكان مكتوبًا على الباب بالطباشير «كابرناموف-خياط». وردد الرجل المجهول تمتته مستغربًا هذه المصادفة. وقرع الجرس رقم ٨، وكان البابان لا يبعدان غير خطوتين أو ثلاث.

وسأل سونيا مبتسمًا: «أتقيمين عند كابرناموف؟ إنه أصلح لي صداري بالأمس. وأنا أسكن هنا بجانبك لدى السيدة رسلش. أليس ذلك غريبًا؟».

ف نظرت إليه سونيا في اهتمام، واستمر في لهجة مرحة: «إذن فنحن جاران! إننا جاران إذن، وقد قدمت إلى هذه المدينة أمس الأول، فإلى الملتقى مؤقتًا!».

فلم تجب سونيا، وفتح الباب فدخلت إلى مسكنها وهي تشعر مما مر
بخجل ورهبة..

وكان رازوميهين مبتهجاً وهو يسير مع صديقه إلى بورثيري ويعيد
عليه قوله: «هذا عظيم أيها الصديق، وإني لمسرور سروراً عظيماً!».
وكان رسكولنكوف يسائل نفسه: «لماذا كل هذا السرور؟».

وقال رازوميهين: «لم أكن أعلم أنك رهنت أشياء لدى العجوز! فهل
كان ذلك منذ أمد بعيد؟ أعني هل كنت هناك منذ مدة طويلة؟».
فقال في نفسه: «إنه لغبي بسيط!».

وقال له، وكأنه يجمع ذاكرته: «متى كان ذلك؟ قد يكون قبل يومين أو
ثلاثة من موتها، ولكني لا أريد أن أسترده الأشياء المرهونة الآن».
قال ذلك في لهجة متعجلة يبدي فيها اهتماماً ظاهراً بهذه الأشياء:
«وليس لديّ غير روبل واحد بعد حالة الغيبوبة اللعينة التي كنت فيها
بالأمس».. واهتم بتأكيد حالة الغيبوبة..

فأسرع رازوميهين بالموافقة على ما لم يكن واضحاً، فقال: «نعم!
نعم! هذا هو السبب في أن هذا الأمر يشغل جانباً من فكرك.. أتدري أنك
كنت في هذيانك دائماً خواتم وسلاسل؟ نعم! نعم! إن الأمر واضح..
المسألة في غاية الوضوح الآن!».

فقال رسكولنكوف في نفسه: «مرحى! مرحى! إنني أتبين كيف ثبتت

عندهم الفكرة! إن هذا الرجل على استعداد لأن يبذل حياته من أجلي، وأجده مبتهجاً إذ اتضح له لماذا تكلمت عن الخواتم في هذياني! إذن كانت الفكرة مسيطرة عليهم...».

ثم سأل فجأة: «أترى نجده في البيت؟».

فأجاب رازوميهاين بلا تردد: «نعم، وسترى يا صديقي أنه رجل ظريف! وهو أحياناً غير موفق.. أقصد أنه رجل مؤدب مهذب، ولكنه غير موفق في جهة أخرى.. وهو ذكي، بل شديد الذكاء، لكن له حداً من الآراء. وهو جامد مرتاب ساخر، يحب التعمية على الناس، أو على الأصح يحب أن يسخر منهم، وطريقته في التحقيق قديمة، تقوم على الاعتداد بالظروف المادية؛ ولكنه يفهم عمله تمام الفهم.. في السنة الماضية كشف الغطاء عن جريمة قتل لم يكده عشر فيها رجال الشرطة على دليل واحد. وهو في اشتياق شديد للتعرف بك».

- وما السبب في شدة الاشتياق؟

- لست أقصد ذلك على وجه الدقة، لقد حدث أثناء مرضك أننا تكلمنا عنك مرات، فلما سمع أنك تدرس الحقوق وأنت لا تستطيع إتمام دراستك أبدى أسفه لذلك.. لتعلم يا روديا أنني كنت قاصداً إلى منزلك بالأمس، وتكلمت بهراء كثير إذ كنت سكران، وأخشى أن تكون استأث من كلامي أيها الصديق! إن كل ما قلته كان كلاماً فارغاً صادراً عن السكر.. فصاح رسكولنكوف في غضب مبالغ فيه: «ولكن لماذا تعتذر؟ إني لشديد الضيق بكل هذا»، وكان غضبه فيه شيء من التصنع..

- إني أعلم! إني أعلم.. صدقني أن الخجل ليمنعني عن الكلام..

- إذا كنت خجلاً فلا تتكلم!

وسكت الاثنان، وكان رازوميهين في منتهى الابتهاج. ولاحظ رسكولنكوف ذلك في امتعاض، ولكنه أحس انزعاجاً لما قاله رازوميهين عن بورثيري..

وقال في نفسه بقلب مضطرب وقد امتقع وجهه: «يجب أن أظهر الغضب أمامه كذلك، وأن أجعل غضبي في هيئة طبيعية! ولكن خير ما يبدو طبيعياً هو ألا أتعمد شيئاً، نعم يجب ألا أتعمد شيئاً؛ لأن التعمد لا يبدو طبيعياً... سنرى عم تتمخض الأمور... سنرى بعد قليل، ولكن هل من الخير الذهاب أو الامتناع عنه؟ إن الفراشة تدور حول النور! ما لقلبي يدق؟ ألا ما أشد هذا عليّ!».

وقال رازوميهين: «إنه في هذه الدار الرمادية اللون!».

فقال في نفسه: «إن أهم ما يجب معرفته هو هل علم بورثيري بزيارتي أمس لدار المرأة العجوز... وسؤالي عن الدم؟ يجب قبل كل شيء التثبت من هذه المسألة في الحال! سأعرف ذلك من وجهه، وإلا فياني أعرفه بطريق آخر، ولو كان في ذلك القضاء عليّ».

ثم التفت فجأة إلى رازوميهين وقال وعلى فمه ابتسامة مأكرة: «أقول أيها الصديق.. إنني لاحظت عليك طوال هذا اليوم كأن بنفسك ثورة عجيبة، أليس ذلك؟».

فرد رازوميهين سريعاً: «ثورة؟ ليس بي شيء من ذلك.».

فقال: «نعم أيها الصديق، وإنه لأمر ملحوظ. فقد كنت مثلاً جالساً

على طرف الكرسي طول الوقت على غير عادتك، وكنت تتلوى كأنك تتألم، وتهب واقفًا بغير داع بين لحظة وأخرى.. وفي لحظة تغضب، وفي أخرى يصير وجهك صافيًا كالحلوى.. بل لقد احمر وجهك، ولا سيما حين دعيت للعشاء، وكان احمرارك شديدًا..».

فقال: «لا شيء من هذا! هذا هراء! ماذا تعني؟».

فقال رسكولنكوف: «أنت تحاول التملص كما يفعل التلميذ! وها أنت لعمري يحمر وجهك مرة أخرى!».

فأجاب: «إنك لخنزير!».

فقال له صاحبه: «لكن لماذا يحل بك الارتباك يا روميو؟ انتظر فسأقص هذا كله اليوم.. ها! ها! وأثير الضحك عند أُمي، وعند شخص آخر أيضًا..».

فاضطرب رازوميهين لما قال، وأحس بردًا في جسمه من الحرج والحقن وقال: «ماذا أنت قائل لهما؟ اسمع أيها العزيز.. أيها الأحمق.. حقًا إنك لخنزير!».

فقال رسكولنكوف: «إنك كوردة الصيف.. ألا ليتك تعرف مقدار صلاحك لما أنت فيه! إنك روميو العملاق في طول ستة أقدام! انظر كيف اغتسلت اليوم ونظفت أظافرك! إن هذا شيء بديع لم يسمع عنك من قبل! ماذا؟ بل إنني لأحسب أنك طيب شعرك بالدهان! أحن لي رأسك قليلًا!».

فقال صاحبه: «إنك لخنزير!».

وضحك رسكولنكوف وكأنه لا يستطيع منع نفسه من الضحك،

ودخلا شقة بورفيري بتروفتش وهو يضحك، وهذا ما أراد رسكولنكوف..
وكان ضحكهما مسموعاً من الخارج، نافذاً إلى داخل الغرفة، ثم استمر
ضحكهما في ممر الشقة..

وأمسك رازوميهين بكتفه وهمس في غيظ: «إذا فهت بكلمة أخرى
هنا سحقتك!».

(٥)

دخل رسكولنكوف الغرفة وكأنه يبذل أقصى جهده كي لا ينفجر ضاحكاً مرة أخرى، ودخل وراءه رازوميهين متعثراً خجولاً محمر الوجه كالزنبقة الحمراء، عليه علائم الضيق والغضب. وكان وجهه ومنظره عامة يبين عذر صديقه في ضحكته، ولم ينتظر رسكولنكوف حتى يقدم بل انحنى لبورفيري بتروفتش، وكان واقفاً وسط الغرفة ينظر إلى الزائرين نظرة المستفهم. ومد رسكولنكوف يده مصافحاً وهو على ما يظهر يبذل جهد اليأس ليتغلب على ضحكته، وينطق ببضع كلمات يدل بها على نفسه. ولكنه لم يكذ يتخذ مظهر الجد ويغمغم ببعض الألفاظ، حتى التفت إلى صاحبه كأن بصره يقع عليه عفواً، وكأنه لم يطق ضبط نفسه فانبعث منه ضحك لا يقاوم مهما حاول التغلب عليه.. وكانت الوحشية الغريبة التي بدت على رازوميهين لقاء هذا الضحك الذي كان في ظاهره ينطلق عفواً، مما يضفي على الموقف كله جو مرح حقيقي طبيعي..

وكان رازوميهين كأنه يشارك في إحداث هذا الأثر عامداً، فقد زأر صائحاً: «أيها الأحمق.. أيها الشيطان!»، وحرك ذراعه في أثناء قوله فإذا هي تصطدم بمنضدة صغيرة عليها قدح شاي فارغ، فانقلبت المنضدة والقدح، وعلت ضجة تحطيم..

فقال بورفيرى بتروفتش مرحاً: «لماذا تكسران الكراسي أيها السيدان؟ إنه إتلاف لأموال الحكومة»، وكان في قوله يحكي قولاً شائعاً.

كانت يد رسكولنكوف لا تزال في يدي بورفيرى بتروفتش وهو يضحك. ولكنه أراد ألا يبالغ في الأمر، وأن ينتظر الوقت المناسب لإنهاء هذا المنظر نهاية طبيعية. وكان رازوميهين قد غلبه الارتباك لسقوط المنضدة وتحطيم القدح، وأخذ ينظر في ضيق إلى حطام القدح ثم برطم حانقاً. وقصد إلى النافذة مولياً ظهره لصاحبيه، وهو مقطب الوجه غاضباً لا يرى شيئاً أمامه. فضحك بورفيرى بتروفتش، وكان على استعداد للاستمرار في الضحك، ولكنه كان يود لو عرف سببه. وكان زاميتوف جالساً في أحد أركان الغرفة، فنهض عند دخول الزائرين ووقف منتظراً وعلى فمه ابتسامة. وكان مظهره ينم عن دهشة، بل لعله كان ينم عن أنه كان لا يكاد يصدق ما تقع عليه عيناه، ثم نظر إلى رسكولنكوف بشيء من الارتباك، وكان لوجوده هناك على غير انتظار وقع سيئ عند رسكولنكوف.

وقال في نفسه: «يجب أن أفكر في هذا».. ثم ابتدأ يقول وقد تصنع الارتباك الشديد: «أرجو المَعذرة.. أنا رسكولنكوف».

فقال بورفيرى: «لا داعي للاعتذار فإنني سعيد لرؤيتك.. وإن مجيئك ليدخل السرور في نفسي.. ألا يريد هذا أن يلقي تحية؟»، وأوماً برأسه نحو

رازوميهين..

- لست أعرف بالله لماذا غضب مني. لم أقل له ونحن آتيان إلى هنا سوى أنه مثل روميو، واستطعت أن أثبت له ذلك بالدليل.. وهذا كل ما جرى فيما أظن!

فصاح رازوميهين من غير أن يلتفت: «خنزير!».

وضحك بورفيري قائلاً: «لا بد أن هنالك أسباباً خطيرة تحمله على الغضب من تلك الكلمة».

فرد رازوميهين في الحال: «هذا هو القانوني الضليع.. تباً لكم جميعاً!».

ثم انفجر فجأة ضاحكاً، وذهب إلى بورفيري بوجه باش كأن لم يحدث شيء وقال: «كفى، فنحن جميعاً حمقى!.. إلى العمل.. هذا صديقي روديون رومانوفتش رسكولنكوف، وقد جاء إليك لأمرين: أولهما أنه قد سمع بك ويريد أن يتعرف إليك، والأمر الثاني أنه يريد مباحثتك في أمر... آه! ماذا جاء بك إلى هنا يا زاميتوف؟ هل تلاقيتما من قبل؟ وهل تعارفتما من مدة طويلة؟».

وقال رسكولنكوف وفي نفسه قلق: «ما معنى هذا؟».

وبدا على زاميتوف شيء من الارتباك، ولكنه تمالك نفسه وأجاب في سهولة: «كيف لم نتعارف؟.. لقد تلاقينا أمس في مسكنك!».

فقال رازوميهين: «لقد أغفيت إذن من التعب، فقد ظل طوال الأسبوع الماضي يلح عليّ في أن أعرفه بك، فإذا أنت وبورفيري تتصلان بغير

وساطتي.. أين تبغك؟».

وكان بورفيرى بتروفتش في ثياب البيت، وقد ارتدى معطفًا منزليًا فوق ملابس داخلية نظيفة جدًا، ونعلًا منزليًا قديمًا. وهو رجل في الخامسة والثلاثين من عمره، قصير القامة ممتلئ الجسم يكاد يكون بدينًا، وحليق اللحية والشارب، وكان شعر رأسه قصيرًا، ورأسه مستديرًا يبرز بروزًا ظاهرًا عند القفا. وكان وجهه ناعمًا مستديرًا فيه أنف قصير ولونه مصفر معتل، إلا أنه يعبر عن نشاط وميل للسخرية. وكان مظهر هذا الوجه يكاد يوحي بطيبة النفس، لولا أن عينيه كانتا تلمعان بضوء مائي خبيث، تحت أهداف طرافة يقرب لونها من البياض، وكان تعبير هاتين العينين لا يتفق مع نعومة مظهره، ويخلع عليه من الجو ما لا تدركه العين لأول نظرة..

وما سمع بورفيرى بتروفتش أن رسكولنكوف سيباحثه في أمر صغير من أمور العمل، حتى دعاه للجلوس على المقعد الكبير وجلس في الجانب الآخر منه، منتظرًا منه أن يفصح عن أمره. وكان في اهتمامه الجدي وعنايته الكبيرة ما يبعث في النفس ضيقًا وارتباكًا، ولا سيما إذا كان الشخص غريبًا عنه، وكان موضوع الحديث في رأيه قليل الأهمية لا يتطلب كل هذا الاهتمام.. على أن رسكولنكوف شرح موضوعه في عبارات قصيرة ومفهومة وفي إيضاح ودقة، حتى أنه رضي عن نفسه وجعل يفحص بورفيرى بنظره. أما بورفيرى بتروفتش فإنه لم يرفع عينه عنه، وأما رازوميهين فكان جالسًا أمامهما إلى المنضدة، وهو يصغي في لهفة يخالطها ضجر، وعيناه تنتقلان بين لحظة وأخرى من أحدهما إلى صاحبه في اهتمام عظيم..

ولعنه رسكولنكوف في نفسه قائلاً: «يا للأبله!».

وأجاب بورفيري بتروفتش في لهجة عملية: «يجب أن تخبر رجال الشرطة بأنك إذ علمت بهذا الحادث- أي حادث القتل- تريد تبليغ قاضي التحقيق القائم بالقضية أن هذه الأشياء ملك لك، وأنك تريد استردادها... ومع ذلك فسيكتبون إليك».

وأجاب رسكولنكوف وهو يحاول أن يتصنع الارتباك: «هذا هو وجه المسألة في الوقت الحاضر، فليس لديّ مبلغ من المال... وحتى هذا المبلغ البسيط أعجز عنه... وكل ما أردته في الوقت الحاضر أن أعلن أن هذه الأشياء ملك لي، فإذا جاءني نقود...».

فأجاب بورفيري بتروفتش غير عابئ بإشارته إلى حالته المالية: «هذا أمر غير مهم، ويمكنك إذا شئت أن تكتب إليّ أنا قائلاً إنك علمت بالأمر وأن هذه الأشياء ملكك، ونرجو...».

فقاطعه رسكولنكوف مرة ثانية ينبهه إلى الجانب المالي من المسألة، فقال: «أنتكون الكتابة على ورقة عادية؟».

- على أي ورقة تشاء..

ونظر إليه بورفيري بتروفتش فجأة نظرة سخرية واضحة، فضيق من عينيه وتحركت أهدابه على عادته وكأنه يغمز بها، أو لعل هذا ما توهمه رسكولنكوف، فإن النظرة لم تستمر غير لحظة قصيرة. على أنه قد حدث شيء من هذا القبيل بغير شك، وكان رسكولنكوف يستطيع أن يقسم بأن الرجل قد غمز بعينه لأمر ما..

ومر في رأسه خاطر كالبرق: «إنه يعلم!...».

واستأنف الحديث في شيء من الاضطراب قائلاً: «معدرة إذ شغلتك بهذه التوافه، فإن هذه الأشياء لا تساوي أكثر من خمسة روبلات، لكنني أقدرها من أجل أولئك الذين أهدوها إليّ، وأعترف أنني ذعرت حين سمعت...».

فسأله رازوميهين، وبدا أنه يقول ذلك قصداً: «إذن هو هو السبب في شدة اهتمامك أمس عندما سمعتني أقول لزوسيموف إن بورفيري يسأل عن أصحاب الرهون؟».

وكان هذا أكثر مما يستطيع رسكولنكوف احتمالها، فرماه بنظرة سخط من عينيه السوداوين، ولكنه تملك في الحال زمام غضبه وأخذ يقول في غضب متقن التصنع: «إنك لتسخر مني أيها الصديق! ولعلك ترى في اهتمامي بهذا الأمر سخفاً، ولكن لا تظن بي المرض أو الطمع لذلك.. فإن هذين الشيئين التافهين قد تكون لهما قيمة عندي، فالساعة الفضية كما قلت لك الآن لا تساوي شيئاً، ولكنها كل ما لديّ من أثر لوالدي. وقد تضحك مني لذلك، غير أن والدتي هنا...».

والتفت فجأة إلى بورفيري، ثم التفت في سرعة يخاطب رازوميهين وهو يتعمد أن يجعل صوته مرتجفاً فقال: «إذا عرفت أمي أن الساعة فقدت فإنها تحزن حزناً شديداً، وإنك لتعرف خلق النساء...».

فصاح رازوميهين مضطرباً: «لا شيء من ذلك! لم أقصد هذا مطلقاً، بل قصدت عكس ذلك تماماً».

وكان رسكولنكوف يردد في نفسه مرتجفاً: «أكنت على حق؟ أكان ما فعلت طبعياً؟ هل غاليت فيما قلت؟ أكان ينبغي لي أن أقحم ذكر النساء

في قلبي؟».

فسأل بورفيري بتروفتش: «هل والدتك عندك؟».

- نعم.

- متى حضرت؟

- أمس..

وسكت قاضي التحقيق لحظة وكأنه يفكر، ثم قال في هدوء وفتور:
«لن تضيع أشياءك على أي حال! لقد كنت أنتظر زيارتك منذ حين..».
وكانه أراد أن يظهر أن هذا الأمر قليل الأهمية، فقدم منفضة السجائر في
عناية إلى رازوميهين، وكان هذا ينفذ رماد السجارة بلا اكتراث على
البساط.. وارتجف رسكولنكوف، ولكن لم يظهر على قاضي التحقيق أنه
فطن إلى ذلك، بل كان لا يزال مشغولاً بسيجارة رازوميهين..

وصاح رازوميهين: «ماذا؟ تنتظره؟ هل كنت تدري أن له أشياء مرهونة
هناك؟».

فوجه بورفيري بتروفتش كلامه إلى رسكولنكوف قائلاً: «كانت
أشياءك - وهي الخاتم والساعة - في لفافة ورق كتب عليها اسمك بوضوح
بالقلم الرصاص، وتاريخ إيداعها عندها».

وقال رسكولنكوف: «ما أدق ملاحظتك!».

وابتسم ابتسامة متصنعة، وبذل جهداً كبيراً ليواجهه بنظرته، ولكنه
لم يقو على ذلك، وأضاف فجأة: «أقول ذلك لأنه لا بد أن تكون الأشياء
المرهونة كثيرة... ومن الصعب تذكرها جميعاً. ولكنك تذكرها جميعاً في

وضوح، و... و...».

وبرقت له خاطرة: «إني لغبي ضعيف.. لم قلت هذا؟».

وأجاب بورفيري في تهكم يكاد لا يظهر: «ولكننا نعرف جميع أصحاب الرهون، وأنت الوحيد الذي لم تتقدم إلينا..».

- لم أكن متمالكًا صحي!-

- سمعت ذلك أيضًا، وقد بلغني أنك كنت في هم عظيم لأمر من الأمور.. ولا يزال وجهك شاحبًا إلى الآن!

- ليس بي أثر من الشحوب. بل صحي جيدة!

وكان رسكولنكوف عنيفًا غاضبًا في رده، وقد تبدلت لهجته وأخذ غضبه يتزايد، فلم يستطع كظمه. ومرت في ذهنه فكرة: «إني سأكشف عن نفسي في غضبي! ولكن لماذا يعذبونني؟».

وتدخل رازوميهين في الحديث قائلاً: «أقول إنك لم تكن متمالكًا صحتك؟ ما هذا القول؟».

والتفت إلى بورفيري قائلاً: «لقد كان بالأمس غائبًا عن وعيه يهدي! وهل تصدق يا بورفيري أننا ما أدركنا له ظهورنا حتى هرب منا خلصة وخرج هائمًا إلى منتصف الليل وهو في حالة هذيان طوال الوقت؟ أتصدق هذا؟ إنها لحالة غريبة!».

فهز بورفيري رأسه في حركة تشبه حركة النساء قائلاً: «أكان في غيبوبة حقًا؟ أهذا ممكن؟».

فاندفع رسكولنكوف يقول في غضب: «هذا كلام فارغ! لا تصدق!»

وعلى كل حال أرى أنك لم تصدقه».

ولكن لم يظهر على بورفيري ما يدل على أنه سمع هذه الكلمات الغريبة..

واستشاط رازوميهين غضبًا واندفع يقول: «ولكن كيف خرجت إذا لم تكن في حالة غيبوبة؟ لماذا خرجت؟ وماذا كنت تبغي؟ ولماذا كان ذلك خفية؟ أكنت متمالكًا حواسك عندما فعلت ذلك؟ لقد زال الآن عنك الخطر فتكلم في صراحة..».

فقال رسكولنكوف مخاطبًا بورفيري فجأة، وعلى فمه ابتسامة تحد مهينة: «لقد زهقت نفسي منهم أمس، فهربت منهم لأجد مسكنًا لا يعرفون طريقه، وأخذت معي مبلغًا كبيرًا من المال، وقد رآه السيد زاميتوف هذا. قل لي يا سيد زاميتوف، أكنت حافظًا لقواي العقلية أم كنت أهذي بالأمس؟ فلتفصل في هذا النزاع!».

وكان يود لو استطاع أن يخنق زاميتوف في تلك اللحظة، فقد كان تعبير وجهه وصمته كريهين جدًا لديه..

فقال زاميتوف في جفاء: «في رأيي أنك كنت تتكلم بعقل، بل بتدبر، غير أنك كنت مضطربًا جدًا...».

وقال بورفيري بترفتش: «أخبرني نيكوديم فوميتش اليوم أنه قابلك ليلة أمس في ساعة متأخرة جدًا بمنزل موظف مرت عليه عربة..».

فقال رازوميهين: «وهذا دليل لي! ألم تكن مخبولًا عندئذ؟ لقد أعطيت كل ما معك من نقود لأرملة الرجل من أجل الجنازة! إذا أردت المساعدة فأعطها خمسة عشر أو عشرين روبلاً، ولكن احتفظ بثلاثة لنفسك على

الأقل! لكنه ألقى كل ما معه: خمسة وعشرين روبلاً!..

فقال رسكولنكوف: «لعل عثرت على كنز لا تعرف عنه شيئاً، ولذلك كنت بالأمس كريماً... ولعل السيد زاميتوف يعلم أنني وجدت كنزاً! نرجوك المَعذرة إذ ضايقتك نصف ساعة بهذه السفاسف».. وقد وجه كلامه لبورفيرى وكانت شفتاه ترتعشان.. «أظن أنك شعرت بالملل منا، أليس كذلك؟».

- لا! بالعكس! بالعكس! لست تعلم إلى أي حد تثير اهتمامي! إنه لمن الممتع أن أنظر إليك وأصغي... وإني لمغتبط حقيقة بمجيتك آخر الأمر!

فصاح رازوميهين: «ولكني أظنك تستطيع أن تعطيناً شيئاً، فإن حلقي قد جف».

فقال بورفيرى: «فكرة عظيمة، وقد نشاركك فيه لنؤنسك.. أما تريدان شيئاً أقوى من الشاي نشربه قبله؟».

- فليكن ما تريد!

وخرج بورفيرى بتروفتش يطلب الشاي..

وكانت الأفكار تلف وتدور في رأس رسكولنكوف وهو في أشد حالات الضيق والحنق، وسنحت في ذهنه خواطر كأنها لمعات من برق خاطف.. «شر ما في الأمر أنهم لا يتسترون، بل لا يعنون بحفظ المظاهر! وإذا كنت لا تعرفني بته فلماذا كنت تتحدث إلى نيكوديم فومتش في شأني؟ هم إذن لا يعنون بأن يخفوا أنهم يقتفون أثري ككلاب الصيد! ما أراهم إلا يبصقون في وجهي!».

وكان يرتعش من الحق.. «هلم فاضرب علناً ولا تلعب معي كما يلعب القط الفأر! فليس هذا من اللياقة في شيء يا بورفيري بتروفتش، ولعلي لا أسمح بذلك! سأهب وأفدكم بالحقيقة كاملة في وجوهكم القبيحة.. وحينئذ تعلمون مقدار هوانكم عليّ!».

وكان يتنفس بصعوبة.. «وماذا يكون لو أن هذه كلها أوهام؟.. وماذا لو كنت مخطئاً أو أنني غريب أغضب ولا أحسن القيام بدوري الكريه؟ ربما كان كل ذلك القول غير مقصود، وأن عباراتهم جميعاً هي العبارات المألوفة.. ولكن لا شك أن في الأمر شيئاً! قد أقلب الأمر على وجوهه، ولكنني ألمح من وراء كل ذلك شيئاً.. فلماذا يتحدث عن الأشياء المرهونة فيذكر إيداعها (عندها)؟ ولماذا قال زاميتوف إنني كنت أتدبر في قلبي؟ لماذا يتكلمون بهذه النعمة؟ نعم، هذه النعمة!... على أن رازوميهين يجلس هنا ولا يرى شيئاً؟ ولكن هذا الغبي البريء لا يلاحظ شيئاً أبداً! هل عادت الحمى ثانية؟ هل غمزني بورفيري بعينه منذ قليل؟ لا شك في أن هذا هراء! ولماذا يغمز؟ أياحاولون إرهاب أعصابي؟ أم هم يتعمدون غيظي؟ أهو كله وهم؟ أم هم يعلمون الحقيقة؟ حتى زاميتوف يظهر الجفاء... أهو يظهر الجفاء حقاً؟... لقد عدل عن رأيه.. وكنت أتوقع منه ذلك... إنه معروف هنا، بينما هذه أول زيارة لي! وأرى بورفيري لا يعده ضيفاً، فهو يجلس ويدير له ظهره! فهما متفقان كلصين متحالفين عليّ! لا ريب في أنهما كانا يتحادثان عني قبل مجيئنا! أيعلمان شيئاً عن زيارتي للشقة؟ أما يسرعان فيجهران بالحقيقة؟ حين قلت إنني خرجت لاستئجار مسكن لم يعلق أحدهما بشيء على قلبي... ولقد أحسنت بذكر الفرار للبحث عن شقة، فقد يكون لذلك فائدة فيما بعد... أكنت في غيبوبة حقاً؟ إنه يعلم

كل ما جرى في الليلة السابقة! ولكنه لم يعلم بوصول والدتي! لقد كتبت العجوز تاريخ الرهن بقلم الرصاص! إنك مخطئ! إذا ظننت أنك تستطيع أن توقعني! فليس لديك أدلة.. كلها ظنون! فلتبرز أدلتك! حادث الشقة نفسه ليس دليلاً، فقد كنت أهذي! إني أعرف ما أقوله لهم!... هل يعرفون بأمر الشقة؟ لن أخرج من هنا دون أن أستوثق من ذلك.. لماذا جئت إلى هنا؟ إن غضبي هذا قد يكون دليلاً! إني لغبي! فما الذي يدفعني إلى مثل هذه الثورة؟ بل لعل ذلك من الصواب... فلاأستمر متظاهراً بالمرض! إنه يجسني ويحاول أن يوقعني! لماذا جئت إلى هنا؟».

وعاد بورفيري بتروفتش سريعاً وقد تبدل فجأة فصار أكثر مرحاً، وأخذ يقول لرازوميهين في نغمة أخرى وهو يضحك: «إن وليمتك بالأمس أيها الصديق قد صدعت رأسي... وإني لا أزال متعباً!».

فقال رازوميهين: «أكان الجدل شائعاً؟ لقد تركتكم أمس عند أهم موضع منه! فمن الذي انتصر فيه؟».

فقال بورفيري: «لا أحد بالطبع! فقد انتهوا إلى مسائل لا تنتهي، وتبعثر الحديث وسبح في الفضاء».

وقال رازوميهين: «تصور يا روديا ما وصلنا إليه في حديثنا أمس.. إذ كنا نتساءل: هل هنالك ما يصح أن يسمى جريمة؟ وقد أخبرتك كيف صُدمت رؤوسنا بما قيل في هذا...».

فقال رسكولنكوف وهو شارد الفكر: «وما الغرابة في هذا السؤال؟ إنها مسألة من المسائل الاجتماعية التي اعتاد الناس أن يخوضوا فيها...».

ولاحظ بورفيري قائلاً: «لم يوضع السؤال هكذا!».

ووافق رازوميهين في الحال قائلاً: «هذا حقيقي! لم يكن هكذا تمامًا!» وكان متحمسًا متسرعًا كعادته.. «اسمع يا روديا، ولتطلعنا على رأيك فأني أريد أن أسمعه، وكنت أقاتلهم بأظافري وأنيابي منتظرًا مساعدتك.. وأخبرتكم أنك آت... وقد ابتدأ الجدل من نظرية الاشتراكيين، وأنت تعرف نظريتهم بأن الجريمة إن هي إلا احتجاج على فساد النظام الاجتماعي القائم لا أكثر ولا أقل، وهذا كل شيء. وهم لا يعترفون بأسباب أخرى...».

فصاح بورفيري بتروثش: «إنك ابتدأت بالخطأ».

وكان قد تحمس تحمسًا واضحًا، وظل يضحك وهو ينظر إلى رازوميهين، فزاد هذا حماسة وقاطعه في حرارة قائلاً: «إنهم لا يسلمون بشيء. لست مخطئًا! سأطلعك على نشراتهم لتعرف أن كل شيء عندهم هو «من تأثير البيئة» لا غيرها! ذلك هو تعبيرهم المفضل! ونشأ عن ذلك أنه لو كانت الهيئة الاجتماعية تسير على السمت السليم في نظامها، فإن الجرائم لا تلبث أن تنقطع، إذ لا يكون هناك ما يدعو للاحتجاج، ويصير الناس في لحظة واحدة عدوًّا. فهم لا يعتدون بالطبيعة البشرية، بل يتجاهلونهم ويصرفون النظر عن وجودها. وهم لا يعترفون بأن الإنسانية في تقدمها تسير على منهاج حيّ منظور، ولا أنها تتدرج مع الزمن حتى تصير هيئة اجتماعية صالحة! ويعتقدون أن النظام الاجتماعي الذي يضعه عقل بشري بطريقة حسابية، يؤدي إلى خلق الهيئة الاجتماعية فجأة في أحسن تقويم، ويجعلها في لحظة واحدة عادلة خالية من الآثام. وأن ذلك التنظيم يتم أسرع من فعل التدرج في الحياة، وهذا هو السبب في كراهيتهم للتاريخ بالغريزة، فلا يرون فيه سوى القبح والبلادة، ويفسرونه كله بأنه لا يتم إلا عن غباء! وهذا هو السبب في كراهيتهم للتدرج مع الحياة وسيرها،

وكفرهم بالروح الحية.. فإن الروح الحية تتطلب الحياة، ولا تخضع للقواعد الآلية. فالروح إذن موضع الريبة عندهم، وهي في نظرهم رجعية. ولكنهم يريدون شيئاً يشبه الموت، شيئاً كقطعة المطاط لا روح فيه ولا إرادة له، شيئاً خاضعاً لا يثور. وينتهي كل شيء عندهم إلى بناء الجدران وتصميم الغرف والممرات في صرح الاجتماعيين. إن صرح الاجتماعيين يمكن إعداده، ولكن طبيعتنا البشرية غير معدة للسكنى فيه.. فإنها تريد الحياة، وهي دائبة الحركة في سيرها لا تحب الاستقرار. ولا يمكن التغلب على الطبيعة بالمنطق؛ فالمنطق لا يفرض إلا ثلاثة احتمالات، بينما في الطبيعة ما لا يحصى من ملايين الاحتمالات! وهم يستبعدون مليوناتها ويختصرون سائرهما إلى غاية واحدة، وهي الراحة والدعة! وهي أسهل الحلول! إن الأمور عندهم واضحة من غير هذا التعقيد، ومن غير التفكير فيها! إن أعظم شيء عندهم هو ألا يفكر أحد فيها! هذا عندهم سر الحياة بأكملها في سطور!«.

فضحك بورثيري وقال: «لقد اندفع وكأنه يقرع طبلاً، ولا سبيل لإسكاته إلا بإمساك يديه...».

ثم التفت إلى رسكولنكوف وقال: «تصور في ليلة أمس ستة أشخاص يقرعون طبولهم هكذا في غرفة واحدة، بعد أن ابتدأوا بشرب خمر حامية.. فهل تتصور هذا؟ لا أيها الأخ، إنك مخطئ! فإن للبيئة أثراً كبيراً في الجريمة.. أوكد لك ذلك!«.

- إنني أعترف بذلك، ولكن قل لي ما رأيك في رجل بلغ سن الأربعين إذ يعتدي على طفلة في العاشرة؟ هل البيئة هي التي دفعته إلى ذلك؟

فلاحظ بورفيرى في لهجة حادة: «إذا دققنا في التعبير قلنا إن لها دخلاً. فجريمة من هذا النوع يمكن أن تعزى إلى تأثير البيئة...».

فكاد رازوميهين يخرج عن صوابه، وصاح في صوت كالزئير: «إذا أردت فأني أبرهن لك أن أهدابك البيضاء قد يكون لها علاقة بارتفاع كنيسة إيفان الأكبر إلى مائتين وخمسين قدمًا. وسأبرهن على هذا في وضوح ودقة، ذاهبًا مذهب القائلين بالتقدم، بل ذاهبًا مذهب الأحرار! سأقوم بهذا! هل تراهن على ذلك؟».

فقال بورفيرى: «ليكن! وأرجو أن تستمعوا لبراهينه!».

فصاح رازوميهين وقد هب واقفًا وأخذ يلوح بيديه: «ويله! إنه دائمًا ساخر! ما الفائدة من التحدث معك؟ إنه يقول كل هذا عمدًا، فإنك لا تعرفه يا روديون! إنه انضم إليهم بالأمس لكي يسخر منهم! ليتك سمعت ما قال! ومع ذلك فقد كانوا مبتهجين به! وهو يستطيع أن يستمر في هذا التمثيل أسبوعين. فلقد أقنعنا في السنة الماضية أنه اعتزم دخول الدير، وظل شهرين يؤكد ذلك! ومنذ زمن غير بعيد عن له أن يعلن أنه سيتزوج، وأنه أعد كل شيء للزواج؛ وقد أوصى فعلاً بصنع ثياب جديدة، وبدأنا جميعًا نهنته، مع أنه لم تكن هناك عروس ولا شيء من ذلك، بل مجرد خيال!».

- إنك مخطئ، فأني اشتريت الثياب الجديدة قبل ذلك، وهي التي أوحى إليّ، في الواقع فكرة العبث بكم!

فقال رسكولنكوف في غير اهتمام: «أهذا مبلغك من القدرة على خداع الناس؟».

فقال بورفيري: «ألم تكن تظن هذا؟ فلتنتظر قليلاً، وسأموه عليك أنت الآخر.. ها! ها! لا! سأقول لك الصدق.. إن كل هذه المسائل المتعلقة بالجريمة والأطفال تذكرني بمقال لك أثار اهتمامي في وقته وكان عنوانه «عن الجريمة»، أو ما يشبه ذلك! لقد نسيت العنوان، ولكنني قرأته بلذة من شهرين في المجلة الدورية».

فسأل رسكولنكوف مستغرباً: «مقالي؟ في المجلة الدورية؟ من المؤكد أنني كتبت مقالاً عن أحد الكتب منذ ستة أشهر عندما تركت الجامعة، ولكنني أرسلته للمجلة الأسبوعية».

- ولكنه ظهر في المجلة الدورية..

- عرفت أن المجلة الأسبوعية قد انقطعت عن الظهور، ولعل هذا هو السبب في أنها لم تنشر مقالي عندئذ!

- هذا حق! وعندما انقطعت المجلة الأسبوعية عن الظهور أدمجت في المجلة الدورية، فظهر مقالك فيها منذ شهرين.. ألم تعلم ذلك؟
وكان رسكولنكوف يجهل هذا الأمر.

- يمكنك إذن أن تأخذ منهم أجر هذا المقال! إنك شخص غريب تعيش حياة عزلة حتى أنك لا تعرف شيئاً عن الأمور التي تتصل بك من قريب! هذه هي الحقيقة! أوكد لك!

وصاح رازوميهين: «أحسنت يا روديا، وأنا أيضاً لم أعلم بشيء من ذلك، وسأذهب اليوم إلى غرفة المطالعة وأطلب هذا العدد من المجلة. هل نشر هذا المقال منذ شهرين؟ في أي تاريخ؟ لا بأس، فإني سأبحث عنه. ما أعجب هذا! إنه لم يذكر لنا شيئاً!».

- لكن كيف عرفت أنه مقالتي؟ فإني لم أوقعه إلا بالحروف الأولى من اسمي..

- عرفت ذلك مصادفة منذ عهد قريب من رئيس التحرير... فإني أعرفه، وقد اهتممت جدًا لهذا المقال!

فقال رسكولنكوف: «لقد حللت - على ما أذكر - نفسية المجرم قبل ارتكاب الجريمة وبعدها...».

فقال بورفيرى: «نعم، وقد أصررت على أن الفعل الإجرامي يكون دائمًا مصحوبًا بحالة مرضية، وهذا رأي جديد جدًا... ولكن... لكن ليس هذا القسم من مقالك هو الذي أثار اهتمامي، بل فكرة في نهايته أقول - ويا للأسف - إنك تعرضت لها دون أن تشرحها شرحًا وافيًا.. وهي - إذا كنت تذكر - أن في العالم أناسًا يستطيعون.. لا، إنهم يقدرون تمامًا، بل إن لهم الحق المطلق في ارتكاب آثام وجرائم، وأن القوانين لم توضع لهم...».

فابتسم رسكولنكوف لما أدخل على فكرته من التشويه المتعمد والمبالغة. وقال رازوميهين في شيء من الفزع: «كيف؟ ماذا تعني؟ حق ارتكاب الجريمة؟ لست أظنك تعزو ذلك إلى تأثير البيئة؟».

فأجاب بورفيرى: «لا. لا. ليس بتأثيرها تمامًا! إن الناس في مقاله منقسمون إلى قسمين: أحدهما من العاديين، والآخر غير العاديين. فالعاديون يجب أن يعيشوا خاضعين، وليس لهم حق الخروج على القوانين؛ لأنهم كما ترى عاديون. وأما غير العاديين فإن لهم الحق في ارتكاب أية جريمة، والخروج على القانون بأية طريقة، لا لشيء سوى أنهم غير عاديين.. أظن أن هذه هي فكرتك، ما لم أكن مخطئًا...».

فتمتم رازوميهين في حيرة: «ماذا تقصد؟ هذا لا يمكن أن يكون صحيحًا..».

فابتسم رسكولنكوف مرة أخرى، ولاحظ في الحال الغرض الذي يراد من وراء الحديث فقرر قبول التحدي، وأخذ يقول بتواضع وسهولة: «ليس هذا ما قلته تمامًا، ولكنني أعترف أنك سردت نظريتي كما هي بوجه التقريب، وإن شئت قلت: بكل دقة.. (وكان مسرورًا بهذا الاعتراف). والخلاف الوحيد هو أنني لم أقل إن الناس غير العاديين يجب دائمًا أن يقترفوا الجرائم، فإن هذا الرأي لا يمكن نشره.. والحقيقة أنني أشرت إلى أن الرجل غير العادي له الحق - لا حق رسمي قانوني، بل حق يقرره فيما بينه وبين نفسه - أن يتخطى - لا رسميًا، بل من حيث شخصيته - بعض العقوبات، وذلك في حالة الضرورة وبقدر ما تستلزمه الضرورة لتحقيق فكرته، وقد يرقى بفكرته إلى نفع الإنسانية بأجمعها. إنك تقول إن مقالتي غير محدد، وسأحاول توضيحه بقدر المستطاع، وربما كنت محققًا في ظني أن هذه هي رغبتك.. فليكن!

في رأيي أنه إذا كانت مبتكرات كبلر أو نيوتن لا تُعرف إلا بعد تضحية واحد أو عشرة أو مائة أو عدد أكبر من الناس، فإن لنيوتن الحق، بل عليه واجب إبادة هؤلاء العشرة أو المائة من الناس كي تُعرف اكتشافاته للإنسانية بأجمعها. وليس معنى ذلك أن نيوتن له الحق في قتل الناس يمينًا ويسارًا، أو سرقة الأسواق في كل يوم.. وأتذكر - فضلًا عن ذلك - أن من رأيي في مقالتي أن المشرعين وزعماء الرجال، من أمثال ليكرج وسولون ونابليون وغيرهم، كانوا جميعًا مجرمين بلا استثناء؛ لأنهم بوضعهم قوانين جديدة اعتدوا على القانون القديم المورث من أسلافهم، وهو الذي كان الناس

يقدمونه. وهم لم يترددوا قط في إراقة الدماء - وكثيرًا ما كانت دماء أبرياء قتلوا دفاعًا عن القانون القديم - حين كانت إراقة الدماء ذات نفع لقضيتهم. ومما يلاحظ في الواقع أن أغلب هؤلاء الزعماء الذين أفادوا الجنس البشري كانوا سفاكين للدماء، وبالاختصار أرى أن كل عظماء الرجال، بل إن غير العظماء ممن لم يكونوا عاديين، أعني أولئك الذين يستطيعون أن يأتوا بجديد، هم بطبيعتهم مجرمون وإن اختلفوا في درجة إجرامهم.. ولولا ذلك لصعب عليهم أن يحدوا عن الطريق القديم المألوف، مع أن طبيعتهم تأبى المضي في الطريق القديم المألوف، بل إنني أرى أنه ينبغي لهؤلاء جميعًا ألا يخضعوا لما ألف الناس، وإنك لترى من ذلك أن ليس في مقالي من جديد مطلقًا. فقد نشر هذا وقرئ آلاف المرات من قبل.

أما تقسمي الناس إلى عاديين وغير عاديين، فأعترف أن فيه شيئًا من الإطلاق. غير أنني لا أصر على تحديد الأعداد، وكل ما أعتقد فيه إنما هو الفكرة الأساسية، وهي أن الناس بوجه عام ينقسمون بفعل قانون طبيعي إلى قسمين: قسم أدنى أو عادي يمكن أن يقال إنه مجرد أداة للتكاثر، وقسم قوامه الرجال الذين لديهم الموهبة أو الذكاء لينطقوا بكلمة جديدة. ومما لا شك فيه أن في هذين القسمين عددًا لا يحصى من الأقسام الفرعية، غير أن المميزات بين القسمين واضحة وضوحًا كافيًا.

فالقسم الأول مؤلف بوجه عام من محافظين بطبيعتهم خاضعين للقانون، يعيشون تحت سلطة الآخرين ويحبون ذلك. وفي رأي أن من واجبهم أن يكونوا خاضعين لأن ذلك نصيبهم في الحياة، فليس فيه مهانة لهم. والقسم الثاني يشمل الذين يتخطون القوانين، فهم هدامون أو

ميالون للهدم حسب كفايتهم. وجرائم هؤلاء بالطبع نسبية ومتنوعة، وهم في الغالب يحاولون بطرق كثيرة متنوعة هدم ما هو قائم في سبيل ما هو خير منه. فلو اضطر أحدهم في سبيل فكرته أن يخطو فوق جثة أو يخوض الدماء فإنه يجد في رأيه، داخل نفسه أو في ضميره، ما يسوغ له خوض الدماء.. ولنلاحظ أن ذلك يتوقف على الفكرة وحدودها، فهذا هو المعنى الذي أقصده في مقالي من حقهم في الجريمة، ولنذكر أنها ابتدأت بالمسألة القانونية.

ومع ذلك فلا داعي للقلق؛ لأن الجماهير لن تعترف لهم بهذا الحق، بل تعاقبهم وتشنقهم - أو توقع بهم ما يشبه ذلك - وهي بذلك تفعل ما هو صواب؛ لأنها تؤدي مهمتها، وهي المحافظة على النظام. على أن الجماهير نفسها ترفع التماثيل في الجيل الثاني لهؤلاء المجرمين وتعبدهم.. فالطائفة الأولى تتألف من رجل الحاضر، والثانية من رجل المستقبل. الطائفة الأولى تحافظ على العالم بالتناسل والتكاثر، والأخرى توظف الإنسانية وتدفعها إلى طريق العمل، وكل من الطائفتين له الحق في الوجود، والواقع أن للطائفتين حقوقاً متساوية أمامي، وليحى النضال الدائم.. إلى أن توجد أورشليم الجديدة بلا ريب..

- إذن أنت تعتقد في أورشليم الجديدة؟

فأجاب رسكولنكوف في ثبات: «أعتقد...». وكان أثناء ذلك الحديث الطويل يحدق بنظره إلى مكان واحد في السجادة.

- وهل تعتقد بالله؟ لا تؤاخذني على هذا الفضول..

وأجاب رسكولنكوف رافعاً بصره إلى بورفيرى: «أعتقد...».

- وهل تعتقد بقيام أليعازر من الموت؟

- نعم، لكن لماذا تلقي عليّ كل هذه الأسئلة؟

- هل تعتقد بذلك حرفيًا؟

- حرفيًا!

- لا أظنك تعتقد هذا.. ولكنني أسألك من باب الفضول.. معذرة فلنرجع إلى الموضوع. إن بعض هؤلاء لا يعذبون، بل على العكس من ذلك...

- ينتصرون في حياتهم؟ نعم؛ إن البعض منهم يصل إلى أغراضه في هذه الحياة، وعندئذ...

- يأخذون في إعدام الناس.. أليس كذلك؟

- نعم، عند الضرورة. والواقع أن هذا ما يحدث غالبًا... إن ملاحظتك تلمع ذكاء وظرفًا.

- شكرًا لك. لكن قل لي: كيف يمكن التمييز بين غير العاديين والعاديين؟ هل هناك علامات خاصة عند مولدهم؟ أشعر أنه لا بد من الدقة، ولا بد من وجود علامات ظاهرة للتعرف بهم. واعذرني على قلقي الطبيعي بصفتي مواطنًا خاضعًا للقانون! ألا يمكن أن يرتدوا زيًا خاصًا مثلًا؟ ألا يمكن أن يوسموا بعلامة تميزهم عن سواهم؟ لأنه إذا اختلط الأمر وتصور أحد أعضاء الطائفة الأخرى أنه من هذه الطائفة الممتازة وأخذ- بتعبيرك الموفق- في إزالة العقبات، فعندئذ...

- إن مثل هذا يحدث كثيرًا، وهذه الملاحظة أمعن في الذكاء من

الأولى...

- شكرًا لك!

- لا ضرورة لذلك، ولكن يلاحظ أن الخطأ لا يقع إلا من أفراد الطائفة الأولى، أعني الطائفة التي أطلقت على أفرادها اسم العاديين، وهو اسم قد لا يكون موفقاً. إذ يوجد بينهم، بالرغم من ميلهم الغريزي إلى الطاعة، كثيرون جدًّا من الأعيب الطبيعة كما قد يوجد حتى في البقر، فيخيل إليهم أنهم من دعاة التقدم، وأنهم هدامون، ويزجون بأنفسهم في «الحركة الجديدة» مخلصين، وفي الوقت ذاته قد يخفى أمر المجددين الحقيقيين على الناس، بل قد يكونون موضعًا للبغض، وقد يتهمون بالتأخر والانحطاط في اتجاهاتهم.. ولكني لا أرى في ذلك خطرًا عظيمًا، ولا أجد ما يبعث على القلق من الأدعاء فإنهم لا يتمادون في طريقهم.. ومما لا ريب فيه أنهم يؤدّبون أحيانًا بشيء من العقوبة، إذا حملتهم أوهامهم على الإغراق؛ لكي يعرفوا حقيقة مكانتهم. والواقع أن لا ضرورة حتى لهذا؛ لأنهم أحيانًا يوقعون العقوبة على أنفسهم بأنفسهم؛ لأنهم أناس ذوو ضمائر.. فقد يقوم البعض منهم بتأديب البعض الآخر، أو يؤدّب البعض أنفسهم بأيديهم، ويفرضون على أنفسهم أنواعًا من الأعمال العامة على سبيل التكفير عن الذنوب، مما يكون له تأثير حسن جميل.. وليس في الأمر ما يحملك على أن تكون قلقًا.. إنه قانون الطبيعة.

- من المؤكد أنك أرحت بالي من هذه الجهة، لكنني لا أزال قلقًا لأمر آخر، أعني غير العاديين.. إنني بلا ريب على استعداد للانحناء أمامهم، لكن يجب أن تعترف بأن الأمر قد يدعو إلى الخوف إذا كان عددهم عظيمًا!

فأجاب رسكولنكوف باللهجة نفسها: «لا حاجة للقلق من هذه الناحية أيضًا، فإن ذوي الآراء الحديثة والذين لهم أقل مقدرة على قول شيء جديد عددهم قليل جدًا، بل قليل قلة غير عادية في الواقع. على أن هنالك أمرًا واحدًا واضحًا كل الوضوح، وهو أن ظهور هذه الطبقات والأقسام الفرعية من الناس لا بد أن يكون خاضعًا في نظام دقيق لقانون طبيعي. ولا ريب في أن هذا القانون غير معلوم لنا في الوقت الحاضر. لكنني أعتقد اعتقادًا جازمًا بوجوده، وقد يعرف يومًا ما، أما السواد الأعظم من الجنس البشري فما هو إلا المادة التي ما وجدت إلا لكي تتوصل - بعد جهد عظيم، وطريقة خفية، وتزاوج وتمازج بين الأجناس والأنواع - إلى أن تخرج للعالم رجلًا واحدًا من بين ألف رجل فيه شرارة من الاستقلال.. أما الرجل الذي فيه شيء ظاهر من الاستقلال فهو واحد في كل عشرة آلاف، وهذا تقدير تقريبي.. وأما الرجل المستقل استقلالًا أكبر فلا يزيد على واحد في كل مائة ألف.. وأما الرجل العبقري فإنه لا يخرج إلا من بين ملايين.. أما العباقرة الكبار الذين هم تاج الإنسانية فإن الواحد منهم يظهر على هذه الأرض من بين آلاف الملايين.. والواقع أنني لا أدعي معرفة أسرار الكون، ولا أدعي أنني أعرف كيف يحدث كل هذا، ولكنني أقول إنه من المؤكد ومن الواجب أن يكون هنالك قانون ثابت تجري عليه هذه الأمور، وأنها غير موكولة إلى المصادفة..».

فصاح رازوميهين أخيرًا: «أتمزحان؟ هل جلس كل منكما أمام الآخر ليسخر منه؟ هل أنت جاد في كلامك حقيقة يا روديا؟».

فلم يجب رسكولنكوف بل رفع إليه وجهه الشاحب الحزين يرتسم عليه الهدوء والألم، ثم اتجه رازوميهين إلى وجه بورفيري وقد ارتسمت

عليه السخرية السافرة المألحة العصبية الخالية من الذوق، فعجب لما بينهما من فوارق..

وقال لصاحبه: «حسنًا يا صديقي! إذا كنت جادًا حقيقة، فأنت على حق بلا ريب في قولك إن رأيك ليس جديدًا، وأن هذه الآراء تشابه كل الشبه ما قرأناه وسمعناه مرارًا عدة! لكن الرأي المبتكر حقيقة في كل هذا هو رأيك خاصة، وهو يشير الفزع في نفسي، فإنك تؤيد سفك الدماء باسم الضمير.. ومعذرة إذا قلت إنك تؤيده في تعصب.. وهذا فيما فهمت موضوع مقالك. وفي رأيي أن إباحة سفك الدماء بحكم الضمير، هي أفظع من إباحة سفك الدماء رسميًا وقانونيًا..».

فوافق بورفيرى قائلاً: «إنك على حق. فهذا أفظع بكثير».

فقال رازومييهين: «نعم! ولا جرم أنك قد بالغت، أو أنك قلت شيئًا على غير وجهه! سأقرأ المقال! فلا يمكن أن يكون هذا رأيك حقًا! سأقرأه!». فقال رسكولنكوف: «ليس كل هذا في المقال! إنما توجد فيه إشارة إليه...».

ولم يستطع بورفيرى أن يجلس ساكنًا، فقال: «نعم. نعم. كدت أدرك الآن طريقة نظرك إلى الجريمة... ومعذرة عن إصراري، فأنا حقًا خجل لإرهاقك هكذا.. إنك قد أزلت قلقي بإيضاح رأيك في امتزاج الطبقتين من الناس، ولكن.. هنالك عدة احتمالات عملية تقلقني! ماذا يكون لو أن رجلاً، أو شابًا، ظن نفسه مثل ليكرج أو غيره من العظماء - أقصد شابًا في المستقبل بلا ريب - ولنفرض أنه ابتداءً يزيل العقبات، فيرى أمامه مغامرة كبرى، ويجد أنه في حاجة إلى المال... ويحاول أن يحصل عليه... أتفهم

ما أقصد؟».

وقهقه زاميتوف ضاحكًا في ركنه، فلم يعن رسكولنكوف حتى بأن يرفع عينيه نحوه، بل قال في هدوء: «أعترف بأن هذه الحالات لا بد أن تحدث، ويقع في شراكها الحمقى والأدعياء بنوع خاص، لا سيما من الشبان...».

- نعم! هل ترى؟.. فماذا يكون؟

فأجاب رسكولنكوف مبتسمًا: «ماذا؟ ليس هذا ذنبي.. هذا ما يحدث وسيحدث دائمًا! لقد قال هذا منذ حين (مشيرًا إلى رازوميهين) أنني أؤيد سفك الدماء! إن الهيئة الاجتماعية تحميها السجون، والنفي، والمحققون، والأشغال الشاقة، فلا حاجة للقلق! عليك أن تقبض على السارق!».

- وماذا يكون إذا قبضنا عليه؟

- ينال جزاءه..

- إنك منطقي تمامًا.. ولكن ما شأن ضميره؟

- وما شأنك بهذا؟

- لمجرد الإنسانية!

- إذا كان له ضمير فإنه يتألم لذنبيه، وسيكون هذا عقابه.. فضلًا عن

السجن..

فسأل رازوميهين وهو مقطب الجبين قائلاً: «ولكن ما رأيك في العبقريين الحقيقيين الذين لهم حق القتل؟ أما ينبغي لهم أن يتألموا للدم الذي سفكوه؟».

- ولم تقول أما ينبغي؟ إنه أمر لا علاقة له بالإباحة أو التحريم. وقد يتألم إذا أسف على ضحيته. فالألم والعذاب لا مفر منهما عند أهل الذكاء المفرط والقلب العميق. وأظن أن الرجال العظماء حقيقة لا مفر لهم من حزن عظيم في هذه الأرض.

وكان رسكولنكوف يقول ذلك في غير نغمة الحديث، وكأنه يحلم.. ورفع عينيه ونظر إليهم جميعاً في جد، وابتسم وتناول قبعته، وكان مظهره هادئاً يختلف كل الاختلاف عما كان عليه وقت دخوله، وكأنه كان يحس بذلك في نفسه، ونهض أصحابه جميعاً عند ذلك.

وبدا بورفيري يقول ثانية: «لك أن تشتمني، ولك أن تغضب مني إذا أردت، ولكني لا أملك إلا أن أسألك سؤالاً صغيراً آخر إذا سمحت - وإني لأعلم أنني ضايقتك - فهناك فكرة واحدة صغيرة أريد أن أعبر عنها كي لا أنساها...».

فوقف رسكولنكوف أمامه منتظراً ممتقع اللون عليه صورة الجد وقال: «سل عن فكرتك الصغيرة...».

- أنت ترى.. لست أدري في الحقيقة كيف أحسن التعبير عنها.. وفكرتي لا تزيد على مداعبة نفسية.. لا شك أنك حين كنت تكتب مقالك كنت لا تستطيع إلا أن تتخيل نفسك - ولو في لحظة - أنك أحد أولئك الرجال غير العاديين، وأنك تريد - كما قلت - أن تنطق بكلمة جديدة... أليس كذلك؟

فأجاب رسكولنكوف باحتقار: «من المحتمل جداً...».

وأتى رازوميهين بحركة ومضى بورفيري قائلاً: «إذا كان الأمر كذلك،

ألا تحمل نفسك على تخطي العقبات إذا اعترضتك المصاعب والعقبات
الدنيوية، أو إذا قصدت خدمة الإنسانية.. وذلك بأن تلجأ مثلاً إلى السرقة
أو القتل؟..».

وغمز بعينه اليسرى، وضحك في صمت كما فعل من قبل..
فأجاب رسكولنكوف في غطرسة وتحد: «لو حدثتني نفسي بشيء من
ذلك لما بحث لك به أبداً..».

- إنني أهتم لهذا فقط من الوجهة الأدبية، لاهتمامي بمقالك..
وقال رسكولنكوف في نفسه كارهاً: «لقد برح الخفاء، فما أظهر هذا
وأشده وقاحة!».

ثم أجاب في جفاء: «اسمح لي أن أصرح لك أنني لا أعد نفسي
كنابليون أو غيره من العظماء، ولما لم أكن واحداً منهم فإني لا أستطيع
إخبارك بما كنت أفعله..».

فقال بورفيري بتروفتش في تودد مزعج: «قل الحق! ألا يظن كل واحد
منا في هذه الأيام أنه ك نابليون؟!».

وكان في لهجته نغمة تدل على أنه يضمّر قصداً!
فصاح زاميتوف فجأة من ركنه: «لعل واحداً من أولئك قد حسب نفسه
نابليون المستقبل فاستباح دم إليونا إيفانوفنا في الأسبوع الماضي!».

فلم يتكلم رسكولنكوف، بل ظل ينظر في ثبات وتحديق إلى
بورفيري. وكان رازوميهين مقطب الجبين غاضباً، ويظهر أنه لاحظ قبل
ذلك شيئاً رابه، وأخذ ينظر حوله في غضب. وساد السكون لحظة، ثم

استدار رسكولنكوف للانصراف..

فقال بورفيرى في تودد: «أتصرف الآن؟». ومد يده في أدب جم قائلاً: «لقد سررت جداً من التعرف إليك. أما من جهة طلبك فلا تكن قلقاً واكتب إليّ كما أخبرتك، بل خير من ذلك أن تقابلني هناك بعد يوم أو يومين.. ومن المؤكد أنني سأكون غداً هناك في الساعة الحادية عشرة، فننظر في الأمر ونتحدث معاً». ثم قال في نعمة ودية فيها مظهر طيبة القلب: «لقد كنت من آخر من ذهبوا إلى «هناك»، ولهذا قد تستطيع أن تفضي إليّ ببعض الأمور..».

فسأل رسكولنكوف: «هل تريد استجوابي رسمياً كما يقضي النظام؟».

- لماذا؟ ليس هذا ضرورياً في الوقت الحاضر! لقد أسأت فهم ما أقصد، فإني أنتهز كل فرصة كما ترى.. وقد حادثت كل أصحاب الرهون، وحصلت من بعضهم على أدلة. ولما كنت آخر شخص.. وبهذه المناسبة.. (قال ذلك وقد بدا عليه السرور فجأة).. لقد تذكرت ما كنت أفكر فيه.. (وهنا التفت إلى رازوميهين قائلاً: إنك أدهشتني إذ سمعتك في اليوم السابق تصدع أذني بالحديث في أمر نيقولاى.. إنني واثق كل الثقة في براءته!) (ثم التفت إلى رسكولنكوف قائلاً: «ولكن ما العمل؟ لقد كان لا بد من إزعاج ديمتري أيضاً.. هناك مسألة واحدة هي كل ما أريد قوله: عندما صعدت السلم كانت الساعة قد تجاوزت السابعة، أليس كذلك؟».

- نعم..

هكذا أجاب رسكولنكوف، وأحس في الحال بالقلق لهذه الإجابة.. وأدرك أنه كان يجب عليه أن يتحاشاها، ومضى بورفيرى قائلاً:

- ثم صعدت السلم بين الساعة السابعة والثامنة، ألم تر في الطبقة الثانية شقة مفتوحة فيها عاملان، أو على الأقل واحد، وكانا يشتغلان بطلاء الغرف؟ ألم تلاحظ ذلك؟ إن المسألة في غاية الأهمية بالنسبة إليهما.. فقال رسكولنكوف: «نقاشان؟ لا، لم أر أحداً..».

ونطق بهذه الألفاظ ببطء وكأنه يبحث في زوايا ذاكرته، وكان في الوقت ذاته يشد كل عصب فيه، ويكاد يغمى عليه من القلق، يريد أن يعرف في أقرب وقت موضع الشرك الذي ينصب له، ويجتهد في ألا يفوته شيء.. ومضى قائلاً، «لا، لم أر أحداً منهما! ولا أذكر أنني رأيت شقة مفتوحة هكذا.. ولكنني أذكر أنني رأيت في الطبقة الرابعة (وقد تبين له الشرك عند ذلك وشعر بانتصار..) أذكر الآن.. أن أثاثاً كان ينقل من الشقة المقابلة لمسكن إلينا إيفانوفنا. نعم أذكر ذلك.. أذكر ذلك واضحاً. وكان بعض الحمالين يحملون أريكة، فدفعوني إلى الحائط. وأما النقاشان فلا.. لست أذكر أنني رأيت نقاشين.. بل لست أظن أن باب شقة كان مفتوحاً. لا. لم يكن شيء من هذا..».

فصاح رازوميهين فجأة وكأنه فكر وتبين له الأمر: «ماذا تعني؟ إن النقاشين كانا يعملان في اليوم الذي ارتكبت فيه الجريمة، في حين أنه ذهب هناك قبل ذلك بثلاثة أيام، فلماذا تسأل هذا السؤال؟».

فصاح بورفيري وضرب جبينه بيده: «حقاً لقد اختلط عليّ الأمر! إن هذه القضية اللعينة تفقدني صوابي!».

قال ذلك من قبيل الاعتذار عما فرط منه.. ثم خاطب رسكولنكوف قائلاً: «من المهم جداً لنا أن نعلم هل رآهما أحد في تلك الغرفة بين الساعة

السابعة والثامنة، فخيّل إليّ أنك تستطيع أن تمدنا بمعلومات.. فاختلط عليّ الأمر!».

فقال رازوميّهين في صرامة، «يجب عليك أن تكون أكثر حرصًا من ذلك».. وفاه بهذه الكلمات في المدخل بينما كان بورثيري يوصل زائرته إلى الباب في أدب جم، ثم خرجا إلى الشارع وهما صامتان متضايقان، وسارا خطوات دون أن ينطقا بكلمة. ثم تنفس رسكولنكوف نفسًا عميقًا.

(٦)

- لا أصدق ذلك! لا أستطيع تصديق ذلك!

أعاد رازومييهين هذه العبارة وهو يحاول في حيرة أن ينقض حجج رسكولنكوف..

وكانا قد اقتربا عندئذ من منزل بكالييف، حيث كانت پولكيريا ألكسندروفنا ودنيا في انتظارهما من مدة طويلة. وظل رازومييهين يقف من آن لآخر في منتصف الطريق كلما احتدم الجدل بينهما وهو حائر منفعل؛ لأن هذه أول مرة تحدثا صراحة في هذه المسألة..

فأجاب رسكولنكوف مبتسمًا بفتور وفي غير اكتراث: «لا تصدق إذا شئت، ولكنك لم تلاحظ شيئًا كعادتك.. أما أنا فقد وزنت كل كلمة!».

- إنك سريع الارتباب، وهذا هو السبب في وزنك لكلماتهم.. على أنني.. من المؤكد أنني مقر بأن لهجة بورفيرى كانت غريبة، وكانت لهجة

ذاك الوغد زاميتوف أغرب... إنك على صواب، فقد كان في مسلكهما شيء... ولكن لماذا؟ لماذا؟

- لقد عدل عن رأيه منذ ليلة أمس..

- إن الأمر على العكس، إذ لو كانا يعتقدان بتلك الفكرة المخبولة لبذلا كل الجهد في سترها وإخفاء أوراقهما لكي يكشفها عنها فيما بعد... ولكن ما ظهر اليوم يدل على الجرأة وعدم العناية..

- لو كانت لديهما وقائع - أعني وقائع حقيقية - أو على الأقل أسباب تدعو للشك، لحاولا بكل تأكيد أن يخفيا لعبتهما آملين أن يحصلوا على براهين أخرى، وكان لا بد أن يقوموا فضلاً عن ذلك بتفتيش المسكن منذ وقت بعيد.. على أنه ليس لديهما أي إثبات، لديهما مجرد سراب، وهم باطل.. كل ما لديهما فكرة غامضة.. فهما إذن يحاولان إيقاعي بجرأتهم. ولعل بورثيري قد ضاق إذ لم يجد أدلة.. ولعله قد دبر خطة في نفسه.. إذ يلوح أنه رجل ذكي.. وربما أراد إخافتي بأن يزعم أنه يعرف.. أن لكل هذا أساساً نفسياً عندهما يا صديقي، وتفسير كل هذا كرهه لديّ. فلنتركه!

- إنه لأمر مهين! مهين! إني أفهمك، ولكن... أرى أننا تحدثنا في صراحة، وإنه لحسن جداً أن فعلنا ذلك آخر الأمر، وأنا مرتاح لذلك.. فإني أعترف صراحة بأنني لاحظت منذ فترة طويلة أنهما يعتقدان في فكرة كهذه، على أنه لم يظهر منهما شيء إلا تلميحاً وإشارة.. ولكن فيم التلميح وكيف تجرأ على ذلك؟ وعلى أي أساس؟ ليتك تعلم كيف ثرت غضباً لذلك.. تصور مقدار غضبي عندما رأيتهم يظنون الظنون في طالب مسكين يكافح الفاقة والتوتر العصبي وهو قادم على مرض شديد يصاب فيه بالهذيان!

أسمعني؟.. وهو كثير الشكوك، مغرور بنفسه متكبر، ظل ستة شهور من غير أن يتحدث إليه إنسان، وهو في ثياب بالية، حذاؤه من غير نعل، ثم يجد نفسه أمام بعض رجال الشرطة الأذنياء مضطراً لاحتمال وقاحتهم، وهو يطالب بدين غير منتظر، وصك تشيياروف يوضع تحت أنفه، بين رائحة الطلاء الجديد في المكتب، ودرجة الحرارة تبلغ الثلاثين بمقياس روميرو، والجو الخانق، وازدحام الناس، والحديث عن مقتل امرأة زارها منذ وقت قريب. كل هذا ومعدته فارغة.. فهل من المستغرب أن يصاب ذلك الطالب بنوبة إغماء؟ وهما يرتبان على هذا الإغماء كل هذا! عليهما اللعنة! إني أعلم أنه أمر يبعث على الضيق، ولكني لو كنت مكانك يا روديا لضحكت منهما بل لبصقت في وجهيهما القبيحين، ولبصقت عشر مرات في جميع الاتجاهات، أو لكنت أصفع الجميع وأنفص يدي من الأمر كله! عليهما اللعنة! ولكن لا يحزنك ذلك! إنه لأمر مخجل!».

وقال رسكولنكوف لنفسه: «لقد دافع دفاعاً حسناً..».

ثم قال في مرارة: «لعنة الله عليهما! ولكنه يريد أن يعيد الاستجواب غداً؟.. فهل يجب أن أدخل في تفاصيل معهما؟ إني لا زلت مستاء من نفسي لأنني تنازلت فتحدثت إلى زاميتوف في المطعم».

- عليهما لعنة الله! سأذهب بنفسي إلى بورفيري - فإنه قريبي - وأضطره للاعتراف بتفاصيل هذه القصة.. أما زاميتوف...

وقال رسكولنكوف لنفسه: «لقد بدأ يعرف هذا الرجل!».

فصاح رازوميهين فجأة وأمسك بكشف صديقه قائلاً: «انتظر! انتظر! إنك أخطأت.. لقد فكرت في الأمر فرأيتك مخطئاً؟ ما هو الشرك الذي

تظنه نصب لك؟ إنك تصر على أن مسألة النقاش هي الشرك! فلو كنت ارتكبت ذاك الفعل حقًا، أكنت تقول إنك رأيتهما يطليان تلك الشقة، وإنك رأيت العاملين؟ بل إنك كنت تعلن أنك لم تر شيئًا.. فمنذا الذي يشهد على نفسه؟».

فأجاب رسكولنكوف في تردد واستياء ظاهر: «لو أنني مرتكب ذاك الفعل لكان من المؤكد أن أقول إنني رأيت العاملين في الشقة!».

- ولماذا كنت تقول ما يتخذ حجة عليك؟

- لأن الفلاحين والمبتدئين القليلي التجربة هم وحدهم الذين ينكرون كل شيء في التحقيق. أما الرجل الذي يكون على شيء من الخبرة والعقل فإنه يحاول أن يعترف بجميع الوقائع الظاهرة التي لا يمكن إنكارها، على أن يبحث عن تفسيرات أخرى لها، ويدخل عليها عنصرًا خاصًا غير منتظر يكسبها معنى آخر ويضعها في ضوء آخر.. والغالب أن بورفيري كان ينتظر أن أجيب هكذا وأقول إنني رأيتهما لكي أكسب أقوالي مسحة الصدق ثم أحاول تفسيرًا..

- وكان يخبرك في الحال بأن العاملين لم يكونا هناك قبل يومين، فلا بد أنك كنت هناك يوم الجريمة في الساعة الثامنة، ويوقعك في مسألة تفصيلية..

- نعم، كان معتمدًا على ألا يكون لدي وقت للتفكير فأسرع إلى الإجابة التي ينتظرها ناسيًا عدم إمكان وجود العاملين قبل يومين..

- لكن كيف كنت تنسى شيئًا كهذا؟

- لا شيء أسهل من ذلك، ففي مثل هذه التفصيلات يقع أذكى الناس..
وكلما كان دهاء الرجل كبيرًا كان أبعد عن الشك في الوقوع في الأشياء
البسيطة، وكلما كان دهاء الرجل كبيرًا وجب أن يكون الشك الذي ينصب
له بسيطًا، وليس بورفيري بالرجل الغبي كما تظن!

- إذا كانت هذه هي طريقته فهو لئيم!

فلم يتمالك رسكولنكوف أن ضحك، ولكنه في الوقت ذاته دهش
لما في صراحته من غرابة.. ولما شعر به من اهتمام وهو يلقي تفسيره..
مع أنه كان في حديثه السابق يشعر باشمئزاز.. ولكنه استمر فيه لغرض
واضح تقضي به الضرورة، فأخذ يفكر: «هل بدأت أشعر بلذة في بعض
الأشياء؟». ولكنه في اللحظة نفسها شعر بالقلق كأن خطرًا مزعجًا وغير
منتظر خطر له، وأخذ قلقه في الازدياد...

وكانا قد بلغا منزل بكالييف، فقال رسكولنكوف فجأة: «ادخل وحدك
وسأعود بعد فترة قصيرة».

- أين تذهب؟ لقد وصلنا..

- لا بد من ذهابي.. وسأعود بعد نصف ساعة، فلتخبرهما بذلك!

- قل ما شئت.. فسأتي معك!

فصرخ رسكولنكوف قائلاً: «أنت أيضًا تريد تعذبي؟».. وكان ينطق
بهذه العبارة في غضب مُر، وارتسمت في عينيه صورة اليأس، حتى أن
رازوميهين أبدى تخاذلاً عنه، ووقف فترة على الدرج الخارجي للدار ينظر
في انقباض إلى رسكولنكوف وهو يخطو خطوات سريعة في اتجاه مسكنه.

وأخيراً صرَّ على أسنانه وضم قبضته وأقسم أن يعصر بورفيرى في ذلك اليوم كالليمونة، ثم صعد السلم، إلى غرفة السيدتين ليسكن روع بولكيريا ألكسندروفنا، وكانت في قلق من طول الانتظار...

ولما وصل رسكولنكوف إلى مسكنه كان شعره يقطر عرقاً وهو ينهج، فصعد السلم مسرعاً ودخل غرفته التي لا يقفل بابها.. ثم أغلق الباب بالمزلاج، وجرى وهو نهب لخوف شديد إلى ركن الغرفة، نحو ذلك الثقب تحت ورق الحائط الذي كان قد أخفى فيه الأشياء، ومدَّ يده فيه. وظل دقائق يبحث بعناية في كل جوانبه. فلما لم يعثر على شيء تنفس تنفساً عميقاً.. والسبب الذي حمله على العودة إلى مسكنه أنه عندما وصل إلى سلم منزل بكاليف، توهم فجأة أن سلسلة أو زر قميص أو قطعة من الورق الذي لفت به الأشياء وعليها خط العجوز، قد تكون سقطت منه وظلت في إحدى زوايا الثقب حتى تظهر فجأة على غير انتظار وتكون دليلاً قاطعاً عليه..

ثم وقف وكأنه غارق في الأفكار، وعلى فمه ابتسامة غريبة باهتة عليها طابع الذلة، ثم تناول قبعته وغادر الغرفة في سكون، وكانت أفكاره مضطربة مختلطة عندما مرَّ بالباب الخارجي للبيت وكأنه في حلم..

وصاح صوت عال يقول: «هذا هو نفسه!».

فرفع رأسه..

وكان البواب واقفاً أمام غرفته الصغيرة وهو يشير إليه، ليدل عليه رجلاً قصيراً يظهر أنه من الصنّاع، ويرتدي معطفاً وصداراً ومنظره من بعيد فيه شبه كبير من المرأة.. وكان منحني الظهر قليلاً وعلى رأسه قبعة قذرة أمالها

إلى الأمام. ويبدو من وجهه المترهل ذي الغضون أنه جاوز الخمسين، وكانت عيناه صغيرتين طغى عليهما الشحم وهما تنظران في حدة وغضب وضجر..

فدنا رسكولنكوف من البواب وسأله: «ما الخبر؟».

فاسترق الرجل النظر إليه من تحت أهدايه وكان يتأمله في عناية، ثم استدار في بطء وغادر المدخل إلى الشارع دون أن ينطق بكلمة..

فصاح رسكولنكوف سائلاً: «ما الخبر؟».

- كان هذا الرجل يسأل عن منزل طالب وذكر اسمك، وسأل مع من تسكن.. فلما رأيته أتيتك أشرت إليك ولكنه انصرف، هذا عجيب!

وكان ظل من الدهشة يبدو كذلك على البواب، وبعد أن بقي في دهشته لحظة استدار وقصد إلى غرفته..

أما رسكولنكوف فجرى خلف الرجل الغريب، ولمحه يسير على الجانب الآخر من الشارع بخطواته المنتظمة الممتدة، وكانت عيناه مثبتتين في الأرض كأنه منصرف إلى أفكاره.. وما لبث أن أدركه فسار خلفه حيناً، ثم جد في السير حتى صار إلى جانبه، فالتفت الرجل إليه وعرفه سريعاً، ونظر إليه نظرة خاطفة ثم عاد إلى إطراره.. وسار الاثنان لحظة جنباً إلى جنب من غير أن ينطقا بكلمة..

وقال رسكولنكوف آخر الأمر في صوت غريب في هدوئه: «أما كنت تسأل البواب عني؟».

فلم يجبه الرجل، بل لم ينظر إليه.. وساد السكون بينهما مرة ثانية!

فمضى رسكولنكوف قائلاً: «أتأتي وتسأل عني ثم لا تقول شيئاً؟ ما معنى ذلك؟».

ثم انقطع صوت رسكولنكوف، وكأنه كان يجد صعوبة في إخراج الكلمات واضحة.. ورفع الرجل عينيه هذه المرة، ورمى رسكولنكوف بنظرة شر وتهديد.. وقال فجأة في صوت هادئ ولكنه واضح وقاطع: «أيها القاتل!».

واستمر رسكولنكوف يسير إلى جانبه، وشعر فجأة بضعف في رجله وقشعريرة في عموده الفقري، ووقف قلبه لحظة ثم دق دقاً عنيفاً كأنه انطلق من مكانه.. ومضى الرجلان في سيرهما جنباً إلى جنب نحو مائة خطوة وهما صامتان، ويبدو أن الرجل لم يلتفت إليه..

وغمغم رسكولنكوف بصوت لا يكاد يسمع: «ماذا تعني؟... ما هو.. من هو القاتل؟».

- أنت قاتل!

أجاب الرجل بهذا في صوت أكثر وضوحاً وتوكيداً، وفي ابتسامة العدو الظافر، ووجه نظره إلى رسكولنكوف الشاحب وإلى عينيه المذعورتين..

وكانا قد وصلا إلى مفترق الطريق، فانثنى الرجل إلى شماله دون أن ينظر خلفه. وظل رسكولنكوف واقفاً يراقبه، فرآه بعد خمسين خطوة يلتفت فيراه لا يزال واقفاً في مكانه. ولم يكن رسكولنكوف ليستطيع أن يراه بوضوح من هذا البعد، ولكن خيل إليه أن الرجل ابتسم مرة ثانية ابتسامة البغض والانتصار..

وسار رسكولنكوف يجر رجليه في خطوات بطيئة، وكانت ركبتاه ترتعشان وهو يشعر ببرودة في بدنه، وعاد إلى غرفته وخلع قبعته ووضعها على المنضدة، وظل واقفاً عشر دقائق لا يبدي حراكاً.. ثم أنهكه التعب، فتهالك على المقعد وتمدد عليه وهو يئن أنة ألم ضعيفة، وظل راقداً نصف ساعة..

لم يفكر في شيء، وكانت بعض الأفكار - أو شتات من أفكار، أو بعض صور لا نظام لها ولا معنى - تمر سابحة في خاطره وفيها وجوه أناس قابلهم في طفولته، أو لقيهم ذات مرة في مكان ما ولم يكن من المحتمل أن يتذكرهم... برج الجرس في كنيسة ف... ومنضدة البلياردو في مطعم وإلى جانبها ضباط يلعبون.. ورائحة السيجار في حانوت سجائر تحت الأرض.. وغرفة في حانة.. وسلم خلفي شديد الظلمة.. تنزل في القدم من المياه القذرة، وعلى درجه بقايا قشر بيض.. وأصوات أجراس يوم الأحد تسبح إلى سمعه من حيث لا يدري.. وكانت الصور تتابع سريعة وتتلاطم كأنها في إعصار بحري.. وكان يأنس إلى بعض هذه الصور فيحاول أن يستوقفها، ولكنها كانت تفر من مخيلته سريعة.. وكان يشعر بشيء من الضيق، ولكنه لم يكن ضيقاً شديد الوطأة، بل قد كان أحياناً يرتاح إليه.. وكان لا يزال يشعر برجفة ضئيلة، ولكنه أحسّ كذلك كأنه يرتاح إليها..

ثم سمع خطوات رازوميهين السريعة، فأغمض عينيه وتظاهر بالنوم، ففتح رازوميهين الباب، وظل واقفاً بعض الوقت على عتبة متردداً، ثم خطا إلى غرفته في هدوء، وذهب إلى المقعد.. وسمع رسكولنكوف همس نستاسيا وهي تقول: «لا تمسه.. دعه ينام، وسيأكل فيما بعد!».

فأجاب رازوميهين: «إنك على صواب!..» وخرج الاثنان في حذر وأغلقا الباب. وممرت نصف ساعة أخرى، وفتح رسكولنكوف عينيه، وكان راقداً على ظهره يشبك يديه تحت رأسه..

«من يكون ذاك الرجل؟ ذاك الإنسان الذي خرج من باطن الأرض؟ أين كان وماذا رأى؟ إنه شاهد كل شيء، وهذا واضح! أين كان وقتئذ، ومن أين رأى؟ ولماذا لم يظهر إلا الآن كأنه خرج من باطن الأرض؟ وكيف رأى؟ أهذا ممكن؟».

واستمر رسكولنكوف يفكر وهو يرتجف من البرد.. «ثم صندوق الحلية التي وجدها نيكولاي خلف الباب؟ هل هذا ممكن؟ وهل هو دليل؟ أتسهو في أمر ضئيل كهذا فإذا به يعتبر دليلاً بارزاً كالأهرام؟.. أقدر ما ذبابة ورأت هذا الأمر عابرة؟ هل هذا ممكن؟».

وشعر بأن قواه تخور، وما كان أضعف جسمه.. وأحس فجأة بكراهية شديدة لهذا الضعف، وابتسم ابتسامة مرة وهو يقول في نفسه: «كان يجب أن أعرف ذلك من نفسي! كيف اجتترت وأنا أعرف نفسي وأعرف ما سوف أكون عليه؟ كيف اجتترت على أن أتناول البلطة وأسفك الدم؟ كان يجب أن أقدر ما سيحدث... بل الواقع أنني كنت أعلم!». وهمس بهذه العبارات في يأس، وكان أحياناً يقف عند بعض أفكاره..

«لا. إن العظماء لم يصنعوا هكذا.. فالرجل الذي خلق للسيادة وله الحق في كل شيء، قد يطلق مدافعه على طولون، ويحدث مذبحة في باريس، وينسى جيشاً في مصر، ويضحى بنصف مليون رجل بلا فائدة في حملة على موسكو، ويفرغ من أمر فيلنا بفكاهة يقولها، ثم تقام له النصب

بعد موته؛ فلهؤلاء يباح كل شيء.. لم يكن هؤلاء رجالاً من لحم، بل هم من البرونز!».

ثم عنت له فجأة فكرة أخرى كادت تبعثه على الضحك.. «نابليون! الأهرام! ووترلو! وإلى جانب هذا عجوز نحيلة ومرايية دنيئة ذات صندوق أحمر تحت سريرها! هل يستطيع بورفيري بتروفتش أن يهضم هذا؟ إنه لا يستطيع هضمه! فإن الفن نفسه يأبى هذا المزج! هل يتسلل رجل مثل نابليون تحت فراش عجوز؟ ما أقدر هذا!».

وكان يشعر من وقت لآخر أنه يهذي، وكان تحت وطأة الحمى وهياجها، وكان يقول في حرارته وخلطه: «ما قيمة تلك العجوز؟ قد يكون قتل العجوز خطأ، ولكن ليس للأمر أهمية.. إن مسألة العجوز كانت مرضاً.. كنت متعجلاً فأخطأت، فإني لم أقتل إنساناً وإنما قتلت مبدأ! قتلت المبدأ، ولكني لم أخطئ الحاجز بل وقفت عنده... فلم أقدر إلا على القتل! بل إني لم أكد أقدر على ذلك.. المبدأ؟ ماذا يعيب رازوميهين الغبي على الاشتراكيين؟ إنهم قوم نشيطون وتجار عاملون غرضهم «سعادة الجميع».. إلا أن الحياة لا توهب لي إلا مرة واحدة ولن تعود إلي مرة ثانية، فلست أستطيع الانتظار حتى تتحقق السعادة للجميع، أريد أن أعيش لنفسي وإلا فخير لي ألا أعيش! إني لا أستطيع أن أرى أُمي وهي تموت جوعاً وأنا محتفظ بقطعة نقود في جيبي، ثم أتركها وأسير عنها! انتظاراً للوقت الذي تتحقق فيه السعادة للجميع! إني إنما أضع حجري في بناء السعادة للجميع، وبهذا يهدأ قلبي! ها! ها! لماذا تركتني أخطئ؟ إني أعيش مرة واحدة، وأنا أيضاً أريد! إني لا أزيد على قملة فتية، ولا شيء أكثر من ذلك!».

وانطلق ضاحكًا كالمجنون وهو يكرر: «نعم، إني قملة ولا ريب!» وقد أعجبتَه الفكرة فاستمسك بها وجعل يرددها في لذة خافتة.. «ما أنا إلا كذلك، لأسباب أولها أنني أستطيع أن أثبت على نفسي هذه الصفة، وثانيًا لأنني ظللت شهرًا أزعج العناية الإلهية، فأشهدها على أنني لم أقم بهذا العمل لأغراض دنيوية، بل لغرض نبيل وعظيم! ها! ها! وثالثًا لأنني أردت أن أكون في هذا العمل عاديًا بقدر الإمكان، فأخذت أزنه وأقيسه وأحسب حسابه. وقد اخترت لفعلتي قملة من أقلها نفعًا، ورأيت ألا آخذ منها إلا بقدر ما أحتاج إليه في الخطوة الأولى لا أكثر ولا أقل.. أما ما يتبقى لها بعد ذلك فإنه يؤول إلى الدبر حسب وصيتها.. ها! ها!...».

ثم قال وهو يصر على أسنانه: «ومما يبرهن على أنني قملة أيضًا أنني ربما كنت أحقر وأشنع من القملة التي قتلتها، بل لقد شعرت من قبل أنني سأعود إلى نفسي بعد قتلها لائمًا وأحدثها بهذا القول. وهل هنالك ما هو أظنع وأدنا وأحقر من هذا؟ قد أتصور نبيًا يمتطي جوادًا وفي يده السيف يقول إن الله يأمره بذلك ويجب على الناس أن يطيعوه، فالنبي لا يخطئ، وهو على حق حين ينصب المدافع في الشوارع ويحصد الأبرياء والمجرمين جميعًا دون أن يبين للناس تأويل فعله، فهو يقول للخلق: «عليكم أن تطيعوا وليس لكم أن تختاروا أو تبدوا رغبة، فليس ذلك من شأنكم»... لن أعفو عن هذه العجوز!».

وكان شعره عندئذ يقطر عرقًا، وشفته الجافتان ترتجفان، وكانت عيناه مثبتتين في سقف الغرفة.. «والدتي وأختي! لقد كنت أحبهما حبًا شديدًا، فلماذا أبغضهما الآن؟ نعم، إني أكرههما الآن وأشعر نحوهما

بالكراهية في كل جوارحي، ولا أتحمل قربهما. إني أذكر كيف ذهبت إلى أمي وقبلتها! كنت أعانقها وأنا أقول في نفسي: ماذا يكون لو عرفت؟ ألا أخبرها؟ ولقد كدت أفعل! ولست أشك في أنها مثلي.. قال ذلك وهو يناضل كي لا يغيب عن وعيه..

«ما أبغض العجوز إلى نفسي الآن! أعتقد أنها لو عادت للحياة الآن لقتلتها مرة ثانية! مسكينة ليزافتا! لماذا جاءت إلى هناك؟ من الغريب أنها لا تكاد تخطر بفكري، كأني لم أقتلها... ليزافتا! سونيا! هذه المخلوقات الوديدة ذات الأعين الصافية! هذه النسوة المحببة! لماذا لا ييكن؟ لماذا لا يتأوهن؟ إنهن يستسلمن ويهبن كل شيء! ما أحلى عيونهن وأودعها! سونيا! سونيا! ما أرقك يا سونيا!».

ثم غاب عن الصواب.. وكان من الغريب لديه أنه لم يعرف كيف وصل إلى الشارع. وقد حل المساء وغابت الشمس وانقطع ضوءها، وأخذ ضوء البدر يزداد إشراقاً، غير أن الجو كان خانقاً والشارع غاصاً بالناس، إذ أخذ العمال ورجال الأعمال يعودون إلى مساكنهم. وهرع غيرهم إلى النزهة، وكان الجو تنبعث منه رائحة الجبر والغبار والماء الراكد. وسار رسكولنكوف حزيناً قلقاً يعرف تمامًا أنه غادر مسكنه لغرض ما، وأن لديه عملاً يجب تأديته عاجلاً، ولكنه نسي ما هو. ثم وقف فجأة، إذ لاحظ رجلاً على الرصيف الآخر يشير إليه، فعبر الطريق، غير أن الرجل استدار في الحال وسار في طريقه مطرقاً برأسه غير متلفت حوله كأنه لم يشر إليه، فسأل رسكولنكوف نفسه: «هل أخطأت؟...».

وحاول مع ذلك أن يدركه، ولما صار على عشر خطوات منه عرفه،

وشعر بالخوف، فقد كان الرجل ذا الكتفين المنحنيين والسترة الطويلة.. وظل رسكولنكوف يتبعه وقلبه يدق، وانعطفوا إلى شارع آخر، ولكن الرجل لم يلتفت إليه، فتساءل رسكولنكوف في نفسه: «هل يعلم أنني في أثره؟».

ودخل الرجل باب دار كبيرة فأسرع رسكولنكوف ليرى هل يلتفت ويشير إليه. ولما وصل الرجل إلى فناء الدار التفت إليه، وكأنه أشار إليه، فتبعه رسكولنكوف في الحال إلى الفناء، ولكن الرجل اختفى، ولا بد أنه صعد السلم الأول فأسرع رسكولنكوف في أثره، فسمع صوت خطوات بطيئة منتظمة فوقه بطبقتين. ومن الغريب أنه خيل إليه أنه يعرف السلم، ووصل إلى نافذة في الطبقة الأولى. وكان ضوء القمر ينفذ من زجاجها حزيناً غامضاً، ثم بلغ الطبقة الثانية.. يا للعجب! إن هذه هي الغرفة التي كان النقاشان يعملان فيها..

كيف غابت عنه معرفة الدار من بادئ الأمر؟ وانقطع وقع أقدام الرجل عندئذ..! «لا بد أنه وقف، أو اختفى في مكان وبلغ الطبقة الثالثة فهل يصعد؟ وما هذا السكون المخيف؟.. على أنه استمر في صعوده وهو فزع من صدى صوت أقدامه، ما أشد هذا الظلام! لا بد أن الرجل مختفٍ في أحد الأركان! إن باب الشقة مفتوح على اتساعه! وتردد رسكولنكوف، ثم دخل، وكان طريقه مظلمًا جدًا.. كان كل شيء قد نقل إلى مكان آخر، ومشى على أطراف قدميه إلى غرفة الجلوس والقمر فيها ساطع، وكل ما فيها باق كما كان من قبل، فالكراسي والمرآة والمقعد الأصفر والصور في أماكنها الأصلية، والقمر الضخم المستدير كأنه من النحاس يطل من النافذة..

وفكر رسكولنكوف: «إنه القمر الذي يسبغ هذا الهدوء وينسج سراً غامضاً...».

ووقف ينتظره مدة، وكلما زاد سكون القمر ازدادت دقات قلبه عنفاً، حتى صارت تؤلمه، ولا زال السكون مخيماً.. ثم سمع فجأة صوتاً عنيفاً، كتخطيط قطعة خشب.. ثم عاد السكون؛ وطارت ذبابة فجأة وارتطمت بزجاج النافذة، وكان لها طنين.. والتفت في تلك اللحظة إلى شيء معلق على الحائط، بين الدولاب الصغير والنافذة، كأنه معطف امرأة، فتساءل: «لماذا وضع هذا المعطف هنا؟ إنه لم يكن هناك من قبل..» واقترب في هدوء، وشعر بأن شخصاً يختفي خلفه فأزاحه في حذر، ورأى العجوز جالسة على الكرسي في الركن وقد انحنت على نفسها، فلم يتمكن من رؤية وجهها، ولكنها كانت هي بلا ريب.. فوقف متصباً أمامها وقال في نفسه: «إنها خائفة!».

ثم أخرج البلطة من مربطها خفية، وضربها ضربة ثم أخرى على جمجمتها، ولكن الغريب أنها لم تتحرك كأنها كانت من خشب.. فخاف وانحنى مقترباً منها ليراها، فإذا هي تمعن في إحناء رأسها.. فانحنى إلى الأرض وتطلع إلى وجهها من أسفل، فإذا جسمه يتجمد فزعاً، فإن العجوز كانت تضحك وترتجف ضحكاً من غير صوت، وهي تبذل جهدها كي لا يسمعها! وخيل إليه فجأة أن باب غرفة النوم فتح قليلاً، وسمع منه ضحكاً وهمساً، فتملكه الغيظ وأخذ يضرب العجوز على رأسها بكل قوة، وكان مع كل ضربة من البلطة يزداد في سمعه الهمس والضحك من غرفة النوم، ويزداد ارتجاف العجوز من الضحك.. وأراد الفرار، فإذا الطريق ممتلئ

بالناس، وأبواب الشقق مفتوحة، والناس في كل مكان، على صحن الدرج، وعلى السلم.. فكان لا يرى غير رؤوس تطل وهي متجمعة ساكنة في الانتظار.. وانقبض قلبه، وتسمرت قدماه لا تريدان التحرك.. وحاول أن يصرخ، ثم استيقظ.

وتنفس رسكولنكوف تنفساً عميقاً، ولكن يظهر أن الحلم كان مصرّاً على أن يستمر! فقد كان باب غرفته مفتوحاً، وعلى عتبة رجل لم يره من قبل، يراقبه مراقبة دقيقة..

لم يكد رسكولنكوف يفتح عينيه حتى أغمضهما ثانية، وهو راقد على ظهره لا يتحرك..

ثم قال لنفسه: «ألا أزال أحلم؟».. ورفع جفنيه قليلاً لينظر إلى ذلك الأجنبي الذي وقف في مكانه يراقبه..

ودخل الأجنبي الغرفة في حذر، وأغلق الباب خلفه في عناية، ودنا من المنضدة، وجلس في هدوء على الكرسي بجوار المقعد، ووضع قبعته على الأرض، وأسند يديه إلى طرف عصاه ووضع ذقنه عليهما. ومن الواضح أنه كان على استعداد لأن ينتظر مهما طال الزمن. وكان رسكولنكوف يسترق النظر إليه. وكل ما استطاع أن يتبينه أنه لم يكن شاباً، وأنه ضخّم ذو لحية كثة شقراء، حتى لتكاد تكون بيضاء.

ومضت عشر دقائق. وكان نور النهار يتضاءل نحو الغسق. وقد خيم السكون على الغرفة، وانقطعت الأصوات من السلم. ولم يسمع غير طنين ذبابة كبيرة اصطدمت بزجاج النافذة. ولم يعد رسكولنكوف يتحمل هذا، فاستوى فجأة جالساً على المقعد وقال: «قل لي.. ماذا تريد؟»..

فأجاب الأجنبي وهو يضحك: «لقد علمت أنك لم تكن نائمًا، بل
تتظاهر بالنوم! فاسمح لي أن أعرفك بنفسي.. فأنا أركادي إيثانوفتش
سيفدريجايلوف».
